دراسات فى تاريخ العصور الوسطى

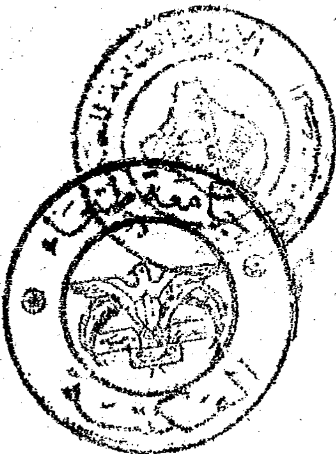
مدخل
إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط

الدكتور على الغمراوى

دكتوراه الفلسفة من جامعة ميونيخ

أستاذ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب — جامعة عين شمس



الطبعة الثانية

(معدلة)

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة سعيد رأفت

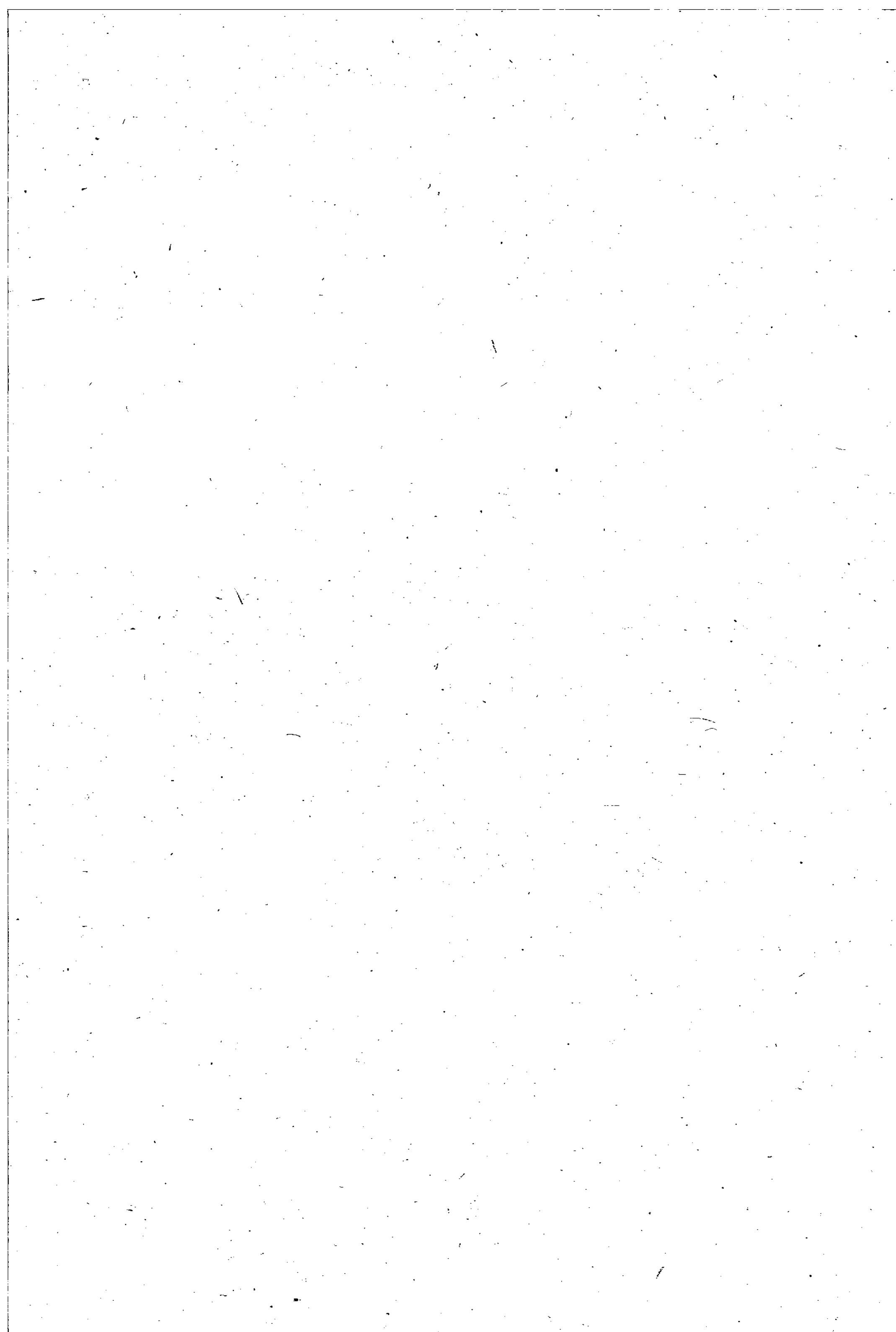
جامعة عين شمس

القاهرة



الإهداء

... إلى أستاذ الجيل والعلامة الكبير الدكتور محمد سليم سالم ...
عرفاناً منا بعلمه وفضله فى إحياء الدراسات اليونانية واللاتينية
فى الجامعات المصرية ...



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانيـة

نفتتح بعون الله تعالى الطبعة الثانية من كتاب المدخل إلى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط بمقدمة نستدرك فيها ما فاتنا ذكره فى الطبعة الأولى من تنويه إلى جهودنا المتواضعة لاطلاع القارىء الكريم على ما أبديناه من آراء فى دراسة العصور الوسطى ، وما أوليناه من إهتمام ببعض الموضوعات التى عرضناها بوجهات نظر تجعل منها منطلقاً لمناقشات يقدم الدارسون من خلالها بحوثاً أعمق وأشمل مما وصلنا إليه ، ونكون بذلك قد فتحنا الباب لوجهات نظر جديدة .

وجدير بالذكر أن الكتاب صدر فى طبعته الأولى بعنوان « دراسات فى تاريخ العصور الوسطى » وهو في واقعه مدخل إلى الدراسة. ورأينا أن يصدر

فى طبعته الثانية بهذا العنوان ، على أن يكون عنوان الدراسات فى تاريخ العصور الوسطى عنوانا عاما يتدرج تحته عدد من البحوث والموضوعات التى نرجو أن تسمح لنا الظروف بإصدارها فى المستقبل بإذن الله . ولا شك أن عنوان المدخل يتفق تماماً مع الموضوعات التى طرحناها للمناقشة فى هذا الكتاب ، وهى إتجاهات الدراسة فى تاريخ العصور الوسطى ، وأزمة القرن الثالث ، وسقوط الامبراطورية الرومانية ، وبداية العصور الوسطى . فهذه الموضوعات تواجه كل من يتصـــدى لدراسة التاريخ الوسيط ، وهى فى نفس الوقت تثير عدداً من المسائل والقضايا التى يتوقف على بحثها والحكم فيها جانب كبير من المعرفة الصحيحة ، الأمر الذى يجعل منها مدخلا ضرورياً لدراسة العصور الوسطى .

والحقيقة أن هذه الموضوعات التى عرضناها فى هذا الكتاب شغلت بال العلماء منذ زمن بعيد ، وإنتهى فيها البحث إلى وجهات نظر كثيرة أضافت إلى الدراسات التاريخية تراثاً علمياً جديراً بأن نعتمد عليه فى كل بحث جديد . ومع ذلك ـ وهذا أمر طبيعى ـ ظلت هذه الموضوعات محل دراسة ومراجعة حتى اليوم ، نظراً إلى التطور الذى تخضع له على الدوام مناهج البحث التاريخى ، والآراء الجديدة التى تطلع بها المدارس التاريخية يوماً بعد يوم . ووجدنا لزاما علينا أن ندلى هنا وهناك برأينا فى هذه الموضوعات الهامة ، وهو رأى لا يعدو أن يكون إجتهاداً نرجو أن يكون على صواب .

ونظراً إلى الأهمية الخاصة التى يتضمنها الموضوع الأول وهو إتجاهات الدراسة فى تاريخ العصور الوسطى ، رأينا أن نعيد صياغته فى الطبعة الثانية ، لأنه جاء فى الطبعة الأولى فى صورة نعتقد أنها فى حاجة إلى مراجعة . ولذلك أوردنا فى هذا

غير الإيجاز الشديد، أن تجنب

القارىء بعض الصعوبات التى قد يصادفها من ناحية ، وتعطى من ناحية أخرى تفسيراً للحالة التى كانت عليها أوربا فى مختلف العصور الوسطى ، لكى يتبين القارىء أبعاد الآراء التى ذهب إليها علماء عصر النهضة وفلاسفة التنوير والشعراء الرومانطيقيون، ويتبين أهمية النقاط التى وضعتها المدارس التاريخية قيد البحث والدراسة . ولما كان من العسير أن نقف على حقيقة الأوضاع فى أوربا فى العصور الوسطى بدون النظر إلى دور الكنيسة فى مجال الفكر ، ذلك الدور الذى أدى إلى ظهور النظريات السياسية التى اعتنقتها الكنيسة الغربية ، والذى صب فى النهاية فى مواقفها تجاه الدولة ، رأينا أن نعرض الأسس التى بنت عليها الكنيسة جهودها فى هـــذا المجال ، وهى بطبيعة الحال أسس دينية تمثلت فى الكتاب المقدس وآراء الفقهاء المسيحيين التى أنبتت بدورها على أسس فلسفية . فبدأنا هذا الموضوع بموجز لتطور الفكر الدينى ألقينا فيه الضوء على الفيلسوف الرومانى بويس (١) بوصفه واحداً من مشاهير آباء الكنيسة العربية ، ورجعنا فى هذا الموجز إلى كتاب هانز فون كامبنهاوزن عن آباء الكنيسة اليونان ، الطبعة الرابعة ، شتوتجارت ١٩٦٧ (٢)، وكتابه عن آباء الكنيسة اللاتين ، الطبعة الثانية ، شتوتجارت ١٩٦٠ (٣) ، وقاموس الكتاب المقدس الصادر من مجمع الكنائس فى الشرق الأدنى ، بيروت ١٩٧١ ، بالإضافة إلى الكتب الأخرى التى ذكرناها فى مقدمة الطبعة الأولى . وعرضنا فى هذا الموضوع كذلك وجهة نظرنا فى موقف الفكر الأوربى المعاصر من الفكر الكلاسيكى وفكر العصور الوسطى ، وقضية تصحيح التاريخ على أسس من الموضوعية وقواعد البحث العلمى، وضرورة الرد على المستشرقين الذين سللوا فى مؤلفاتهم كثيراً من الآراء الخاطئة

---

(1) Anicius Manlius Severinus Boethius (c. 480—524).

(2) Campenhausen (Hans von), Griechische Kirchenvaeter. 4. Auflage. Stuttgart 1967.

(3) Id., Lateinische Kirchenvaeter. 2. Auflage. Stuttgart 19 0.

عن شعوب العالم ، وأبرزوا دور أوربا فى مجال العلم والحضارة ، كما عرضنا اتجاهات المدارس التاريخية فى ألمانيا وانجلترا وفرنسا وبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية فى دراسة التاريخ الوسيط .

والموضوع الثانى عن أزمة القرن الثالث هو من غير شك موضوع ضرورى لفهم الظروف التى تفاقمت فى القرن الرابع ، وأدت إلى انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية فى القرن الخامس . ففى القرن الثالث أخذ الفرس والجرمان يواصلون هجماتهم على الأمبراطورية على نطاق واسع ، الأمر الذى أدى إلى اضطراب الأمور وقيام الأحكام الاستثنائية لدرء الخطر وإنقاذ الأمبراطورية من الضياع ، وإن كانت هذه الأحكام قد ساهمت بدورها فى تدهور الحالة ، فقد لجأ الأباطرة إلى اتخاذ تدبيرات مشددة لمواجهة الموقف كانت فى حد ذاتها سببا فى بدور الرفض والاستياء ، كما اتخذت سياستهم تجاه الكنيسة سمة العنف ، وجرت هذه السياسة كثيراً من القلاقل فى مختلف أنحاء الأمبراطورية ولا سيما فى مصر ، ولذلك رأينا أن نعرض أحداث القرن الثالث بشىء من التفصيل ، لكى يقف القارىء على الأوضاع التى ساقت الأمبراطورية الرومانية إلى دائرة المشاكل الخطيرة ، وهى مشاكل حاول بعض الأباطرة فى هذا القرن أن يتغلبوا عليها دون جدوى ، لأن هذه المشاكل كانت فى الواقع أقوى بكثير من القدرة على مواجهتها ، ولأنها استشرت فى كل أنحاء الأمبراطورية على نحو لم تشهده الأمبراطورية فى القرون السابقة ، ولم يكن الأباطرة — فيما عدا القلة القليلة — على مستوى هذه المسئولية الجسيمة . وكان فى ذلك أول نذير لضعف الأمبراطورية . وبكل هذه الظروف كان القرن الثالث نقطة تحول هامة فى التاريخ الرومانى . ومنطلقاً خطيراً لتاريخ العصور الأمبراطورية الأخيرة التى بدأ منها الغرب عصوره الوسطى .

ولا بد أن دراسة الأوضاع في القرن الثالث تقودنا بالضرورة إلى الكلام عن

سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب . ولذلك جعلنا سقوط الأمبراطورية حديث الموضوع الثالث الذى عرضنا فيه وجهات نظر المؤرخين ومختلف التفسيرات لهذا الحدث الذى يعتبره العلماء الأوربيون أكبر حدث فى التاريخ . وقد فندنا هذا الاعتبار الذى تأسس على إيديولوجية الكنيسة من ناحية ، وتأسس من ناحية أخرى على الإيديولوجية العلميـة التى نظرت إلى التاريخ الأوربى على أنه مركز الديناميكية للأحداث التاريخية العالمية ، وهى إيديولوجية نبعت بطبيعة الحال من نظرة الإنسانيين فى عصر النهضة إلى التاريخ القديم على أنه التاريخ الأوربى فحسب . ولم يكن فى مقدورنا أن نعرض كل الآراء التى قيلت فى سقوط الإمبراطورية الرومانية ، لأنها آراء كثيرة بل ولا حصر لها ، ولأن بعض هذه الآراء لا يمكن التحقق منها تاريخيا نظراً إلى غرابتها وافتقادها الدليل . ومن الطبيعى أن تكون هناك عدة أســباب تضافرت لسقوط هذه الإمبراطورية كما يحدث لكل دولة كتب عليها مثل هذا المصير ، ومع ذلك درج المؤرخون ـ كل حسب رأيه ـ على الإهتمام بسبب واحد من الأسباب . ولا يعنى هذا أن نتقيد بهذا السبب أو ذاك ، وأن نؤيد سبباً دون سبب آخر ، ولذلك سقنا آراء المعاصرين ، وأهم الآراء التى ذهب إليها المؤرخون المحدثون ، لعلها تجيب مجتمعة على أسباب هذا الحدث .

أما الموضوع الرابع عن بداية العصور الوسطى فهو موضوع على جانب كبير من الأهمية ، لأنه يمثل فى الحقيقة قضية من قضايا الدراسات التاريخية ، شـأنها فى ذلك شأن القضية الخاصة بنهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضـة والعصر الحديث . ولا شك أن سيلاريوس (٤) الذى قسم فى القرن السابع عشر عصور التاريخ الإنسانى إلى عصور قديمة وعصور وسطى وعصور حديثة هو المسئول

(4) Chr. Cellarius (1634—1707).

الأول عن إثارة مثل هذه القضايا ، فمنذ أن جدد سيلاريوس هذا التقسيم الثلاثى دار البحث عن بدايه ونهاية لهذه العصور ، لكى يسهل إسترداد أحداثها فى حدودها الزمنية الصحيحة ، وهو أمر لا بد أن يختلف عليه المؤرخون نظراً إلى النسبية فى وضع حدود صحيحة ، لأن عصور التاريخ لا يمكن أن نحدد بدايتها ونهايتها بسنوات معينة وأحداث معينة ، كما أن هذه السنوات والأحداث لا بد أن تختلف أهميتها من مؤرخ لآخر . ومن هنا كان الاختلاف فى تحديد بداية العصور الوسطى ، ومن هنا كانت السنوات والأحداث الكثيرة التى طرحها المؤرخون بين سنة ٣١٢ وسنة ٨٠٠ ، أى على مدى فترة تقرب من خمسة قرون ، تعتبر فى رأى بعض المؤرخين فترة إنتقال بين العصور القديمة والعصور الوسطى ، لأن الوحدة الحضارية التى تربط بين عصور هذه الفترة تجعل منها عصوراً قائمة بذاتها ، وظاهرة خاصة بين ظواهر التاريخ . ولذلك أوردنا مناقشة لهذه القضية ، وبينا أنها ليست قضية شكلية يجب الكلام عنها قبل البدء فى موضوع التاريخ الوسيط ، وإنما هى قضية موضوعية بالدرجة الأولى . ومن ثم فإن الكلام عنها لا يستقيم بدون الرجوع إلى أحداث التاريخ ، لأنها قضية يحسمها الشعور بالفترة التى بدأت فيها أوربا عصورها الوسطى من واقع الدراسة للظواهر التاريخية المختلفة والتغيرات الشاملة التى تشير بذاتها إلى البداية .

وعرضنا فى هذا الموضوع مختلف الآراء التى ثارت حول كتاب « محمد وشارلمان » الذى ألفه فى الثلاثينيات من القرن العشرين مؤرخ الاقتصاد البلجيكى هنرى بيرين ، وتناول فيه دور المسلمين فى تجارة البحر المتوسط ، وأثر هذا الدور على الحالة الاقتصادية فى أوربا ، وبصفة خاصة فى مملكة الفرنجة ، وقد حفل هذا الكتاب بمغالطات فادحة جانبت حقيقة الدور العظيم الذى أفاد به المسلمون مجال التجارة الدولية ، ويتعلق هذا الموضوع بالحديث عن بداية العصور الوسطى ،

وقد أشرنا إلى أهميته فى مقدمة الطبعة الأولى . وعرضنا كذلك أحوال فرنكيا فى مختلف العصور ، منذ أن كانت جزءاً من بلاد الغال خاضعا للحكم الرومانى حتى أصبحت مملكة جرمانية يحكمها الفرنجة الميروفيون والكارولنجيون . كما عرضنا موقع فرنكيا من العالم البيزنطى والعالم الإسلامى ، لأن فرنكيا كانت تمثل مركز ثقل فى مراحل التطور الذى دفع الأحداث إلى الحركة ، والذى قاد الغرب إلى العصور الوسطى .

وقد انتهزنا فرصة دراستنا فى الستينيات فى مكتبة اللجنة المختصة بنشر القاموس المعروف بكنز اللغة اللاتينية ، وهى لجنة التراث الكلاسيكى التابعة لأكاديمية العلوم البافارية فى ميونيخ ، وانتهزنا كذلك فرصة عملنا فى تحقيق مجموعة ألمانيا التاريخية (٥) وهو العمل الذى طلبت منا لجنة العصور الوسطى التابعة للأكاديمية أن نقوم به قبل إدراج المجموعة فى قاموس التراث الوسيط ، فاطلعنا على أعمال اللجنتين ، واستطعنا من خلال ذلك أن نذهب إلى القول بأن العصور الوسطى بدأت فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع ، وسقنا هذا القول ، مدعما بشواهد المؤلفات الكلاسيكية والوسيطة ، كدليل يضاف إلى الدلائل الأخرى التى طرحناها فى هذا الموضوع . ومن الجدير بالذكر أن كتب الأدب اللاتينى فى العصور الوسطى تبدأ فى عرض التراث الوسيط من القرن السادس ، فى حين أن الكتب التى تتناول تاريخ العصور الوسطى تبدأ كما هو معروف من القرن الثالث ، بل وقبل ذلك بقليل . ولكن هذا لا يعنى أكثر من أن تاريخ الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الثالث يعتبر مقدمة طبيعية لتاريخ العصور الوسطى ، لأن العصور الوسطى الباكرة لا يمكن دراستها كما ذكرنا إلا بعد دراسة أوضاع الأمبراطورية منذ القرن الثالث .

---

(5) Monumenta Germaniae Historica 500 — 1500. ed. G. H. pertz, Th. Mommsen et alii. Berlin ١٨٢٦

وأخيراً نود أن ننوه إلى أننا كتبنا فى الطبعة الثانية نبذا عن العلماء والمفكرين القدامى والمحدثين الذين ورد ذكرهم فى هذا الكتاب ، وكذلك بعض الأحداث والموضوعات التاريخية والفلسفية التى رأينا أن نعرضها بإيجاز ، ورجعنا فى ذلك إلى جوستاف جروبر ، دراسة فى الأدب اللاتينى منذ منتصف القرن السادس حتى منتصف القرن الرابع عشر (الفيلولوجيا الرومانسية ، الجزء الأول من المجلد الثانى ، شتراسبورج ١٩٠٢) [٦] ، ودائرة المعارف البريطانية ، الصادرة فى شيكاغو ولندن وتورنتو ، طبعة سنة ١٩٥٨ وسنة ١٩٧٣ [٧] ، بالإضافة إلى المراجع التى ذكرناها فى مقدمة الطبعة الأولى من كتابنا .

وندعو الله سبحانه وتعالى أن تكون الطبعة الثانية قد أصابت ، والله ولى التوفيق .

على الغمراوى

مدينة نصر . مايو ١٩٧٧

---

(6) Groeber (Gustav), Uebersicht ueber die lateinische Litteratur von der Mitte des VI. Jahrhunderts bis zur Mitte des XIV. Jahrhunderts (Nachdruck aus dem Grundriss der romanischen Philologie. Strasshurg 1902).

(7) Encyclopedia Britannica. Chicago, London, Toronto 1958, ١٩٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الاولى

كثيراً ما تقابلنا فى دراسات العصور الوسطى بعض الأمور والقضايا التى كانت وما زالت موضع النظر والخلاف بين العلماء ، الأمر الذى يجعل منها على الدوام موضوعاً حياً جديراً بالبحث والتقصى ، وأولى بنا قبل كل شىء أن نوليه أهمية خاصة ونحن نشرع فى هذه الدراسات ، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بالموضوعات التاريخية ، لأن البحث فى مثل هذه الأمور والقضايا من شأنه أن يلقى ضوءاً على كثير من المعلومات والمسائل التى استقرت على علاتها فى الأذهان نتيجة لما وضعه علماء الأجيال الأوائل من قوالب وأحكام سرنا على نهجها من واقع الأخلاق العلمية التى عرفناها وفرضت علينا واجب احترام الرأى . وإذا كان البحث العلمى بحكم طبيعته يتم على حلقات متصلة يساهم فيها الجميع بنصيب من الجهد والدراية ، فإن الباب مفتوح على مصراعيه لكل دراسة جديدة ومحاولة جديدة ورأي جديد،

وهذا هو ما عهدناه فى أجيال الباحثين القدامى والمحدثين ، وحسب السابقين أنهم رواد لنا فى مجالات العلم والمعرفة أرسوا القواعد التى حددت لنا الطريق .

ونظراً إلى التطــور الكبير الذى طرأ فى السنوات الأخيرة على دراسات العصور الوسطى نتيجة للكشوف الحديثة فى بلدان البحر المتوسط ، تلك الكشوف التى أخرجت عدداً لا يستهان به من المكتوبات الوسيطة إلى النور وكانت من قبل فى غمار النسيان فى شتى المكتبات ودور المحفوظات ، ونتيجة لمناهج المدارس التاريخية الجديدة التى بحثت هذه المكتوبات حسب اتجاهاتها المختلفة بحثاً علمياً دقيقاً أضاف إلى وعاء المعارف التاريخية كثيراً من المعلومات والحقائق ، نعتقد أن الوقت قد حان لعرض الجهود الأخيرة التى قام بها علماء الغرب والآراء الجديدة التى توصلوا إليها فى تاريخ العصور الوسطى فى ثوب جديد يفصح للدارسين العرب عن حقيقة هذه العصور المثيرة التى لا تزال فى روع الكثيرين عصورا مظلمة يسودها الجهل والتخلف ، وذلك على نحو يفى بحاجتهم إلى فهم جوانبها وأبعادها فهما يمكن أن يجيب على كثير من التساؤلات ويشبع حبهم للمعرفة .

ومن الموضوعات التى قام حولها الجدل الكثير موضوع الامبراطورية الرومانية الأخيرة ولا سيما عصور القرن الثالث والظروف التى أدت إلى سقوط الامبراطورية فى الغرب ، ودور الجرمان فى تقسيم الامبراطورية وتأسيس ممالكهم فى أوربا وشمال أفريقيا ، وأثر الثقافة الكلاسيكية وهى الثقافة اليونانية والرومانية على الفكر المسيحى ، والمجال الحقيقى لتاريخ العصور الوسطى ، وأهمية الفكر السياسى فى التاريخ الوسيط ، ودور المسلمين فى تجارة البحر المتوسط ، وغير ذلك من الموضوعات الجوهرية التى تمثل كيانا هاما فى الدراسات التاريخية . ولذلك رأينا أن نفرد لدور الجرمان في تشكيل التاريخ الأوربي الوسيط وأثر الثقافة

الكلاسيكية والفكر السياسى دراسة خاصة نشرناها فى كتيبين صدرا فى القاهرة فى سنة ١٩٧٢ بعنوان « ملحمة البطولة الجرمانية » و « موضوعات فى الثقافة الأوروبية فى العصور الوسطى » .

والآن يسعدنا أن نقدم فى هذا الكتاب اتجاهات الدراسة فى تاريخ العصور الوسطى ، وأزمة القرن الثالث ، وسقوط الامبراطورية الرومانية الغربية ، وبداية العصور الوسطى ، وهى موضوعات تشكل قضايا يتعين علينا أن نبحثها بحثاً مستفيضا بقدر المستطاع ، لكى نتلمس فيها جوانب الحقيقة قبل إصدار أحكامنا على الحوادث التاريخية والدوافع والشواهد التى تقود إليها . ونعتقد أن بحث مثل هذه الموضوعات والقضايا على هذا النحو إنما يعتبر قبل كل شىء تمهيداً أولياً للمهتمين بدراسة التاريخ الأوربى الوسيط دراسة متعمقة سليمة ، وردا منطقيا على الظنون والمزاعم التى أثارها المؤرخون التقليديون الذين ورثوا رأى العلماء الانسانيين فى عصر النهضة الكبرى فى القرن الخامس عشر ، ذلك الرأى الذى وصم كل العصور الوسطى بالتخلف والانحطاط وما زال عالقا بالأذهان . لقد أصبحت العصور الوسطى جديرة بالرؤية العلمية الجادة والدراسة المنهجية الصحيحة ، ولا سيما بعد أن تصدى أنصار المدارس التاريخية الحديثة ونقاد الأدب الوسيط لكشف النقاب عن حقيقة هذه العصور .

وقد رجعنا فى موضوعات هذا الكتاب إلى فهرست المصادر الملحق بالموسوعة اللغوية المعروفة بكنز اللغة اللاتينية الصادر من أكاديميات العلوم فى برلين وجوتنجن وليبزج وميونيخ وفيينا ، ليبزج ١٩٠٤ [١] ، وإدوارد فون تونك ، الامبراطورية

(١) Thesaurus Linguae Latinae. Index librorum scriptorum

الرومانية والدولة الرومانية الشرقية ، ميونيخ ١٩٥٨ [٢] ، وفهرست المصادر الملحق بقاموس العصور الوسطى حتى نهاية القرن الثالث عشر ، باشتراك أكاديميات العلوم فى جوتنجن وهايدلبرج وماينز وفيينا وجمعية العلوم الدينية السويسرية ، الصادر من أكاديمية العلوم البافارية فى ميونيخ وأكاديمية العلوم الألمانية فى برلين ، ميونيخ ١٩٥٩ [٣] ، والقاموس اللاتينى والألمانى الموسع ، تجميع كارل أرنست جيورجيس ، الطبعة الحادية عشرة (معادة من الطبعة الثامنة التى قام بتنقيحها وتزويدها هينريش جيورجيس) ، بازل ١٩٦٢ [٤] ، ولويس جون بيتو ، دليل دراسة التاريخ الوسيط طبعة منقحة باشراف الأكاديمية الأمريكية لدراسات العصور

=auctoritate et consilio Academiarum quinque Germanicarum Berolinensis Gottingensis Lipsiensis Monacensis Vindobonensis. Lipsiae 1904.

(2) Tunk (Eduard von), Das roemische Imperium. Das ostroemische Reich. Muenchen 1958.

(3) Mittellateinisches Woerterbuch bis zum ausgehenden 13. Jahrhundert. In Gemeinschaft mit den Akademien der Wissenschaften zu Goettingen, Heidelberg, Leipzig, Mainz, Wien und der Schweizerischen Geisteswissenschaftlichen Gesellschaft. Herausgegeben von der Bayerischen Akademie der Wissenschaften und der Deutschen Akademie der wissenschaften zu Berlin. Abkuerzungs- und Quellenverzeichnis. Muenchen 1959.

(4) Georges (Karl Ernst), Ausfuehrliches Lateinisch- Deutsches Hand-Woerterbuch. 11. Auflage. Nachdruck der achten verbesserten und vermehrten Auflage von Heinrich Georges. Basel 1962.

الوسطى ، نيويورك ١٩٦٤ (٥) ، وفان كينيجيم — وجانزهوف ، موجز مصادر العصور الوسطى الغربية ، جوتنجن ١٩٦٤ (ترجمه من اللغة الهولندية إلى اللغة الألمانية م . جيسيلينج . الطبعة الهولندية صدرت فى جنت سنة ١٩٦٢) (٦) ، وفرانز فياكر ، القانون والمجتمع فى العصور الكلاسيكية الأخيرة ، شتوتجارت ١٩٦٤ (٧) ، ويوهانس هالر ، البابوية فكرة وحقيقة ، الجزء الأول : الأصول ، ميونيخ ١٩٦٥ (٨) ، وأوجوست فرانزن ، مختصر تاريخ الكنيسة ، فرايبورج / برايزجاو ١٩٦٥ (٩) ، وكارل بوزل ، المجتمع في تاريخ العصور الوسطى ، جوتنجن ١٩٦٦ (١٠) ، وفريجوس ميلر ، الامبراطورية الرومانية وجيرانها ، فرانكفورت على الماين ١٩٦٦ (١١) ،

---

(5) Peatow, (Louis John), A Guide to the study of medieval history. Revised edition prepared under the auspices of the Medieval Academy to America. New York 1964.

(6) Caenegem (R. C. van) — Ganshof (F. L.), Kurze Quellenkunde des westeuropaeischen Mittelalters. Goettingen 1964. Uebersetzt aus dem Niederlaendischen von M. Gysseling (Titel des Originals : Encyclopedie van de Geschiedenis der Middelesuwen. Gent 1962).

(7) Wieacker (Franz), Recht und Gesellschaft in de Spaetantike. Stuttgart 1964.

(8) Haller (Johannes), Das Papsttum Idee und Wirklichkeit. 1. Die Grundlagen. Muenchen 1965.

(9) Franzen (August), Kleine Kirchengeschichte. Freiburg im Breisgau 1965.

(10) Bosl (Karl), Die Gesellschaft in der Geschichte des Mittelalters. Goettingen 1966.

(11) Millar (Fregus), Das roemische Reich une seine Nachbarn. Frankfurt am Main 1966.

وميخائيل سايدلماير ، العصر الوسيط ، جوتنجن ١٩٦٢ (١٢) ، وروجيرو رومانو - وألبرتو تيننتي ، ارساء قواعد العالم الحديث : العصور الوسطى الأخيرة - عصر النهضة - عصر الاصلاح الدينى ، فرانكفورت على الماين ١٩٦٧ (١٣) ، وكلود كان ، الإسلام، الجزء الأول : من الصدر حتى بدء الامبراطورية العثمانيه ، فرانكفورت على الماين ١٩٦٨ (ترجمه من اللغة الفرنسية إلى اللغة الألمانية جرهارد أندرس) (١٤) ، وفرانز جيورج ماير ، تحول عالم البحر المتوسط ، فرانكفوت على الماين ١٩٦٨ (١٥) ، ووليام كارول بارك ، أصول العالم الوسيط ، طبعة معادة ، ستانفورد / كاليفورنيا ١٩٦٨ (١٦) ، ويان دونت ، القرون الوسطى الباكرة ، فرانكفورت على الماين ١٩٦٨ (١٧) ، ونورمان كانتور ، العالم الوسيط (٣٠٠ — ١٣٠٠) ، الطبعة الثانية ، نيويورك ولندن ١٩٦٨ (١٨) ، وهانز فيلهلم هاوسج ، التاريخ البيزنطى ،

---

(12) Seidlmayer (Michael), Das Mittelalter. Goettingen 1967.

(13) Romano (Ruggiero) — Tenenti (Alberto), Die Grundlegung der modernen Welt. Spaetmittelalter. Renaissance. Reformation. Frankfurt am Main 1967.

(14) Cahen (Claude), Der Islam. 1. Vom Ursprung bis zu den Anfaengen des Osmanenreichs. Frankfurt am Main 1968. Aus dem Franzoesischen uebersetzt von Gerhard Endress.

(15) Maier (Franz Georg), Die Verwandlung der Mittelmeerwelt. Frankfurt am Main 1968.

(16) Bark (William Carroll), Origins of the medieval world. Stanford, California 1968.

(17) Dhondt (Jan), Dss Fruehmittelalter. Frankfurt am Main 1968.

(18) Cantor (Norman F.), The medival world 300 – 1300. New York. London 1968.

شتوتجارت ١٩٦٩ [١٩] ، ورودولف بولتمان ، المسيحية الأولى فى إطار الديانات القديمة ، ميونيخ ١٩٦٩ (٢٠) ونورمان كانتور ، التاريخ الوسيط . حياة ونهاية حضارة ، الطبعة الثانية ، لندن ١٩٦٩ (٢١) ، ووليام شبرد ، الأطلس التاريخى ، الطبعة التاسعة ، لندن ١٩٧٠ (٢٢) ، وأرنالدو موميليانو ، «التاريخ الامبراطورى» : قاموس أكسفورد الكلاسيكى (نشره هاموند وسكالارد) ، الطبعة الثانية ، أكسفورد ١٩٧٠ ، ص ٥٢٠ - ٥٢١ (٢٣) ، ووليام وودثورب تارن - وأريك وليام جراى ، « بارثيا » : السابق ، ص ٧٨٦ (٢٤) ، وجون برسى بلدسون ، «برنسبس» السابق ، ص ٨٧٧ - ٨٧٨ (٢٥) ، ويان أرشيبالد ريتشموند ، «سور أدريانوس» : السابق . ص ١١٣٥ (٢٦) ، وعلى الغمراوى ، موضوعات فى

---

(19) Haussig (Hans Wilhelm), Byzantinische Geschichte. Stuttgart 1969.

(20) Bultman (Rudolf), Das Urchristentum im Rahmen der antiken Religionen. Muenchen 1969.

(21) Cantor (Norman F.), Medieval history. The life and death of a civilization. 2nd ed. London 1969.

(22) Shepherd (William R,) Historical atlas. 9th ed. London 1970.

(23) Momigliano (Arnaldo), "Historia Augusta" : Oxford Classical Dictionary (edited by N. G. L. Hammond and H. H. Scullard). 2nd ed. Oxford 1970 p. 520—521.

(24) Tarn (William Woodthorpe) — Gray (Eric William), "Parthia" : op. cit. p. 786.

(25) Baldson (John Percy), "Princeps" : op. cit.. p. 877—878.

(26) Richmond (Ian Archibald), "Wall of Hadrian" : op. cit. p. 1135.

الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٢ ، وملحمة البطولة الجرمانية ، القاهرة ١٩٧٢ ، و«المصادر الهجيوغرافية قبل النهضة الكارولية» : مجلة كلية الآداب والتربية بجامعة الكويت ، العدد الثانى ١٩٧٢ ، ص ٨٩ - ٩٨ ، و « نظرات هيستوريوغرافية فى التاريخ الأوربى فيما قبل القرن العاشر » : نفس المجلة ، العددان الثالث والرابع ١٩٧٣ ، ص ٢٢٥ - ٢٣٨ ، وفلديمار بيسون ، « عصر العلم التاريخى » : معجم فيشر ، الجزء الرابع والعشرون : التاريخ ، الطبعة التاسعة ، فرانكفورت على الماين ١٩٧٣ ، ص ١٠٣ - ١١٦ (١٧) ، وفرانز جيورج ماير ، « التقسيم العام للعصور » : السابق ، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ (٢٨) ، و « تقسيم عصور العالم القديم » : السابق ، ص٢٤٧ - ٢٥٣ (٢٩) ، وأوجوست نيتشكه : تقسيم العصور الوسطى » : السابق ، ص ٢٥٣ - ٢٥٧ (٣٠) ، وعلى الغمراوى ، « المؤلفات الدينية فى أدب الفقهاء اللاتين من القرن السادس حتى القرن الثامن » : مجلة كلية الآداب والتربية بجامعة الكويت ، العدد السادس ١٩٧٤ ، ص ١٢٧ - ١٤٠ .

وجدير بالذكر أن كتاب التاريخ الوسيط الذى ألفه نورمان كانتور (أنظر حاشية رقم ٢١) ، والذى رجعنا إليه الآن فى طبعته الثانية ، كان فى طبعته الأولى ضمن المراجع التى اعتمدنا عليها فى محاضراتنا عن تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

---

(27) Besson (Waldemar), "Historismus" : Fischer Lexikon Nr 24 : Geschichte. 9. Auflage. Frankfurt am Main 1973 p. 102—116.

(28) Maier (Franz Georg), "Periodisierung, Allgemein" : op. cit. p. 245—247.

(29) Id., "Periodisierung, Altertum" : op. cit. p. 247—253.

(30) Nitschke (August), "Periodisierung, Mittelalter" : op. cit. p. 253—257.

الأولى التى ألقيناها على طلبة وطالبات قسم التاريخ بجامعة عين شمس والمنشورة منذ العام الدراسى ١٩٦٨ / ١٩٦٩ . وقد قدم كانتور فى كتابه عرضاً موجزاً لدور المسلمين فى تجارة البحر المتوسط ، وساق فى هذا العرض الموجز مناقشة عابرة حول رأى أبداه مؤرخ الاقتصاد البلجيكى هنرى بيرين فى كتابه « محمد وشارلمان » الذى نشر فى باريس سنة ١٩٣٦ ، وأعيد طبعه فى باريس وبروكسل سنة ١٩٣٧ (٣١) ، وأثار بين المؤرخين الموضوعيين ضجة كبيرة بسبب الهجوم الشديد الذى شنه بيرين على المسلمين ، ومغالطاته الجامحة التى جانبت واقع الحقائق التاريخية الثابتة . وبرغم أهمية هـذا الموضوع لم تكن لدينا فى الحقيقة وقتذاك إمكانات لإجراء مناقشة وافية حوله تضع الأمور فى نصابها ، ولذلك اكتفينا فى محاضراتنا السابقة بما أورده كانتور فى كتابه من الردود ووجهات النظر القليلة على أمل أن تسمح ظروفنا بعد ذلك بتخصيص دراسة مستقلة تظهر الحق . ومنذ ذلك الوقت ونحن نحاول جمع المعلومات التاريخية ، لكى نعرض هذه القضية ـــ كما فعلنا الآن فى سياق الموضوع الرابع عن بداية العصور الوسطى ـــ على نحو أفضل . ولا شك أن كتاب وليام كارول بارك « أصول العالم الوسيط » قدم لنا فائدة عظيمة لما حواه من بيانات دقيقة ووجهات نظر كثيرة ساعدتنا على الإلمام بشتى جوانب الموضوع الذى طرحه بيرين عن تجارة المسلمين فى عالم البحر المتوسط .

ويهمنا فى هـذا المقام أن نشكر صديقنا الفاضل الدكتور أحمد ابراهيم الشريف أستاذ التاريخ الإســـلامى المساعد بجامعة الكويت شكراً عميقاً على تفضله بإبداء الملاحظات القيمة عندما كنا نتبادل معه الرأى فى نقاط موضوع بيرين . كما يهمنا أن

... Charlemagne Paris 1936

نوجه الشكر العميق إلى الأستاذ الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد أستاذ الدراسات الفارسية ووكيل كلية الآداب للدراسات العليا بجامعة عين شمس ، والدكتور كمال الدين حلمى مدرس اللغة الفارسية بجامعة الكويت على تفضلهما بإجراء التحقيقات عن حكم الأرشك فى إيران وعن دولة الفرس الساسانيين ، وكذلك لصديقنا العزيز الدكتور فاروق القاضى مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب بجامعة عين شمس على تفضله بإبداء الآراء الصائبة حول بعض النقاط التى عرضناها فى موضوع أزمة القرن الثالث وموضوع سقوط الإمبراطورية الرومانية .

وندعو الله سبحانه وتعالى أن يكون كتابنا هذا قد حقق ولو قليلا غرضه ، والله ولى التوفيق .

على الغمراوى

الكويت . نوفمبر ١٩٧٤

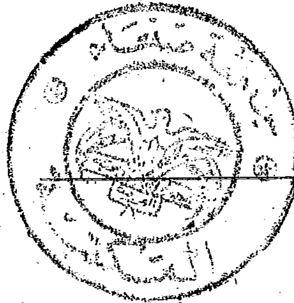
١ – اتجاهات الدراسة فى تاريخ العصور الوسطى

نقاط الموضـــوع

عصر تلاميذ المسيح والعهد الجديد – الكنيسة الأولى والثقافة الكلاسيكية – العلوم الإنسانية واللاهوت – مناهج تفسير الكتاب المقدس – فيلون اليهودى والأفلاطونية – بولس – القرن الثانى والمشكلة المسيحية – الرواقية القديمة ومفهوم اللوغوس – بناتيوس الرودسى فيلسوف الرواقية الوسيطة – بوزيدون السورى والمدينة العالمية – الرواقية الحديثة – اليهود ومفهوم الحكمة الإلهية – موضوع اللاهوت – جوستين السامرى واللوغوس المسيحى – أرينيوس الأزميرى – أكليمنضس الأسكندرى – ترتوليان القرطاجنى – الأدريون – اللاهوت الدفاعى – القرن الثالث والأفلاطونية الحديثة – الديانات الصوفية – أوريجانوس رائد اللاهوت المسيحى – المدارس المسيحية فى القرون الثلاثة الأولى – القرن الرابع والاعتراف بالمسيحية – الكنيسة والتعليم – آباء الكنيسة العظام – أوسابيوس القيصرى – أثناسيوس الرسولى – باسيلى القبادوقى – أغريغوريوس النازيانزى – أغريغوريوس النيساوى – سيناز القورينى – يوحنا الفصيح – أمبروز – آباء القرن

الثقافة — عصر الملخصات — مارتيانوس كابيلا وقران الفيلولوجيا — العلوم السبعة وعلوم الدين — التاريخ والبلاغة — القرن السادس والتغير — بويس آخر الآباء — مغرب القرن السادس — أغريغوريوس التوزى وتاريخ الفرنجة — التدهور فى طريق القرن السابع — عصر البابا أغريغوريوس العظيم — فريديجار الأسكولائى — أحياء الثقافة — إرسالية الرهبان الايرلنديين والأنجلوسكسون — القرن التاسع ونهضة شارلمان — الناظر ألكوين — النهضة الأوتونية — نهضة القرن الثانى عشر — نشأة الجامعات — الكنيسة والتراث الكلاسيكى — القرن الرابع عشر والحركة الإنسانية — احياء الآداب والفنون القديمة — بترارك — العالم والانسان — بوكاشيو — دى ريينزو — القرن الخامس عشر والانسانيون الكبار — دافيرونا — فيليلفو — أوريسبا — بودجو — ديلافالى — البابا نيقولا الخامس — البابا بيوس الثانى — ذكريات الامبراطورية الرومانية — عصر النهضة والتاريخ — التاريخ الكلاسيكى فى الجامعات — دراسة تاريخ الشرق القديم — مصير التاريخ البيزنطى — الانسانيون والعصور الوسطى — عودة إلى تاريخ الشرق — ماكيافيلى — مونتسكيو — القرن الثامن عشر وحركة التنوير — ريماريوس — ليسنج — مندلوسون — الرؤية التاريخية ومصر التنوير — فينكلمان — شايجل — جيبون وسقوط الامبراطورية الرومانية — انطلاقة الدراسة التاريخية الجديدة — موزر — هردر — القرن التاسع عشر وحركة العلم التاريخى — نيبور — درويسن — مومسن — بوك — سافينى — بوركهارت — منهج التحقيق ودراسة الوثائق — النظرة النقدية فى عصر النهضة — ديلافالى وهبة قسطنطين — القرن التاسع عشر وحرية البحث التاريخى — نقد المعاصرين — جورج لويس — [illegible] — [illegible] الانسانية الجديدة والرؤية الحضارية فى تفسير التاريخ —

الجرمانية — الفرنجة على المسرح السياسى — الحروب الصليبية وأثر الشرق على وعى أوربا — القانون الرومانى — التراث اليونانى — العلم العربى ونقول الفلسفة والطب — شروح ابن رشد — نقل الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية — مدارس الترجمة فى صقلية وأسبانيا — الانسانيون والعصور المظلمة — العصور المظلمة والظاهرة التاريخية — لقاء الحضارات الكلاسيكية والجرمانية والفكر المسيحى — الممالك الجرمانية ومصادر العصور المظلمة — الانسانيون والفكر الأوربى المعاصر — العصور الوسطى ونظرة الرومانطيقيين فى القرن الثامن عشر — التاريخ الوسيط والدراسة العلمية فى ألمانيا — المعهد البروسى فى برلين — مجموعة ألمانيا التاريخية — المدرسة الجدلية — شرام — تلنباخ — اردمان — شيفر — دراسة العصور الوسطى فى إنجلترا — المدرسة القانونية — ستبز — ميتلاند — توت — المدرسة الشخصية — بوويك — نولز — سوثرن — دراسة العصور الوسطى فى الولايات المتحدة — العلماء الألمـــان وتاريخ الفكر فى الجامعات الأمريكية — الحتمية الاقتصادية والتكنولوجية فى تفسير التاريخ — بيرين — هوايت — لوبيز — المدرسة الاجتماعية الفرنسية — بلوك — بوتريش — لاتوش — دوبى — فولف .





فرضت الظروف والأوضاع الدينية على كنيسة العصور المسيحية الأولى أن تنظر إلى علوم اليونانيين والرومان نظرة الشك والحذر ، لأنها علوم وثنية تحدثت فى أمور الكون والحياة على نحو يخالف مبادىء التربية المسيحية التى تعتبر

تتصالح مع هـذه العلوم الـكلاسيكية[١] التى كانت وما زالت بعد ظهور المسيحية موضوعات الثقافة فى العالم الرومانى . ولـكن لم تـكن لدى الـكنيسه ثقافة خاصة بها تستطيع أن تقدمها غير مبادىء القراءة فى أسفار العهد الجديد[٢] التى كانت قد كتبت لتوها ، وأخذت تشيع بين الجماعة المسيحية ، لأن الـكنيسة لم تـكن قد خلقت بعد تراثا يعبر عن تقاليد الحياة ، ويعـكس مشاعر المجتمع المسيحى الجديد . ومن هنا كان التراث الوثنى القديم هو التراث الذى ما زال ماثلا فى أذهان الأجيال المسيحية الأولى باعتبارها أجيال مجتمعات عاشت قرونا طويلة فى ظل ثقافات يونانية ورومانية تواترت جيلا بعد جيل ، وما زالت هذه الثقافات هى النبع الذى تستقى منه الأجيال أكثر المعانى والأفـكار .

---

(١) استخدمنا هنا مصطلح العلوم الـكلاسيكية بدلالته الموضوعية التى تعنى العـلوم الانسانية القديمة ، وهى علوم اليونانيين والرومان ، وليس بدلالته الزمنية ، لأن العصور الـكلاسيكيه ، كما ثبت فى مفهوم المؤرخين الأوربيين منذ القرن السادس عشر ، تمتد حتى منتصف القرن الثالث ، وعلى ذلك فالمسيحية ظهرت فى العصور الـكلاسيكية ، والتراث الذى كان على الـكنيسة أن تتعايش معه هو تراث كلاسيكى بهذا المعنى .

(٢) تتألف أسفـــار العهد الجديد testaméntum novum ، وهو عهد المسيحيين ، من الأناجيل ، وهى أناجيل متى ، ومرقس ، ولوقا ، ويوحنا ، ومن أعمال الرسل ، ورسائل بولس إلى الأمم ، وهى الرسائل إلى أهل رومية ، وكورنثوس ، وغلاطية ، وافسس ، وفيلبى ، وكولوسى ، وتسالونيكى ، وإلى تيموثاوس ، وتيطس ، وفليمون ، ومن الرسائل الجامعة ، وهى الرسالة إلى العبرانيين ، ورسائل يعقوب ، وبطرس ، ويوحنا ، ويهوذا ، ومن الرؤيا ، وهى رؤيا يوحنا . ومن المرجح أن هذه الأسفار كتبت بين سنة ٥٥ وسنة ١٠٠ على التقريب ، ما عدا رسالة يعقوب التى كتبت حوالى سنة ٤٥ ، أى قبل مجمع تلاميذ المسيح الذي عرف بالمجمع الرسولي، والذي انعقد في أورشليم حوالي سنة حوالي سنة =

كان هذا الوضع يمثل مشكلة من كبريات المشاكل التى واجهت الكنيسة منذ القرن الثانى ، بعد أن مضى عصر تلاميذ المسيح فى القرن الأول ، وبعدت الشقة بين الأجيال الجديدة والأجيال التى عاصرت المسيح وعرفت منه عن كثب مبادىء الدين المسيحى . فقد أصبح فهم الدين المسيحى منذ القرن الثانى يعتمد على أسفار العهد الجديد ، كما اعتمد كذلك بين المسيحيين الأوائل — بوصفهم يهودا متنصرين — على أسفار العهد القديم [1] . وأصبح الكتاب المقدس الذى يحوى العهدين القديم والجديد هو الكتاب الذى كان على علماء المسيحية فى القرن الثانى أن يفسروه ، وأن يستخلصوا منه معانى الدين المسيحى وأصول التربية المسيحية . ولكن كيف يكون التفسير ؟ وبأى منهج يتحقق ؟ وبأية معايير يمكن التعرف على هذه المعانى والأصول ؟ وما هى حدود التربية المسيحية ؟ كانت هذه هى الأمور التى أخذت تشغل بال الكنيسة ، خاصة وأن المسيحية كانت تخطو خطواتها الأولى

= ونظر فى مشكلة الختان ، ورسالة بولس إلى أهل تسالونيكى التى يحتمل أن تكون قد كتبت بعد هذا المجمع بوقت قصير . وفى القرن الثانى اعتبرت الكنيسة هذه الأسفار — حسب تعبيرها الكنسى — أسفاراً قانونية ، وأجازتها لتكون العهد الجديد . وهناك أسفار مسيحية أخرى كثيرة اعتبرتها الكنيسة أبوقريفا apocrypha أى غير قانونية ، ولم تعترف بها ، منها أناجيل يعقوب، ونيقوديموس، والابيونيين ، والمصريين ، والعبرانيين ، والناسيين ، وبطرس ، وتوما ، وانجيل الطفولية . وأغلب هذه الأناجيل الأبوقريفية تعرض وصفاً ليوسف النجار ، والسيدة مريم العذراء ، والعجائب التى تمت فى حداثة المسيح .

(١) تتألف أسفار العهد القديم testamentum vetus ، وهو عهد اليهود ، من أسفار موسى الخمسة Pentateuch ، وهى الناموس المعروف بالتوراة ، وتأتى فى أول العهد القديم ، وهى أسفار التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ، والتثنية ، ومن الأنبياء ، وهم الأنبياء الأولون يوشع ، والقضاة ، وصموئيل ،

فى العالم الرومانى الذى جرفه تيار الثقافة الكلاسيكية ، تلك الثقافة التى كانت قد أرست مناهج العلوم الانسانية القديمة على أسس من الفكر الفلسفى ، ولم تكن لدى الكنيسة مناهج أخرى غير هذه المناهج .

ولذلك ما أن خطا القرن الثانى فى التاريخ حتى بدأ الجدل حول معايير الدين المسيحى ومعايير الثقافة الكلاسيكية التى تناقض العقيدة المسيحية من ناحية ، وتعتبر من ناحية أخرى تراثاً يتعلق به الوجدان ، وتستمد منه الأجيال طرائق التفكير وعبرة الماضى . وهل كان من الممكن أن تنفصل الأجيال المسيحية عن تراثها الماضى ؟ وهل كان من الممكن أن ينطلق الفكر المسيحى من نقطة بداية لا يرتبط فيها بأصول الفكر الوثنى القديم ، تلك الأصول التى سادت فى بلدان البحر المتوسط عبر قرون طويلة ، واستقرت على أساسها علوم التربية فى شتى المدارس ؟ وهل كان من الممكن أن يبدع علماء المسيحية مناهج جديدة لتفسير الكتاب المقدس غير مناهج الفلسفة ؟ كانت الإجابة على هذه الأسئلة هى محور المشكلة التى واجهت الكنيسة فى القرن الثانى . وثار الجدل والنقاش حول أهمية الثقافة الكلاسيكية والفلسفة اليونانية وجدواهما فى اللاهوت[1] ، وحول تقريرهما فى دروس الدين ، وحول أصول التربية المسيحية التى تفيد منها الأجيال المسيحية الجديدة . وتصدى لبحث هذه المشكلة أباء الكنيسة

= وعاموس ، وعوبديا ، ويونان ، وميخا ، وناحوم ، وحبقوق ، وصفنيا ، وحجى ، وزكريا ، وملاخى ، ومن الكتب ، وهى المزامير ، والأمثال ، وأيوب ، ونشيد الأنشاد ، وراعوث ، والمراثى ، والجامعة ، وأستير ، ودانيال ، ونحميا ، وعزرا ، وأخبار الأيام . وقد اعترفت الكنيسة المسيحية بالعهد القديم ، لأنه يتنبأ — حسب اعتقادها — بالمسيح .

الأوائل جوستين فيلسوف السامرة[١] ، وأرينيوس الأزميرى أسقف ليون [٢] ،

---

(١) المعروف بجوستين الشهيد Justinus Martyr ، ولد من أبوين وثنيين حوالى سنة ١٠٠ فى مدينة فلافيا نيابوليس Flavia Neapolis فى إقليم السامرة Samaria الذى يضم وسط فلسطين جنوبى الجليل . درس جوستين فى شبابه فلسفات فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو والرواقيين ، وانطلق من هـــذه الفلسفات اليونانية إلى دراسة العهد القديم لكى يبحث عن المعرفة فى أسفار النبيين التى أشارت — حسب ما شاع — إلى مولد المسيح ، وكان هذا سبباً فى اعتناقه للدين المسيحى عندما كان فى افسس Ephesus ، ولكنه واصل دراسته للفلسفة ، وسافر من مكان إلى مكان يدعو المثقفين الوثنيين إلى اعتناق المسيحية . وفى روما أسس جوستين مدرسة لتعليم الشباب مبادىء الدين المسيحى على أسس المبادىء الفلسفية ، مما أثار ضده كثيراً من الخصوم وفى مقدمتهم الفيلسوف الكلبى كريشنس Crescens الذى وشى بجوستين وانتهى الأمر بإعدامه ، وكان ذلك بين سنة ١٦٣ وسنة ١٦٧ عندما كان روستيكوس Q. Junius Rusticus محافظا لروما . ويمكننا أن نطلع على فقه جوستين فى مناظرته مع تريفو اليهودى فى افسس dialogus ad Tryphonem ، وفى مقالة الدفاع apologia التى كتبها جوستين أثناء إقامته فى روما . وتعتبر المقالتان من المصادر النادرة لأحوال الكنيسة فى منتصف القرن الثانى ، وهما فى نفس الوقت وثيقة هامة لتاريخ الأدب الدينى الذى كان قد كتب حتى عصر جوستين فى تفسير العهد الجديد . ولم يصلنا من المقالتين غير مخطوطة واحدة يرجع تاريخها إلى سنة ١٣٦٤ محفوظة فى المكتبة الأهلية Bibliothèque Nationale فى باريس تحت رقم ٤٥٠ .

(٢) Irenaeus ولد حوالى سنة ١٣٠ ، وهو واحد من كبار علماء اللاهوت فى القرن الثانى . وليس لدينا عن حياته فى سنى شبابه إلا معلومات قليلة ، فكل ما نعرفه هو أنه قضى تلك السنين فى آسيا الصغرى وربما فى أزمير Smyrna أو فى إحدى ضواحيها ، وأنه كان شغوفا بالاستماع إلى مواعظ بوليكاربوس Polycarpus أسقف أزمير المتوفى سنة ١٥٦ . ولا يمكن أن يكون أرينيوس قد ولد بعد سنة =

= ١٣: بكثير ، لأنه ذكر فى أكثر من مناسبة أنه قابل بعض البراشبة المسيحيين الذين عاصروا وشاهدوا يوحنا الحوارى أحد تلاميذ المسيح . وابان الاضطهاد الذى وقع على كنائس بلاد الغال (غاليا) Gallia فى سنة ١٧٧ فى عهد الامبراطور الرومانى ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius ، كان أرينيوس شيخاً لإحدى كنائس ليون (Lyons) Lugdunum . وفى العام التالى (١٧٨) سافر ارينيوس مبعوثاً من كنيسته إلى روما ، لكى يقدم إلى الأسقف الفتيريوس Eleutherius التماسا للرفق بأنصار مذهب المونتانية montanismus الذى انتشر فى قرطاجنة فى شمال أفريقيا وتحمس له ترتوليان ، وهو المذهب الذى أسمته الكنيسة بالهرطقة الفريجية البلهاء haeresis cataphrygia نسبة إلى مقاطعة فريجيا Phrygia فى آسيا الصغرى التى عاش فيها فى ذلك الوقت (فى النصف الثانى من القرن الثانى) صاحب هذا المذهب مونتانوس Montanus الذى ادعى النبوة . وبعد عودة ارينيوس إلى غاليا فى نفس السنة تم اختياره أسقفا لمدينة ليون خلفا للأسقف بوثينوس Pothinus الذى مات فى سورة الاضطهاد . وقد حاول ارينيوس بعد توليه الأسقفية أن يوفق بين الطوائف المختلفة التى كان صراعها يهدد الكنائس فى غاليا . وفى خضم المناقشات التى أثيرت حول تحديد ميعاد لعيد الفصح أراد ارينيوس أن يجد حلا وسطاً لهذه المشكلة ، وحاول بصفة خاصة أن يؤثر برأيه على فيكتور Victor خليفة الفتيريوس فى اسقفية روما ، وأن يثنيه عن تشدده مع الكنائس المعارضة فى شمال أفريقيا . ومن هنا أطلق عليه الناس اسماً يونانيا هو Eirenaios ومعناه ، صانع السلام ، عرف به على مر الزمن . ويرجح أن ارينيوس توفى سنة ٢٠٢ أيام اضطهادات الامبراطور سبتيميوس ساويرس Septimius Severus ، وكان أول من ذكر هذه المعلومة هو أغريغوريوس التورى الذى كتب فى القرن السادس تاريخاً للملوك الفرنجة والكنيسة الغالية . ومن أشهر مؤلفات أرينيوس مقالة باللغة اليونانية فى الرد على الأغنوسطيين عرفت بمقالة الرد على الهرطقات . ولكن لم يصلنا من هذه المقالة غير شذرات قليلة ، وإن كانت قد وصلتنا كاملة فى ترجمة لاتينية تحت نفس العنوان Contra haereses . وقد كان لهذه المقالة أثر كبير على أثناسيوس ، وأغريغوريوس النيساوى ، =

وترتوليان القرطاجنى (١) . وكان لابد أن ينتهى النقاش فى آخر الأمر إلى

= وكيرلاس الاسكندرى ، ويوحنا الدمشق ، الذين كانوا قد أطلعوا على المقالة فى أصولها اليونانية قبل أن تفقد معظم نصوصها . وكان أرينيوس نفسه قد تأثر ببولس، ويوحنا كاتب الانجيل . والحقيقة أن اهتمام أرينيوس بإنجيل يوحنا كان من الدوافع التى دفعت الكنيسة إلى الاعتراف بهذا الانجيل الذى لم يكن له شأن قبل ذلك . والواقع أن أرينيوس ألف كتبا ومقالات كثيرة ورد ذكرها فى تاريخ الكنيسة الذى كتبه أوسابيوس القيصرى فى القرن الرابع ، ولكن لم يصلنا من هذه المؤلفات غير مقالة الرد على الهرطقات فى نسختها اللاتينية التى سبق ذكرها ، ومقالة أخرى فى التعاليم المسيحية وصلتنا فى ترجمة أرمينية .

(١) Quintus Septimius Florens Tertullianus من أقدم المفكرين فى عالم الكنيسة الغربية ، ويعد بحق أعظم كاتب بعد أوغسطين الذى عاش فى القرن الخامس ، كما يعتبر مبدع الأدب المسيحى فى الغرب . ولد ترتوليان فى قرطاجنة أفريقيا حوالى سنة ١٦٠ ، وتعمق فى شبابه فى دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية ، وساعده ذلك على القراءة الواسعة فى مختلف الكتب الكلاسيكية واستيعاب الكتب التاريخية بصفة خاصة ، تلك الكتب التى ردد ترتوليان فى مؤلفاته مقاطع كثيرة منها بدقة تثير الدهشة ، فكانت مكتبته الضخمة تضم كتباً فى مختلف العلوم الدينية والفلسفية والتاريخية والقانونية والطبية ، ولكن هذه العلوم لم يكن لها تأثير على طريقة تفكيره وأسلوبه فى الكتابة مثلما كان للعلوم القانونية التى كرس لها جل وقته . وإن كان ترتوليان قد تأثر كذلك أثناء دراسته فى قرطاجنة تأثراً شديداً بالمناظرة التى كتبها مينوكيوس فيلكس Minucius Felix وأسماها مقالة ، أوكتافيوس ، Octavius وهى مناظرة تدور حول المسيحية بين الوثنى كايكيليوس ناتاليس Caecilius Natalis والمحامى المسيحى أوكتافيوس الذى كان صديقاً وزميلا للمؤلف ، ومكتوبة على غرار كتاب شيشيرون Cicero عن النبوءة de divinatione ، وكتابه عن طبيعة الآلهة de natura deorum . اعتنق ترتوليان الدين المسيحى أثناء إقامته فى روما ، وهناك عكف على دراسة الكتاب المقدس ، وقرأ مؤلفات هرمس Hermas ، وجوستين ، وططيان Tatianus ، وملتياديس Miltiades ، =

الأعتراف بأهمية الفلسفة اليونانية والثقافة الكلاسيكية ، برغم الهجوم الشديد الذى شنه ترتوليان على هذه الثقافة وزعمه بخطرها على الفكر المسيحى . فقد أتضح لآباء الكنيسة أن اللاهوت لا يمكن أن تقوم له قائمة بإغفال هذه الإهمية ، وأن دراسة العلوم الدينية المسيحية لا يمكن أن تستقيم بدون الرجوع إلى بعض العلوم الدنيوية التى ثبتت مفاهيمها وقواعدها فى تراث العصور الكلاسيكية السابقة ، بل ولا يمكن أن يكون هناك سبيل آخر .

ولم تكن هذه فى الحقيقة كل أبعاد المشكلة التى دفعت آباء الكنيسة الأوائل إلى

= ومليتو Melito ، وأريفيوس ، وأكليمنضس ، وكثيراً من المقالات الأغنوسطية ولا سيما مقالات مرقيون Marcionus . غير أن ترتوليان لم يكن مفكراً أصيلا ، ولم يقدم فى مؤلفاته أفكاراً جديدة فى اللاهوت عدا رأيه فى الخطيئة ، وإنما كانت موهبته الخاصة فى مقدرته على إضفاء الإثارة والتشويق على أفكار غيره من العلماء والكتاب السابقين ، وعلى صبها فى قوالب جديدة وصياغات جذابة . ولكن اللغة اللاتينية التى كتب بها ترتوليان كانت لغة شعبية كلغة المسرحيين الرومان القدامى أمثال بلاوتوس Plautus وترنس Terentius ، وإن كان قد أدخل عليها كثيرا من الكلمات اليونانية التى استقاها من الترجمة السبعينية (السبتواجينتا Septuaginta) للعهد القديم ، والترجمات اليونانية للعهد الجديد ، كما أدخل عليها كثيرا من المصطلحات القانونية والعسكرية ، وقد تشابهت هذه اللغة فى أسلوبها مع أسلوب الكتابات الأغنوسطية . ولم يقنع ترتوليان بكل هذه الثقافات ، فقام بعدة رحلات إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى جمع خلالها تجارب ومعلومات كثيرة . ولما عاد إلى قرطاجنة فى سنة ١٩٧ عين شيخا لإحدى الكنائس ، وتفرغ للكتابة . ومن أهم مؤلفاتة كتاب النفس de anima ، ودليل النفس de testimonio animae ، والمعمودية de baptismo ، والقيامة de resurrectione carnis .

إلى الجدل والمناقشة حول نفع الثقافة الكلاسيكية وجدواها فى فهم العقيدة المسيحية والتعليم ، وإنما كانت هناك ثمة أبعاد أخرى جعلت من المشكلة والاتفاق على حلها طريقاً لتفسير الكتاب المقدس على نحو وضع الآباء على أولى درجات اللاهوت . وتتمثل هذه الأبعاد فى دور فيلون اليهودى[1] فى تاريخ الفكر ، وفى منهجه فى تفسير العهد القديم على أسس من مفاهيم الفلسفة اليونانية والفلسفة الأفلاطونية[2] بصفة خاصة ، وهو المنهج الذى اتبعه الشراح المسيحيون بعد ذلك . وتتمثل هذه الأبعاد كذلك فى دور بولس الذى أعتمدت الكنيسة رسائله إلى الأمم ضمن أسفار العهد الجديد .

كان بولس ، بوصفه يهوديا من يهود الشتات[3] اعتنق المسيحية ، يتحدث اللغة

---

(١) Philo Judaeus (حوالى ٣٠ ق . م . — حوال ٤٠ م .) يعتبر أهم ممثل لليهودية الهلينستية ، ومؤلفاته تعطينا البرهان على تطور الفكر اليهودى فى الشتات . ومن المحتمل أن يكون فيلون من مواليد الاسكندرية ، ويظهر أنه عاش فيها طوال حياته باستثناء سفراته إلى روما . والحدث الوحيد فى حياته الذى يمكن التحقق منه تاريخياً كان فى سنة ٤٠ عندما ذهب إلى روما فى أخريات السنين ليقنع الأمبراطور جايوس Gaius المعروف بالأمبراطور كاليجولا Caligula بإعفاء اليهود من أداء الشعائر الوثنية . والحقيقة أن فيلون كان أعظم الفلاسفة اليهود فى الاسكندرية ، وعرف بأنه اللاهوتى الأول . وكانت لغته اليونانية على أعلى المستويات الكلاسيكية ، وكان عالماً بالشعراء اليونان ، وفى مؤلفاته كثير من الشواهد الشعرية ، ولكن دراسته العظمى كانت فى الفلسفة اليونانية ، وخاصة فلسفة أفلاطون ، والفيثاغوريين ، والرواقيين .

(٢) Platonismus .

(٣) diaspora .

اليونانية التى كانت دارجة فى بلدان البحر المتوسط الشرقية . ولكنه كان يجيد هذه اللغة إجادة تامة ، ويتقن فنونها ومفرداتها الدقيقة ، كما كان يعرف اللغة العبرية التى كانت معرفتها تتوفر لأعداد قليلة من يهود الشتات . وقد درس بولس العلوم الانسانية التى نهل منها فى مسقط رأسه طرسوس[١] ، وهى المدينة التى كانت تنافس أثينا والاسكندرية وقتذاك فى العلم والمعرفة،وكانت مركزا هاما من مراكز الفلسفة الرواقية [٢] التى تأثر بها بولس ، وظهر هذا التأثير واضحاً فى تعبيراته عن المبادىء المسيحية التى أوردها فى رسائله . وأكثر من ذلك كان بولس على علم بالشريعة الموسوية التى درسها فى شبابه ، كما جاء على لسانه،على يد غمالائيل [٣] أشهر المعلمين اليهود فىأورشليم.وقد أعطته هذه الثقافة الواسعة ميزة التفكير الفلسفى،واستخدام المفردات الجديدة ، وجعلته أقدر رسل المسيح على مخاطبة الأمم.هكذا كان بولس على هذا القدر الكبير من المعرفة بالثقافة الكلاسيكية والفلسفة اليونانية ، وقد أثار من خلال تفسيراته للعقيدة المسيحية وتعبيراته اللغوية الخاصة كثيراً من القضايا الدينية والسياسية التىتناولها بعد ذلك علماء اللاهوت والمؤرخون بالشرح والتحليل، واستطاع بشكل ما يتمتع به من قدرة على التعبير أن ينقل العقيدة المسيحية إلىصفوة المتعلمين بأسلوب الفلسفة المرهف وعبارات اللغة المنمقة ، وقدم للأجيال المسيحية ،

---

(١) Tarsus فى ولاية قيليقية Cilicia على مقربة من الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى .

(٢) stoicismus .

(٣) أعمال الرسل ٢٢ : ٣ : « أنا رجل يهودى ولدت فى طرسوس كيليكية ولكن ربيت فى هذه المدينة [أورشليم] مؤدباً عند رجلى غمالائيل على تحقيق الناموس الأبوى » .

من واقع علمه الغزير ودرايته بالمعارف القديمة ، مثلا حيا لقيمة الثقافة الكلاسيكية وأهميتها فى تكوين الإنسان المسيحى المثقف .

أما فيلون اليهودى ، الذى كان معاصراً لبولس والسيد المسيح ، فقد أعلن أن العهد القديم يشير فى سطوره وبين السطور إلى معانى تتفق فى مضمونها مع معانى الفلسفة اليونانية ، والفلسفة الأفلاطونية على وجه الخصوص . ومن ثم اتخذ فيلون من الفلسفة أساسا لفهم الديانة اليهودية ، واعتمد على هذا المنهج فى تفسير العهد القديم ، لأنه — حسب اعتقاده — منهج من شأنه أن يكشف عن المعانى المجازية والمعانى التاريخية التى قد تدل عليها نصوص العهد . واستطاع فيلون أن يبرهن بذلك على أن فقه الدين اليهودى يحتاج إلى المعرفة الوثيقة بالثقافة الكلاسيكية ، أى المعرفة الوثيقة بالعلوم الإنسانية القديمة التى تمثل بصفة عامة علوم الفلسفة . فالثقافة الكلاسيكية عند فيلون ضرورية لفهم المعانى التى تشير إليها نصوص العهد القديم ، والفلسفة اليونانية فى رأيه مدخل طبيعى للشرح والتفسير (١) . غير أن إهتمام فيلون

---

(١) قد يصدق ما ذهب إليه أكثر النقاد من أن فيلون هو واضع المنهج الفلسفى فى تفسير الكتاب المقدس ، ولكن فيلون كان عليه على أية حال أن يتبع هذا المنهج ، لأن مناهج العلوم فى مختلف المدارس ، لا سيا فى مدارس أثينا وانطاكية والإسكندرية ، كانت هى مناهج الفلسفة التى تفرض العلم بالمعارف الإنسانية ، ولم يكن أمام فيلون طريق آخر أو منهج آخر لتفسير العهد القديم . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان للفلسفة اليونانية ، وفلسفة أفلاطون وأرسطو بصفة خاصة ، تأثير على الفكر اليهودى، فقد ظهر تأثيرها على الصدوقيين الذين رفضوا ، جرياً وراء نظرية أرسطو ، كل ما لايدعمه العقل ، والصدوقيون هم فئة من المثقفين الأغنياء ، وتنسبهم الرواية إلى صدوق رئيس الكهنة فى أيام داود وسليمان . وظهر تأثير الفلسفة اليونانية كذلك على فلاسفة اليهود فى ═

بالفلسفة انصرف بالدرجة الأولى إلى فلسفات أفلاطون[١] ، والرواقيين[٢] ، وبوزيدون[٣] .

لقد تناولت الفلسفة الأفلاطونية موضوعات الفكرة والجوهر والمعرفة لفهم الوجود الذى يختلف فيه الخير والشر ، أى لفهم العالم المعقول والعالم المحسوس . والعالم المعقول عند أفلاطون هو عالم المثل الذى ندركه بالعقل ، ويعتبر الوجود الحقيقى ، بل الحقيقة . والسبيل إلى معرفة الحقيقة هو الجدل ، فعن طريقه يمكننا إدراك الخير المطلق ، الذى هو الخير الإلهى . أما الرواقية ، التى وضع تعاليمها الأولى زينون[٤] القبرصى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، فقد نادت بأن غاية الفلسفة هى العيش فى انسجام مع الطبيعة التى يحكمها اللوغوس[٥] ، وهو العقل المدبر الذى

= الإسكندرية وعلى رأسهم فيلون ، فقد سعى هؤلاء الفلاسفة للتوفيق بين تعاليم موسى وتعاليم الفلسفة اليونانية ، وحاولوا أن يثبتوا أن العهد القديم عرف قبل هذه التعاليم الفلسفية ، لأن موسى عليه السلام أقدم من كل حكماء اليونان . وهكذا حاول فلاسفة اليهود أن يجمعوا بين العقيدة الموسوية وتعاليم الفلسفة اليونانية فى فلسفة جديدة . غاية ما فى الأمر أن فيلون وضع نقاطا كثيرة على حروف هذه الفلسفة الجديدة ، لأنه كان أكثر اليهود ولعا بالثقافة الكلاسيكية ، وأكثرهم حماسة للفلسفة اليونانية ، ولاسيما فلسفة أفلاطون والرواقيين التى أسس عليها منهجا واضحاً فى تفسير العهد القديم هو منهج التأويل المجازى ، لكى يزيل ما بين العهد القديم والفلسفة اليونانية من تناقضات . ومن هنا يتضح دور الفلسفة فى الفكر اليهودى ، ذلك الدور الذى سوف يتضح فى الفكر المسيحى على نطاق أوسع .

(١) Plato(n) (حوالى ٤٢٩ — ٣٤٧ ق . م .) .

(٢) Stoici .

(٣) Posidonius (حوالى ١٣٥ — حوالى ٥٠ ق . م .) .

(٤) Zeno(n) (٣٣٥ — ٢٦٣ ق . م .) .

(٥) Logos orthos .

يعم نظام الطبيعة بأكمله ، ويحث على الحركة المنتظمة للكواكب والأجرام السماوية ، ويمثله الإله زيوس[١] . واللوغوس بهذه الصفة يتمثل بصورة ما[٢] في العقل الإنساني القادر على الإبداع ، ويمكن عن طريقه بلوغ الفضيلة التي هي الخير الوحيد[٣] . وفي القرن الثاني قبل الميلاد حاول بناتيوس[٤] الرودسي فيلسوف الرواقية الوسيطة أن يوفق بين تعاليم الرواقية القديمة وتعاليم أفلاطون وأرسطو[٥] لكي يصل إلى مفهوم واضح لوحدة الكون .

وكان من أشهر الفلاسفة الذين تأثروا برواقية بناتيوس بوزيدون السوري ، الذي ازدهر في أوائل القرن الأول قبل الميلاد ، وهو صاحب فكرة الكوزموبول[٦]

---

(١) Zeus .

(٢) Logos spermatikos .

(٣) يصادفنا هنا المعنى الميتافيزيقي لكلمة اللوغوس لأول مرة في الفلسفة الرواقية .

(٤) Panaetius (حوالى ١٨٥ — ١٠٩ ق . م .) ، بفضله انتشرت الرواقية بين المثقفين من أبناء الطبقة الارستقراطية في روما .

(٥) Aristoteles (٣٨٤ — ٣٢٢ ق . م .) .

(٦) Kosmopolis . اقتبس المفكر الروماني المعروف شيشيرون (١٠٦ — ٣٤ ق . م .) فكرة بوزيدون عن الكوزموبول في « حلم سكيبيو » somnium scipionis ، وكذلك المؤرخ ديودور الصقلي Diodorus Siculus (الذي ازدهر في أواخر القرن الأول قبل الميلاد) في تاريخ العالم . وقد تعدى أثر بوزيدون إلى عدد آخر من مشاهير المؤرخين أمثال يوليوس قيصر (حوالى ١٠٢ — ٤٤ ق.م.) ، وسالوست Sallustius (٨٦ — ٣٤ ق . م .) ، وتاكيتوس Tacitus (حوالى ٥٥ — ١٢٠) ، وأفلوطارخ Plutarchus (حوالى ٤٦ — ١٢٠) ، الذين اعتمدوا على مفهوم بوزيدون في التاريخ في وصف

أى المدينة العالمية ، وهى بمعناها الميتافيزيقى عند بوزيدون مدينة الله التى تشارك فيها كل الشعوب ، وترمز إلى وحدة التاريخ الإنسانى ، وتتجسد بمعناها الفيزيقى فى الدولة الرومانية التى تشمل كل الشعوب المحكومة . وبالرغم من أن بوزيدون أدان استعمار الرومان لشعوب البحر المتوسط تحت شعار التطوير والتعمير ، نراه ينادى بإمكان الاتحاد والتعاون بين مدينة الله ومدينة الإنسان ، وهو يقصد بذلك إمكان التعاون بين روما ومستعمراتها من أجل الوصول — كما يقول — إلى الفضيلة السياسية[1] ، لأن مصير الجنس البشرى إنما ينعكس فى الواقع فى تلك التغيرات الحادة التى تطرأ على تاريخ الشعوب ، وتجعل من هذا المصير أمراً قد يخالف ما اعترفت عليه الطبيعة . فالسياسة والأخلاق فى رأى بوزيدون شىء واحد ، وأى نشاط أخلاقى ، أو أى نشاط سياسى ، إنما هو واجب دينى تتحقق به الفضيلة ، وهذا الواجب يتم قبل كل شىء وفقا للمبدأ ، أى وفقاً للعقل ، أو اللوغوس . وهنا يعطى بوزيدن لفكرة اللوغوس الرواقى تطبيقا سياسيا معاصراً ، وبعدا أخلاقيا جديدا .

وفى النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد تبنى أتباع الرواقية ، ولاسيما

---

(١) تتطلب الفضيلة السياسية عند بوزيدون الرجوع بالانسان إلى حالة البراءة والنقاء التى كان عليها فى عصور ما قبل التاريخ ، عندما كان الفلاسفة — كما يقول — هم الذين يشرعون القوانين ، ويعلمون الناس الحكمة والمعرفة ، ويصلون العالم الذى فرض على الناس أن يعيشوا فيه بعالم الله الذى تنبع منه أخلاقية الخضوع للقانون . ولاشك أن هذه الفكرة التى ساقها بوزيدون تعتبر — فى تقديرنا — معالجة جديدة — وبمفهوم أخلاقى صريح — لمشكلة القانون الالهى الذى تفرضه الطبيعة physjs حسب ما يعتقد الفلاسفة اليونانيون ، والقانون الوضعى nomos الذى يفرضه المجتمع ، تلك المشكلة التى كان لها أهمية كبيرة فى الفكر اليونانى ،

فى الاسكندرية ، نظرية أفلاطون التى ساقها فى محاورة طيماوس[١] عن منشأ الكون . وارتبطت بذلك لدى الرواقيين فكرة وحدانية الله بفكرة تعدد الآلهة حسب تصور الشعوب الوثنية ، وبعدت الرواقية بذلك عن تعاليمها القديمة لتصبح فلسفة رواقية جديدة توافق فكر العصر ، وتجد لها أنصاراً من علماء اليهود الذين تحمسوا للثقافة الكلاسيكية . ومن خلال هذا التغير الذى طرأ على الرواقية أصبح اللوغوس يعنى عند اليهود الحكمة الالهية[٢] . وكان من الطبيعى أن يتأثر فيلون بهذا المفهوم ، وأن يضمنه فلسفته التى تناول فيها طبائع العالم المادى ، وهو عالم أفصحت عنه سياسة الدولة الرومانية . ولكن العالم المادى عند فيلون ينفصل تماما

= القضية أبعادا جديدة انعكست على المسرح اليونانى ، بل وعلى مفهوم الديموقراطية الأثينية .

(١) Timaeus .

(٢) كما يظهر فى سفر الأمثال (٨ : ١ — ١٦) : « ألعل الحكمة لا تنادى والفهم ألا يعطى صوته . . . كل كلمات فمى بالحق . . . كلها واضحة لدى الفهيم ومستقيمة لدى الذين يجدون المعرفة . . . أنا الحكمة أسكن الذكاء وأجد معرفة التدابير . . . أنا الفهم . لى القدرة . بى تملك الملوك وتقضى العظماء عدلا . . . بى تترأس الرؤساء والشرفاء . كل قضاة الأرض » . وقد ورد نفس المعنى فى إنجيل يوحنا (١ : ١ — ١٤) ، وإن كان يوحنا قد عرضه فى صياغة مختلفة : «فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . هذا كان فى البدء عند الله . كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان . فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس . والنور يضىء فى الظلمة والظلمة لم تدركه . . . والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجداً » . وقد قصد يوحنا الإنجيلى بهذا النص — من واقع الرؤية المسيحية — أن اللوغوس الكوزمولوجى تجسد فى المسيح ، وهذا هو ما عبر عنه جوستين السامرى فقيه القرن الثانى بعبارة أخرى وهى أن اللوغوس الإلهى تحقق بكماله فى المسيح ، وهذا هو اللوغوس الذى قالت به الرواقية القديمة وظهر فى الأمثال ، ولكن يوحنا صاغه فى عبارات مسيحية .

عن العالم الروحى ، ولا يلتقى به إلا عن طريق القوة الالهية الحكيمة[1] . وهذا

---

(١) يرى فيلون أن هناك هوة بين العالم المادى والعالم الروحى الذى تتطلع إليه الشعوب المغلوبة والساعية إلى الخير والعدالة ، وأن عبور الهوة قد يكون ضربا من المستحيل . وهذا ينطبق فى رأيه على عالم السياسة الذى يصطرع فيه الخير والشر صراعا تكون فيه الغلبة للمادة فى النهاية كما تقول تجربة الدولة الرومانية عبر عشرات السنين . وإذا كان لابد من عبور الهوة لايجاد صلة بين العالم المادى والعالم الروحى تصون الحق ، فإنما تتحقق هذه الصلة عن طريق القوة الإلهية الحكيمة الحالة فى الكون ، وهذه القوة هى اللوغوس ، وهو الله الذى يحقق العدل . وإذا كان العالم الروحى عند فيلون ، وهو العالم الذى يمثل الحق والعدالة ، لا يلتقى بالعالم المادى ، الذى تمثله الدولة الرومانية بسياسة القوة ، إلا عن طريق اللوغوس أو الحكمة الالهية ، فان بوزيدون السورى يرى على العكس من ذلك أن التعاون بين مدينة الله ومدينة الانسان أمر ممكن ، لأن المدينتين تتجسدان فى الدولة الرومانية بكل أملاكها ومستعمراتها والشعوب التى تحكمها ، وأن هذه الدولة تستطيع — إن أرادت — أن تحقق العدالة بالفضيلة السياسية . والواقع أن هذا الاختلاف فى الرؤية الفلسفية بين بوزيدون وفيلون إنما ينبع من منطلقات سياسية مختلفة ، فقد تعدت تجربة بوزيدون مع الدولة الرومانية حدود الشعور بسوء السياسة التى أفرزتها الحروب الأهلية وانعكست على سائر الولايات والأقطار إلى وجهات نظر وآراء فى رجال الدولة الذين جمعتهم به مواقف أو علاقات شخصية أمثال ماريوس Marius ، وبومبى Pompeius ، وشيشيرون ، ولذلك يدعو بوزيدون إلى التعاون من أجل إقرار السلام . أما فيلون فقد كانت له تجربة مختلفة مع السياسة الرومانية ، ولا سيما سياسة الامبراطور جايوس (كاليجولا) الذى أصدر أوامره ليهود الاسكندرية بأن يقيموا شعائر الديانة الرومانية الوثنية . سافر فيلون فى السنة الأربعين للميلاد على رأس وفد يهودى إلى روما للمطالبة بإعفاء اليهود من هذه الأوامر ، ولكن الامبراطور لم يوافق على هذا الطلب ، فكتب فيلون مقالتين شديدتى اللهجة هاجم فيهما جايوس الامبراطور وفلاكوس Flaccus المعتمد

الروماني في مصر. وكان للمقالتين أثر كبير على مؤلف المقالة المقتضبة التي عرفت=

= بموت المضطهدين de mortibus persecutorum ، وهى مقالة من القرن الرابع لمؤلف مسيحى مجهول ، ونسبها بعض النقاد إلى العالم الأفريقى لاكتانتيوس الذى ازدهر فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع . وقد أوضح مؤلف هذه المقالة فى سياق نقده للأباطرة الرومان كيف يحل عقاب الله على من تسول له نفسه أن يضطهد المسيحيين ، وذلك على غرار النقد الذى وجهه فيلون ـ من وجهة نظر يهودية ـ إلى السياسة التى اتبعها جايوس ومندوبه فلاكوس ضد يهود الاسكندرية .

(١) إعتمد أوغسطين ، وهو واحد من أعظم آباء الكنيسة الغربية وقطب من أقطاب الفكر المسيحى فى القرن الخامس ، على نظرية فيلون فى العالم الروحى والعالم المادى لينطلق منها إلى فلسفة التاريخ التى عرضها فى كتابه « مدينة الله » de civitate dei ، وهو الكتاب الذى فلسف فيه أوغسطين فكرة المدينة السماوية والمدينة الأرضية ، وإن كان أوغسطين لم يقصد بهذا الكتاب أن يكون كتابا فى الفلسفة بقدر ما يكون كتابا فى السياسة يبين فيه وجهة النظر المسيحية فى تدهور الامبراطورية الرومانية فى الغرب بعد أن سقطت روما فى سنة ٤١٠ فى يد ألا ريش Alaric(h) ملك القوط الغربيين . ومع ذلك استطرد أوغسطين فى حديثه عن طبيعة التطور التاريخى على نحو جعله ينتهى إلى فلسفة مسيحية فى التاريخ كان لها أثر بعيد المدى على فكر العصور الوسطى ، وإن كان علماء تلك العصور لم يقدروا ـ من فرط غموض الكتاب ـ على إدراك معانية الحقيقية . فقد اعتقد هؤلاء العلماء أن أوغسطين رمز بمدينة الله إلى الكنيسة ، ورمز بالمدينة الأرضية إلى الامبراطورية الرومانية ، فى حين أن أوغسطين لم يقصد هذا المعنى على وجه التحديد ، وإنما قال بأن المدينتين قد تلتقيان ماديا فى الحياة الراهنة على مر تاريخ البشرية ، ولكنهما تنفصلان روحيا ومعنويا ، لأن الصراع بينهما لا يحدث على شاكلة الصراع الذى يدور فى واقع الحياة بين القوى السياسية ، وإنما هو صراع يدور فى النفس الانسانية بين الإرادة الروحية والإرادة الجسدية ،

الأفلاطونية ، كما يكشف عنها موضوع الفكرة والجوهر[1] .

على أية حال حاول فيلون أن يبرهن على وجود شبه بين تعاليم اليهودية ومفاهيم الفلسفة اليونانية ، وحاول أن يصوغ هذه التعاليم فى صياغات أدبية تناسب عبارات المجاز اليونانى ، لأن فيلون وجه اهتمامه للمعانى المجازية فى نصوص العهد القديم ، ذلك الاتجاه الذى تبنته بعد ذلك مدرسة اللاهوت المسيحية فى الاسكندرية ، على خلاف المدرسة اللاهوتية فى أنطاكية التى اهتمت بالمعانى التاريخية . فضلا عن أن فيلون صرح ، من واقع تأثره الشديد بالرواقية الجديدة ، بأهمية الفلسفة الأفلاطونية ، وكان هذا التصريح حاسما فى وضع منهج أفلاطونى — إن صح التعبير — لتفسير الكتاب المقدس رأى علماء المسيحية أنه يصلح لفهم الدين المسيحى ، ويمكن أن يكون منطلقا لتفسير العهد الجديد ، لأن فلسفة أفلاطون تنادى بفكرة المثل ، كما تنادى الرواقية بالمبادىء الانسانية ، وهذه المثل الأفلاطونية والمبادىء الرواقية

= شىء صراع بين القدرة الالهية والانسان . والانسان ينتمى منذ مولده إما إلى مدينة الأرض وهى مدينة الشيطان ، وإما إلى مدينة السماء وهى مدينة الله . ولا يمكن أن ينتقل الانسان بإرادته من المدينة الأولى إلى المدينة الثانية ، لأن مثل هذا الإنتقال لا يتوقف تحقيقه على إرادة الانسان ، وإنما يتحقق بالعناية الالهية providentia لأن العناية الالهية وحدها هى التى تصل بين المدينتين ، ولأن كل إرادة خاضعة لله ، ولأن النعمة الالهية لا تناقض الحرية ، وإنما هى ضرورة لفعل الخير الذى ندركه بالعقل والمحبة . ولا شك أن مناقشة أوغسطين للعلاقة بين الله والانسان على هذه الصورة يكشف عن اهتمامه بموضوع الأخلاق ، ذلك الاهتمام الذى نراه بصفة عامة عند آباء الكنيسة الغربية .

(١) كلمة اللوغوس عند فيلون تعنى الله بقدر ما نفهم الله على أنه فكرة مطلقة ، وتعني كلمة الله في رأيه جوهر الله كوجود مطلق.

رأى فيها علماء الكنيسة أنها تتفق مع تعاليم المسيحية إلى حد كبير . ولذلك فقد لا يكون من المبالغة فى شىء أن نعتبر فلسفة فيلون حلقة وصل بين الفلسفة اليونانية والفكر المسيحى ، لأن منهج التوفيق بين تعاليم الكتاب المقدس ومبادىء الفلسفة ، ولا سيما الفلسفة الأفلاطونية ، كان هو المنهج الذى اتفق عليه آباء الكنيسة فى التفسير ، ولأن العلم بالمعارف الكلاسيكية ، كما جسده فيلون وبولس ، خلق مثلا ثقافيا أعلى لعلماء الدين المسيحى .

هكذا وضحت معالم الطريق لشرح الكتاب المقدس على أسس الفلسفة اليونانية والعلوم الانسانية القديمة ، واتضحت للكنيسة دوافع الحكم فى قضية التفسير والثقافة الكلاسيكية . وأصبح الآن على علماء المسيحيين أن يطبقوا هذه المعادلة الصعبة ، معادلة التوفيق بين عالمين يختلفان اختلافاً جوهريا فى الشكل والمضمون ، هما عالم المسيحية وعالم الفلسفة . وبعبارة أخرى كان عليهم أن يفلسفوا المسيحية . ولكن ما أن يتفلسف الإنسان حتى يختلف الرأى . والفلسفة هى البحث عن الحقيقة . ولكن ما هى الحقيقة ؟ ما هى حقيقة الدعوة المسيحية ؟ حول هذا السؤال بدأ اللاهوت . وأخذ رواد الفكر المسيحى منذ مطلع القرن الثانى يبحثون له عن جواب فى تفسير الكتاب المقدس ، وأخذوا منذ القرن الثالث يضعون لهذا الجواب كل القواعد والأصول والنظريات الممكنة ، تلك القواعد والأصول والنظريات التى قدر لها أن تكون علامة بارزة فى الأدب الدينى والحياة الفكرية للأجيال المسيحية على مر العصور الوسطى والعصور الحديثة . وكان أوائل الآباء الذين تشبعوا بالثقافة الكلاسيكية وعركوا مجال الشرح والتفسير جوستين السامرى[1] ، وأكليمنضس

---

(١) إعتقد جوستين على نهج فيلون أن الفكر الأفلاطونى هو الفكر الذى يمكن وحده أن يكون أساساً لتفسير الكتاب المقدس، وقال بأن اللوغوس،=

الاسكندرى[1] ، ولاكتانتيوس الأفريقى[2] .

= وهو العقل الإلهى ، متمثل بكماله فى المسيح ، واستند فى ذلك إلى ما ورد فى الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا . وهذا يعنى فى رأى جوستين أن الحقيقة كاملة فى المسيح ، وقد تبعه فى هذا التفسير آباء الكنيسة ، وإن كان اللوغوس ، كما قال جوستين ، يوجد بقدر ما فى كل إنسان ، وهى فكرة الرواقية القديمة ، غير أن جوستين أعطى لهذه الفكرة بعداً مسيحياً سبق به أكليمنضس وعلماء المدرسة اللاهوتية فى الإسكندرية . وفى هذا ما يشير إلى أن جوستين تأثر بالفلسفة الرواقية برغم رفضه لها كفلسفة مثمرة .

(١) Titus Flavius Glemens (حوالى ١٥٠ — حوالى ٢١٤) ، كان من آباء الكنيسة الشرقية المعدودين . ولد أكليمنضس فى أثينا ، وجاب فى شبابه بلدان البحر المتوسط حتى طاب له المقام فى الإسكندرية مدينة الحضارات والفكر والأديان . وهنا فى الإسكندرية بحث أكليمنضس عن المعرفة عند بانتينوس Pantinus الذى كان آنذاك مديراً لمدرسة اللاهوت ، فدرس على يديه علوم الدين المسيحى ، كما درس على يديه فلسفة أفلاطون والرواقيين . وبعد أن رحل بانتينوس إلى الهند بمشورة ديميتريوس Demetrius الكرام بطريرك الإسكندرية الثانى عشر ، خلفه أكليمنضس فى إدارة المدرسة ، ووهب حياته للعلم . وكما فعل جوستين السامرى طرق أكليمنضس باب المسيحية بالفلسفة ، ولكن الفلسفة كانت تعنى عنده أكثر مما كانت تعنى عند جوستين . لقد كان أكليمنضس إنسانا متعطشاً للحياة ، تجذبه محافل الرفاهية ولفتات السلوك فى مجتمع المدينة ، فعشق الأدب اليونانى الذى يعكس مباهج الشباب ، ويحقق فى الخيال أحلام اليقظة ، ذلك العشق الذى حدد مصيره فيما بعد . وأبان اضطهاد الإمبراطور سبتيميوس ساويرس غادر أكليمنضس مدينة الإسكندرية بصفة نهائية ، وكان ذلك حوالى سنة ٢٠٢ ، وتوجه إلى ولاية قبادوقية Cappadocia فى آسيا الصغرى ، ثم رحل منها إلى سوريا وعاش فى أنطاكية Antiochia حتى وافته المنية.ولم يصلنا من مؤلفات أكليمنضس في الحقيقة إلا النزر اليسير، وفي هذا النزر تطالع القارئ بين صفحة=

= وأخرى شواهد من الفلسفة الأفلاطونية والفلسفة الرواقية تعانقها سطور من شعراء اليونان هوميروس Homeros (القرن التاسع ق . م .) ، وهسيود Hesiodos (القرن الثامن ق . م .) ، وكتاب المسرح اليونانى (القرن الخامس ق . م .) ، الذين تعرف عليهم أكليمنضس من المقتطفات المختارة والمصادر الثانوية الدارجة فى عصره . وكان هذا هو سبب اختلاف الأجيال المسيحية حول هذه الشخصية الفريدة المعقدة التى غلبت عليها الفطرة وحب الحياة ، وأتقنت فى نفس الوقت فن الجدل والحوار بأسلوب الأدب والفلسفة الجذاب . وقد اتهمته الكنيسة أكثر من مرة بالخروج على الدين لاستغراقه فى آداب العصور الوثنية التى خلبت لبه وملكت عليه فؤاده .

(٢) Lucius Caecilius Firmianus Lactantius (حوالى ٢٤٠ — حوالى ٣٢٠) ، عاش لاكتانتيوس عصرا مليئا بالتناقضات ، شهد فيه حكم الإمبراطور دوقلديانوس الذى اعتراه العنف والقسوة ، وحكم الإمبراطور قسطنطين الذى اتسم بالحكمة والدهاء ، واتسم قبل كل شىء بالتسامح ، فقد اعترف قسطنطين بالمسيحية ، وكان هذا الإعتراف نقطة تحول فى تاريخ العالم المسيحى . وهذا الحدث فى حد ذاته أعطى لعلماء الكنيسة منطلقا جديدا للتعبير عما يجيش فى نفوسهم بعد عهود من الخوف والتردد . وعرف لاكتانتيوس ، بوصفه علما من أعلام الكنيسة ، كيف يعبر عن فكره دون وجل وهو يخطو أولى مراحل العصر الجديد . درس لاكتانتيوس الخطابة على يد أرنوبيوس Arnobius أشهر المعلمين فى ذلك الزمان ، كما درس مبادىء القانون ، ولكنه وجه اهتمامه للخطابة ، واستدعاه دوقلديانوس إلى مقر حكمه فى نيقوميديا Nicomedia فى ولاية بيثينيا Bithynia فى آسيا الصغرى ، لكى يعلم الخطابة فى البلاط الإمبراطورى . وبالرغم من عداء لاكتانتيوس للفلسفة كان أكثر آباء الكنيسة الغربية تأثراً بالثقافة الوثنية ، واستهواه الأدب الرومانى ، فاقتطف فى مؤلفاته كثيراً من أقوال الكتاب الرومان ولا سيما شيشيرون ، حتى أن علماء عصر النهضة فى القرن الخامس عشر أسموه شيشيرون المسيحى Gicero Christianus .

ويرى كثير من النقاد أن جوستين السامرى كان أول من شرح العقيدة المسيحية بطريقة منهجية ، وأنه بهـذا المعنى كان أول اللاهوتيين . والحقيقة أن منهجية لاهوت جوستين ، ومن تبعه من فقهاء القرن الثانى ، لم تكن بالمعنى الذى نفهمه من منهجية اللاهوت المسيحى بعد ذلك ، وهى منهجية قصدت تنظير الدين كما فى لاهوت أوريجانوس الاسكندرى[1] فى القرن الثالث وعلماء الكنيسة من بعده ، وإنما كان لاهوت جوستين ، والآباء الذين عاشوا فى القرن الثانى أمثال أكليمنضس وترتوليان ، بمجرد محاولة نابعة من الشعور بالغيرة الدينية لتقييم مفاهيم الجماعة المسيحية الأولى فى القرن الأول على ضوء أسفار العهد الجديد ، تقييما يمكن أن يكون ردا على العقائد المسيحية المختلفة ، ولاسيما عقيدة الأغنوسطيين[2] التى جمعت

---

(١) Adamantius Origenes (حوالى ١٨٥ — حوالى ٢٥٤) .

(٢) Gnostici الأغنوسطيون هم الأدريون أو العارفون ، وهم مسيحيون هدفوا إلى الخلاص من شرور المادة ، وقالوا بادراك الله بالمعرفة ، واتفقوا ، علاوة على فكرة اللوغوس المسيحية ، مع فكرة العالم المعقول والعالم المحسوس فى الفلسفة الأفلاطونية ، وفكرة ثنائية الخير والشر فى الديانات الشرقية ، وفكرة الصراع بين الملائكة الدنيا فى الديانة اليهودية . ولذلك كانت الأغنوسطية بدعة خطيرة فى نظر الكنيسة ، مع أن الفلسفة الأفلاطونية الحديثة التى ظهرت فى القرن الثالث ، وتبناها علماء الكنيسة فى وضع منهج لاهوتى جـديد لتفسير الكتاب المقدس ، قرنت فلسفة أفلاطون بتعاليم الديانات الشرقية . على أية حال ظهرت الأغنوسطية الأدرية فى الحقيقة فى القرن الأول ، وحاول أصحابها أن يبشروا بها ، ولكن المسيحيين أبدوا عداءهم لها منذ البداية ، وشن عليها بولس فى رسالته إلى أهل كولوسى هجوما عنيفاً ، هذا فى الوقت الذى نرى فيه بولس نفسه يستخدم فى هذه الرسالة ، وكذلك فى رسالته إلى أهل غلاطية ورسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ، لغة شبيهة بلغة الأغنوسطيين . وبالرغم من هذا الهجوم العنيف ظل=

فى تعاليمها بين فكرة اللوغوس فى المسيحية كما حددها جوستين السامرى ، وفكرة الثنائية فى فلسفة أفلاطون ، وديانة زرادشت[1] ، وديانة ميثرا[2] ، والديانة اليهودية . ولذلك كان لاهوت القرن الثانى ، الذى مثله جوستين وأكليمنضس وترتوليان ، لاهوتا دفاعياً[3] قبل كل شىء ، قصد به تثبيت المفاهيم المسيحية التى تناهت من القرن الأول إلى علم الأجيال من ناحية ، وقصد به تفضيل الدين المسيحى على

= لهذه العقيدة تأثير على عدد من المثقفين ، وازداد انتشارها فى القرن الثانى ، وانبرى الأبولوجيون apologetci ، وهم المدافعون عن المسيحية ، للرد عليها ودحضها ما فعل جوستين وأكليمنضس وترتوليان ، وكما فعل أوريجانوس فى القرن الثالث ، وإن كان أكليمنضس وأوريجانوس قد ردا على الأغنوسطية الأدرية بأغنوسطية مضادة عرفت بالأغنوسطية الأرثوذكسية .

(١) ينطق بالفارسية زاراثوشترا Zarathushtra ، إزدهرت ديانته فى عصر الدولة الساسانية (٢٢٦ — ٦٤٢) ، وأصبحت هى الديانة المعترف بها فى فارس فى ظل هذه الدولة .

(٢) ميثرا ، أو ميثراس Mithras وهو إله النور والخلاص الفارسى . كانت عبادته قاصرة على الرجال . ويخبرنا الكتاب المسيحيون القدامى أن الديانة الميثرائية كان لها ضمن شعائرها وأسرارها فى العصور الهلينستية شعيرة التطهير الذى كان يتم بدماء الثيران المذبوحة للقرابين ، وشعيرة التناول ، ويقابلهما فى المسيحية طقس المعمودية baptismus الذى يتم بالماء علامة التطهير من الخطيئة والإنتساب إلى الكنيسة ، وطقس الأفخارستيا euharistia وهو طقس القربان الذى يمثل العشاء الأخير تمثيلا رمزياً للتكفير ، وهو العشاء الذى تناوله السيد المسيح مع الحواريين ليلة تسليمه . وقد انتشرت ديانة ميثراً فى العالم الرومانى فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد وأوائل القرن الأول الميلادى ، واقترنت بعبادة الشمس التى لا تقهر Sol invictus ، ولاقت هذه الديانة بصفة خاصة رواجا بين الجنود .

(٣) theologia apologetica .

الفلسفات والأديان الوثنية من ناحية أخرى ، بالرغم من أن الفقه المسيحى قام على أساس المعرفة بالفلسفة والثقافة الكلاسيكية الوثنية . أما اللاهوت المنهجى بوصفه فقها يصوغ الدين المسيحى فى قواعد ونظريات ، فإنه لم يظهر إلا فى القرن الثالث كما ذكرنا على يد أوريجانوس الإسكندرى الذى وضع للشراح المسيحيين قواعد الفقه التى ساروا عليها بعد ذلك فى تفسير الكتاب المقدس ، بصرف النظر عن الآراء التى جاء بها أوريجانوس ، وتهمة الخروج على الدين التى وجهتها إليه الكنيسة .

وقد ظهر هذا اللاهوت المنهجى فى الحقيقة بظهور الفلسفة الأفلاطونية الحديثة . فما أن حل القرن الثالث حتى اضمحلت المدرسة الرواقية كمدرسة ، ولكنها تركت بصماتها فى فلسفة جديدة ظهرت على الفور فى النصف الأول من هذا القرن على يد واحد من فلاسفة مصر هو أفلوطين[١] ، وعرفت هذه الفلسفة بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، لأنها اعتمدت أساساً على فلسفة أفلاطون . ولكن الفكرة الحديثة هنا تكمن فى أن أفلوطين قرن الأفلاطونية بالرواقية وتعاليم الديانات الشرقية[٢]

---

(١) Plotinus (٢٠٥ — ٢٦٩ / ٢٧٠) .

(٢) جذبت الديانات الشرقية أفلوطين ، فانضم الى الحملة العسكرية التى قادها الإمبراطور جورديان الثالث فى سنة ٢٤٣ لمحاربة الفرس ، لكى يقف أفلوطين على فكر الشرق المثير فى بلاد فارس ، التى كانت تجتاحها كذلك تيارات فكرية من الهند ، وإن كان بعض المؤرخين يرى أن أفلوطين كان على علم سابق بالعقائد الهندية عن طريق التجار الذين كانوا يفدون بين وقت وآخر على الإسكندرية . على أية حال كان للتجارب التى مر بها أفلوطين من خلال أسفاره ودراساته أثر كبير على فلسفته التي استطاع بها أن يطور الفكر اليوناني. ونتلخص هذه الفلسفة في=

التى كانت قد تطورت فى العصور الهلينستية (٣) ، فأصبحت على مر الوقت ديانات مغرقة فى الصوفية ، تحمل فى عقائدها بنغمة جديدة فكرة الحرية والخلاص ،

= أن كل أشكال الوجود ، سواء كانت مادية أم معنوية ، عارضة أم أزلية ، تتكون بفيض من قوة مفردة غير مادية ، أسماها أفلوطين الواحد ، كما عند بارمينيدس Parmenides الذى ازدهر فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، وأسماها الخير ، كما فى جمهورية أفلاطون . وهذه القوة بوصفها واحدا تكون أساسا لكل الوجود ، وبوصفها خيرا تكون مصدرا لكل القيم . وبين الواحد والمادة ثلاث درجات من الحقيقة هى العقل ، والنفس ، والطبيعة . ولكن الواحد عند أفلوطين مستقل عن العناية الالهية ، والاتحاد معه لا يتم الا بالارادة . ومن الجدير بالذكر أن مؤلفات أفلوطين لم ترد بها أية اشارة صريحة الى المسيحية ، الأمر الذى جعل من فلسفته فلسفة وثنية فى نظر الأجيال . وقد رفضها العلماء فى القرن التاسع عشر ، وكانت حجتهم فى ذلك أن أفلوطين حاول التوفيق بين الأفكار اليونانية والأفكار الشرقية بطريقة لا يحدوها المنطق . ولكن العلماء المحدثين يعترفون الآن بفضل أفلوطين على الفلسفة ، ويعتبرونه من أكثر العقول الفلسفية نفوذا منذ أرسطو حتى ديكارت مرورا بفلاسفة العصور الرومانية الأخيرة والعصور الوسطى ، ويرون فى فلسفته تطورا منطقيا فى الفكر اليونانى القديم ، تطورا يلبى حاجات عصره الجديد .

(٣) ربطت فتوحات الاسكندر المقدونى فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حضارة الشرق بالحضارة اليونانية ، ونتج عن هذا الارتباط حضارة عالمية عرفت بالحضارة الهلينستية Hellenistic civilization ، لأنها جمعت بين الحضارة الهلينية Hellenic أى الحضارة اليونانية ، والحضارة الآسيوية Asiatic . وقد شملت هذه الحضارة العالمية الجديدة عالم البحر المتوسط والولايات والأقطار التى فتحها الاسكندر حتى حدود الهند . ويرى بعض العلماء أن عصور الحضارة الهلينستية انتهت فى عهد الامبراطور أوكتافيوس أغسطس فى مطلع القرن الأول الميلادى ، ويرى البعض الآخر أنها امتدت حتى عهد الامبراطور قسطنطين وانتصار المسيحية على الوثنية فى القرن الرابع . =

وتؤكد على صراع النور والظلام ، أى صراع الخير والشر ، وكان من أهم هذه الديانات ديانة ايزيس المصرية [1] ، وديانة ميثرا الفارسى . وهكذا لما استقرت

= وقد انتشرت الديانات الشرقية القديمة فى سائر بلدان العالم الهلينستى ، وطرأ عليها نتيجة لتأثير العقائد اليونانية ثم العقائد الرومانية تطور كبير ، فأصبحت ديانات أكثر إثارة ، يكتنفها عديد من الأسرار الغامضة التى جذبت اليها جموع الأهالى فى عهود الجمهورية الرومانية الأخيرة فى شتى الولايات والمستعمرات المحكومة ، لأنها كانت تجسد لهم فى أطوارها الجديدة معانى الحرية والخلاص من نير الحكم الرومانى الذى بدأ الآن يجنح نحو الاستبداد . وازدادت حماسه العامة والمثقفين لهذه الديانات الشرقية الغريبة حتى بعد أن ظهرت المسيحية وأخذت فى الانتشار فى عهود الامبراطورية الأولى فى سائر أقطار البحر المتوسط . وما أن أوشك القرن الثانى على الغروب حتى كانت هذه الديانات قد استهوت أوساطا كثيرة من الوثنيين والمسيحيين على السواء ، وكان لها كذلك أثر كبير على العقيدة الأغنوسطية التى تصدى لها الأبولوجيون أمثال جوستين السامرى وأكليمنضس وترتوليان ، كما كان لها أثر كبير على الفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

(١) تمتعت عبادة ايزيس Isis بنفوذ واسع النطاق فى العالم الهلينستى ، ولقبت ايزيس باللغة اليونانية ، كيريا ، Kyria ومعناها السيدة ، واعتبرت أم الموجودات ، وبداية الأزمان ، وباعثة الخلاص ، كما يخبرنا بذلك المتصوف الأفريقى الكبير أبوليوس Apuleius الذى عاش فى القرن الثانى .وانتقلت عبادة ايزيس الى روما فى العقود الأخيرة من عصر الجمهورية فى عد سولا Lucius Cornelius Sulla الذى انتهى حكمه فى سنة ٧٨ قبل الميلاد ، ولكن مجلس الشيوخ الرومانى ، الذى كان أعضاؤه من الأرستقراطيين المحافظين على تقاليد الديانة الوثنية القومية التى ترعاها الدولة ، حارب ديانة ايزيس ، كما حاربها بعد ذلك فى عصر الامبراطورية الامبراطور تيبريوس Tiberius (١٤ — ٣٧) ، ولكن خليفته الامبراطور جايوس كاليجولا (٣٧ - ٤١) شجع هذه الديانة وأصبح لها

مبادىء الفلسفة الأفلاطونية الحديثه فى القرن الثالث ، رأى العلماء المسيحيون أن المعانى الروحية والصوفية التى تضمنتها هذه الفلسفة تنسجم بصورة أفضل مع معانى الدين المسيحى . وسرعان ما أصبح للأفلاطونية الحديثة تأثير على آباء الكنيسة ، وتبلور هذا التأثير فى منهج لاهوتى لتفسير الكتاب المقدس قدر له أن يكون منهج التفسير للأجيال القادمة . وكان رائد هذا المنهج كما رأينا هو أوريجانوس الاسكندرى[1] ، وتبعه فى ذلك آباء الكنيسه ، وبصفة خاصـــة آباء الكنيسة الشرقية أغريغوريوس

---

(١) يعد أوريجانوس من أكثر فقهاء الكنيسة شهرة وتأثيرا ، وقد لا يجاريه أحد فى ذلك غير أوغسطين . والراجح أن أوريجانوس كان من مواليد الاسكندرية ، وأنه ولد حوالى سنة ١٨٥ من أبوين مسيحيين . والحقيقة أن أوريجانوس أبدى موهبة فذة فى صباه ، فقد بدأ فى الاختلاف إلى مدرسة اللاهوت فى الاسكندرية والاستماع إلى دروس بانتينوس وأكليمنضس وهو فى الخامسة عشرة من عمره . ودفعه شغفه بالفلسفة إلى حضور الدروس التى كان يلقيها أمونيوس Ammonius فى مدرسته الوثنية . واستطاع أوريجانوس أن يتعمق فى دراسة كتب أفلاطون ، والفيثاغورى الحديث نومينيوس الأبامى Numenius Apameneis الذى ازدهر فى سوريا فى القرن الثانى الميلادى ، كما تعمق فى دراسة الفلسفة الرواقية . وفى نفس الوقت حاول أوريجانوس أن يتعلم اللغة العبرية كى تساعده هذه اللغة على قراءة العهد القـــديم فى لغته الأصلية . وفى سنة ٢٠٣ عينة ديميتريوس الكرام بطريرك الاسكندرية مديرا لمدرسة اللاهوت وهو فى الثامنة عشرة من عمره . وما لبث أوريجانوس أن وضع برنامجا لدراسة الفلسفة ، لكى يوفر لتلاميذه أصولا لتفسير الكتاب المقدس ، فقرن العلوم الدينية بالعلوم الانسانية التى تعتبر مقدمة طبيعية لدراسة الفلسفة. ولكن أوريجانوس أقدم على تصرف أثار غضب البطريرك ديميتريوس ، فقد خصى أوريجانوس نفسه عملا بما جاء فى انجيل متى (١٩ : ١٢) . «لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم . ويوجد خصيان خصاهم الناس. ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات. من استطاع=

=أن يقبل فليقبل . وقد واصل أوريجانوس عمله فى مدرسة الاسكندرية حتى سنة ٢٣١ . ولكن هذه الفترة الطويلة التى قضاها أوريجانوس فى الاسكندرية تخللتها رحلات عديدة إلى روما وبلاد العرب . ولما ذهب أوريجانوس إلى فلسطين طلب منه اسكندر Alexandrus أسقف أورشليم وثيوستيت Theostetus أسقف قيصرية ، وكانا من تلاميذه الذين تعلموا على يديه فى الاسكندرية ، أن يلقى محاضرات عامة فى الكنائس . وبالرغم من أن قيام واحد من العلمانيين بمثل هذا العمل كان أمراً طبيعيا فى فلسطين ، بل وفى مختلف أرجاء الشرق ولاسيما فى آسيا الصغرى ، الا أن ديميتريوس عبر عن رفضه لهذا التصرف ، لأن كنيسة الاسكندرية كانت قد أنصرفت عن هذا التقليد ، ولذلك انتهز ديميتريوس هذه الفرصة واستدعى أوريجانوس الى الاسكندرية ولذلك تدهورت العلاقات بين ديميتريوس وأوريجانوس ، ولكن أوريجانوس عرف كيف يكتم مشاعره ، وعكف على القاء محاضراته وعلى كتابة بحوثه ومؤلفاته الغزيرة فى اللاهوت . وفى سنة ٢٣٠ ساءت العلاقات بينهما تماما بعد أن رحل أوريجانوس الى بلاد اليونان وقبل وهو فى طريق العودة أن يكون شيخا لاحدى الكنائس فى فلسطين بناء على رغبة اسكندر وثيوستيت . فقد رأى ديميتريوس أن فى هذا انتهاكا لحقوقه ، ودعا إلى عقد مجمع ، وقرر نفى أوريجانوس من الإسكندرية . ثم ما لبث ديمتريوس أن عقد مجمعاً آخر إقتصر على الأساقفة، وقرر عدم الإعتراف بشياخة أوريجانوس للكنيسة الفلسطينية ، وإدانته لأنه خصى نفسه خروجا على تقاليد الكنيسة المصرية وأعلن بعض الآراء التى أثارت بعض البلبلة . ووافقت أغلب الكنائس على ما انتهى إليه مجمع الإسكندرية ولا سيما كنيسة روما . وحاول أوريجانوس بعد ذلك أن يبرر موقفه فى خطاب أرسله إلى أسقف روما فابيان Fabianus (٢٣٦ — ٢٥٠) ، ولكن هذا الخطاب لم يكن له أى صدى فى نفس الأسقف . وعلى أية حال ، ففى سنة ٢٣١ بعد أن تأزم الموقف بسبب القرارات التى أعلنها مجمع الإسكندرية ، رحل أوريجانوس من الإسكندرية بصفة نهائية ، وتوجه إلى فلسطين ، لأن الكنائس الفلسطينية لم تعترف بالإدانة التى أصدرها المجمع، وقضى

أوريجانوس بقية حياته في قيصرية، وأسس هناك مدرسة لاهوتية مزدهرة. وتحمس=

= عدد كبير من رجال الدين لحضور دروسه ، من بينهم أغريغوريوس صانع العجائب Cregorius Thaumaturgus وأخوه أثينادوراس Athenadoras . وفى تلك الأثناء توفى البطريرك ديمتريوس ، وخلفه على كرسى الإسكندرية ياروكلاس Iaroclas ثم ديونيسيوس Dionysius اللذان كانا من تلاميذ أوريجانوس، وحاول كل منهما أن يقنع أوريجانوس بالعودة إلى الإسكندرية بعد أن تم العفو عنه ، ولكن أوريجانوس فضل البقاء فى قيصرية فلسطين . ومن هناك سافر إلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان . وبعد ذلك سافر إلى بلاد العرب ، وهناك ناقش بيريلوس Beryllus أسقف بصرى Bostra فى بعض الموضوعات الدينية ، وقام بمكاتبة الإمبراطور فيليب العربى Philippus Arabs وزوجته ساويرا (سفيرة) Severa . وفى سنة ٢٥٠ اندلع اضطهاد الإمبراطور دقيوس ، وقبض على أوريجانوس ، وأودع السجن ، ثم أفرج عنه . وأخيرا توفى أوريجانوس فى مدينة صور ، ومن المحتمل أن وفاته كانت فى سنة ٢٥٤ . والحقيقة أننا نعرف الجانب الأكبر من حياة أوريجانوس من الأخبار التى رويت عنه في تاريخ الكنيسة الذى سجله أوسابيوس القيصرى ، فقد خصص أوسابيوس شطرا كبيرا من الكتاب السادس للحديث عن أوريجانوس . كما اشـــترك أوسابيوس وبامفيلوس Pamphilus فى تأليف مقالة دفاعية عنه لم يصلنا منها غير فصل واحد فى نسخة لاتينية Eusebii et Pamphili apologia Origenis قام بترجمتها من اللغة اليونانية روفينوس الأكويلى Rufinus Aquiliensis فى القرن الرابع . هذا ولا شك أن أوريجانوس يعد مع أفلوطين من أكبر زعماء الفكر فى القرن الثالث . ولا شك كذلك أنه حدد من خلال نظرته العالمية وتأثره بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة مسار اللاهوت لعشرات السنين ، وسار على نهجه أغلب آباء الكنيسة حتى القرن السادس . لقد شغل أوريجانوس ببعض المسائل التى تمثل موضوعات أساسية فى الفلسفة الأفلاطونية كمسائل الخير والشر والخلود ، وتمثل فى رأى أوريجانوس موضوعات فى المسيحية . صحيح أن فيلون اليهودى والأغنوسطيين وأكليمنضس كانوا قد تناولوا بعبارات الفلسفة والمجاز مثل هذه الموضوعات على ضوء ما أشار إليه الكتاب المقدس وماجاء فى الأشعار اليونانية ولاسيما فى أشعار =

النيساوى[١] ، وسيناز القورينى [٢] ، وآباء الكنيسة الغربيـــة أمبروز [٣] ، وأوغسطين[٤] ، وبويس [٥] .

* * *

عرفنا مما سبق مدى أهمية الفلسفة اليونانية والثقافة الكلاسيكية لفقه الدين المسيحى ، وعرفنا أن آباء الكنيسة الأوائل أدرجوا بعض العلوم الانسانية القديمة فى برامج المدارس الدينية ، لأنها علوم لا غنى عنها للوصول الى معانى العقيدة المسيحية ، وعلى أقل تقدير تلك العلوم التى قد تساعد على تفسير الكتاب المقدس وفهمه فهما يتمشى مع مفاهيم الفلسفة الأفلاطونية . فبعد البحث والمناقشة اتفق العلماء المسيحيون على تقرير بعض الكتب والمقالات الكلاسيكية التى تتناول الفلسفة والأخلاق ولا تتعارض مع مبادىء التربية المسيحية ، والتى تصلح فى نفس الوقت لأن تكون نماذج المطالعة فى العلوم الانسانية فى المدارس الدينية ، لأن المؤلفات المسيحية الواجبة لتربية النشء المسيحى لم تكن حتى القرن الثالث قد أكتملت بعد ، ولأن الكتب والمقالات العلمية الكلاسيكية التى اختارتها الكنيسة لتكون مراجع الدراسة فى مختلف المدارس كانت من ناحية ضرورية لفهم كثير من أمور الدين المسيحى ، ومن ناحية أخرى كانت هى السبيل الوحيد لدراسة اللغة اليونانية واللغة اللاتينية فى مستوياتهما القديمة العالية التى تنفذ الى معانى الكلمات الصحيحة ، تلك المستويات الكلاسيكية الرفيعة التى كانت فى حد ذاتها غاية مثلى من غايات الثقافة المنشودة .

= هوميروس ، ولكن أوريجانوس جاء بجديد لم يسبقه إليه أحد ، فقد وقف لأول مرة فى أدب الدين المسيحى على منهج لشرح الكتاب المقدس يمكن أن تفهم به هذه الموضوعات على نحو أعمق ، معتمدا فى ذلك على دراسة الأخلاق والمنطق والطبيعة والهندسة والفلك ، وقد أورد أوريجانوس بيانا بهذا المنهج فى كتابه المشهور الذى أسماه كتاب البدايات (de principiis) peri archon .

(١) Gregorius Nyssaeus . (حوالى ٣٣٠ — حوالى ٣٩٥) أحد

= الآباء الكبار فى الكنيسة الشرقية ، والأخ الأصغر لباسيلى Rasileios أسقف قيصرية Caesarea فى مقاطعة قبادوقية فى آسيا الصغرى . وحوالى سنة ٣٧١ رسم باسيلى أخاه أغريغوريوس أسقفا على نيسا Nyssa وهى مدينة صغيرة فى نفس المقاطعة . وقد رأى الأريوسيون فى أغريغوريوس النيساوى عدوا لدودا بسبب آرائه فى موضوعات اللاهوت ، وانتهزوا فرصة التدهور الذى آلت إليه أبرشية نيسا بسبب افتقار أغريغوريوس إلى الخبرة الإدارية ، وعقد ديميتريوس Demetrius حاكم ولاية بنطس Pontus الأريوسى مجمعا فى أنقرة Ancyra سنة ٣٧٥ ، وأصدر المجمع قرارا بعزل أغريغوريوس من منصبه لإهماله فى إدارة أبرشيته . وفى العام التالى صدر قرار بنفيه ، وغادر أغريغوريوس قبادوقية ، ولم يرجع إليها إلا فى سنة ٣٧٨ . ويذكر مرسوم إعادة تنظيم الكنائس الذى أصدره بعد ذلك الإمبراطور ثيودوسيوس الأول أن أغريغوريوس النيساوى كان أسقفا لأبرشية بنطس ، ويستفاد من هذه الإشارة أن أغريغوريوس عين أسقفا لهذه الأبرشية بعد رجوعه من المنفى ، ولا بد أنه حضر مجمع القسطنطينية الذى انعقد فى سنة ٣٨١ بهذه الصفة ، والراجح أن الإمبراطور ثيودوسيوس كان وراء هذا التعيين ، فمن المعروف أن أغريغوريوس عاون الإمبراطور معاونة فعالة فى قمع الأريوسية عند تولية الحكم سنة ٣٧٩ . وفى العـــام التالى لمجمع القسطنطينية سافر أغريغوريوس إلى بلاد العرب لكى يتفقد الكنائس هناك ، وزار أورشليم وهو فى الطريق . وكانت آخر الأنباء عن أغريغوريوس أنه حضر مجمعاً فى القسطنطينية فى سنة ٣٩٤ لحسم مشاكل الكنائس فى بلاد العرب . وبالرغم من أن أغريغوريوس النيساوى لم يكن يتمتع بنفس المقدرة الإدارية التى كان يتمتع بها أخوه باسيلى ، إلا أنه كان يفوقه فى مجال اللاهوت ، وقد تأثر بأوريجانوس الذى كان متفقا معه فى بعض النقاط ، وقرأ كثيراً لأفلاطون ، وفيلون اليهودى ، وليبانيوس Libanius الخطيب . ولأغريغوريوس محاورة عن القيامة de resurrectione كتبها على غرار محاورة فيدون phaedon الأفلاطونية عارض فيها فكرة أفلاطون عن الروح . وله مقالة هامة ضمنها كثيرا من أفكاره ، وهى عبارة عن سيرة كتبها عن أخته الكبرى مكرينا =

= de vita Macrinae التى كانت رئيسة لأحد أديرة الراهبات ، والتى كان أغريغوريوس يكن لها كل محبة وتقدير . وقد تأثر أغريغوريوس بصفة خاصة بأفلوطين مع أنه انتقده فى كثير من المواضع . ونلمس هذا التأثير فى شرحه لنشيد الأنشاد commentarius in canticum canticorum، ومقالته عن حياة موسى عليه السلام de vita Moysis . كان أغريغوريوس النيساوى فى الحقيقة من أكثر اللاهوتيين ثقافة فى القرن الرابع لاطلاعه الواسع فى مختلف العلوم ، ولا سيما العلوم الطبيعية والطب، ومؤلفاته تتضمن كثيراً من موضوعات هذه العلوم .

(٢) Synesius (حوالى ٣٧٠ — ٤١٣) من قورينا Cyrene (الآن أطلال الجرنة فى ليبيا) ، تلميـــذ هيباتيا Hypatia العالمة الاسكندرية فى الفلسفة والفلك والرياضيات ، وأبنة العالم الرياضى المشهور ثيون Theon الإسكندرى ، وهى التى راجعت شروح أبيها لكتاب المنهج الرياضى الكبير المعروف بالمجسطى Almegistus الذى ألفـــه الفلكى بطلميوس Ptolemaeus فى القرن الثانى . وقد ذاع صيت هيباتيا كمعلمة للفلسفة الأفلاطونية الحديثه ، وجذبت هيباتيا سيناز الى حضور دروسها ، وجعلته من أكثر اللاهوتيين حماسة لهذة الفلسفة ، كما جعلته من أخاص أصدقائها . كانت لسيناز قراءات واسعة فى الفلسفة اليونانية والأدب اليونانى ، وكان مغرماً بصفة خاصة بالشعر والخطابة . وقد أتقن سيناز الكتابة باللغة اليونانية السليمة ، وكتب مؤلفاته باللهجة لأتيكية ، أما ترانيمه فقد كتبها باللهجة الدورية . وقد شاعت قراءة مؤلفاته فى بيزنطة طوال العصور الوسطى ، وكان من أشهرها مقالة الأحلام ، وخطبة الملك التى القاها فى حضرة الامبراطور أركاديوس عندما سافر سيناز الى القسطنطينية حـــوالى سنة ٣٩٩ لكى يطلب من البلاط الامبراطورى أن يعمل على تدارك الأزمة المالية التى حلت ببلاده ، وعلى تخفيض الضرائب المستحقه عليها . وفى أخريات حياته أحاطت بسيناز المشاكل والأحزان ، وعبر سيناز عن هذه الأحزان فى رسالة بعث بها سنة ٤١٣ الى أستاذته وصديقته هيباتيا ، وكانت هذه آخر رسالة يكتبها ، فقد توفى سيناز بعد ذلك ، ولقيت هيباتيا بعد وفاته بسنتين مصرعها الدامى عندما استدرجتها جماعة من المسيحيين الى احدى الكنائس وقتلتها شر قتلة ، وكان ذلك =

= فى عهد كيرلس الأول بطريرك الاسكندرية . وهكذا لم يمتد الأجل بسينازيوس لكى يسمع بمقتل هيباتيا ، وشاء القدر الرحيم ألا يضيف حزنا الى أحزانه .

(٣) Ambrosius (حـوالى ٣٣٩ — ٣٩٧) ولد فى ترير (تريف) Trier (Trèves) فى بلاد الغال الناربونية Gallia Narbonensis ، وكان والده أوريليوس Aurelius محافظا لهـا . وبعد أن توفى أوريليوس رحل أمبروز مع إمه الى روما ، وهناك تلقى علومه الدينية كما تلقى علومه الكلاسكية والقانونية ، ثم اشتغل محاميا فى مدينة سيرميوم Sirmium فى بانونيا السفلى (الآن أطلال بالقرب من مدينة ميتروفيتشا Mitrovitza فى شمال يوغسلافيا) وكانت من أهم مدن البلقان . وفى سنة ٣٧٠ عين أمبروز ، وكان فى نحو الثلاثين من عمره ، محافظاً لمقاطعتى ليجوريا Liguria وإيميليا Aemilia فى شمال إيطاليا ، وكان يباشر هذا المنصب من مقره فى ميلانو . وفى سنة ٣٧٤ عندما توفى أوكسينتيوس Auxentius الأريوسى أسقف ميـلانو اختلف الأريوسيون والكاثوليك المؤمنون بقرارات مجمع نيقية على من يخلفه ، وكان الخطاب المؤثر الذى ألقاه أمبروز فى هذه المناسبة سبباً فى اختياره أسقفاً بالرغم من أنه لم يكن قد تلقى المعمودية بعد . ومنذ ذلك الوقت وطد أمبروز العزم على أن يرى الامبراطورية الرومانية وقد تخلصت من عقائد الوثنيين والأريوسيين واليهود . ولذلك أخذ فى مواجهة الأريوسيين مواجهة صريحة ، وألقى خطبا كثيرة هاجم فيها العقيدة الأريوسية نالت استحسان الأمبراطور جراتيان Gratianus (٣٦٧ — ٣٨٣) الذى اختار ميلانو مقرا لحكمه ، والذى أهدى له أمبروز مقالته عن الإيمان de fide ad Gratianum . وطلب بالاديوس Palladius وسـيكونديان Secundianus ، وهما من زعماء الأريوسيين ، أن يعقد جراتيان مجمعا مسكونيا من كل أساقفة الأمبراطورية لكى ينظر فى أمر هذا الخلاف . ولكن أمبروز أقنع جراتيان بأن يكون المجمع محليا وقاصرا على أساقفة الغرب حتى لا تقوى حجة الأريوسيين بتعضيد أنصارهم فى الشرق . وانعقد هذا المجمع المحلى فى سنة ٣٨١ فى مدينة أكويليا Aquileia فى مقاطعة فينيتيا فى شمـال شرق إيطاليا ، وحضره إثنان وثلاثون أسقفاً ، وانتخب أمبروز رئيساً للمجمع الذى أصدر قراره بإدانة بالاديوس وسيكونديان . وبلغ من عداء أمبروز للأريوسية أن رفض بعد وفاة جراتيان طلبا تقدمت به فى سنة ٣٨٥ أرملته الإمبراطورة =

= جوستينا Justina باقامة كنيسة فى ميلانو للقوط الأريوسيين المجندين فى الجيش الرومانى . وقد أيد أمبروز سياسة جراتيان الذى ناصب الوثنيين العداء وأمر بازالة مذبح الالهة فيكتوريا Victoria من قاعة الاجتماع فى السناتو (مجلس الشيوخ) بموجب المرسوم الذى أصدره فى سنة ٣٨٢ بسحب اعتراف الدولة بالديانة الوثنية وتجريد المعابد من مخصصاتها . وكان من الطبيعى أن يثور الوثنيون ، وكان مازال لهم نفوذ فى سياسة الدولة ، ضد هذا المرسوم ، وأن يصارعوا من أجل أعادة مذبح فيكتوريا إلى مكانه فى مجلس الشيوخ وأحياء الشعائر الوثنية ، وخاصة عندما تولى الخطيب المفوه سيماكوس Symmachus محافظة روما فى سنة ٣٨٤ وكان من أشد الأرستقراطيين الرومان دفاعا عن الوثنية . وقد قدم سيماكوس طلبا بذلك إلى الأمبراطور فالنتينيان الثانى Valentinianus II (٣٧٥ — ٣٩٢) ، ولكن أمبروز عارض هذا الطلب فى رسالة بعث بها إلى الأمبراطور ، واستجاب فالنتينيان لحجة أمبروز ، بالرغم من أنه لم يكن على وفاق معه من الناحية المذهبية ، لأن الأمبراطور كان من المتحمسين للعقيدة الأريوسية ، الأمر الذى دفع بالبلاط الأمبراطورى فى عهده إلى رفض الآراء التى كان أمبروز ينادى بها دفاعا عن الكاثوليكية . ومع ذلك اعترف البلاط بأمبروز كرجل من رجال الدولة المرموقين بسبب المهارة التى أظهرها فى إدارة أسقفية ميلانو وهى من أكبر أسقفيات إيطاليا شأنا ، والكياسة التى كان يتحلى بها فى مخاطبة الأباطرة والمسئولين . ولذلك عندما وصل مكسيموس Magnus Maximus إلى السلطة فى بلاد الغال بعد أن أطاح بالأمبراطور جراتيان ، وفكر فى التحرك نحو إيطاليا ، طلب فالنتينيان من أمبروز أن يتفاوض مع مكسيموس لكى يعدل عن فكرته ، ونجح أمبروز فى هذه المهمة ، وإن لم يحالفه النجاح فى المرة الثانية عندما عاود مكسيموس فكرة الهجوم واستطاع أن يدخل بقواته فى إيطاليا وأن يستولى على ميلانو . وفى سنة ٣٩٢ بعد اغتيال فالنتينيان الثانى استولى يوجينيوس Eugenius على السلطة وكان متعاطفا مع الوثنيين فأعاد مذبح فيكوريا فى مجلس الشيوخ ، وأمام هذه الأحداث لاذ أمبروز بالفرار من ميلانو . وبالرغم من ذلك ، بعد أن انتصر الأمبراطور ثيودوسيوس الأول على يوجينيوس فى موقعة نهر فريجيدوس =

= Frigidus بالقرب من أكويليا طلب أمبروز من الإمبراطور أن يعفو عن أنصار يوجينيوس . وهكذا كانت مواقف أمبروز من الوثنية والأريوسية . أما عداؤه لليهودية فقد تمثل فى الواقعة التى حدثت سنة ٣٨٨ عندما أحرق أحد الأساقفة معبدا لليهود فى مدينة صغيرة هى مدينة كالينيكوم Callinicum على نهر الفرات ، وأمر ثيودوسيوس أن تتولى الكنيسة هناك اعادة بناء المعبد ، فقد قدم أمبروز إلى الأمبراطور التماسا بأن يعفو عن هذا الأسقف ، وأن يعتبر المسألة منتهية . وقد حدث فى سنة ٣٩٠ أن أمر ثيودوسيوس بقتل سبعة آلاف رجل فى سالونيكا Thessalonica في بلاد اليونان انتقاما لاغتيال أحد قادة الجيش الأمبراطورى ويدعى بوتيريك Butheric . وأثار هذا الحادث أمبروز فوقع الحرم الكنسى على الأمبراطور الذى اضطر إلى إعلان توبته وتكفيره عن هذا الذنب فى ظروف غير معروفة ، وأن كان بولينوس Paulinus موثق أسقفية ميلانو وكاتب سيرة أمبروز أضفى على هـــذه الواقعة بعض التفاصيل الأسطورية . ومهما يقال فى هذا الصدد فإن أمبروز كانت له فى الواقع شخصية آسرة فيها ملامح الشخصية القيادية . هذا فضلا عن أن قيامه ببعض الأدوار السياسية كما رأينا أطلعه على كثير من الأسرار فى فترة تعد من الفترات القلقة فى حياة الأمبراطورية الرومانية . ولذلك فإن رسائله وخطبه ومواعظه تعتبر من المصادر الهامة لتاريخ الفترة التى امتدت من سنة ٣٧٤ إلى سنة ٣٩٧ ، وهى فترة اختلف فيها أباطرة تركوا بصمات واضحة على تاريخ الأمبراطورية ، فقد عاش أمبروز فترة تصارعت فيها العقائد الدينية على نطاق واسع ، وشهد فيها تقسيم الأمبراطورية بعد وفاة ثيودوسيوس بين ولديه أركاديوس وأونوريوس ، وهو حدث كان له أثر مباشر فى تغيير مجرى التاريخ فى القرون التالية . هذا ما كان من أمر أمبروز فى مجال السياسة والدين . وكانت الثقافة العريضة التى اكتسبها أمبروز هى مكمن الجاذبية فى شخصيته . لقد استفاد من اتقانه للغة اليونانية فى دراسة الفلسفة واللاهوت ، وتعبر شروحه للكتاب المقدس عن معرفة وثيقة بآراء فيلون وأوريجانوس وأفلوطين وباسيلى ، كما تعبر عنها مواعظه التى جذبت أوغسطين إلى اعتناق المسيحية . وتعد مواقفه مع الأمبراطور ثيودوسيوس دليلا على =

= قوة الشخصية ، كما يعد شجبه لسياسة العنف والسيطرة مثلا حاولت الكنيسة الغربية بعد ذلك أن تحتذيه طوال العصور الوسطى فى صراعها مع السلطة الزمنية . وكانت ترانيمه المشهورة نموذجا مفضلا للأجيال ، تلك الترانيم التى فاضت لها دموع أوغسطين كما جاء فى الكتاب التاسع من اعترافاته . وقد خلد اسم أمبروز فأطلق على المكتبة الأمبروزية Biblioteca Ambrosiana فى ميلانو ، وهى من المكتبات الهامة التى تزخر بها ايطاليا ، وعامرة بالكتب والمخطوطات النادرة .

(٤) Aurelius Augustius (٣٥٤ - ٤٣٠) ولد فى طاجسطا Tagaste فى ولاية نوميديا Numidia الأفريقية (الآن سوق الأخرس فى الجزائر) من أب وثنى إسمه بتريكيوس Patricius وأم مسيحية اسمها مونيكا Monica . وكانت عائلته من أصل بونى تتحدث اللغة البونية فضلا عن اللغة اللاتينية . وكان أوغسطين يدرك الصلة بين اللغة البونية واللغة العبرية (وهذا هو ما أثبته العلم بعد ذلك من انتماء اللغة البونية بوصفها لغة فينيقية تطورت فى قرطاجنة وقطاع من شمال افريقيا إلى اللغات السامية) ، وعندما أصبح أوغسطين أسقفا لمدينة هيبو Hippo (الآن بونة فى الجزائر) كان يصر على تعيين القساوسة الذين يتحدثون البونية . كان بتريكيوس يريد لولده أوغسطين أن يكون من رجال القانون ، ولكن أوغسطين كانت له اهتمامات أدبية ورغبة فى دراسة الخطابة ، ولذلك أرسله أبوه إلى المدرسة فى مداورا Madaura لكى يتعلم اللغة اللاتينية واللغة اليونانية . واحرز أوغسطين تقدما ملحوظا فى اللغة اللاتينية على عكس اللغة اليونانية التى أعرض عنها اوغسين لأنها لم تكن تستهويه ، ولعل أوغسطين كان الوحيد بين آباء الكنيسة الغربية الذى لم يكن يتقن هذه اللغة ، وكانت كل ثقافته فى التراث اليونانى عن طريق الترجمات اللاتينية . وبعد خمس سنوات قضاها فى دراسة اللغة اللاتينيه بدأ فى دراسة الأدب الرومانى . ثم رحل بعد ذلك إلى قرطاجنة لكى يدرس الخطابة التى كرس لها كل جهده ووقته . ونظرا إلى المصاعب المالية التى واجهتها الأسرة استطاع أوغسطين أن يستكمل دراسته للخطابه بمعونة أحد أصدقاء والده الأثرياء ويدعى رومانيان Romanianus . وقد أعجب أوغسطين بالخطابة ، وأراد أن تكون المنطلق لحياته العملية بعد ذلك ، لأن الخطابة كانت ومازالت فى أيام أوغسطين =

= الثقافة التى تجذب الشباب الطموح الذى يتطلع الى المناصب العامة . وكان شيشيرون قد نقل كثيراً من فنون الخطابة اليونانية إلى اللغة اللاتينية فى كتبه الخطابية التى كانت تعد مراجع هامة للدراسين من الشباب الرومانى . وما أن إنتهى أوغسطين من الدراسة حتى كان قد حفظ كتب شيشيرون عن ظهر قلب ، وأصبح وهو فى التاسعة عشرة من عمره معلماللخطابة فى قرطاجنة . وكانت قراءة أوغسطين لمحاورة هورطانسيوس Hortensius التى كتبها شيشيرون(وقد ضاعت بعد ذلك) نقطة تحول فى تفكيره ، فقد كانت هذه المحاوره عبارة عن مدخل الى الفلسفة ، تأثر بها أوغسطين وكانت سببا فى تحوله الى دراسة الفلسفة والتعرف على مختلف العقائد القديمة والعقائد الجارية فى عصره ، ولا سيما العقيدة المانوية manichaeismus التى هدفت الى الخلاص من الخطيئة ، وهى عقيدة متطورة من الأغنوسطية وضع مبادئها مانى Mani البابلى (٢١٦ — ٢٧٧) الذى كان صديقا للملك الملوك الفارسى شاهبور الأول (٢٤١ — ٢٧٢) . استمع أوغسطين الى دروس المانوية وهو فى العشرين من عمره ، وظل من السماعين تسعة أعوام هجر بعدها هذه العقيدة ورحل الى روما لكى يبحث عن فرصة لتعليم الخطابة ، وبعد سنة من اقامته فى روما تلقى دعوة من سيما كوس للسفر الى ميلانو مقر الحكم الامبراطورى وقتذاك ، وهناك ألقى خطبة فى حضرة الامبراطور فالنتينيان الثانى ، وارتاد مع صديقهسيما كوس محافل الارستقراطية وصالونات الأدب التى جذبته حياتها الفكرية المترفه . وفى هذا الجو المفعم بالفكر والثقافة قرأ أوغسطين مؤلفات أفلوطين التى ترجمها ماريوس فيكتورينوس Marius Victorinus الأفريقى من اللغة اليونانية الى اللغة اللاتينية ، ووجد أوغسطين فى هذه المؤلفات صلة بفكرة اللوغوس الواردة فى انجيل يوحنا ، وأصبح منذ ذلك الوقت متعلقا بالأفلاطونية الحديثة التى استطاع من خلالها أن يطبع المسيحية الكاثوليكيه بطابع أفلاطونى خاص ، وان كان أوغسطين قد تراجع عن آرائه الأفلاطونية فى أخريات حياته كما نفهم من كتاب الاستدراكات أو المراجعات rotractationes . ولكن التحول الكبير فى حياة أوغسطين كان اعتناقه للمسيحية نتيجة لتأثره بمواعظ

= فى ميلانو على الاستماع الى مواعظ أمبروز الذى كـان يجتاز فى ذلك الوقت صراعات مريرة مع الامبراطورة جوستينا أم فالنتينيان الثانى بسبب سياستها الموالية للأريوسيين . وبالرغم من خطورة هذه الأحداث التى عاصرها أوغسطين وشهدها عن كثب ، لا نجد عنها فى اعترافاته غير اشارات عابرة لا تعطينا لها أبعادا جديدة . رجع أوغسطين الى أفريقيا وعكف فى بلدته طاجسطا على البحث والدراسة . وهناك توفى ابنه الشاب أديوداتوس Adëodatus (ومعنى اسمه عطية الله) الذى جعله أوغسطين أحد المتحدثين فى محاورة المعلم de magistro . انتقل أوغسطين بعد ذلك الى مدينة هيبو (بونة) ، واختاره أهلها ليكون اسقفا . وفى احدى رسائله التى بعث بها الى صديقه بولينوس Paulinus أسقف نولا Nola فى ايطاليا وصف أوغسطين كيف أنه تردد كثيرا فى قبول هذه المسئولية التى أخذها على عاتقه . وعلى أية حال نال أوغسطين شهرة كبيرة منذ أن تولى أسقفية بونة ، وخاصة بعد أن جاهر برأيه ضد الدوناتيين Donatistae الذين اختلفوا مع الكنيسة الكاثوليكية فى مسألة اختيار القساوسة الذين يقومون بمباشرة الأسرار المقدسة . وصلتنا من أوغسطين كتب ومقالات كثيرة فى مختلف الموضوعات الدينية والسياسية تربو علـى المائة ، من أهمها كتب الاعترافات confessiones ، والعقيدة المسيحية de doctrina christiana . والثالوث de trinitate ، ومدينة الله de civitate dei .

(٥) Anicius Manlius Severinus Boethius

(حوالى ٤٨٠ — ٥٢٤) يعتبر آخر آباء الكنيسة وأول الأسكولائيين ، كما يعتبر الممثل الحقيقى للمجتمع الأرستقراطى فى آخر عصور الامبراطورية الرومانية . بعد أن توفى أبوه الذى تولى منصب القنصلية فى سنة ٤٨٧ تولى رعايته قريبه سيماكوس الصغير Symmachus (حفيد سيماكوس الخطيب) الذى زوج بويس فيما بعد لابنته روستيكيانا Rusticiana . وكان سيماكوس الصغير واحداً من ألمع المثقفين في عصره، وقد ألف كتاباً في التاريخ الروماني في سبعة مجلدات لم يصلنا منه شيء، وكان يتقن اللغة اليونانية التي أصبح العلم بها في الغرب صعب المنال

= اليونانى والفلسفة . ولما رجع بويس الى روما انكب على القراءة والتحصيل ، وأتقن فن الخطابة باللغتين اليونانية واللاتينية ، وكانت أسعد لحظات حياته هى اللحظات التى كان يقضيها فى مكتبة قصره المحلاة بالعاج والفسيفساء . كان بويس صديقا حميما للملك تيودريش ملك القوط الشرقيين الذى حكم ايطاليا . ووصل بويس فى سنة ٥١٠ الى أعلى منصب فى الدولة وهو منصب القنصل . ولكن الملك تيودريش غضب بعد ذلك على بويس لاشتراكه فى الحركة التى أرادت الاطاحة بحكمه ، وهى الحركة التى نظمها القوميون الايطاليون بزعامة البابا يوحنا الأول Johannes 1 مع الامبراطور البيزنطى جوستين الأول Justinus 1 لتحرير إيطاليا وكل بلدان الغرب من الجرمان . وحكم تيودريش على بويس بالإعدام ، وألف بويس وهو فى سجن بافيا Pavia انتظارا لتنفيذ الحكم كتابه المشهور عزاء الفلسفة de consolatione philosophiae ، وهى عبارة عن محاورة بالنثر والشعر بين الفلسفة وبويس ، ومع ذلك يظهر فيها بوضوح أثر الفلسفة الأفلاطونية الحديثة . كانت غاية بويس طيلة حياته هى الثقافة الفلسفية التى كانت تمثل فى نظره قمة المتعة والعزاء . لقد كان بويس يدرك الهوة التى كانت تفصل بين الغرب والشرق فى مجالات العلم والمعرفة ، تلك الهوة التى كانت تهدد الحضارة الغربية بالتخلف . وعندما كان قنصلا كان ينادى على الدوام بأن مسئولية الدولة أصبحت تختلف عما كانت عليه فى الماضى . لقد عمل حكام العهود السابقة على توسيع رقعة الامبراطوريه حتى بلغت أقصى اتساع ، ولم يعد هناك الآن غير البحث عن المبادىء التى يتوقف عليها التعليم ، والتى تتمشى مع الأوضاع الجديدة . هذه هى المهمة التى يجب فى رأى بويس أن تلقى الآن على عاتق المسئولين ، وكان بويس يعتقد أن هذه المهمة لا يمكن أن تتحقق على أحسن وجه إلا عن طريق الاهتمام بتدريس الفلسفة اليونانية التى هى الحكمة والمعرفة الحقة . وكان بويس يقصد بذلك الفلسفة اليونانية فى أدق صورها الأخيرة ، وهى الفلسفة الأفلاطونية الحديثة التى تحوى فكرة الله والعالم ، تلك الفكرة التى توافق الفكر المسيحى ، والتى يفضل إدراكها بدراسة العلوم الحرة ، ولا سيما العلوم الرياضية وهى علوم الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وتعدى اهتمام بويس إلى ترجمة كتب

غير أن المدارس الدينية المسيحية لم يتوفر لها الاستقرار طوال القرون الثلاثة الأولى نظرا الى الظروف السياسية المضطربة التى مرت بها الامبراطورية الرومانية، ونظرا الى بعض موجات الاضطهاد التى كان يشنها على المسيحيين بعض أباطرة الرومان ، الأمر الذى كان يهدد هذه المدارس بين وقت وآخر . ولكن عندما حل القرن الرابع وقعت حادثتان سياسيتان على جانب كبير من الأهمية كان لهما أثر مباشر على وجود المسيحية كدين يحاول أن يثبت أقدامه فى عالم شاسع تصطرع فيه شتى العقائد والأفكار والأديان ، كما كان لهما أثر على مكانة الكنيسة بوصفها راعية للجماعة المسيحية ، وعلى توجيه التعليم المسيحى فى عصور الامبراطورية الأخيرة والعصور الوسطى. والحادثة الأولى هى اتفاق قسطنطين وليكينيوس فى ميلانو فى سنة ٣١٣ على حرية العقيدة والاعتراف بالمسيحية كدين من أديان الامبراطورية ، وهذا الاتفاق هو ما عرف فى كتب التاريخ بمرسوم ميلانو . والحادثة الثانية هى تقرير المسيحية كدين رسمى للدولة الرومانية فى سنة ٣٩١ فى عهد الامبرطور ثيودوسيوس الأول . لقد أصبحت الكنيسة بموجب ذلك مهيمنة على شؤون التعليم وعلى وضــع البرامج الدراسية بحرية تامة ، وأصبحت المدارس المسيحية معترفا بها من الحكومة الرومانية . هذا وأن ظلت بعض المدارس الوثنية فى مناطق متفرقة من العالم الرومانى حتى جاء الامبراطور جوستينيان الأول وأغلق أكاديمية العلوم الانسانية فى أثينا فى سنة ٥٢٩ ، وهى الأكاديمية التى كانت منذ قديم الزمن من أكبر معاقل الفكر الوثنى ، وكان لابد أن تتقوض على اثر ذلك كل المعاقل الوثنية الباقية .

= المنطق . وكتب بويس فى أخريات حياته بعض المقالات اللاهوتية من أهمها مقالة الثالوث de trinitate ومقالة الرد على أوطيخا ونسطور Contra Eutychen

ونتيجة للمرسوم الذى أصدره ثيودوسيوس بجعل المسيحية دينا رسميا للدولة أصبح التعليم المسيحى تعليما دينيا مغلقا يعتمد أساسا على دراسة الكتاب المقدس وشروح فقهاء الكنيسة السابقين والمعاصرين ، فضلا عن بعض العلوم الانسانية الكلاسكية التى سبق أن أقرتها الكنيسة لكى تكون القاعدة الثقافية التى ترتكز عليها علوم الدين .

ولكن نظرا إلى الظروف التى واجهتها الإمبراطورية الرومانية فى القرون الثلاثة الأولى ، ولا سيما فى القرن الثالث الذى خاضت فيه الامبراطورية حروبا متوالية ضارية مع الفرس والجرمان ، تلك الحروب التى أدت إلى تدهور الحالة الاقتصادية واضطراب الحياة الاجتماعية والثقافية فضلا عن سورات الاضطهاد ، وهى الأزمة التى سوف نناقشها فى الموضوع التالى ، كان لابد أن يلحق التدهور بعض المؤسسات التعليمية وخاصة فى الغرب ، فكثيرا ما كانت هذه المؤسسات تتوقف عن أداء مهمتها نتيجة لهذه الظروف الصعبة ، وأدى اضطراب التعليم إلى هبوط الثقافة . ومع ذلك كان هنا وهناك علماء مسيحيون أحبوا العلم وكرسوا حياتهم للمعرفة ، فأخذوا يعملون فى دأب وصمت تدفعهم الحماسة العلمية فى الظروف الصعبة إلى البحث والاطلاع حفاظا على التراث الذى تركته الأجيال ... علماء كبار أمثال أوريجانوس ، وترتوليان ، وكيبريانوس[١] ، ولاكتانتيوس . وعلى

---

(١) Thascius Caecilius Cyprianus (حوالى ٢٠٠ — ٢٥٨) أسقف قرطاجنة فى شمال أفريقيا . بالرغم من أن كيبريانوس لم يذكر ترتوليان فى مؤلفاته على الاطلاق ، إلا أننا نلمس فيها تأثيره الشديد ، وفى سيرة كيبريانوس التى كتبها تلميذه بونتيوس Pontius الشماس (وهى أقدم سيرة فى التراث المسيحى بعد الأناجيل) صرح بونتيوس بأن كيبريانوس لم يكن يمر عليه يوم دون أن يقرأ مقطوعة من كتب ترتوليان . والحقيقة أن هذه السيرة لاتعطينا معلومات كافية =

جهود هؤلاء العلماء والآباء تعلق مصير التعليم ، فبعد أن مرت أزمة القرن الثالث بسلام جاء القرن الرابع كما قلنا بتحول كبير فى وقع الحياة والمجتمع ، وهدأت الحالة بعض الشيء على جبهات القتال ، وانحسرت موجات الاضطهاد ، وعادت المدارس إلى مزاولة نشاطها من جديد فى جو من الاستقرار ، ونعمت المدارس المسيحية بالحرية التى افتقدتها طوال القرون الثلاثة الماضية . ولذلك ازدهرت البحوث الدينية ، وأنجب القرن الرابع أعظم الآباء الكنيسة فى الشرق وهم أوسابيوس[1] ،

= عن حياة كيبريانوس قبل توليه أسقفية قرطاجنة فى سنة ٢٤٨ ، وكل مانعرفه منها عن هذه الفترة السابقة هو أن كيبريانوس كان ، على خلاف ترتوليان ، ينتمى إلى عائلة ثرية ، وكان على صلات وثيقة مع كبار رجال الحكومة والمجتمع ، كما كانت له ضياع وأملاك كثيرة فى ضواحى قرطاجنة ، وأن ثراءه مكنه من الحصول على تعليم لم يحصل عليه واحد من أبناء بلده . وتؤكد مؤلفات كيبريانوس هذه المعلومات ، فهى تفصح عن ثقافته الواسعة ، وغرامه بالفلسفة الرواقية ، ودرايته بالمسائل الادارية التى اكتسبها من إدارة أملاكه ، واهتمامه بالشئون السياسية التى جعلت منه أسقفا صاحب رأى فى سياسة الدولة ، ولا سيما سياسة الاضطهاد التى اتبعها الامبراطور دقيوس Decius فى سنة ٢٥٠ . وكانت آراء كيبريانوس الحرة سببا فى نفيه أيام الاضطهاد الذى شنه الامبراطور فاليريان سنة ٢٥٧ ، وصدر الحكم باعدامه فى قرطاجنة فى العام التالى . كتب كيبريانوس كثيرا من الرسائل والكتب والمقالات من أهمها كتاب الشواهد ad Quirinum testimonia الذى جمع فيه أمثالا عديدة من الكتاب المقدس .

(١) Eusebius (حوالى ٢٦٠ — ٣٤٠) ولد فى فلسطين ، وتعلم حسب تقاليد العلم المسيحى الاسكندرى ، وأصبح أسقفا لمدينة قيصرية Caesarea فى فلسطين فى سنة ٣١٤ . وفى سنة ٣٢٠ أظهر تأييده المعتدل لأريوس Arius ، وكان اعتداله هـذا سببا فى تبرئته من تهمة الهرطقة فى مجمع نيقية الذى انعقد فى سنة ٣٢٥ ، وحاول أوسابيوس عبثاً التوفيق بين أريوس وأثناسيوس ، ولكنه =

= اضطر أخيرا إلى الموافقة على وجهة نظر أثناسيوس والتوقيع على قانون الايمان المسيحى الذى أصدره المجمع . وفى سنة ٣٣٥ كان أوسابيوس عضوا فى مجمع صور الذى أدان أثناسيوس . وكان أوسابيوس صديقا للامبراطور قسطنطين ، وكتب له سيرة Vita Constantini بعد وفاته فى سنة ٣٣٧ حافلة بالمديح والاطراء ثار الشك بين العلماء المحدثين حول صحة نسبها إلى أوسابيوس . والحقيقة أن الاضطهاد الذى أطلقه دوقلديانوس وتحول الامبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية مسيحية فى عهد قسطنطين كانا من العوامل التى أثرت تأثيرا مباشرا على فكر أوسابيوس التاريخى واللاهوتى ، ذلك التأثير الذى دفع أوسابيوس إلى انكار العقيدة الألفية، وهى العقيدة القائلة بالعصر الألفى الذى سيملك فيه المسيح على الأرض حسب التصور المسيحى الذى كان سائدا آنذاك ، ودفعه إلى عدم التعاطف مع فكرة التنسك التى كانت من الأفكار الأساسية فى الحياة المسيحية . واعتبر أوسابيوس أن العناية الالهية هى التى مهدت لظهور المسيحية فى الوقت الذى ظهرت فيه ايديولوجية الامبراطور أغسطس عن السلام الرومانى Pax Romana (الذى عرف كذلك بالسلام الأغسطى Pax Augusta) ، ومن هنا كانت سمة التفاؤل التى طبعت مؤلفات أوسابيوس ، وتبلورت فى الايديولوجية السياسية التى ارتكز عليها حكم الامبراطور قسطنطين . وفى كتاب الاعداد الانجيلى praeparatio evangelica وكتاب التجلى theophania (الذى حفظ فى ترجمته السريانية وشذراته اليونانية) حاول أوسابيوس البرهنة على تفوق الكتاب المقدس على الفلسفة الوثنية والتاريخ ، وقال بأن الفلسفة اليونانية فى أحسن صورها ، وهى الفلسفة الافلاطونية ، متفقة مع تعاليم الكتاب المقدس ، بل مستقاة منها . ومع ذلك يكشف هذان الكتابان عن تأثر أوسابيوس بالفكر اليونانى من خلال حماسته الشديدة لفكر أوريجانوس . وفى كتاب البرهان الانجيلى demonstratio evangelica (الذى وصلنا منه أكثر من نصفه) يعرض أوسابيوس نبوءات العهد القديم بالسيد المسيح ، وهو نفس الموضوع الذى تناوله فى شروحه لسفر أشعيا commentarius in Isaiam prophetam ، وسفر المزامير commentarius in psalmos ، وانجيل لوقا commentarius in evangelium Lucae. كتب أوسابيوس مؤرخة للتاريخ =

وأثناسيوس[1] ، وباسيلي[2] ، وأغريغوريوس النازيانزى[3] ، وأغريغوريوس

العالمي مصحوبة بقوائم زمنية دقيقة منذ زمن سيدنا ابراهيم عليه السلام ، ولكن هذه المؤرخة ضاعت فى نصها اليونانى الأصلى ولم يصلنا غير ترجمة لها باللغة الأرمينية ، ونسخة معدلة باللغة اللاتينية كتبها جيروم فى أواخر القرن الرابع chronicum Eusebii ab Hieronymo retractatum ad annum Abrahae.

ولكن تاريخ الكنيسة historia ecclesiastica هو أهم مؤلفات أوسابيوس . وهو يعرض لتاريخ الكنيسة منذ نشأتها ، ومكتوب على طريقة المناهج الهلينستية المعروفة ، ونلمس فيه مؤثرات من الكتب التى سجلها فى القرن الأول المؤرخ اليهودى فلا فيوس يوسف Flavius Josephus ، وأعمال الشهداء Acta martyrorum التى كتبت فى أواخر القرن الثانى أو أوائل القرن الثالث ، وقد وصلنا منها بعض شذرات مدونة على أوراق البردى ، وهى تعرض لشهداء الاسكندرية أبان اضطهادات الأباطرة الرومان منذ عصر الامبراطور أغسطس فى القرن الاول حتى عصر الامبراطور كومودوس فى أواخر القرن الثانى ، كما نلمس مؤثرات من السير التى كتبها الفلاسفة اليونان. ويحتمل أن يكون أوسابيوس أول من قدم تاريخا للكنيسة من هذا القبيل ، ولذلك يلقبه النقاد بشيخ مؤرخى الكنيسة ، ويلقبه البعض بأبى التاريخ الكنسى . وينتهى هذا الكتاب فى صورته التى وصلت إلينا بسنة ٣٢٤، وقد ترجمه روفينوس الأكويلى Rufinus Aquiliensis فى أوائل القرن الخامس إلى اللغة اللاتينية Eusebii historia ecclesiastica a Rufino translata وأكمله حتى سنة ٣٩٥ . وقد ألف أوسابيوس كذلك كتيبا عن شهداء فلسطين وصلتنا منه نسخة مزيدة باللغة السريانية .

(١) Athanasius (حوالى ٢٩٥ — ٣٧٣) كان واحدا من كبار علماء اللاهوت وزعماء الكنيسة ، وقد لعب دورا كبيراً عندما كان شماسا فى مجمع نيقية المسكونى الأول سنة ٣٢٥ ، وتولى بطريركية الاسكندرية فى سنة ٣٢٨ . وقد دافع عن العقيدة النيقية القائلة بأن جوهر المسيح مساو لجوهر الله ، وهى المعروفة فى

= بأن المسيح غير مساو لله سبحانه وتعالى فى الجوهر . وقد صدرت قرارات بنفى أثناسيوس خمس مرات ، منها مرتان ذهب فيهما أثناسيوس إلى الغرب ، وهناك عرف الغربيون عن طريقه فكرة الرهبانية لأول مرة . وفى العقود الأخيرة من حياته حاول التقريب بين العقائد المناهضة للأريوسية لكى يحقق وحدة الرأى فى الكنيسة . وتشتمل مؤلفاته على كتب ومقالات ورسائل فى الدفاع عن المسيحية ، وفى الحياة النسكية ، والتاريخ .

(٢) Basileios (حوالى ٣٣٠ — ٣٧٩) ، الأخ الأكبر لأغريغوريوس النيساوى ، من عائلة ثرية ، درس فى القسطنطينية وأثينا ، وبعد تعميده فى سنة ٣٥٦ بدأ فى تأسيس أديرة فى آسيا الصغرى ، ووضع قواعد لحياة الرهبان . وفى سنة ٣٧٠ أصبح أسقفا لمدينة قيصرية فى قبادوقية فى آسيا الصغرى ، وظل تسع سنوات يناضل من أجل تثبيت المفاهيم المسيحية حتى قضى نحبه . ويظهر فى مؤلفاته بوضوح مدى تعلقه بالثقافة الكلاسيكية ، وله مواعظ وخطب من أقوى ما كتب فى عصره . ويدين باسيلى بآرائه اللاهوتية لأفلوطين الذى يستشهد باسيلى كثيرا بأقواله .

(٣) Gregorius (٣٢٩ — ٣٨٩) بطريرك القسطنطينية ، عرف باسم أغريغوريوس اللاهوتى . كان أبوه أسقفا لمدينة نازيانز Nazianzus فى قبادوقية ، وتلقى تعليمه مع باسيلى فى أثينا ، وأبدى مثله أعجابا غامرا بأوريجانوس وحماسة منقطعة النظير للحياة النسكية . وقد أقنعه باسيلى فى سنة ٣٧٢ بأن يقبل منصب الأسقفية فى ساسيا Sasima ، ولكنه لم يذهب إلى هذه البلدة لكى يباشر منصبه . وقد عاون أغريغوريوس النازيانزى الإمبراطور ثيودوسيوس الأول منذ سنة ٣٧٩ حتى سنة ٣٨١ فى قمع الأريوسية ، وفى أثناء انعقاد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ تولى أغريغوريوس بطريركية العاصمة . وقد أثارت سياسته كثيرا من المتاعب التى لم يكن يقوى على مواجهتها ، وانسحب إلى قبادوقية ، وهناك كتب سيرة ذاتية بالشعر فيها كثير من الرثاء والأسف على ما حدث . أما قدرة أغريغوريوس النازيانزى فقد كانت تتجلى فى الخطابة وكتابة الرسائل . وكانت خطبه ورسائله حافلة بمقطوعات التراث الكلاسيكي. وقد كتب أغريغوريوس مقالتين قدح فيهما=

النيساوى ، وسيناز القوريني ، ويوحنا الفصيح المعروف بيوحنا ذهبي الفم[١] ، كما أنجب القرن الرابع كما رأينا واحدا من أعظم آباء الكنيسة فى الغرب هو أمبروز .

تصدر هؤلاء العلماء فكر القرن الرابع ، ولكن مستويات الثقافة على أية حال كانت قد تدهورت بصفة عامة عما كانت عليه فى العصور الكلاسيكية السابقة نتيجة للظروف التى ذكرناها . وظهر هذا التدهور بصفة خاصة فى الثقافة الغربية ، فكان المثقفون وتلاميذ المدارس فى الغرب يواجهون صعوبات كثيرة فى فهم المؤلفات الكلاسيكية القديمة بعد أن تدهورت اللغة اللاتينية التى كانوا يتحدثون بها ، وأصبحت لغة لاتينية ركيكة وفى مستوى لا يسمح لهم بالاطلاع على روائع التراث الرومانى القديم فى نصوصها الأصلية الرصينة بسهولة ، ولا تسمح لهم بفهم المعانى الكاملة

= سياسة الامبراطور جوليان المرتد Julianus Apostata الذى حرم التعليم على المسيحيين .

(١) Johannes Chrysostomos (حوالى ٣٥٤ — ٤٠٧) بطريرك القسطنطينية ، درس فى أنطاكية على يد الخطيب ليبانيوس ، وبعد ذلك سلك حياة الزهد فترة من الزمن ، ثم أصبح شماسا فى أنطاكية سنة ٣٨١ ، وقسا سنة ٣٨٦ . وفى سنة ٣٩٨ تم اختياره ليكون بطريرك القسطنطينية . وبسبب خلافاته الحادة مع الامبراطورة أودوكسيا Eudoxia زوجة الامبراطور أركاديوس وثاوفيلوس Theophilus بطريرك الاسكندرية وأساقفة آسيا الصغرى حول سياسة التقشف التى اتبعها فى إدارة الأسقفية تقرر عزله من منصبه بقرار المجمع الذى انعقد فى سنة ٤٠٣ وعرف بمجمع البلوطة . وفى العام التالى نفى يوحنا إلى أرمينيا ، وتوفى فى المنفى سنة ٤٠٧ . وكان يوحنا أكثر خطباء عصره فصاحة ، ولذلك أسمى بذهبي الفم Chrysostomos ، ولكنه لم يكن على مستوى غيره من اللاهوتيين ، وشروحه للكتاب المقدس تظهر فيهما تقاليد مدرسة أنطاكية التي كانت تهتم بالمعاني التاريخية.

فى هذه النصوص فهما صحيحاً يؤدى إلى تصور المضمون الحقيق لهذا التراث العظيم. كما أن اللغة اليونانية بوصفها لغة أجنبية للمثقفين الغربيين كان قد فتر العلم والقراءة بها منذ القرن الثالث على التقريب، لأن اضطراب الأحوال حال دون سفر المتعلمين إلى بلاد اليونان لمواصلة الدراسات الإنسانية العليا هناك، ولم يعد فى مقدور أحد من المتعلمين فى الغرب — فيما عدا ايرلندا — أن يطلع على موضوعات التراث اليونانى .

ومن هنا أخذت تواجه رجال التربية صعوبة فى تعليم النشء المسيحى على المستويات المطلوبة فى الدراسات الدينية التى تحتاج كما رأينا إلى ثقافة أدبية وفلسفية عالية . فقد أصبح التراث الكلاسيكى القديم بالنسبة لتلاميذ المدارس نوعا من الأحجيات التى تستغلق على الفهم ، وكثيراً ما كان يثور الجدل والنقاش فى شتى قاعات الدرس حول كلمة من الكلمات اللاتينية الفصحى القديمة، أو كلمة من الكلمات اليونانية التى استوعبتها اللغة اللاتينية ، دون جدوى . ولذلك أصبحت هناك حاجة ملحة إلى تبسيط هذا التراث ، فشرع المعلمون منذ القرن الخامس فى ذبج ملخصات لاتينية سلسة للمعارف الرومانية ، وتأليف معاجم مختصرة لشرح الكلمات اللاتينية القديمة بكلمات لاتينية دارجة ، كما شرعوا فى نقل المعارف اليونانية إلى اللغة اللاتينية فى موجزات مبسطة ، لكى تكون هذه الموجزات والنقول فى متناول التلاميذ ، ولكى يستطيع التلاميذ من خلالها أن يتفهموا خلاصات الفكر الكلاسيكى القديم . وكل هذا على أمل أن تأتى أجيال تستطيع بهــذه الأدوات والوسائل أن ترتقى مرة أخرى إلى مستويات الأجيال الرومانية السابقة . ولكن هذا الأمل كان بطبيعة الحال أملا واهيا ، لأن اعتماد التلاميذ فى أى عصر من العصور على مثل هذه الملخصات والمعاجم الصغيرة لابد أن يكون سبباً فى انصرافهم عن القراءات الجادة المتعمقة ، وسبباً فى جهلهم بأسرار اللغة وافتقارهم

إلى المفردات والمترادفات التى من شأنها أن توفر القدرة على الكتابة والحديث على نحو أفضل . وهذا هو ما أخذ يشوب بصورة واضحة ثقافة أجيال القرن الخامس ، وأخذ يستشرى بصورة أوضح فى ثقافة أجيال القرن السادس ، حتى بلغ الضعف مداه فى القرن السابع .

كانت هذه الموجزات تتسم بطابع الموسوعية ، لأنها كانت تحتوى على مختلف المعارف الإنسانية القديمة ، ولأن مؤلفيها كانوا يقومون بالنقل والتلخيص من مختلف الكتب والموسوعات . وكان أول الناقلين فى الغرب مارتيانوس كابيلا[1] ، وهو واحد من علماء شمال أفريقيا عاش فى النصف الأول من القرن الخامس ، وكان معاصرا لمواطنه أوغسطين . ويختلف النقاد على ديانة كابيلا ، فلا يعرف أحد حتى الآن ما إذا كان من علماء المسيحيين أم من علماء الوثنيين . على أية حال كتب كابيلا موسوعة صغيرة فى شكل مقالة مجازية غريبة عن العلوم والفنون[1] جمعت بين أسلوب النثر والشعر ، وامتلأت صفحاتها بالمعانى والأفكار الوثنية . وعرض كابيلا بين معارف هذه الموسوعة فكرته التى تحمس لها عن البرامج التى يجب تقريرها فى المدارس وتتناسب مع مستويات الثقافة فى عصره . وفى أوائل القرن السادس أعطى العالم الأفريقى فولجنتيوس[2] لمقالة كابيلا اسما أكثر غرابة هو ، قران الفيلولوجيا ومركوريوس ،[3] ، لأن كابيلا صور الفيلولوجيا (وهى علوم اللغة والأدب) فى القسم الأول من مقالته عروسا تصعد إلى

---

(١) Martianus Capella .

(١) Artes .

(٢) Fulgentius .

(٣) De nuptiis philologiae et Mercurii

السماء[1] مصحوبة بأشبينات من العلوم الإنسانية لكى تتزوج من مركوريوس إله الفصاحة ورسول الآلهة عند الرومان : أما الجزء الثانى من المقالة فهو عبارة عن موجز للمعارف جمعه كابيلا من مصادر مختلفة ، وقدم فيه عرضا لعلوم سبعة من العلوم الحرة[2] وقع اختياره عليها لكى تكون علوم التخصص فى المدارس وهى علوم النحو[3] ، والبلاغة[4] والمنطق[5] ، والحساب[6] ، والهندسة[7] ، والفلك[8] ، والموسيقى[9] ، وهى فى نفس الوقت العلوم التى رأى كابيلا أنها تصاحب الفيلولوجيا العروس فى ليلة الزفاف . وأوصى كابيلا بأن تكون هذه العلوم الإنسانية السبعة وحدها هى العلوم التى يجب أن تقرر فى برامج التعليم فى مدارس الغرب . وقد وافقت الكنيسة الغربية على هذه التوصية ، وأقرت تدريس العلوم السبعة فى مدارسها الدينية ، لأن هذه العلوم — شأنها فى ذلك شأن جميع العلوم الإنسانية — تعتبر مقدمة لدراسة علوم الدين[10] . وأصبح هذا البرنامج الدراسى للعلوم الإنسانية

---

(١) كانت هذه الفكرة المفرطة فى الخيال لصعود الفيلولوجيا إلى السماء نمطاً أدبياً بليغاً لكثير من المؤلفات المجازية التى حملت فكرة الصعود إلى السماء فى العصور الوسطى .

(٢) Artes liberales.

(٣) Grammatica.

(٤) Rhetorica.

(٥) Dialectica.

(٦) Arithmetica.

(٧) Geometrica.

(٨) Astronomica.

(٩) Musica.

(١٠) لقد سبق أوريجانوس فى القرن الثالث بتقرير العلوم السبعة فى مدرسة اللاهوت فى الاسكندرية ، وإعتبارها مقدمة لدراسة العلوم الدينية .

السبعة هو البرنامج السائد فى المدارس الدينية فى الغرب طوال العصور الوسطى الأولى حتى ظهور الجامعات فى القرن الثانى عشر[1] .

وهذه البرامج التى أعلنها كابيلا وأقرتها الكنيسة الغربية كانت حاسمة فى خفض مستويات الثقافة للأجيال القادمة ، لأن كابيلا أغفل علوما إنسانية كثيرة لها من غير شك أهمية فى اكتمال المعرفة . فليس من الممكن أن تستوى دراسة العلوم السبعة التى حددها كابيلا دون الرجوع إلى علوم أخرى من شأنها أن تساعد على فهمها ، لأن العلوم الإنسانية بمجموعها هى التى تعطى صورة أفضل عن الفكر والحضارة ، ولا يمكن أن تستقيم المعرفة مع اغفال علوم هامة كعلوم التاريخ والجغرافيا والطب والقانون ، تلك العلوم التى كان لها شأن كبير فى العالم القديم ، وهى التى أعطت لحضارة اليونانيين والرومان القدامى قيمة عالمية استطاعت بلاد اليونان وايطاليا من خلالها أن تدفع عجلة الفكر والتاريخ إلى الأمام . فكيف تقوم للحضارة قائمة بمعزل عن تجارب الماضى وتطلعات المستقبل ، تلك التجارب والتطلعات التى يفصح عنها التصور الصحيح للعالم والنظام ، وتؤكدها الدراية والخبرة على مر الزمن دون كلل ؟ وكيف تتحقق بالامكانات العلمية المحدودة صـــورة صحيحة للكون والإنسان ؟ كانت موافقة الكنيسة على برامج كابيلا هى أدت إلى تدهور الحياة الثقافية وايقاف عجلة التقدم فى أوربا فى القرنين السادس والسابع .

لقد أصبح التاريخ مجرد فن من فنون البلاغة لفهم الكتاب المقدس ، وأصبحت

---

(١) كانت لموسوعة كابيلا أهمية خاصة فى عصر النهضة الشارلمانية فى القرن التاسع ، وهو العصر الذى عرف فى اصطلاح بعض المؤرخين بعصر نهضة الكنيسة ، بل وظلت لهذه الموسوعة أهمية كبيرة فى مدرسة شارتر Chartres فى فرنسا حتى بعد ظهور الجامعات فى القرن الثانى عشر ، وذلك لموضوعها الكوزموغرافى الفريد .

المعرفة التاريخية تستقى من هذا الكتاب ، ومن الحكايات الشعبية التى تروى عن أمجاد الماضى ، وحياة القديسين التى غلبت عليها طوابع الأسطورة والخيال . ونظرة واحدة إلى تاريخ الفرنجة[1] الذى كتبه فى القرن السادس أغريغوريوس أسقف تور[2] ونفس التاريخ[3] الذى كتبه فى القرن السابع فريدجار[4] تظهر لنا مدى ما وصلت إليه الأزمة الفكرية التى استحكمت فى دولة كانت من أهم الدول الغربية فى ذلك الوقت هى دولة الفرنجة الميروفيين ، ومــــدى انصراف علماء الكنيسة الفرنجية القائمين على شئون التعليم عن مجال البحوث الفقهية والعلمية ، وجريهم وراء المصالح الاقطاعية التى بدرت بين رجال الكنيسة ونبلاء فرنكيا ، كما تظهر لنا فى نفس الوقت مدى السذاجة التى عالج بها المؤرخون أمور السياسة والمجتمع . وها هو فريدجار نفسه يعترف فى تاريخه بالضعف الذى اعترى رجال العلم ، ويبدى أسفه الشديد على تدهور الفكر والثقافة . على هذا المفترق الخطير بين القرنين السادس والسابع عاش الغرب عصرا حافلا بالخرافة تلاشت فيه حدود الوهم . وكان سيد العصر هو البابا أغريغوريوس الأول[5] الذى تولى على هذا المفترق أسقفية روما ، وتولى معها رعاية مجتمع مسيحى سيطر عليه الخوف والجهل . وفى الوقت الذى كانت تعانى فيه القارة الأوربية من الركود والتخلف ، كانت هناك فى الشمال نهضة فكرية عالية رفـــع لواءها رهبان الايرلنديين والأنجلوسكسون . وقد أخذ هؤلاء الرهبان على عاتقهم مهمة النهوض بالقارة من جديد ، واستطاعوا بجهودهم أن يقفوا بالكنيسة والمجتمع الغربى على عتبات النهضة

---

(١) Historia Francorum.

(٢) Gregorius Turonensis (٥٣٨ — ٥٩٤).

(٣) Chronicae quae dicitur Fredegarii.

(٤) Fredegarius Scholasticus.

(٥) Gregorius I. (٥٩٠ — ٦٠٤).

التى قامت فى القرن التاسع ، وهى نهضة شارلمان[1] التى قادها العالم الأنجلوسكسونى ألكوين[2] ناظر مدرسة القصر الملكى[3] . ولكن النهضة الشارلمانية لم تكن فى الحقيقة بحجم النهضة التى بزغت بعد ذلك فى القرن الثانى عشر ، وهو القرن الذى نشأت فيه الجامعات ، وبدأت فيه أوربا عصورها الوسطى الناهضة .

* * *

هكذا كانت الكنيسة الغربية فى العصور الكلاسيكية الأخيرة والعصور الوسطى هى التى تهيمن على برامج التربية والتعليم فى سائر المدارس فى الغرب ، وهى التى كانت تحدد مناهج العلوم الدينية والعلوم الانسانية المختارة . وحتى فى العصور الوسطى الناهضة التى وصل فيها العلم الأوربى إلى آفاق جديدة استمدت دون تحفظ حدودها المبدعة من التراث اليونانى والتراث الرومانى القديم ، ذلك التراث الذى يجد عظمة الانسان وقوى الطبيعة ، ونشرت فيها الجامعات الناشئة مبادىء الحرية الفكرية ، واستمدت من الفنون بوادر الرومانطيقية التى طبعت خيال المثقفين فى القرن الثانى عشر ، ووضعت من خلال الفكر الأرسطوطاليسى أسس العقلانية التى ظهرت بعد ذلك فى أوربا فى القرن الثامن عشر . . . نقول حتى فى العصور الوسطى الناهضة ظل الفكر يدور فى فلك الكنيسة بكل ما وضعته من مبادىء ومفاهيم وجدت فى المستقبل خلاص الانسان من خطايا العالم ، ووجدت فى النفس الانسانية حقيقة مطلقة وحيدة .

---

(١) Charlemagne (Carolus Magnus) .

(٢) Alcuinus .

(٣) schola palatina .

وهكذا كانت حال الفكر والثقافة وذكرى التراث الكلاسيكى طوال العصور الوسطى . ولكن فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر افتتح فرانشسكو بتراركا[١] طريقا جديدا فى فهم التراث الأوربى القديم ، وفى الكشف عن معانى الإنسانية فى هذا التراث ، تلك المعانى التى قصدت الإنسان بوصفه مخلوقا يفيض بالأحاسيس والمشاعر ، وتكمن فية القدرة على الخلق والابداع . وبدأت بذلك فى أيطاليا حركة فكرية كبرى عرفت بالحركة الانسانية[٢] ازدهرت فيما بعد فى القرن الخامس عشر ، وتولت رعايتها مدن ايطالية كثيرة فى مقدمتها مدن فلورنسا ، وروما ، ونابولى ، وفيرونا ، وفيرارا . وانضم إلى هذه الحركة عدد كبير من شباب المثقفين والعلماء الذين بهرتهم روح الحضارة الوثنية القديمة ، وهدف هؤلاء الانسانيون الشباب إلى أحياء الآداب الكلاسيكية التى اعتمدت معارف الانسان وقدره فى الحياة . افتتح بتراركا هذا الطريق فى فهم تراث الماضى ، واستطاع دعاة الحركة الانسانية فى عصر النهضة من خلاله أن يعيدوا اكتشاف الانسان والعالم ، وأن يستدلوا على عظمة الانسان بوصفه كائنا عاقلا له القدرة على التفكير السليم ، ويتمتع بالحس والإرادة ، خلق على هذه الأرض ومعه كل الحق فى أن ينعم بخيراتها ويسعد برونقها ومباهجها . وعلى ذلك رفض الانسانيون فكرة المستقبل على أنه الخلاص من الخطايا ، ورفضوا فكرة النفس على أنها الحقيقة المطلقة ، تلك الأفكار الأخلاقية والروحية التى اقتنع بها المفكرون فى العصور الوسطى ، واعترف الانسانيون بالحاضر المشرق وجمال الانسان والطبيعة ... جمال يتمثل فى تلك المظاهر العظيمة لقوة الانسان التى ظفرت فى عصور الأبطال القديمة ... على هذا النحو وجد الايطاليون فى معانى التراث الكلاسيكى كل ما هو ضرورى لتغذية

(١) Francesco Petrarca (١٣٠٤ — ١٣٧٦) .

(٢)

الروح الجديدة فى عصر النهضة، ووجدوا فيها حقائق تبدو لهم، يتبين المرء من بينها عزة أمة تفاخر بأسلافها الرومان، ويتبين المرء من بينها دوافع الانسانيين إلى تخطى العقبات التى عاقت حرية الفكر خلال قرون طويلة سبقت.

أطلع بترازكا مواطنيه الايطاليين على هذه الرؤية الجديدة فى روائع الثقافة الرومانية بعد أن تربت أجيال أوربا جيلا بعد جيل على علمانية طرأ عليها الفتور تجاه الفكر القديم، وتربت على صياغات لاهوتية عقيمة يعوزها التطور والفهم الصحيح. فكانت هذه الحركة الثقافية الجديدة هى نبع النهضة الذى تجددت فى أمواهه حقيقة الشباب والجمال والحرية. ولم تقتصر دعوة بترازكا على أحياء الآداب الرومانية، وانما وجه بترازكا أنظار مواطنيه من عشاق الأدب والفلسفة إلى ضرورة أحياء الآداب اليونانية، وتولى الشاعر والعالم الكبير يوحنا بوكاشيو[1] هذه المهمة، وتبعته جمهرة من عشاق الفكر والحضارة، وانطلقت وفودهم إلى القسطنطينية تقطف ثمار المعارف والفنون البيزنطية. وكان لابد من البحث عن المخطوطات والذخائر التى أسلمتها بيزنطة وأوربا للأجيال وتبعثرت هنا وهناك فى ديورة البلدان والمكتبات والدواوين تنتظر البعث الجديد. وراح الدارسون الذين تفقهوا فى اللغة اليونانية واللغة اللاتينية يجوبون آفاق المشرق والمغرب وقد ملأ الشغف نفوسهم بحثا عن نفائس الحضارة القديمة، وكان من بينهم علماء كبار أمثال جوارينو دافيرونا[2]، وفرانشسكو فيليلفو[3]، ويوحنا أوريسبا[4]، وبودجو براتشوليني[5]، وساعدهم بالمال أشراف ايطاليا والحكام والأمراء والتجار الذين

---

(١) Giovanni Boccaccio (١٣١٣ — ١٣٧٥).
(٢) Guarino da Verona (١٣٧٠ — ١٤٦٠).
(٣) Francesco Filelfo (١٣٩٨ — ١٤٨١).
(٤) Giovanni Aurispa (١٣٧٠ — ١٤٥٩).
(٥) giovcnni Francesco Poggio Bracciolini (١٣٨٠ - ١٤٥٩)

غلبت عليهم روح البحث والمعرفة . فالآن كانت الأجيال الايطالية تعيد الحياة بوعى تام إلى التراث الانسانى القديم الذى كان قد عفا عليه الزمن . وبهذه الحماسة المفرطة أخذ الشباب ـ وحتى رجال الكنيسة ـ ينهلون من بدائع هذا التراث العظيم ، وغصت قاعات المعلمين والخطباء كل يوم بالجماهير المحبة للثقافة ، وبرز كثير من العلماء والمفكرين الذين أحيوا فى هذه النهضة الكبرى فكر العالم الوثنى القديم ، كان من أشهرهم نيقولا دى نيقولى[١] ، ولورنزو ديلافالى[٢] . ولم يكن من الغريب وقتذاك أن تعم هذه الحماسة أساقفة روما العظام أمثال البابا نيقولا الخامس[٣] ، والبابا بيوس الثانى[٤] .

وكان اهتمام الانسانيين فى الحقيقة بأدب العالم الأوربى القديم وليس بتاريخ هذا العالم ، لأن التاريخ بصفة عامة لم يكن يمثل جوهرا هاما من جواهر المعرفة التى نشدوها ، وإنما جذبت الانسانيين روائع الفن والأدب . صحيح أن بعض العلماء الايطاليين أمثالا كولا دى ريينزو[٥] كانوا بين وقت وآخر يشجعون على جمع الآثار التاريخية والحفاظ عليها باعتبارها شواهد ماديه تشير إلى نبض الحياة الماضية ، وسجلا لتاريخ الأجداد يضيف الدليل على مجد الحضارة ، ولكن هذا التشجيع كان نابعا من رومانطيقية سياسية خاصة رأت فى أغوار التاريخ الرومانى مظاهر الديموقراطية ومبادىء الحكم الذى يجب أن تكون عليه الدولة . لقد قرأ دى ريينزو كتب الرومان القدامى بشغف وامعان ، وطلعت عليه سطور التاريخ

(١) Niccolo de Niccoli (١٣٦٣ — ١٤٣٧) .
(٢) Lorenzo della Valle (١٤٠٧ — ١٤٥٧) .
(٣) Nicholas V (١٤٤٧ — ١٤٥٥) .
(٤) Pius II (١٤٥٨ — ١٤٦٤) .
(٥) Cola di Rienzo (١٣١٣ - ١٣٥٤)

والبلاغة والشعر بأمجاد روما ، وغرست هذه السطور فى نفسه الحنين إلى عظمة المدينة الخالدة . أراد دى رينزو أن يجعل من روما الحديثة عاصمة للعالم كما كانت فى الماضى ، وأن يعيد بذلك مجد الامبراطورية الرومانية ، ولكن على أسس من شعارات الجمهورية القديمة التى كانت فى روعه جمهورية مثالية يدفع التعلق بها طموح الأجيال إلى فهم الحاضر فى نسق يفتح لها أبواب الرخاء والمستقبل . فالتاريخ بالمعنى الذى نعرفه لم يكن فى فكر هذه النهضة الا دفقا جاريا يرجع فى مبادئها وأحلامها صور العهود الرومانية الحافلة بكل ما يبعث فى الحياة من خصال الارادة والقوة ، وبكل ما تصل هذه الارادة وهذه القوة من وشائج تبسط الطريق إلى بعث جديد يترى فى شروقه تاريخ الأمة الايطالية .

ولعل اتجاه الانسانيين فى تقييم الماضى على هذا النحو هو الذى كان منذ القرن الخامس عشر — ومازال حتى اليوم — يؤثر على طبيعة التاريخ اليونانى والرومانى وعلى مكانته بين المعارف الانسانية بوصفه موضوعا من موضوعات الدراسات الكلاسيكية . فمنذ القرن الخامس عشر فرضت الدراسات الكلاسيكية على الباحثين فهم العالم الأوربى القديم على أنه ظاهرة عامة يتأسس عليها كل ما هو سياسى بحت . وعلى هذا الأساس نظر علماء الدراسات الكلاسيكية إلى التاريخ اليونانى والرومانى على أنه مجرد فرع من فروع هذه الدراسات ، ومجرد علم مساعد لها يعين الباحث على فهم الحقيقة الكامنة وراء الفكر والحضارة ، شأنه فى ذلك شأن العلوم المساعدة الأخرى كعلم الآثار[1] ، وعلم أوراق البردى[2] ، وعلم النقوش[3] ، وعلم النومات[4] وهو علم النقوذ ، وأن كانت هذه العلوم تعتبر بدورها علوما

---

(١) Archaeologia ·

(٢) Papyrologia ·

(٣) Epigraphia ·

مساعدة(٦) أو علوما أولية(٧) للتاريخ . فالتاريخ الأوربى القديم له من غير شك علاقة وطيدة مثمرة بالدراسات اليونانية واللاتينية ، ولكن هذه العلاقة حسب المفهوم الذى وضعه الإنسانيون فى القرن الخامس عشر لا تعدو أن تكون علاقة موضوع يكتمل به فهم التراث الكلاسيكى .

وعلى ذلك تحدد مجال الدراسات الكلاسيكية فى عصر النهضة فى مجال الدراسات الفيلولوجية ، فقد فهم الإنسانيون هذه الدراسات على أنها دراسات لغوية وأدبية بالدرجة الأولى ، وليس التاريخ إلا سياقا لازماً لها ، يستطيع الباحث من خلاله أن يفسر التطور الطبيعى للتقدم ، وأن يشير إلى فكر الإنسان بعلامات منطقية تكتمل بها ظاهرة الحضارة . وما زال هذا الفهم سارياً حتى الآن ، فبالرغم من أن التاريخ اليونانى والرومانى يدرس الآن فى الجامعات كعلم مستقل فى أقسام التاريخ ، إلا أنه يدرس بمعزل عن علوم اللغة والأدب ، كما أنه ما زال يدرس فى أقسام الدراسات اليونانية واللاتينية كفرع من فروع الدراسات الكلاسيكية وعلم مساعد لها ، مع أن العلوم الكلاسيكية ، بوصفها علوماً فيلولوجية بحتة طبقاً لما جرى عليه العرف منذ عصر النهضة ، أى بوصفها علوماً لغـــوية وأدبية بمعناها التقليدى ، تعتبر فى حقيقتها علوماً مساعدة للتاريخ ، وهذا على أقل تقدير هو ما تقضى به مناهج العلوم الحديثة . ونعتقد أن الوقت قد حان لأن تعلن أقسام التاريخ والدراسات اليونانية واللاتينية هذه الحقيقة إعلانا صريحاً ، لأن التاريخ هو فى الحقيقة مصب طبيعى للتجربة الفكرية ، ولأن المهمة الفيلولوجية ، كما هو منصوص عليها فى علم المناهج ، هى الخطوة الأولى فى بحث التاريخ . على أية حال كان مفهوم الإنسانيين فى عصر النهضة عن التراث الكلاسيكى على أنه تراث الأدب الأوربى القديم سببا فى تغليب

(٦) Hilfswissenschaften .

(٧) Grundwissenschaften .

الرؤية الفيلولوجية على الرؤية التاريخية فى معالجة هذا التراث حتى الآن . وقد فتح هذا المفهوم فى القرن السادس عشر باب النقاش بين المؤرخين حول قيمة المصادر الأدبية والمصادر غير الأدبية فى دراسة التاريخ .

* * *

على هذا النحو مجد الإنسانيون فى القرن الخامس عشر عظمة التراث الأوربى القديم، وكان لهم فضل كبير فى إحياء هذا التراث، وفى ازدهار الآداب والفنون فى عصر النهضة . وقد شغلهم هذا الاهتمام عن تقييم العصور الأوربية الوسطى بما تستحق، على أقل تقدير بما تستحق من رؤية موضوعية تحدد مسار التاريخ كما يجب أن نفهمه بصرف النظر عن السلبيات التى تكون قد فاقت سلبيات العصور القديمة وسلبيات عصر النهضة . لقد غبط الإنسانيون حق العصور الوسطى، مع أن النهضة التى تصدرها الإنسانيون فى القرن الخامس عشر كانت فى عمومها نتاجا حيا لمنجزات تلك العصور، وامتدادا لكل الجهود التى بذلها رجالها عبر قرون طويلة لكى يدفعوا بأوربا نحو التقدم، مهما كان حجم هذه الجهود فى واقع التاريخ وفى نظر الإنسانيين . كانت العصور الوسطى فى اعتقاد الإنسانيين عصور فراغ حضارى لم تشهد فيها أوربا أية تيارات من التيارات الحضارية الراقية، عصورا سادها الجهل والفظاظة والعفوية والبلادة، وتداعت فيها الأفكار تداعيا وجدانيا فجا بعيدا عن كل منطق . واعتبر الإنسانيون هذه العصور عصرا واحدا أسموه العصر الوسيط[1] لأنه توسط فى روعهم قمتين من قمم الحضارة هما الحضارة الكلاسيكية وحضارة

(١) medium aevum

عصر النهضة ، فالعصر الوسيط بهـذا المعنى أعقب فى تقدير الإنسانيين نهضة الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى وامتد حتى قبيل النهضة الكبرى فى القرن الخامس عشر ، وهو عصر يربو فى الواقع على عشرة قرون كانت فى نظر الإنسانيين سبة فى جبين الحضارة .

والحقيقة أن التقدم الذى أحرزه رجال عصر النهضة فى مجال العلوم التجريبية والكشوف الجغرافية هو الذى دفع الإنسانيين فى إيطاليا إلى الاعتقاد بأن العصور الوسطى كانت مجرد عصور تخلف وانحطاط . وقد تعمق هـذا الاعتقاد لدى الانسانيين من واقع الشعور القومى بأنهم أحفاد الرومان القدامى الذين رفعوا فى يوم من الأيام راية الحضارة فى عالم البحر المتوسط ، ومن واقع الشعور بالتفوق إزاء المنجزات التى أفرزتها العصور الأوربية الوسطى ، والتى شاركت فيها شعوب لاتمت إلى الرومان بصلة — غير صلة النسب — كالشعب الألمانى والشعب الإنجليزى ، ومن واقع الشعور — بل الشعار — بالحماسة لكل ما هو جدير بدفع العالم إلى القانون والنظام كما أبدعهما فى الماضى فقهاء ومحترفو السياسة الرومانية . ومن هنا كان اهتمام الإنسانيين بفكر الحضارة الكلاسيكية التى قهرت بغلوائها حضارات أكثر منها رفعة وعراقة ، والتى سادت العالم المعروف وقتذاك تحت شعار الحرية والإخاء . ومن هنا كان ثبوت النظر إلى التاريخ القديم على أنه التاريخ الكلاسيكى ، أى التاريخ الأوربى فى عصوره القديمة التى شهدت فى اعتقاد الإنسانيين أعلى مستويات حضارية وصل إليها الإنسان . وقد قصد الإنسانيون بهذا التاريخ على وجه التحديد تاريخ اليونان فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وتاريخ الرومان فى عصور الجمهورية التى انتهت بمقتل يوليوس قيصر[1] فى سنة ٤٤ قبل الميلاد ، وعصور

(١) Julius Caesar (١٠٠ — ٤٤ قبل الميلاد) .

الإمبراطورية الأولى التي انتهت بوفاة الامبراطور كاروس (٢) في سنة ٢٨٣ ميلادية ، أما تاريخ عصور الامبراطورية الأخيرة التي بدأت بتولي الإمبراطور دوقلديانوس (٣) مقاليد الحكم في سنة ٢٨٤ فقد خرج من دائرة اهتمام الإنسانيين . وكان لهذا التصور إلى حد كبير أثر على فكر المؤرخين وعلى موضوعات الدراسات التاريخية منذ القرن السادس عشر حتى ظهور المناهج الحديثة في القرن التاسع عشر .

هذا هو التاريخ القديم كما حدده وفهمه الإنسانيون في عصر النهضة ، وهو التاريخ الاوربي فيما قبل العقود الاخيرة من القرن الثالث ، والتاريخ الأروبي فحسب . أما تاريخ الشرق القديم ، وحتى تاريخ الإمبراطورية الرومانية الأخيرة ، فقد غبط الإنسانيون حقهما تماما . فبالرغم من الصلات الوثيقة التي ربطت بلاد اليونان وإيطاليا ببلدان الشرق منذ قديم الزمن ، أغفل الإنسانيون حضارات هذه البلدان العريقة التي فاقت في أصالتها حضارة أوربا ، مع أن الانسانيين كانوا على علم بشعوب الشرق القديم من واقع المعلومات التي وردت في التوراة . وقد يقول قائل - وهذا صحيح - بأن هذه المعلومات التي وردت في التوراة عن شعوب الشرق لا تمد المؤرخ بإشارات تاريخية محددة يتشكل على أساسها سياق واضح للتاريخ ، وأن الكشوف لم تكن قد بدأت بعد في مراكز الحضارات الشرقية القديمة لتكشف لنا الحقيقة . ولكن هناك الكتب الكلاسيكية التي عشقها الانسانيون وقد جاءت بمعلومات عن الشرق ، وهي معلومات أن لم تكن غزيرة فهي على أقل تقدير معلومات كافية تتيح للانسانيين — أن أرادوا — أن يتصوروا الجوانب المشرقة في هذه الحضارات ، ولكن الانسانيين نسوا — بل تناسوا — فضل الشرق على أجدادهم

---

(٢) Carus (٢٨١—٢٨٣) .

(٣) Diocletianus (٢٨٤—٣٠٥) .

من الاغريق والرومان ، أولئك الأجداد الذين فتنوا عصر النهضة . وظل تاريخ الشرق القديم فى زوايا النسيان حتى بدأت الكشوف الأثرية فى أوائل القرن التاسع عشر وأخذت تكشف لنا يوماً بعد يوم أعماقا جديدة فى التاريخ الذى دخل لأول مرة فى نطاق الدراسات التاريخية والعلمية فى أواخر القرن التاسع عشر بتأثير الآراء التى جاء بها العالم الألمانى إدوارد ماير [1] .

من واقع هذه النظرة القاصرة إلى التاريخ خرج تاريخ الشرق القديم وتاريخ الأمبراطورية الرومانية الأخيرة من دائرة اهتمام الإنسانيين ، واقتصر التاريخ القديم فى روعهم على التاريخ اليونانى ، والتاريخ الرومانى فى عصور الجمهورية وعصور الأمبراطورية الأولى . فقد بهرت الإنسانيين قبل كل شىء مبادىء الديموقراطية الأثينية ، كما بهرتهم مبادىء الجمهورية التى أرساها أسلافهم من أجيال الرومان . وحتى عصور الأمبراطورية الرومانية الأولى التى تحول فيها الحكم الديموقراطى شيئاً فشيئاً إلى حكم مطلق كانت فى نظر الإنسانيين خطوة لا بأس بها على طريق الديموقراطية . ومن واقع هذه الحماسة المفتونة بالحضارة الكلاسيكية ، وبسبب المنجزات البراقة التى حققها رجال النهضة فى القرن الخامس عشر ، تملك الإنسانيين الإيطاليين شعور الصلف والكبرياء ، فاعتبروا ثقافتهم امتدادا لثقافة العصور الكلاسيكية ، تلك الثقافة الوثنية التى عبدت الطبيعة ، وعشقت جمال الإنسان ، ورفعت شعار الحرية ، فخلبت ألباب الإنسانيين الذين كانوا على أبواب عصر جديد قدس الطبيعة والجمال والحرية. وفى غمرة هذا الشعور تناسى هؤلاء المثقفون الوثنيون [2] كم كانت مساوىء

---

(١) Eduard Mayer (١٨٥٥—١٩٣٠) .

(٢) كما أسماهم فريدريش كلينجنر Friedrich Klingner أستاذ الدراسات الكلاسيكية السابق بجامعة ميونيخ فى كتابه « عالم الفكر الرومانى » Roemische Geisteswelt ، الطبعة الثالثة ، ميونيخ ١٩٥٦ .

الديموقراطية الأثينية التى أعدمت سقراط ، وكم كانت فضائح الجمهورية التى قولبتها فى إيطاليا ذات يوم عبقرية السياسة الرومانية الداهية لكى تسود العالم ، تلك الجمهورية التى أفادت أشراف روما أكثر مما أفادت جماهير الشعب ، وتناسوا كم كانت آلام الشعوب التى حكمها الاغريق والرومان تحت شعار الحرية الخلاب. ومن خلال الرؤية القاصرة إلى التاريخ القديم أسقط الإنسانيون تواريخ شعوب أبدعت للعالم حضارة الإنسان .

بهذه الأيديولوجية التاريخية التى ابتدعها الإنسانيون فى القرن الخامس عشر ثبت فى أذهان المؤرخين الأوربيين منذ القرن السادس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر معنى التاريخ القديم . ومع ذلك كانت هناك بعض التأملات الحية الهادفة فى حضارات الشعوب نبعت بين وقت وآخر من منابع فكرية وأيديولوجية خاصة ومن واقع إهتمامات سياسية وفلسفية معينة ، أراد بها أصحابها أن يقولوا فى هـــذه الحضارات قولة حق ، وأن يكشفوا ـ وان لم يكن بصورة علمية أكيدة ـ مدى الأثر الذى أحدثته هذه الحضارات فى الحضارة الأوربيه . لقد دفعت هذه التأملات فكرة التاريخ القديم التى طلعت بها الحركة الإنسانية فى عصر النهضة إلى مجال الرؤية العالمية التى سوف تتضح معالمها فى جهود الحركة الإنسانية العلمية الجديدة فى القرن التاسع عشر . وقد ظهرت هذه التأملات فى القرن السادس عشر فى كتاب السياسى الإيطالى المشهور ماكيافيلى [١] عن المؤرخ الرومانى المعروف تيتوس ليفيوس [٢] الذى عاش على مفترق العصر الميلادى ، ذلك الكتاب الذى أستطرد منه ماكيافيلى

---

(١) Niccolo Machiavelli (١٤٦٩—١٥٢٧) .

(٢) Discorsi sopra la prima deca di Tito Livio . وهـــذا الكتاب عبارة عن مقالات، ونشر في سنة ١٥٣١ بعد وفاة مكيافيلي

موضوعاته السياسية فى كتاب « الأمير » (١) . وظهرت هذه الاهتمامات كذلك فى القرن الثامن عشر فى كتاب المؤرخ والمفكر السياسى الفرنسى الكبير مونتسكيو (٢) عن أسباب عظمة وتدهور الرومان (٣) . ولا شك أن الموضوعات التى أثارها ماكيافيلى ومونتسكيو كان لهما أهمية فى نشوء القضية التاريخية التى شغلت بال المؤرخين الأوربيين ولم يهدأ حولها النقاش حتى اليوم . ونقصد بذلك قضية سقوط الامبراطورية الرومانية التى احتلت مكاناً بارزاً فى الدراسات التاريخية ، وهى القضية التى نعرضها فى الموضوع الثالث من هذا الكتاب .

وإذا كان الانسانيون قد تجاهلوا - فضلا عن تاريخ الشرق القديم وتاريخ الامبراطورية الرومانية الأخيرة - تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، فانهم تجاهلوا بالضرورة تاريخ بيزنطة التى كانت لها علاقات مستمرة مع أوربا طوال العصور الوسطى وحتى سقوط القسطنطينية فى منتصف القرن الخامس عشر ، بالرغم من أن بعض هذه العلاقات كانت معاصرة وحية فى أذهان علماء عصر النهضة ، بل أن بيزنطة كان لها كما ذكرنا فضل كبير على الحركة الفكرية التى قام بها الإنسانيون ، ومع ذلك لم يلق التاريخ البيزنطى من الإنسانيين أى قدر من الاهتمام ، لأن الإنسانيين صرفوا إهتمامهم إلى الفكر والفن والأدب . وهكذا تجاهل الإنسانيون

---

(١) Il Principe .

(٢) Charles Montesqieu (١٦٨٩—١٧٥٥) .

(٣) Considérations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur décadence . نشر هذا الكتاب فى امستردام فى سنة ١٧٣٤ دون ذكر لمؤلفه ، ولكن كان معروفاً أن مونتسكيو هو الذى ألفه ، وقد قدم مونتسكيو نسخة منه بصفة رسمية للأكاديمية الفرنسية .

تاريخ عصور تفاعلت فيها صراعات القوى الدولية على النحو الذى أعطى لأوربا ملامح شخصيتها التى عرفت بها ، وفتح لها أبواباً للمستقبل دلفت منها عظمة النهضة الكبرى فى القرن الخامس عشر .

ولا شك أن الدراسات التاريخية التى قام بها الرهبان والعلمانيون فى القرنين السادس عشر والسابع عشر إنطبعت إلى حد كبير بفكرة الإنسانيين عن التاريخ، ومع ذلك أستطاع هؤلاء العلماء أن يحققوا بعض التقدم فى مجال الدراسات النقدية لتاريخ الأمبراطورية الرومانية الأخـــيرة، وتاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، والتاريخ البيزنطى ، وكانوا بذلك رواداً فى هذه الدراسات ، وان لم تكن بحوثهم قد وصلت بعد إلى المستويات النقدية التى أرتقت إليها البحوث المنهجية فى القرن التاسع عشر ، ولكن هؤلاء العلماء وضعوا على أية حال أسس الإهتمام بما أغفله الانسانيون فى عصر النهضة . وبالرغم من ذلك ظلت فكرة الانسانيين عن العصور القديمة والعصور الوسطى ماثلة فى الأذهان حتى بعد أن ظهرت فى أوربا فى القرن الثامن عشر حركة التنوير [١] التى قامت على أسس من الفكر العقلانى والشك ، وإنطبعت إلى حد ما بطابع الفكر العلمى ، وهى الأسس التى أستمدت قوالبها فى ألمانيا من فلسفات هرمان صمويل ريماريوس [٢] ، وجوتهولد أفرايم ليسنج [٣] ، وموسى مندلسون [٤] . بل أن رؤية الانسانيين إلى العالم القديم بصفة خاصة تعمقت

---

(١) Aufklaerung (Enlightenment) .

(٢) Mermann Samuel Reimarius (١٦٩٤—١٧٦٨) .

(٣) Gotthold Ephraim Lessing (١٧٢٩—١٧٨١) .

(٤) Moses Mendelssohn (١٧٢٩—١٧٨٦) .

فى القرن الثامن عشر من خلال عالمين من علماء ألمانيا هما يوهان يواقيم فينكلمان (٥) وفريدريش فون شليجل (٦) . وظل العالم القديم عند العلماء العقلانيين فى القرن الثامن عشر يعنى العالم الكلاسيكى كما كان فى نظر علماء عصر النهضة . وتبلورت هذه

---

(٥) Johann Joachim Winckelmann (١٧١٧—١٧٦٨) ، أصدر فينكلمان قبل سفره إلى روما فى سنة ١٧٥٥ كتاباً بعنوان « أفكار عن محاكاة الروائع اليونانية فى الرسم والنحت » Gedanken ueber die Nachahmung der griechischen Werke in Malerei und Bildhauerkunst ، وأعقبه فى سنة ١٧٦٢ بكتاب سجل فيه ملاحظاته عن فن العمارة عند القدماء Anmerkungen ueber die Baukunst der Alten ، ومقالة عن الكشوف الأثرية فى منطقة هركولانيوم Herculaneum جنوبى نابولى Sendschreiben von den herkulanischen Entdeckungen ، وفى سنة ١٧٦٤ نشر فينكلمان تقريره عن أحدث الاكتشافات فى المنطقة Nachricht von den neuesten herkulanischen Entdeckungen . ومن خلال هاتين المقالتين عرف العلماء أول معلومات عن الكنوز والنفائس التى تم اكتشافها فى بومبى Pompeii وهركولانيوم . ولكن كتاب فينكلمان الهام كان عن تاريخ الفن فى العالم القديم Geschichte der Kunst des Altertums الذى نشره فى سنة ١٧٦٤ ، وعرض فيه لتاريخ الفن اليونانى والأسس التى قام عليها ، وجمع فيه بين نظرة الإنسانيين والنظرة العقلانية . ومع ذلك كان لهذا الكتاب أثر مغاير على الرؤية التاريخية بعد ذلك ، فقد وضع فيه فينكلمان خطوط العلمية الإنسانية الجديدة التى تضافرت مع حركة العلم التاريخى فى القرن التاسع عشر . كما كان لهذا الكتاب أثر كبير على ليسنج ، وألهمه فى تأليف كتابه الشهير الذى أسماه « لاوكون أو حدود الرسم والشعر » Laokoon, oder ueber die Grenzen der Malerei und Poesie .

(٦) Friedrich von Schlegel (١٧٧٢ — ١٨٢٩) ، نشر فى سنة ١٧٩٧ كتابه عن الإغريق والرومان Die Griechen und Roemer ، وأتبعه فى سنة ١٧٩٨ بكتابه عن تاريخ الشعر اليونانى والرومانى Geschichte der Poesie der Griechen und Roemer .

الرؤية على أبلغ نحو فى كتاب واحد من أكبر المشايعين لحركة التنوير هو المؤرخ الانجليزى المعروف لدارسى التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى إدوارد جيبون [١] ، ونقصد بهذ الكتاب كتاب اضمحلال وسقوط الأمبراطورية الرومانية [٢] .

خطرت فكرة هذا الكتاب فى سنة١٧٦٤ عندماكان جيبون فى زيارة لإيطاليا، وقد جذبت انتباهه أديار الكاثوليك التى رآها فى روما على أطلال الكابيتول . كانت مثل هذه الأديار المقامة على أطلال المعابد الرومانية الوثنية القديمة فى نظر جيبون سخرية من سخريات الأقدار أثارت فى عقله كثيرا من التساؤلات حول تاريخ أوربا ، وأخفت هذه التساؤلات فى طياتها جانبا من الذكريات التى تثير العجب والفضول . وكان حريا به وقد تملكته الدهشة أن يبحث فى هذه الذكريات عن لغز المدينة الخالدة . لغز روما التى فتنته كما فتنت الكثيرين من قبله . روما التى ألقت بحضارتها القديمة عبر العصور الوسطى لكى يشع نورها من جديد على فكر أوربا فى عصر النهضة ، ولكى يسبح فى هذا النور خيال أجداده وآبائه وأقرانه من الشباب. ولابد أن يكون السر الخافى فى هذا العالم المجهول ... عالم العصور الوسطى الغامضة... وشرع جيبون يدون خواطره ، ولكن لم تكن هناك كتب تاريخية جادة تشبع فضوله وتكشف له حقيقة تلك العصور . فالكتب التاريخية والسجلات التى دونها المؤرخون والرهبان فى العصور الوسطى وتم العثور عليها فى مختلف المكتبات لم تكن قدوضعت بعدقيد الدراسة الشاملة، لأن مناهج البحوث التاريخية كانت فى عصر جيبون تخطو أولى خطواتها ، ولم يكن هناك بعد مؤرخون قادرون على تقييم العصور الوسطى تقييما صحيحا عن أسس من المناهج الجديدة التى لم تكن قد استقرت بعد ،

(١) Edward Gibbon (١٧٣٧—١٧٩٤) .

(٢) The History of the Decline and Fall of the Roman Emnire

وإنما كانت هناك طوع فضوله أوراق ومقالات ومنشورات مبعثرة كان قد سطرها فى القرن السابع عشر علماء الرهبان الفرنسيون والبلجيك رجع إليها جيبون لعله يجد فيها الجواب .

وكان طبيعيا وجيبون ما زال فى ريعان الشباب والحماسة أن يلج من خلال الإثارة والغموض هذا العالم المجهول بروح غلبت عليها مفاهيم عصره العقلانية ورؤى زمانه المتحررة ، رؤى انطبعت فيها العصور الكلاسيكية الوثنية فى أذهان المثقفين الأوربيين كأحلى ما تكون العصور ، وما بعدها من عصور وسطى إنما كانت عصورا خاوية على عروشها من الفكر والثقافة ، تراجعت بالحضارة ، وسادت فيها البربرية والخرافة والجهالة . ومع ذلك جاء كتاب جيبون واحـــدا من أندر الأمثال فى تاريخ روما القديم وتاريخ العصور الوسطى ، وإن كان قد جاء غفلا من واقع هذه العصور الطويلة التى امتدت حسب تقدير جيبون حتى منتصف القرن الخامس عشر . فأوربا منذ وفاة الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١) فى سنة ١٨٠ حتى سقوط القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ فى أيدى الأتراك العثمانيين كانت فى خيال جيبون تعانى احتضار العالم القديم ، وكل ما كان يدب فيها من الحياة بين وقت وآخر إنما كان فى اعتقاده صحوات من صحوات الموت البطىء . كان جيبون يحمل معه من غير شك فى هذه الرحلة التاريخية البعيدة فكر الإنسانيين والعقلانيين ، فتجاهل حضارات الشعوب الشرقية القديمة الخالدة ، ووصف العصور الوسطى بعصور البربرية والتقوى الجوفاء ، وكان جيبون يمثل فى وصفه نزعة التحرر التى نادت بها حركة التنوير . ومع ذلك فحسب جيبون أنه كان أول مؤرخ خطا إلى

---

(١) Marcus Aurelius (١٦١—١٨٠) .

تاريخ العصور الوسطى بأقدام ثابتة ، وحسبه أن كتابه كان أول كتاب في هذا التاريخ لفت أنظار المؤرخين في العصر الحديث .

وكان على الدراسات التاريخية للعصور القديمة والعصور الوسطى أن تنتظر مستقبلا آخر بعد ذلك . لقد حدد العالمان الألمانيان يوستوس موزر [١] ويوهان جوتفريد فون هردر [٢] فى نهاية القرن الثامن عشر أصول الانطلاقة الجديدة للوعى بالتاريخ ، تلك الانطلاقة التى انبعثت منها فيما بعد حركة العلم التاريخى [٣] فى القرن التاسع عشر على جهود علماء ألمانيا برتهولد جيورج نيبور [٤] ، ويوهان جوستاف درويسن [٥] ، وتيودور مومسن [٦] ، وهى الحركة التى أنجبت أشهر العلماء الألمان

---

(١) Justus Moeser (١٧٢٠—١٧٩٨) .

(٢) Johann Gottfried von Herder (١٧٤٤—١٨٠٣) .

(٣) Historismus .

(٤) Berthold Georg Niebuhr (١٧٧٦—١٨٣١) عالم ألمانى من أصل دانماركى ، عندما كان نيبور سفيراً فى إيطاليا اكتشف فى سنة ١٨١٦ فى كاتدرائية مدينة فيرونا مجموعة قوانين جايوس Instiutiones التى طال البحث عنها ، وقد نشرها بعد ذلك عالم القانون فون سافينى . وفى روما اشترك نيبور مع الكاردينال ماى Mai فى نشر كتاب الدولة De republica الذى ألفه شيشيرون ، كما اشترك مع فون بونزن von Bunsen وبلانتر Planter فى إصدار طبوغرافية روما القديمة . ولكن أهم أعمال نيبور كان كتاب التاريخ الرومانى Roemische Geschichte الذى نشره نيبور فى برلين فى سنة ١٨١١ فى مجلدين ، وأضيف إليهما مجلد ثالث فى سنة ١٧٣٢ .

(٥) Johann Gustav Droysen (١٨٠٨—١٨٨٤) .

(٦) Theodor Mommsen (١٨١٧ — ١٩٠٣) ، من مؤلفات مومسن كتاب فى التاريخ الرومانى فى ثلاثة مجلدات ظهرت بين سنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٥٦ ،=

أمثال عالم الفيلولوجيا فيليب أوجوست بوك[1] ، وعالم القانون فريدريش كارل فون سافيني[2] ، والعـــالم السويسرى فى الفن والتاريخ الإجتماعى يعقوب بوركهارت[3]. والحقيقة أن كتاب نيبور فى التاريخ الرومانى هو الذى صنع حقبة العلم التاريخى ، لأنه كان أول كتاب ناقش تاريخ روما بطريقة علمية ، وقدم أسساً جديدة للبحث من واقع الوثائق والشواهد . وقد قرر نيبور فى هذا الكتاب نظرية الأسطورة ، ووجه فيه الأنظار إلى أهمية الفروق الاثنولوجية - أى فروق الأعراق البشرية - وأهمية النظم والقوانين .

وقد نشدت حركة العلم التاريخى وضع مناهج نقدية للتاريخ يتوجب على أساسها دراسة المصادر الأدبية بما تتضمنه من بيانات صريحة ، أو بما تتضمنه من إشارات رمزية تستتر فى صيغتها رأيا أو فكرة يصعب التعبير عنها بطريقة مباشرة ، يمكن

= ورسم مومسن فى هذا الكتاب صورة حية للصراع السياسي الكبير الذى صاحب سقوط الجمهورية . وفى سنة ١٨٥٤ طلبت منه أكاديمية العلوم فى برلين أن يقوم بنشر مجموعة النقوش اللاتينية الشهيرة Corpus Inscriptionum Latinarum ، وكان مومسن قد بدأ بحوثه عن النقوش الرومانية عندما كان فى روما فى سنة ١٨٤٣ . وظهر المجلد الأول من هذه المجموعة فى سنة ١٨٦١ . وقد أصدر مومسن المجلدات الستة الأولى ، أما باقى المجلدات فقد نشرها زملاؤه وتلاميذه تحت إشرافه . ومن أهم مؤلفات مومسن كتاب القانون الدستورى الرومانى Roemische Staatsrecht ، وكتاب القانون الجنائى الرومانى Roemische Strafrecht ، وكتاب الولايات الرومانية Roemische Provinzen الذى يعطى فيه مومسن صورة ممتعة عن الحياة الاجتماعية فى عصر الإمبراطورية .

(١) Philipp August Boeckh (١٧٨٥—١٧٦٧) .

(٢) Friedrich Karl von Savigny (١٧٧٩—١٨٦١) .

(٣) Jakob Burckhardt (١٨١٨—١٨٩٧) .

أن يفيد منها الباحث فى تصور البيئة والأحداث التى يتشكل منها موضوع التاريخ، سواء كان هذا الموضوع متعلقاً بالنواحى الاجتماعية أو النواحى السياسية أو غير ذلك من النواحى التى تعرضها هذه المصادر فى صورة أدبية ، وتستوى فى ذلك مقالات النثر وقصائد الشعر ، فهى جميعاً لا تخلو فى الغالب من التعبير عن معايشة حميمه لواقع الحياة . وقد يكون هذا التعبير نابعاً من تجارب خاصة وإتجاهات معينة ـ وهذا أمر طبيعى بل هو الأمر الغالب ـ ولكنه فى النهاية تعبير يشير إلى حقائق على الباحث أن يستخلصها ، وأن يضعها فى موضعها الصحيح فى سياق ما يتكشف له من أحداث . وإذا كانت هذه المصادر الأدبية تتسم بالصدق ـ وهذا أمر يجب أن يتحقق منه الباحث بادىء ذى بدء ـ فإنها من غير شك تعكس فى صدقها صورة حية صحيحة لنوازع العصر وظروف البيئة والمجتمع . كما يتوجب على أساس المناهج النقدية دراسة المصادر غير الأدبية كالنقوش ، والنقود ،وأوراق البردى وغير ذلك من المصادر التى تجسد فى سطورها ورموزها وخصوصيتها حركة المجتمع الدائبة التى تفصح عن سلوكه وطموحه ومشاعره . وتتكثر على هذه المصادر نفس الأمور التى يتطلبها البحث فى المصادر الأدبية من دراسة نقدية دقيقة .

وهذه الدراسة النقدية لا تقوم بطبيعة الحال على مجرد النظرة الشاملة إلى مضمون الواقعة التاريخية كما جاءت فى نصوص المصادر ، وإنما تقوم على دراسة هذه النصوص التى تعرض الواقعة دراسة تحليلية دقيقة متأنية تستهدف قبل كل شىء مدلولات الكلمات الصحيحة فى النصوص، لأن الوقوف على المعانى الصحيحة للكلمات يعد من غير شك أول خطوة طبيعية فى جمع أطراف الواقعة فى اطارها الصحيح . وتستوجب هذه الدراسة معرفة وثيقة بالعصر الذى وقعت فيه الحادثه التاريخية كنتاج طبيعى للظروف والتغيرات التى طرأت على سياسة هذا العصر ، كما تستوجب ثقافة عريضة في مختلف العلوم من شأنها أن تساهم في بسط الرؤية على نحو أكمل، وتساعد الباحث

على تفهم جوانب الموضوع بصورة أدق ، وذلك لكى يصل الباحث إلى مضمون الواقعة التاريخية بالقدر الذى يقوده إلى إكتشاف الحقيقة بقدر المستطاع . ولا شك أن هذه الدراسة التحليلية بددت بعض الآراء العامة المطلقة التى كانت قد أستقرت كما رأينا منذ عصر النهضة حتى أواخر القرن الثامن عشر فى معنى التاريخ القديم . وأصبح فى مقدور المؤرخين منذ القرن التاسع عشر ، بناء على المناهج النقدية الجديدة والدراسة الوثائقية الجادة ، أن يدركوا فى هذا التاريخ مجالات أخرى غير أعمال الدولة الرسمية ومآثر الحكام والمسئولين . وأصبح من شأن هذه الدراسة النقدية الجديدة أن تكشف عن نظم سياسية ، وبنيات إجتماعية ، وأنشطة اقتصادية ، وحياة دينية ، وحياة يومية خاصة ، لم يكن فى مقدور المؤرخ قبل ذلك أن يتعرف عليها بمجرد النظرة العامة التى غالباً ما كانت تؤدى به إلى الرأى الذاتى والحكم المسبق .

وكانت هذه المناهج العلمية الجديدة التى ظهرت فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، وبالصورة التى درجت عليها فى النقد والتحليل ، كفيلة بأن تطبع أصحابها بطابع الحياد والموضوعية . وكان من المتوقع — والحالة هذه — أن تفيد مثل هذه المناهج فى وضع تقييم صحيح لشعوب العالم والحضارات التى ساهمت فى تقدم الإنسانية بما لا يدع مجالا للشك ، كما كان من المتوقع أن تفيد فى وضع أوربا فى المكان الذى يجب أن توضع فيه ، لأن مناهج العلوم الحديثة كان لا بد — بحسب فلسفتها — أن توضع لهذا الغرض . ولكن بعض العلماء الأوربيين إنحرفوا بهذه المناهج — وكان الميدان خالياً لهم — لوضع إيديولوجيات علمية ودينية استطاعوا من خلالها — تماماً كما فعل الانسانيون فى عصر النهضة — أن يفرضوا رأياً مسبقاً فى الحضارات الانسانية على النحو الذى أبرز الحضارة الأوربية إلى مكان الصدارة كما سنرى ، وأبرز الدور الذى قامت به أوربا فى حركة التاريخ ، لكي يحجبوا عن الأجيال حقيقة الاخفاقات التي منيت بها أوربا على مر تاريخها أمام

النجاحات التى أحرزتها شعوب عريقة ضاربة فى الحضارة ، وشعوب أعطت للعالم أعلى ما يمكن أن يعطيه الإنسان من قيم الحياة ، ولكى يقدم هذا البعض من العلماء تفسيراً لعقدة الجنس والتفوق ، وتبريراً للحركة الإستعمارية الكبرى فى العصر الحديث ، وكأن المناهج وضعت لهذا الغرض . تلك الإيديولوجيات التى أقتفينا — نحن العرب والشرقيون — أثرها ردحاً من الزمن ، ومازلنا نقتفى أثرها حتى اليوم، فى الوقت الذى يجب على العلماء الذين يبغون الصدق أن يتصدوا لها بكل حسم ، لكى تصحح الأوضاع الخاطئة التى حفلت بها الكتب والمؤلفات ، ولكى تسترد الشعوب والحضارات حقها المكتسب . . . وكفى الأوربيين فضلا أنهم وضعوا لنا هذه المناهج العلمية الدقيقة ، وعلينا الآن أن نفيد منها فى عرض الحقيقة ، فنحن لا نبغى غير الحقيقة .

لقد رأينا ، ونحن نعرض هذا المدخل إلى دراسة التاريخ الوسيط لكى نعالج فيه الرؤية العلمية إلى موضوعات التاريخ ونقدم فيه طريقاً لدراسة العصور الأوربية الوسطى كما ينبغى . . . رأينا أن نشير إلى هذه القضية الهامة ونحن نسوق المعرفة لأجيال تبحث عن موقعها ، لأن هذه القضية يجب - فى قناعتنا - أن تكون من القضايا الكبرى فى عصرنا ، ويجب أن ننبه إليها فى كل مناسبة من واقع مسئوليتنا العلمية أمام الأجيال . والحقيقة أن بعض الأقلام الحرة الواعية فى أوربا ، وفى العالم العربى حسب علمنا ، تناولت منذ الخمسينيات — ولا سيما فى الآونة الأخيرة — هذه القضية بالنقد والتحليل ، ونادت بضرورة إعادة تدوين التاريخ على أسس جديدة من الموضوعية التى تتوخى الصدق ، بعيداً عن الأغراض التى قصدها بعض المستشرقين ، لكى تنطلق الأجيال الجديدة إلى مستقبلها من تراث صحيح لا يعتريه الخطأ والتحريف. وقد أستجابت في الواقع بعض الهيئات العلمية لهذه الدعوة، نخص منها

بالذكر لجنة التاريخ الإسلامى التى بادرت فى سنة ١٩٧٥ إلى التصحيح ، وهى تضم خيرة علمائنا العرب ، وتتولى أعمالها جامعة الكويت . ونرجو أن تواصل اللجنة بحوثها ، وأن توفق فى هذه المهمة الكبرى .

هكذا قامت حركة العلم التاريخى فى أوربا فى القرن التاسع عشر على أساس الدراسة النقدية للمصادر المختلفة التى تتناول الواقعة التاريخية موضوع البحث ، الأمر الذى ميز بحوث القرن التاسع عشر عن البحوث التى تمت قبل ذلك منذ عصر النهضة . ومع ذلك لم تكن هذه البحوث السابقة على حركة العلم التاريخى خالية تماماً من النظرات النقدية الصائبة ، فقد أثبت ديلا فالى فى منتصف القرن الخامس عشر زيف الوثيقة التى عرفت فى التاريخ بهبة قسطنطين (١) ، ذلك الاكتشاف

---

(١) هبة قسطنطين donatio Constantini أو الهبـــة القسطنطينية donatio Constantina وهى الهبة التى قيل إن الامبراطـــور قسطنطين منحها فى القرن الرابع للبابا سيلفستر الأول Sylvester I (٣١٤ — ٣٣٥) وخلفائه لكى يحكموا بموجـــبها إيطاليا وكل الغرب . لقد شاعت فى إيطاليا منذ أواخر القرن الخامس قصة تروى أن البابا سيلفستر كان قد عالج الإمبراطور قسطنطين من مرض الجذام ، وأن قسطنطين تخلى للبابا عن حكم إيطاليا والغرب إعترافاً منه بهذا الجميل ومنحه التاج الامبراطوى تعبيراً عن هذه السلطة ، وأن قسطنطين أكتفى بحكم القطاع الشرقى من الامبراطورية الرومانية ، وأن البابا أعاد التاج للامبراطور . وقد أعتمدت وثيقة هبة قسطنطين على هذه القصة ، وصدرت على أنها المرسوم الذى أصدره قسطنطين بهذه المناسبة ، ولذلك فإن الوثيقة تثبت بطريقة شرعية — حسب إدعاء الكنيسة الرومانية — حق البابا فى تتويج الأباطرة والملوك ، لأن إعادة سيلفستر للتاج على رأس الامبراطور قسطنطين يعتبر تتويجا له وحقاً يستطيع البابا أن يمارسه فى أى وقت ، وتثبت بالتالى خضوع السلطة الزمنية للسلطة الدينية ، وبعبارة أخرى تثبت حق البابا فى توجيه السياسة كيفما يشاء . وأدعت الكنيسة أن الوثيقة ظلت محفوظة منذ القرن الرابع فى دار المحفوظات =

= البابوية . ولا يعرف أحد على وجه التأكيد متى وأين حررت هذه الوثيقة التى أثبت ديلافالى فى القرن الخامس عشر أنها وثيقة مزورة . كل ما يعرفه العلماء هو أنها حررت فى النصف الثانى من القرن الثامن ، وأن النسخة التى وصلتنا من هذه الوثيقة، وهى نسخة محررة فى منتصف القرن التاسع ، ضمت إلى مجموعة القرارات والمراسيم التى عرفت بمجموعة ايزيدور التاجر ، لأن محتوياتها تبدأ عادة بجملة « ايزيدور التاجر خادم المسيح يحى القارىء» Isidor Mercator servus Christi lectori salutem ، وهى تحتوى على رسائل أساقفة روما الأولين قبل مجمع نيقية من عهد أكليمنضس الأول Clemens I (٩٠ / ٩٢ — ١٠١) إلى عهد ميلتياديس Miltiades (٣٠٨ — ٣١٤) ، وبعض قرارات المجامع الكنسية وهى التى ضمت إليها هبة قسطنطين ، ورسائل البابوات من عهد سيلفستر الأول إلى عهد أغريغوريوس الثانى (٧١٥ — ٧٣١) . ويحتمل بعض العلماء أن وثيقة هبة قسطنطين حررت فى فرنكيا ، ويتأسس هذا الاحتمال على أن المخطوطة المحفوظة فى المكتبة الأهلية فى باريس ، وهى أقدم مخطوطة تحتوى على هذه الوثيقة ، كتبت فى فرنكيا ، ويتأسس كذلك على أن أول من أستشهد فى القرن التاسع بهبة قسطنطين كانوا من الأساقفة الفرنجيين وهم آدو Ado أسقف فيين Vienne ، وهينكمار Hincmar أسقف رنس Reims ، وايناياس Aeneas أسقف باريس . ولكن الرأى الغالب يذهب إلى أن الوثيقة تم تزويرها فى روما ، لأن أسلوبها يطابق الأسلوب الذى كانت تكتب به الوثائق البابوية فى القرن الثامن . ويعتقد يوحنا فون دولينجر Johann von Doellinger ولويد هولسابل Lloyd B. Holsapple أن الوثيقة حررت فى عهد البابا إستيفان الثانى Stephanus I (٧٥٢ — ٧٥٧) للتأثير على ملك الفرنجة بيبين الثالث Pippin III المعروف بأسم بيبين القصير ، لكى يحارب بيبين اللومبارديين فى إيطاليا ويسترد منهم الأملاك البابوية التى استولوا عليها والتى تعتبر بموجب هذه الوثيقة حقاً شرعياً للبابا . وتبنى بومر G. H. Boehmer هذا الرأى وذهب إلى القول بأن الوثيقة زورت، على التحديد فى سنة ٧٥٣ ، وأن الموثق كريستوفر Christophorus هو الذى قام بتحريرها ، وأن البابا إستيفان الثانى قدم الوثيقة بنفسه إلى بيبين عندما سافر إلى باريس فى سنة ٧٥٤ . وقد يؤيد =

= هذا الرأى أن الوثيقة ظهرت لأول مرة فى دير سان دونى Saint-Denis الذى قضى فيه إستيفان شتاء هذا العام . ويرى لونينج L. Loening أن الوثيقة حررت فى عهد البابا أدريان الأول Hadrianus I (٧٧٢ — ٧٩٥) لكى يقدم أدريان سنداً قانونياً للأملاك الشاسعة التى أستولى عليها فى إيطاليا . وأكد إدوارد ماير E. Mayer رأى لونينج بعد دراسة نص الوثيقة دراسة دقيقة على ضوء أحداث العقود الأخيرة من القرن الثامن ، وإنتهى إلى أن الوثيقة حررت فى سنة ٧٧٥ فى الوقت الذى أعلن فيه شارلمان بطلان ملكية البابا لدوقية سبوليتو Spoleto ودوقية بنفنتو Benevento. ومهما يكن الأمر فإن هبة قسطنطين أعتبرت وثيقة صحيحة طوال العصور الوسطى . ولكن بالرغم من أنها صدرت فى القرن الثامن ، لم تستند إليها البابوية بصفة رسمية إلا منذ منتصف القرن الحادى عشر ، وذلك فى الرسالة التى بعث بها البابا ليو التاسع Leo IX فى سنة ١٠٥٤ إلى بطريرك القسطنطينية ميخائيل كيرولاريوس Michael Cerularius . أما الرأى الذى أعلنه إدوارد جيبون بأن البابا أدريان الأول أستند إلى الوثيقة بصفة رسمية فى الرسالة التى بعث بها إلى شارلمان فى سنة ٧٧٨ فقد أصبح الآن مرفوضاً من أغلب العلماء على أساس أن أدريان — حتى على فرض أن الوثيقة صدرت فى عهده — لم يستند فى رسالته صراحة إلى الوثيقة ، وأنه لم يفعل — فى هذه الحالة — أكثر من إصدار الوثيقة لكى يشهرها فى وجه شارلمان . وأصبح مرفوضاً كذلك رأى يوحنا فريدريش Johann Friedrich الذى حاول البرهنة على مثل هذا الاستناد فى الرسالة التى بعث بها أدريان فى سنة ٧٨٥ إلى الأمبراطور البيزنطى قسطنطين السادس Constantinus VI وأمه الأمبراطورة ايرين Irene . وعلى ذلك فالرأى الغالب الآن هو أن البابوية لم تستند إلى هبة قسطنطين بصفة رسمية إلا منذ منتصف القرن الحادى عشر ، وأن الوثيقة أصبحت منذ ذلك الوقت سنداً شرعياً للبابوات وفقهاء القانون الكنسى فى تدعيم المطالب البابوية . ولا شك أن الوثيقة كانت سلاحاً ماضياً فى وجه السلطة الزمنية فى القرن الثانى عشر . وفى منتصف القرن الخامس عشر وجه لورنزو ديلافالى نقداً شديداً لهبة قسطنطين وكشف زيفها فى مقالة نشرها فى سنة ١٤٤٠ . والحقيقة أن بطرس كومستور Petrus Comestor رئيس دير سان فيكتور فى فرنسا المتوفى سنة ١١٧٩ =

الذى كان له صدى كبير فى محافل المؤرخين ، لأن هذه الوثيقة كانت من أشهر وثائق العصور الوسطى . وقد إستعان ديلافالى فى تحقيقه على الدراسة الفيلولوجية التى كشفت زيف هذه الوثيقة الخطيرة ، وهى دراسة نقدية إعتمد فيها ديلافالى على مجرد المقارنات اللغوية التى إستهدفت حرفية الكلمة ، ومع ذلك إستطاع ديلافالى أن يحرز نجاحاً ملحوظاً فى دراسته النقدية ، وإن لم تكن هذه الدراسة بطبيعة الحال على مستويات الأصول التى قضت بها بعد ذلك مناهج العلم التاريخى فى الدراسة الفيلولوجية السابقة على التحليل الموضوعى للوثائق . فقد فرضت المناهج العلمية الحديثة فى القرن التاسع عشر أن يكون هناك فى الدراسة الفيلولوجية جمعاً بين النقد والصياغة ، وأن يتم هذا الجمع من خلال حرية البحث لإسترداد الحادثة التاريخية على النحو الذى يبعد الباحث عن الآراء الذاتية والأحكام المسبقة ، ويقربه من الحقيقة بقدر المستطاع ، ولا ضير فى أن يستعان فى ذلك بالقياس والبديهة .

= كان أول من أبدى شكه فى حجية وثيقة قسطنطين ، وأيده فى ذلك مرسيليو البادوفى Marsiglio de Padova فى القرن الرابع عشر . كما أن نيقولا القوزى Nicolaus Cusanus ، الذى أرسله البابا نيقولا الخامس فى سنة ١٤٥٠ مبعوثاً إلى ألمانيا وبوهيميا للتفاهم على عقد المجامع المحلية ، عاد ونبه إلى زيف هذه الوثيقة قبل إكتشاف فالى بسبع سنوات فى كتاب الاتفاق الكاثوليكى Concordantia Catholica الذى نشره فى سنة ١٤٣٣ . وبعد إكتشاف ديلافالى حاول بعض علماء الكنيسة فى القرن السادس عشر أن يدافعوا عن صحة الوثيقة ، ولكن الكاردينال قيصر بارونيوس Caesar Baronius تصدى لهذه المحاولة ورفض بشدة الاعتراف بها . وظل الجدل هكذا حتى أواخر القرن الثامن عشر . وفى القرن التاسع عشر أصبح من المؤكد صحة ما ذهب إليه ديلافالى من أن الوثيقة مزورة ، وإن كانت المشاكل التى تتعلق بمصدرها وزمان تحريرها وغرضها لم تحل حتى الآن بصفة قاطعة ، ويظل هذا الموضوع قابلا للبحث والمناقشة .

وقد إنتقد بعض العلماء المعاصرين فى القرن التاسع عشر هذه الحرية التى نادت بها مناهج البحث الحديثة إنتقاداً شديداً . كما فعل المورخ الإنجليزى السير جورج كورنوول لويس (١) الذى أسمى هذه الحرية بالحرية التنويرية الجديدة لرجوعها بالدراسة التاريخية فى إعتقاده إلى مفاهيم حركة التنوير فى القرن الثامن عشر ، تلك الحركة التى حملت ضمن مبادئها مفاهيم عصر النهضة تجاه التاريخ . كما إنتقدها الفيلسوف الألمانى الكبير فريدريش فيلهلم نيتشه (٢) ، وإن كان نيتشه لم يوجه لها نقداً صريحاً ، وإنما حذر نيتشه بصفة عامة من حركة العلم التاريخى فى مؤلفه عن إيجابيات التاريخ وسلبياته (٣) الذى نشره فى سنة ١٨٧٣ / ١٨٧٤ . وبالرغم من هذا النقدالشديد الذى صدر من رجال لهم وزن كبير فى المحافل العلمية ، أستمرت حرية العلم التاريخى فى دراسات القرن التاسع عشر ، لأن العصر كان ملائماً لمثل هذه الاتجاهات الفكرية الجديدة التى توافقت مع طبيعة التحول الذى طرأ على العقلية الأوربية فى القرن التاسع عشر . بل أن هذه المناهج العلمية الحديثة ، التى قامت بالدرجة الأولى على حرية النقد ، ظلت أساساً للدراسة التاريخية حتى يومنا هـــذا ، وتركت لنا حركة العلم التاريخى بذلك ارثا مثمراً ، وإن كان إرثا مليئاً بالمشاكل .

وقد تضافر مع حركة العلم التاريخى فى القرن التاسع عشر إتجاه آخر عرف بالعلمية الإنسانية الجديدة (٤) كان قد وضع خطوطه الأولى كما رأينا فى منتصف القرن الثامن عشر العالم الألمانى فينكلمان . وقد إتجه منهج العلمية الإنسانية الجديدة

---

(١) Sir George Cornwall Lewis (١٨٠٦ — ١٨٦٣) .
(٢) Friedricch Wilhelm Nietzsche (١٨٤٤ — ١٩٠٠) .
(٣) Vom Nutzen und Nachteil der Historie fuer das Leben.
(٤) Neuhumanismus .

هذا نحو التفسير السياسى من خلال الرؤية الحضارية ، والرؤية الفكرية بصفة خاصة ، وهو المنهج الذى إتبعه العلماء الألمان فى دراسة تاريخ العصور الوسطى عندما نشطت هذه الدراسة فى ألمانيا فى أواخر القرن التاسع عشر . وعلى أساس هذا الإتجاه المنهجى الجديد كشفت دراسة الحضارة اليونانية ، بوصفها حضارة عالمية ، عن إشعاعات حضارية وصل مداها إلى حدود باكتريا (١) والهند ، نتجت عن فتوحات الإسكندر المقدونى فى الشرق . وثبت أن الحضارة الرومانية فى عصور الإمبراطورية الأخيرة كانت ـ برغم التأخر الثقافى ـ حضارة متجددة على الدوام ومؤثرة فى تشكيل التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى . كما أن البحث فى التاريخ الرومانى بوصفه مركز ثقل فى التاريخ العالمى، ولا سيما تاريخ العصور الإمبراطورية الأخيرة ، تطلب الكشف عن الروابط الحضارية والسياسية بين روما والشعوب الكائنة على أطراف الإمبراطورية ، والدول المجاورة لها ولا سيا دولة الفرس الساسانيين .

ولم يعد مفهوم العالم القديم يحدد بعد ذلك كأحقاب زمنية فحسب ، وإنما أصبح يعنى كذلك إمتداداً مكانياً معيناً يقوم مقام المسرح لعصور التاريخ الأوربى والشرق أوسطى ، ويشكل فيه البحر المتوسط بأقاليمه الحدودية الشاسعة المكان السائد للحدث التاريخى . وكان من المتوقع ، بعد أن تطورت الرؤية التاريخية على هذا النحو ، أن يشمل العالم القديم فى تقدير إدوارد ماير ، الذى افتتح دراسة تاريخ القديم على أسس المناهج العلمية الإنسانية الجديدة ، دائرة حضارة يونانية ائرة حضارة شرقية أسبق . وأصبح الموضوع الخاص الذى كان قد ون ، وهو موضوع إضمحلال الإمبراطورية الرومانية ، قيد أوسع ، ومازال النقاش حول هذا الموضوع دائرا بعد أن ألقى علماء التاريخ الإقتصادى والتاريخ

الإجتماعى فى القرن العشرين أفكاراً لا يستهان بها حول علاقة الإنقطاع والإستمرار فى تدهور الإمبراطورية ، وحول الأسباب العميقة لهذه العلاقة .

* * *

رأينا أن الإدانة التى حكم بها الإنسانيون فى عصر النهضة على العصور الأوربية الوسطى بأنها عصور تخلف وإنحطاط قد إنصرفت إلى حقبة طويلة من الزمن تربو على عشرة قرون . والحقيقة أن هذا التعميم فى الحكم لا يعطى صورة صحيحة لواقع التاريخ . فلا شك أن أوربا عاشت على مر هذه الحقبة الطويلة فترات من التقدم . صحيح أن هذا التقدم الذى شهدته أوربا فى عصورها الوسطى بين حين وآخر لم يكن بطبيعة الحال فى نفس الدرجة التى وصل إليها التقدم فى عصر النهضة والعصر الحديث ، ولكنه كان على أقل تقدير تقدماً دفع بالتاريخ الأوربى إلى الحركة فى حدود الظروف والتغيرات التى مرت بأوربا عبر تاريخها الوسيط . وهو تقدم يعبر فى هذه الحدود عن الدوافع التى دفعت أوربا إلى مواجهة هذه الظروف والتغيرات. فقد كان على أوربا أن تتخطى المصاعب الاقتصادية التى ألمت بها نتيجة للغزوات الجرمانية الجامحة ، وهى الغزوات التى أخـــذت تهدد بشدة أمن الإمبراطورية الرومانية الغربية منذ القرن الرابع ، وإنتهت بسقوط هذه الإمبراطورية فى القرن الخامس وإقامة ممالك جرمانية على إنقاضها ، وهى مصاعب إستمرت لعدة قرون . لقد بدأت هذه الممالك الجرمانية تاريخها فى الواقع وقد دب الضعف والأنهيار فى كل مكان ، فكان عليها أن تواجه هذه الظروف التى خلقتها ، وأن تحاول التغلب عليها لكى تؤكد وجودها ، وتحقق الاستقرار فى مواجهة الحركات الوطنية التى كانت تنهض فى هذه الممالك بين وقت وآخر للتخلص من الحكم الجرمانى ، وفى مواجهة السياسة البيزنطية التى كانت ترمى فى كل لحظة إلى تحرير الغرب من الجرمان . ولم

تقو بعض الممالك الجرمانية على الصمود فإنهارت وزالت من الوجود كمملكة الفندال فى شمال أفريقيا التى قوضتها القوة البيزنطية فى سنة ٥٣٤ ، ومملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا التى دالت لبيزنطة فى سنة ٥٥٣ ، ومملكة القوط الغربيين فى أسبانيا التى إنطوت فى رحاب الدولة الإسلامية فى سنة ٧١١ ، ومملكة اللومبارديين فى إيطاليا التى قضى عليها الفرنجة فى سنة ٧٧٤ . وأصبح مسرح السياسة الغربية خالياً لمملكة جرمانية قوية واحدة هى مملكة فرنكيا التى أقامها ملوك الفرنجة الجـــرمان على مناطق كانت فى العصور الرومانية جزءاً من بلاد الغال . وقدر لهذة المملكة الفتية أن تلعب دوراً هاماً فى سياسه الغرب وفى السياسة الدولية .

ولقد واجه ملوك الفرنجة ، ولا سيما ملوك الأسرة الكارولية التى ظهر فيها شارلمان ، مشاكل إقتصادية جمة ، وهددتهم مطامع النبلاء الفرنجيين الذين حاولوا تقسيم فرنكيا إلى مناطق نفوذ مستقلة ، وهى السياسة التى انتهت فيما بعد إلى ظهور النظام الإقطاعى المعروف . وكان على ملوك الفرنجة أن يوازنوا هذه الأوضاع مع الأحداث التى كانت تجرى حولهم فى العالم الإسلامى والعالم البيزنطى ، وأن يجاهدوا لتحقيق هذا التوازن بالقدر الذى يسمح لفرنكيا أن تلعب دوراً فى سياسة الغرب الأوربى وفى السياسة الدولية ، لأن الأوضاع الدولية كانت تحتم ذلك . وقد وجدت هذه التطلعات تعبيراً لها فى النهضة الفكرية التى قامت فى فرنكيا فى القرن التاسع ، وهى النهضة الشارلمانية التى عرفت بالنهضة الكارولية أو النهضة الكارولينجية . ولما إنقسمت فرنكيا نشأت من هذا الإنقسام فرنسا وألمانيا ، وتحول بذلك مجرى التاريخ فى القارة الأوربية ، ولا سيما أن إنجلترا أخذت تلعب دورها فى المجال السياسى .

وفى القرن الحادى عشر نشبت الحروب الصليبية فى الشرق ، وهى الحروب التى — مهما أختلفت الآراء حول دوافعها - بلغت بالسياسة الأوربية إلى قمة الصراع الدولى والأطماع التوسعية تحت شعار الصليب . وأستطاع الأوربيون أن يفيدوا من هذه الحروب ، فقد تعرفوا أثناءها على القانون الرومانى الذى كان قد أختل تطبيقه فى الغرب بعد تأسيس الممالك الجرمانية حتى إنتهى العمل به وحلت محله قواعد عرفية حكمت العلاقات والمعاملات ، وكانت بيزنطة قد تولت جمع القوانين والتشريعات الرومانية فى عدة مقننات لعل من أهمها المقننات التى جمعت فى عهد الإمبراطور جوستينيان الأول (١) وهى الموسوعة الفقهية المسماة بالديجستا (٢) أو المختارات ، والمتون (٣) أو المبادىء القانونية ، والمتجددات (٤) أو المراسيم المستحدثة (٥) .

كما تعرف الأوربيون على التراث اليونانى القديم الذى حفظته بيزنطة على مر القرون ، والذى نقل منه جانب كبير إلى اللغة العربية فى القرنين التاسع والعاشر ، ولا سيما الموضوعات التى تتعلق بالفلسفة اليونانية والطب . وقد أجرى العلماء المسلمون على هذه النقول شروحاً وتعليقات على جانب كبير من الأهمية ، وخاصة الشروح التى أجراها المفكر الأندلسى الكبير ابن رشد المعروف عند الأوربيين

---

(١) Justininnus I (٥٢٧ — ٥٦٥) .

(٢) Digesta .

(٣) Institutiones .

(٤) Novellae .

(٥) أخترنا تعبيرات الموسوعة والمتون والمراسيم المستحدثة من كتاب الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد على عن مصادر التاريخ الرومانى المنشور فى بيروت سنة ١٩٧٠ (أنظر ص ١٠١ — ١٠٢) .

باسم أفيرويس [١] ، تلك الشروح التى ألقت ضوءاً على جوهر الفكر اليونانى ، والفكر الأرسطو طاليسى بصفة خاصة ، وأضافت تصويبات دقيقة أفاد منها الأوربيون بعد ذلك أكبر فائدة . وهكذا عرف الاوربيون جانباً هاماً من تراث أجدادهم عن طريق الترجمات العربية ، فدفعهم ذلك إلى نقل هذه الترجمات العربية إلى اللغة اللاتينية ، لكى تستطيع الأجيال الأوربية أن تطلع على هذا التراث القديم، وخاصة أن الأوربيين لم يكونوا قد إكتشفوا بعد المخطوطات اليونانية التى كانت محفوظة فى مختلف المكتبات فى أوربا والشرق ، وإنما بدأ البحث عن هـــذه المخطوطات كما رأينا فى القرن الرابع عشر عندما نبه العالم الإيطالى بترارکا إلى ضرورة إحياء الآداب اليونانية فى نصوصها الأصلية . ولكى ينقل الأوربيون الكتب العربية التى تناولت موضوعات التراث اليونانى ، أخذوا يدرسون اللغة العربية فى مدارس الترجمة فى صقلية وأسبانيا . وكانت هذه الحركة الثقافية الكبرى تمهيداً لنشوء الجامعات وقيام النهضة الفكرية فى أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

هذا هو واقع التاريخ . ولكن علماء عصر النهضة درجوا فى تقييم العصور الوسطى على التعميم ، وطووا بذلك صفحات من التاريخ الأوربى لا شك أنها نبضت بالحركة والنشاط ، وأغفلوا نهضات كانت نبارس أضاءت فكر أوربا الوسيط، ونعنى بها النهضة الكارولية التى رفع لواءها ملك الفرنجة شارلمان [٢] فى القرن التاسع ، والنهضة الأوتونية التى إنبعثت فى عصر إمبراطور ألمانيا أوتو الأول [٣]

---

(١) Averroes .

(٢) Charlemagne (Carolus Magnus) (ملك ٧٦٨ — ٨١٤ ، إمبراطور ٨٠٠ — ٨١٤) .

(٣) Otto I (٩٣٦ — ٩٧٣) .

فى القرن العاشر ، ونهضة القرنين الثانى عشر والثالث عشر التى قامت على مفاهيم فكر الأرسطو طاليسى عبر أثارات الفكر الإسلامى . وقد صادفت إدانة الإنسانيين للعصور الوسطى بصفة خاصة فترة زمنية تقرب من خمسة قرون ، وتمتد هذه الفترة من القرن الرابع ، الذى بدأ فيه الغزو الجرمانى الكبير للإمبراطورية الرومانية الغربية ، حتى منتصف القرن الثامن ، أى حتى العصر الذى حكم فيه شيلديريش الثالث (١) آخر ملوك الفرنجة الميروفيين ، وديزيديريوس (٢) آخر الملوك اللومبارديين ، وهى الفترة التى مازالت تعرف حتى الآن فى أغلب كتب التاريخ بالعصور المظلمة (٣) والتى تعتبر وكأنها كما قال المؤرخ الإنجليزى الكبير أرنولد توينبى (٤) فى كتابه عن دراسة التاريخ (٥) : « عصور سبات عميق فى فترة إنقطاع بين تدهور الامبراطورية الرومانية وظهور مجتمعنا الغربى البطىء من الشواش » .

ليس من الضرورى هنا — وبادىء ذى بدء — أن ننفى رأى الانسانيين هذا لكى تسترد العصور المظلمة إعتبارها المفقود ، ولا يكفى أن نؤيد هذا الرأى إبتداء ، لأن المسألة ليست مسألة هجوم أو دفاع بقدر ما هى مسألة يتوقف الرأى فيها قبل كل شىء على الدراسة ، لأن التقييم الحقيقى لهذه العصور رهين بالبحث والنظرة العلمية الجادة ، ولأن مناهج العلوم تطالبنا بذلك . كما أن المدارس التاريخية الحديثة تقضى الآن برصد الظواهر التاريخية أكثر مما تقضى برصد الأحداث ، بصرف النظر عن طبيعة هذه الظواهر وقدرها بين الظواهر التاريخية الأخرى ، لكى يستقيم فى

---

(١) Childerich III (٧٤٣ — ٧٥٢) .

(٢) Desiderius (٧٥٦ — ٧٧٤) .

(٣) Dark Ages .

(٤) Arnold J . Toynbee .

(٥) A study of history .7th ed. Vol I· London 1956 p. 39. 62 .

تصورنا مسار التاريخ من ناحية ، ولكى يقودنا البحث فى هذه الظواهر من ناحية أخرى إلى تفسيرات تعيننا على تفهم جميع التطورات التى تكون قد مرت بها الشعوب . ومما لاشك فيه أن العصور المظلمة — بصرف النظر عن مسمياتها — تعد ظاهرة من ظواهر التاريخ ، وعلى أقل تقدير ظاهرة تربط بين ظواهر العصور القديمة وظواهر العصور الوسطى . ونحن نسوق هنا هذا الكلام لأن هناك من يؤيد رأى توينبى والانسانيين بشدة ، من واقع إيديولوجيات ثقافية معينة يجرى من خلالها قياس على التقدم الذى أحرزته عصور أخرى من العصور الأوربية الوسطى ، والتقدم الكبير الذى أحرزه العصر الحديث ، والمنجزات التكنولوجية التى تتحقق فى أيامنا بين لحظة وأخرى ، وهو قياس مع الفارق . كما أن هناك من ينفى هذا الرأى بشدة ، لكى يربط حلقات التطور فى أوربا بعضها ببعض على نحو يجعل للحضارة الأوربية وحدة لا يعتريها النقص والقصور ، حتى أن بعض المشايعين لهذا الفريق يعتبر فكرة العصور المظلمة أسطورة من أساطير التاريخ ، ولا شك أن أكثر هؤلاء المشايعين من العلماء الألمان ، فهم يدافعون عن العصور المظلمة لأنها ترتبط إرتباطاً وثيقاً بتاريخ الممالك الجرمانية .

من هنا كان من الواجب علينا فى بادىء الأمر أن نقف قليلا لكى نتأمل هذه العصور بالبحث والدراسة ، وخاصة أن هذا الموضوع يتطرق قبل كل شىء إلى قضية كبرى من قضايا الدراسات التاريخية ، وهى قضية البحث عن حدود فاصلة بين العصور القديمة والعصور الوسطى ، وهذا يعنى البحث فيما إذا كانت العصور المظلمة ضمن العصور الوسطى ، أم أنها كانت عصوراً قائمة بذاتها ، وفيما إذا كانت هذه العصور تمثل أزمان إنعدام فى الحضارة الأوربية كما قال الانسانيون فى عصر النهضة ، أم أنها كانت تمثل مراحل — مهما كان حجمها — من مراحل التطور الحضارى . كل هذه أمور جديرة بالنظر ، ويجب ألا نغفلها ونحن نوغل فى هذه

الفترة الشاقة من التاريخ . والتاريخ يذكر لنا أن العصور المظلمة حفلت بظواهر تاريخية عالمية ، وشهدت أحداثا خطيرة ، وصراعاً هائلا بين القيم المادية والمثل العليا ، وهو صراع كشف عن نظرة طارعة إلى مستقبل أفضل عاش بها الناس تجارب النجاح والاخفاق وشظف العيش والفزع على نحو جعل من الحياة مشاهد أليمة . ولكن لا يكفى أن نقرر هذا الآن ، لأن كل عصور التاريخ الانسانى المعروف تكاد — مهما كان الرأى — لا تخلو من هذه المشاهد ، ولا يمكن أن يكون ماحدث فى العصور المظلمة دليلا على إختلافها وتخلفها عن أية عصور أخرى مشابهة ، ولكن الدليل كان من غير شك فى تلك المقومات التى تضافرت لتجعل من هذه العصور كما سنرى عصوراً لها طابعها الخاص .

وقد يكفى أن نقول الآن بصفة عامة أن العصور المظلمة شهدت عناق الحضارة الكلاسيكية والحضارة الجرمانية والفكر المسيحى ، عناقاً فريداً بين خصوم ألداء لم يشهد له العالم مثيلا من قبل ، وكان هذا العناق شروق أوربا ، وسنرى فيما بعد ماذا يعنى هذا القول . وعلى أية حال إذا كانت العصور المظلمة لم تقدم للأجيال الأوربية ماكان يرجوه لها ناقد اليوم ، فحسبها أنها كانت عصوراً من عصور التاريخ. ولعلنا نردد هنا ما قاله العالم الألمانى الكبير ليوبولد فون رانكه (١) فى محاضرات التاريخ الحديث (٢) التى نشرت بعد وفاته فى ميونيخ وليبزج سنة ١٩١٧ ، رداً على سؤال كان قد طرحه ملك بافاريا مكسيميليان الثانى عن حكمة التاريخ . . . قال فون رانكه : « إن القيمة التى نستقيها من كل حقبة من أحقاب التاريخ لا تبدو فيما ينبعث منها من وقائع وأحداث ، وإنما هى قيمة تكمن فى وجودها » .

---

(١) Leopold Von Ranke (١٧٩٥ — ١٨٨٦) .

(٢) Ueber die Epochen der neueren Geschichte. 19 Vortraege vor Koenig Maximilian von Bayern. Muenchen—Leipzig 1917 S.17.

وإذا حاولنا أن نرصد الأحداث التى وقعت فى الممالك الجرمانية فى العصور المظلمة ، وهى الأحداث التى من شأنها أن توضح لنا ظاهرة هذه العصور ومكانها بين ظواهر التاريخ الأوربى ، فلا بد بطبيعة الحال أن نرجع إلى كتب المؤرخين المعاصرين الذين رووا هذه الأحداث بنبض الواقع . لقد كتب العالم الايطالى كاسيودور(١) فى الثلاثينيات فى القرن السادس كتاباً أسماه المنوعات تعرض فيه لحكم

(١) Flavius Magnus Aurelius Cassiodorus (حوالى ٤٩٠ — حوالى ٥٧٥) ، عالم وسياسى ولد فى بلدة سكويلاكيوم Squilacium (الآن سكويلاتشى Squillace) فى مقاطعة كالابريا Calabria Ulteriore فى أقصى جنوب إيطاليا فى أسرة رومانية ثرية من أصل سورى . عاصر كاسيودور كل ملوك القوط الشرقيين الذين حكموا بلاده وهم تيوديريش Theoderich (٤٩٣—٥٢٦) وأتالاريش Athalarich (٥٢٦—٥٣٤) ، وتيوداهاد Theodahad (٥٣٤— ٥٣٦) ، وفيتيجيس Witigis (٥٣٦ — ٥٤٠) ، وهيلديباد Hildibad (٥٤٠ — ٥٤١) ، وأراريش Ararich (٥٤١) ، وتوتيلا Totila (٥٤١ — ٥٥٣) ، وتيجا (تييا) Teja (٥٥٣) . تولى كاسيودور فى سنة ٥١٤ منصب القنصلية ، وفى سنة ٥٢٣ منصب المستشارية فى البلاط القوطى خلفاً للعالم والفيلسوف بويس ، وفى سنة ٥٣٣ منصب الحافظ البريتورى فى عهد أتارلايش . وفى سنة ٥٣٥ فكر كاسيودور هو والبابا أغابيتوس الأول Agapitus I الذى تولى أسقفية روما فى نفس السنة خلفاً للبابا يوحنا الثانى فى إنشاء جامعة مسيحية فى روما للعلوم اللاهوتية والعلوم الكلاسيكية القديمة ، لكى تحافظ هذه الجامعة على روح الحضارة الرومانية ، ولكن الظروف حالت دون ذلك . ورأى كاسيودور أن يحقق فكرته عن طريق آخر بعد أن دخل فى سلك الرهبنة ، فأسس دير فيفاريوم Vivarium فى ضيعة عائلته فى كالابريا ليقوم مقام الجامعة المسيحية . ولذلك جعل كاسيودور هذا الدير مركزاً لتثقيف الرهبان فى العلوم الدينية والدنيوية ، كما جعله مركزاً لنسخ المخطوطات . وكان دير فيفاريوم بذلك أول دير فى تاريخ المسيحية الغربية يقوم بمهمة النسخ والتعليم . وهكذا خلق كاسيودور نظاماً جديداً للحياة الرهبانية سارت عليه بعد =

القوط الشرقيين فى إيطاليا ، ودون العالم الأسبانى إيزيدور الأشبيلى (١) الذى عاش على مفترق القرنين السادس والسابع تاريخ القوط الغربيين فى أسبانيا ، وتاريخ الفندال فى شمال أفريقيا ، كما دون عالمان من علماء الغاليين الرومان هما أغريغوريوس

= ذلك الأديرة الأوربية ولا سيما الأديرة البندكتية التى أصبحت مؤسسات تعليمية ذات شأن فى الحياة الثقافية والإجتماعية . فبالرغم من أن دير فيفاريوم لم يعد له كيان بعد القرن السابع، إلا أنه إستطاع بتقاليده العلمية أن يؤثر على الحياة الدينية والثقافية فى أوربا طول العصور الوسطى الباكرة ، فأصبحت الأديرة ومدارس الكاتدرائيات على النهج الذى وضعه كاسيودور دور العلم الوحيدة فى القارة الأوربية طوال هذه العصور حتى تأسيس الجامعات فى القرن الثانى عشر . ورغبة منه فى صياغة برنامج لتلاميذه الرهبان كتب كاسيودور موجزا فى العلوم الدنيوية الحرة de artibus ac discipulis liberalium litterarum بين فيه أهمية هذه العلوم فى دراسة اللاهوت وعلوم الكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة ، وأتفق فى ذلك على ما سبق أن نادى به مارتيانوس كابيلا فى قران الفيلولوجيا ومركوريوس . ولكاسيودور مؤلفات أخرى منها ملخص فى التاريخ الرومانى بعنوان المؤرخات chronica عرض فيه بإيجاز تاريخ العالم منذ آدم حتى سنة ٥١٩ ، وكتاب فى تاريخ الكنيسة من سنة ٣٠٦ حتى سنة ٤٣٩ أسماه التاريخ الثلاثى historia tripertita وجمع مادته من المؤرخين البيزنطيين الثلاثة الذين عاشوا فى القرن الخامس ثيودوريت Theodoretus وسقراط Socrates ، وسوزومين Sozomenus ، وقد شاعت قراءة التاريخ الثلاثى فى العصور الوسطى . وكتب كاسيودور كذلك كتاباً فى تاريخ القوط ، ولكنه فقد ولم يصلنا منه غير مقتطفات كتبها الراهب القوطى جوردان . أما كتاب المنوعات Variae الذى كتبه كاسيودور حوالى سنة ٥٣٨ فله أهمية خاصة ، لأن كاسيودور نشر فيه رسائله التى كتبها فى عهد تيوديريش وأتالاريش ، ولذلك يعتبر هذا الكتاب مصدراً وثائقياً هاماً لتاريخ القوط الشرقيين فى إيطاليا ،ولا سيما تاريخ الملك تيوديريش.

(١) Isidorus أسقف أشبيلية Hispalis (Sevilla) (حوالى ٥٧٠ - ٦٣٦) ، كان إيزيدور ينتمى إلى عائلة رومانية عريقة رحلت من شمال أفريقيا إلى أسبانيا =

التوزى وفريد يجار تاريخ الفرنجة الميروفيين كما ذكرنا فى القرنين السادس والسابع . فإذا رجعنا إلى هذه التواريخ إستطعنا أن نقف على حقيقة التدهور الذى وصلت

= فى أوائل القرن السادس . والحقيقة أن إيزيدور يعد واحداً من أهم الرجال الذين يمثلون حلقة الوصل بين الثقافة القديمة وثقافة العصور الوسطى ، بل ان المستوى المتدنى الذى كتب به إيزيدور مؤلفاته يعتبر من المؤشرات التى تشير إلى البداية الحقيقية للعصور الوسطى . وقد عاصر إيزيدور تسعة من ملوك القوط الغربيين الذين حكموا أسبانيا وهم ليوفيجيلد Leowigild (٥٦٨ - ٥٨٦) ، وويكاريد الأول Reccared I (٥٨٦ - ٦٠١) ، وليوفا الثانى Leova II (٦٠١ - ٦٠٣) ، وفيتيريش Witterich (٦٠٣ - ٦١٠) ، وجونديمار Gundemar (٦١٠ - ٦١٢) ، وسيزيبوت Sisebut (٦١٢ - ٦٢١) ، وريكاريد الثانى Reccared II (٦٢١) ، وأسفنتيلا Swinthila (٦٢١-٦٣١) وسيزيناند Sisenand (٦٣١ - ٦٣٦) . ولا يزيدور مؤلفات كثيرة منها المؤرخات الكبيرة chronica التى وصلت بتاريخ العالم إلى أحداث عصره ، وتاريخ القوط (الغربيين) historia Gothorum ، وتاريخ الفنـدال historia Vandalorum ، والمشاهير de viris illustribus ، والمترادفات synonyma ، ودستور الرهبان regula monachorum . وله كذلك شروح فى العهد القديم . ولكن كتاب الأصول أو الاشتقاقات origines sive etymologiae هو أهم مؤلفات إيزيدور ، ويعتبر موسوعة لمختلف العلوم والموضوعات عرض فيه إيزيدور ، فضلا عن العلوم الحرة السبعة ، موضوعات فى الجغرافيا ، والقانون ، والطب ، والتاريخ الطبيعى ، والمعجزات ، والأحجار الكريمة ، والأطعمة ، والمشروبات ، وغير ذلك من الموضوعات اليومية . وقد إعتمد إيزيدور فى هذا الكتاب على مصادر كثيرة وان لم يذكرها ، منها موسوعة التاريخ الطبيعى naturalis historia التى كتبها بلينيوس الأكبر Plinius فى سنة ٧٧ ، وموسوعة المروج prata المفقودة التى كتبها أسويطون Suetonius فى أوائل القرن الثانى . وبالرغم من الأخطاء التى حفل بها هذا الكتاب ، إلا أنه كان من الكتب الهامة التى أقبل على قراءتها تلاميذ العصور الوسطى

إليه البلاد تحت حكم الجرمان . فقد جاء هؤلاء المؤرخون بمعلومات عن الممالك الجرمانية حملت فى طياتها مرارة شديدة لفتور الثقافة ، كما حملت نقداً لاذعاً للأوضاع السيئة والإنتهازية التى إستشرت فى هذه الممالك . ولا شك أن هؤلاء المؤرخين — وهم دعاة الملوك الجرمان — كانوا مدفوعين فى سرد الحقيقة بدافع الشعور الوطنى الذى كان يغلب عليهم بين لحظة وأخرى ، وبدافع المصلحة العامة ، لأنهم كانوا من أهالى البلاد الذين عانوا من الحكم الجرمانى .

وحتى التاريخ الذى كتبه المؤرخ القوطى جوردان (١) عن مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا يكشف لنا بطريقة غير مباشرة عن نقاط الضعف فى سياسة

---

(١) Jordanes (القرن السادس) ، حوالى سنة ٥٥١ لخص جوردان تاريخ القوط الذى كتبه كاسيودور ، وأورد جوردان هذا الملخص فى كتابه عن منشأ الجيتيين de origine actibusque Getarum ، وكان الجيتيون عشيرة تراقية سكنت منذ القرن الرابع قبل الميلاد فى منطقة الدانوب الأسفل ، وقد خلطهم الكتاب اليونان بالداكيين ، وخلطهم الكتاب اللاحقون ، ومنهم جوردان ، بالقوط . وكتب جوردان كذلك موجزاً عن منشأ الرومان de summa temporum vel origine actibusque gentis Romanorum . ويبدو أن جوردان إستقى هذا الموجز من التاريخ المفقود الذى كتبه فى القرن الخامس سيماكوس الصغير Aurelius Memmius Symmachus . والحقيقة أن العلماء أختلفوا على شخصية جوردان ، فعرفه البعض على أنه جوردان أسقف كروتون Croton (الآن كروتونه Crotone) فى جنوب إيطاليا ، كما أختلفوا على المكان الذى كتب فيه مؤلفاته ويعتقد البعض أنه كتبها فى القسطنطينية ، وعلى الفصول الأخيرة من كتابه عن منشأ الجيتيين ، تلك الفصول التى حاول فيها جوردان أن يوفق بين الأسرة الحاكمة القوطية فى إيطاليا والأسرة الإمبراطورية الرومانية فى القسطنطينية ، ويرى البعض أن هذه الفصول الأخيرة مستقلة تماما عما كتبه كاسيودور ، وأن جوردان أضافها لكى يدعو إلى سياسة الوفاق بين ملوك القوط وأباطرة الشرق .

الملوك القوطيين ، لأن جوردان إقتطف هذا التاريخ من الكتاب الذى ألفه العالم الإيطالى كاسيودور عن هذه المملكة ، وقد فقد هذا الكتاب ولم يصلنا منه شيء . لقد كان كاسيودور مستشاراً للملك تيوديريش ، واستطاع من هذا الموقع أن يتعرف على دقائق السياسة التى إتبعها هذا الملك القوطى فى حكم إيطاليا ، وخاصة سياسة التعايش بين القوط والإيطاليين الرومان ، وهى سياسة السيفيليتاس (١) التى رفع تيوديريش شعارها ثم أخفقت فى نهاية حكمه إخفاقاً شديداً أدى إلى توتر الأحوال وإعتقال البابا يوحنا الأول (٢) والعالم والفيلسوف الكبير بويس . وكان من المتوقع أن يأتى كتاب كاسيودور عن مملكة القوط الشرقيين بكثير من التفاصيل الصريحة ، والحقيقة أننا تلمس أثر هذه التفاصيل فى مقتطفات جوردان . وبالرغم من أن جوردان حاول أن يكون متحفظاً تجاه الحقائق ، وحاول بوصفه قوطياً أن يكون متعاطفاً مع السياسة القوطية ، إلا أن تاريخه أفصح بطريقة غير مباشرة عن حقيقة الأمور .

هذه هى أهم المصادر المعاصرة التى تطلعنا على أحوال الغرب خلال الفترة التى عرفت بالعصور المظلمة . وبالرغم من بعض التحفظات التى وردت فى هذه المصادر ، فإنها تعبر من غير شك تعبيراً صادقاً عن الأوضاع المضطربة فى القارة الأوربية نتيجة للسياسات التى فرضها ملوك جرمان لم تكن لديهم دراية سابقة بشئون الحكم والإدارة ، ولم يكن لديهم فهم صحيح لطبيعة الشعوب التى عركت عبر تاريخها الماضى فنون الحكم والسياسة . ومن هنا كان التدهور الذى حل بالبلاد ، واليأس الذى سيطر على النفوس نتيجة الظروف العصيبة التى أخلت بموازين الحياة الإقتصادية والإجتماعية والفكرية - وقد بلغ هذا التدهور مداه فى القرنين السادس والسابع ، وهو تدهور

---

(١) Civilitas

(٢) Johannes I (٥٢٣ - ٥٢٦)

يجب أن نرصده فى تاريخ تلك العصور المليئة بالتناقضات ، حتى تكتمل أمامنا جوانب الظاهرة التى جعلت من هذه العصور عصوراً دفعتها الصعاب إلى الحركة من جديد ، وجاهد فيها الرجال للتغلب على المشاكل .

ولقد جاءت الجهود فى الواقع على أيدى رهبان إيرلندا الذين عملوا منذ القرن السادس على إصلاح الكنيسة والمؤسسات التعليمية فى القارة الأوربية ، وبصفة خاصة فى فرنكيا التى وصلت فيها الكنيسة إلى أدنى مستواها فى القرن السادس . وتبعهم بعد ذلك رهبان الأنجلوسكسون الذين واصلوا مهمة الإصلاح فى القرنين السابع والثامن . والحقيقة أن الحركة الفكرية التى قام بها هؤلاء الرهبان الإنجليز كانت تخدم فى نفس الوقت أهداف الكنيسة من ناحية وأهداف السياسة الفرنجية من ناحية أخرى. فقد كان يصاحب هذه الحركة الفكرية برامج لتنصير الشعوب التى لم تكن قد إعتنقت المسيحية بعد ، ولا سيما السكسون ، وهم من الشعوب الجرمانية التى كانت تعيش خارج حدود فرنكيا الشمالية والشرقية . وكانت سياسة ملوك الفرنجة الميروفيين ترمى إلى إخضاع السكسون وضم الأراضى السكسونية إلى فرنكيا ، وهى السياسة التى حققها فى أواخر القرن الثامن شارلمان ملك الفرنجة الكارولبين . ووجد الفرنجة الميروفيون فى برنامج التنصير الذى جاء به الرهبان الإنجليز فرصة سانحة لتحقيق هذه السياسة التوسعية ، ولذلك عقد الميروفيون إتفاقاً مع الرهبان الذين أصبحوا أداة طيعة للسياسة الفرنجية . وقدر لكل هذه الجهود أن تقوم عليها بعد ذلك نهضة شارلمان .

والحقيقة أن علماء القرنين السادس عشر والسابع عشر نشروا بعض هذه المصادر المعاصرة للقرون المظلمة ، ففى القرن السادس عشر نشر العالم الألمانى

كونراد بويتنجر (١) تاريخ القوط الذى كتبه جوردان ، وتاريخ اللومبارديين (٢) الذى كتبه فى أواخر القرن الثامن الكاتب اللومباردى بولس الشماس (٣). وفى القرن السابع عشر نشر راهب البندكتين الفرنسى رويناد (٤) تواريخ الفرنجة التى كتبها أغريغوريوس التورى وفريدجار . كما نشر علماء هذين القرنين مصادر أخرى فى التاريخ السياسى وتاريخ الكنيسة لمختلف فترات العصور الوسطى . غير أن هذه المصادر لم تخضع للدراسة النقدية الشاملة ، وبالتالى لم تستخلص منها الجوانب الإيجابية فى تاريخ العصور المظلمة ، ولم تستخلص هذه الجوانب فى الحقيقة إلا فى القرن التاسع عشر عندما نهضت الدراسة التاريخية المنهجية الجادة . ولذلك ظلت كل الأحكام المسبقة الصادرة على العصور المظلمة وغيرها من العصور الأوربية الوسطى عالقة بالأذهان حتى القرن التاسع عشر . بل ان هذه الأحكام مازال لها رواج بين الأجيال الأوربية فى القرن العشرين ، لأن إيديولوجية الانسانيين فى فى عصر النهضة فى القرن الخامس عشر ، تلك الإيديولوجية التى غبطت حق العصور الوسطى ، كانت — فى إعتقادنا — من القوة والجاذبية بحيث ظل أثرها حتى الآن . فالغالب أن نظرة الإنسانيين البائسة إلى العصور الوسطى وتعلقهم الشديد بأهداب الثقافة الكلاسيكية الوثنية كان لهما أكبر الأثر فى حماسة الأجيال الأوربية الحديثة والمعاصرة للتراث الكلاسيكى القديم ، وفى قصور وعيها التاريخى بالتراث الإوربى الوسيط .

صحيح أن النهضة الكبرى فى القرن الخامس عشر قدمت بإحياء الآداب والفنون الكلاسيكية مآثر أدبية وفنية لا يمكن لأحد أن يقلل من شأنها ، وفتحت بعلومها

(١) Konrad Peutinger .

(٢) historia Langobardorum .

(٣) Paulus Diaconus (حوالى ٧٢٠ - حوالى ٧٩٩) .

(٤) Ruinart

التجريبية وكشوفها الجغرافية عالماً جديداً مثيراً ما كان يخطر على بال أحد ، ولكن الحركة الفكرية الإنسانية التى لعبت دوراً بارزاً فى هذه النهضة كانت — فى رأينا — مسئولة إلى حد كبير عن تلك الهوة العميقة الشاسعة التى باعدت ومازالت تباعد حتى الآن بين وعى الأوربيين بحاضرهم ووعيهم بماضيهم القريب ، ومسئول عنها كل العلماء والمفكرين الذين تبنوا فكرة الإنسانيين عن العصور الوسطى وتحمسوا للثقافة الكلاسيكية . قرابة عشرة قرون من تاريخ أوربا أسدل عليها الإنسانيون أستار النسيان ، ومازالت الأستار مسدلة ، لم تنفرج إلا للحظات قليلة عن مشاهد باهتة لذكريات الفروسية الغابرة... مشاهد أختلطت فيها روح الشهامة بالمخاوف... وإختلط فيها الدعاء بصليل السيوف ... فنحن لا نجد حتى الآن — خلاف هذه المشاهد — وداداً يذكر بين الفكر الأوربى الحديث والفكر الأوربى فى العصور الوسطى ، عدا بعض المفاهيم السياسية والإجتماعية وبعض قواعد الحكم التى إنتظمت فى تجارب الأجيال الأوربية على مر القرون . فالفكر الأوربى مازال فى أعماقه حتى الآن فكراً كلاسيكياً . وقد يكون هذا أمراً طبيعياً ، لأن الفكر الكلاسيكى جوهر عميق فى تراث أوربا لا يمكن بحال من الأحوال أن يغيب عن وجدان الناس. ومازال الفن الأوربى ، برغم التطور الذى طرأ عليه فى العقود الأخيرة ، وبرغم ظهور المدارس الفنية الحديثة ، يمجد عظمة الفنون فى عصر النهضة . وهذا بدوره أمر طبيعى ، لأن فنون النهضة تمثل فى نظر الأوربيين قمة الإبداع . ولكننا نقصد فى النهاية أن الفكر الأوربى المعاصر لم يستكمل بعد — وكما ينبغى — تلك الحلقة المفقودة التى يجب أن نبحث عنها فى فكر العصور الوسطى .

وعلى ذلك فنعتقد أننا لا نبالغ إذا قلنا ان أوربا مازالت تعيش فى خيالها فكر العالم الوثنى القديم ...عالم الميثولوجيا والمسرح اليونانى ... ومازالت تعيش بذوقها فنون القرن الخامس عشر ... فنون الوثنية الكلاسيكية الجديدة ... فماضى أوربا

العظيم ما زال فى نظر الأوربيين هو ماضى العالم القديم وماضى عصر النهضة ... ماضى هوميروس [١] ، وأفلاطون [٢] ، وأرسطوطاليس [٣] ، وسوفوكليس [٤] وأرسطوفان [٥] ، وفرجيل [٦] ، وسنيكا [٧] ، وهو ماضى دوناتلو [٨] ، وليوناردو دافينشى [٩] ، ورفاييل [١٠] ، وميكلانجلو [١١] ... وليس ماضى العصور الوسطى ... ماضى تيودولف أسقف أورليان [١٢] وروزفيتا راهبة جندرزهايم [١٣] ،

---

(١) Homerus (حوالى القرن التاسع قبل الميلاد) .

(٢) Platon (حوالى ٤٢٩ - ٣٤٧ قبل الميلاد) .

(٣) Aristoteles (حوالى ٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) .

(٤) Sophocles (حوالى ٤٩٦ - ٤٠٦ قبل الميلاد) .

(٥) Aristophanes حوالى ٤٤٥ - ٣٨٠ قبل الميلاد) .

(٦) Publius Vergilius Maro (٧٠ - ١٩ قبل الميلاد) .

(٧) Lucius Annaeus Seneca (٤ قبل الميلاد - ٦٥) .

(٨) Donatello (١٣٨٦ - ١٤٦٦) .

(٩) Leonardo da Vinci (١٤٥٢ - ١٥١٩) .

(١٠) Raphael (١٤٨٣ - ١٥٣٠) .

(١١) Michelangelo Buonarroti (١٤٧٥ - ١٥٦٤) .

(١٢) Theodulfus ولد فى منتصف القرن الثامن فى أسرة أرستقراطية من أصل قوطى ، ومن المحتمل أن مولده كان فى أسبانيا . تولى تيودولف رئاسة دير فلورى Fleury ودير سان إينيان St. Aignan ، وأصبح فى سنة ٧٨١ أسقفاً لمدينة أورليان Orléans . وكان تيودولف من أكثر الرجال تعضيداً لسياسة شارلمان ، ومن أبرز أعلام النهضة الفكرية فى عصره ، فقد ساهم فى تأسيس المدارس فى مختلف أنحاء فرنكيا ، وكان واحداً من طليعة المثقفين الذين جذبهم شارلمان إلى بلاطه . كما كان تيودولف من أوائل الأنصار الذين وقفوا فى جانب البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥ - ٨١٦) فى القضية التى أثارها أعداء البابا . ولما توفى العالم الإنجليزى ألكوين Alcuinus الذى كان مستشار الثقافة فى بلاط شارلمان وناظراً لمدرسة =

= القصر الملكى خلفه تيودولف فى هذه المناصب . ولكن سرعان ما وجهت إلى تيودولف بعد وفاة شارلمان تهمة الإشتراك فى المؤامرة التى دبرها برنارد Bernard فى إيطاليا ضد عمه لودفيج التقى Ludwig der Fromme ابن شارلمان ، وكان ذلك فى سنة ٨١٨ ، فعزل تيودولف من أسقفيته فى نفس السنة ، وحددت إقامته فى أحد أديرة أنجير Angers ، ومات فى سجنه فى سنة ٨٢١ ، ويحتمل أن يكون قد مات مسموماً . ومن مؤلفاته قصائده الغنائية carmina المشهورة .

(١٢) Hrotsvitha (حوالى ٩٣٥ - ١٠٠٢) ، كاتبة الدراما والشاعرة الألمانية المجيدة التى تناولت بقلمها الساحر شتى الموضوعات الأدبية والدينية والتاريخية . التحقت روزفيتا حوالى سنة ٩٥٩ بدير الراهبات البندكتيين فى جندرزهايم Gandersheim ، وهو الدير الذى كان يحظى برضاء الأسرة الحاكمة السكسونية ، وعاشت هناك حتى وافتها المنية . ومن مؤلفات روزفيتا الدينية قصائد عن آلام الشهيدة الرومانية أجنيس Agnes ، والقديس ديونيسيوس (سان دونى) Dionysius (St. Denis) أسقف باريس ، والشهيد جونجولف الفارينى Gongolfus Varennensis ، والشهيد بيلاجيوس القرطبى Pelagius Cordubensis ، وسيرة لباسيلى أسقف قيصرية قبادوقية . ولروزفيتا ست مسرحيات هزلية كتبتها على غرار مسرحيات شاعر الكوميديا الرومانى تيرنس Publius Terentius Afer الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد ، ولكن روزفيتا كتبت مسرحياتها بالنثر ، وإستقت أفكارها من سير القديسين وأقوال آباء الكنيسة والفلاسفة المسيحيين . وبالرغم من ذلك — وبالرغم من أن روزفيتا كانت تعالج موضوعات العفة والبتولة — جاءت هذه المسرحيات — كمسرحيات تيرنس — مليئة بالمواقف الهزلية الساخرة ، وهى على أية حال تمثل فى تاريخ الدراما محاولة جادة لاستخدام تقنية الرواية الكلاسيكية فى عرض المبادىء المسيحية وروايات المعجزة . ومن المؤلفات الهامة كذلك المؤرخات التى دونتها روزفيتا بالشعر . فقد ألفت روزفيتا ، بناء على طلب جربرجا Gerberga رئيسة الدير ، قصيدة عن أخبار الامبراطور أوتو الأول carmen de gestis Ottonis imperatoris إتبعت فيها روزفيتا نغمة الملحمة الرومانية القديمة . وبعد أن إنتهت روزفيتا من هذه القصيدة فى سنة ٩٧٣ ، قدمتها إلى الامبراطور الشيخ وإبنه =

وفولبير أسقف شارتر [١] ، وبرنار راهب كليرفو [٢] ، وهيلدجارد راهبة بنجن [٣] ،

= أوتو الذى توج باسم الامبراطور أوتو الثانى . ولكن لم تحفظ لنا هذه القصيدة الهامة كاملة ، وإنما ضاع منها النصف الذى تناول تاريخ ألمانيا من سنة ٩٥٣ حتى سنة ٩٦٢ ، عدا بعض الشذرات التى لا تطلعنا على رأى روزفيتا فى تاريخ تلك الفترة ، كما أن تاريخ الفترة من سنة ٩٦٢ حتى سنة ٩٦٧ جاء فى إيجاز شديد . وفى مؤرخه شعرية أخرى كتبتها عن الرواد الذين أسسوا دير جندرزهايم primordia coenobii Gandersheimensis روت روزفيتا نشأة الدير وتاريخه حتى سنة ٩١٩ .

(١) Fulbertus (حوالى سنة ٩٦٠ - ١٠٢٩) أسقف شارتر Chartres ، يحتمل أنه كان من أصل فرنسى . تعلم فولبير فى مدرسة رنس Reims على يد جربير دى أوريلاك Gerbertus Aurillacensis الذى أصبح فيما بعد البابا سيلفستر الثانى Sylvester II (٩٩٩ - ١٠٠٣) . وفى سنة ٩٩٠ إفتتح فولبير مدرسة فى شارتر سرعان ماذاع صيتها فى أنحاء أوربا . وقد لقبه تلاميذه بسقراط ، وكان من بينهم عالم اللاهوت الكبير برنجار التورى Berengarius Turonensis المتوفى سنة ١٠٨٨ . وعندما تولى فولبير أسقفية شارتر قام ببعض الإصلاحات الكنسية الهامة ، وأعاد بناء الكاتدرائية .

(٢) Bernardus (١٠٩٠ - ١١٥٣) التحق بدير كليرفو Clairvaux الذى تأسس فى سنة ١١١٥ ، ثم أصبح رئيساً للدير . ولكن سرعان ما شغل برنار بأمور الكنيسة ، ونال الحظوة لدى البابا أونوريوس الثانى Honorius II الذى تولى أسقفية روما فى سنة ١١٢٤ . وظهرت أهمية برنار فى عالم السياسة بموت البابا فى سنة ١١٣٠ ، فقد ثار الخلاف حول الكرسى البابوى ، وفى المجمع الذى دعا إليه ملك فرنسا لويس السادس السمين فى إيتان Etampes فى إبريل من نفس السنة ناصر برنار البابا إنوسنت الثانى Innocentius II ضد البابا غير الشرعى أنا كليت الثانى Anacletus II . وعندما إنفرد أنا كليت بأسقفية روما أعلنت فرنسا وإنجلترا وأسبانيا وألمانيا تأييدها لانوسنت الذى فر من روما ورحل وفى معيته برنار إلى =

= كليرفو ثم إلى لوتيش (لييج) (Luettich (Liège لمقابلة إمبراطور ألمانيا لوتار (لوثر) السكسونى Lothar (١١٢٥ - ١١٣٧) . وفى سنة ١١٣٣ التى قام فيها لوتار لأول مرة بزيارة روما ، كان برنار فى إيطاليا ومعه إنوسنت ، وعارض برنار الإقتراح باجراء مفاوضات مع البابا أنا كليت الذى كان يسانده ملك صقلية النورمانى روجر الثانى Rogorius II . ولكن لوتار لم ينجح فى تقديم المساعدة الحقيقية للبابا إنوسنت ، لأن مكانة لوتار كانت قد ضعفت بسبب شقاقه مع بيت هوهنشتاوفن Hohenstaufen . وفى سنة ١١٣٥ قام برنار بدور مرموق فى مجمع بيزا Pisa الذى وقع الحرم الكنسى على البابا أنا كليت . وكان لبرنار تأثير كبير على أهالى شمال إيطاليا بفضل فصاحته وعظاته الدينية وشهرته التى طبقت الآفاق ، وعرض عليه الأهالى أن يتولى أسقفية ميلانو ، ولكن برنار لم يقبل شاكراً هذا العرض . وفى سنة ١١٣٧ ، وهى السنة التى قام فيها لوتار بآخر زيارة لروما ، كان برنار مرة أخرى فى إيطاليا ، وحاول إثارة الرأى العام ضد البابا أنا كليت . ولما توفى البابا فى العام التالى خلفه الكاردينال أغريغوريوس بأسم البابا فكتور الرابع ، ولكن برنار إستطاع بنفوذه أن ينجح فى عزل هذا البابا غير الشرعى . وعلى أثر ذلك قرر برنار الرجوع إلى فرنسا والإعتكاف فى دير كليرفو الذى أصبح له — من خلال الشخصية الفذة التى كان يتمتع بها برنار — رأى فى أمور السياسة ، كما أصبح من أهم الأديرة السيسترشيانية . وبسبب هذه الشهرة الكبيرة التى حازها دير كليرفو إنتخب واحد من رهبانه فى سنة ١١٤٥ لكى يتولى أسقفية روما بأسم البابا يوجين الثالث Eugenius III ، وكان هـذا الإختيار إعترافاً بشأن جماعة الرهبان السيسترشيان . وفى سنة ١١٤٦ حشد برنار الرأى العام بأمر من البابا يوجين للقيام بالحملة الصليبية الثانية ، وألقى فى إجتماع عقد فى فيزيلى Vézelay خطبة ألهب بها حماسة الجماهير ، وحمل ملك فرنسا لويس السابع الصليب وجهز جيشه على أثر هذه الخطبة . وتوجه برنار إلى شمال فرنسا والفلاندر ومقاطعات الراين ، وفى مدينة سبير (شباير) (Spires (Speyer أقنع ملك ألمانيا كونراد الثالث Konrad III بالإنضمام إلى الحملة . ولكن فشل الحملة الصليبية الثانية كان ضربة قاصمة لبرنار . لقد وصلته أنباء الهزائم التى منى بها الصليبيون وهو فى كليرفو ، وكان يستضيف البابا =

= يوجين الثالث الذى فر من روما بسبب الثورة التى أشعلها أرنولد البريشى Arnoldo di Brescia . وقامت محاولة للتخفيف من جسامة الهزيمة بترتيب حملة أخرى ، وحضر برنار إجتماعاً فى شارتر للتشاور فى أمر الحملة الجديدة ، وإنتهى الإجتماع بإنتخاب برنار ليكون قائداً لهذه الحملة . ولكن لما وجد آباء السيسترشيان أن برنار لا يصلح لهذه المهمة أقنعوه بالعدول عنها . ومكث برنار بقية حياته فى دير كليرفو ، وكرس نفسه لأمور الدين والكنيسة . وتعتبر رسائل برنار وثائق هامة لتاريخ الفترة التى عاشها . وله خلاف الرسائل مؤلفات كثيرة فى مختلف الموضوعات منها مقالة الدرس والإعتبار de consideratione التى كتبها برنار بأمر من البابا يوجين ، وهى مقالة فى أدب السلوك ، وسيرة الأب ملاخى الإيرلندى de vita et rebus gestis S. Malachiae Hiberniae spiscopi التى كتبها بناء على طلب الأب الإيرلندى كوجنان Cognan ، وهذه السيرة مهمة لتاريخ الكنيسة الإيرلندية فى النصف الأول من القرن الثانى عشر .

(٣) Hillegardis (١٠٩٨ - ١١٧٩) عالمة ألمانية صوفية ولدت لأبوين من النبلاء فى بوكلهايم Boeckelheim على مقربة من شبونهايم Sponheim فى غرب دوقية فرانكونيا Franconia . بدأت هيلدجارد تعليمها وهى فى سن الثامنة فى أحد الأديرة البندكتية هو دير ديزيبودنبرج Disibodenberg على يد الراهبة يوتا Jutta أخت كونت شبونهايم التى خلفتها هيلد جارد فى رئاسة الدير فى سنة ١١٣٦ . كانت هيلدجارد تظهر لها الرؤى منذ طفولتها ، وفى سنة ١١٤١ أفشت وهى فى سن الثالثة والأربعين سر هـــذه الرؤى لصديقها جوتفريد Godefridus راهب بنجن Bingen ، ومنذ ذلك التاريخ أخذ جوتفريد يسجل رؤى هيلدجارد وخواطرها بعنوان Scivias sive visiones ac revelationes . راسلت هيلدجارد عدداً من الشخصيات المرموقة منهم البابا أنسطاس الرابع Anastasius IV (١١٥٣ - ١١٥٤) ، والبابا أدريان الرابع Hadrianus IV (١١٥٤ - ١١٥٩) ، وأباطرة ألمانيا كونراد الثالث Konrad III (١١٣٧ - ١١٥٢) ، وفريدريش الأول بربروسا Friedrich I Barbarossa (١١٥٢ - ١١٩٠)، وعالم اللاهوت =

وألبرت الكبير أسقف ريجنسبورج (١) ... ماضى الفكر الصوفى والمسرح الدينى وفن الجوتيك والرومانسك ...

= الكبير جويبير Guibertus رئيس دير جمبلو Gembloux الذى كثيراً ما كان يشاور هيلدجارد فى المسائل العلمية واللاهوتية . وتعد رسائل هيلدجارد إلى هذه الشخصيات مصادر تاريخية على جانب كبير من الأهمية . وبعد أن هاجرت هيلدجارد مع بعض الراهبات إلى دير جديد بجوار بلدة بنجن لازمتها ظاهرة التنبؤ وأستمرت فى تدوين رؤاها . والحقيقة أن الكنيسة لم تطوب هيلدجارد ، أى أن الكنيسة لم تعلن قداستها ، ومع ذلك فإن أسمها مدرج فى السجل الرومانى لشهداء وقديسى الكنيسة الكاثوليكية . جمعت هيلدجارد فى مؤلفاتها شذرات من أرسطو وجالينوس ، وربطت بينها بعناصر مستقاة من فكر أوغسطين ، وايزيدور أسقف أشبيلية ، وهوجو Hugo راهب سان فيكتور Saint-Victor (المتوفى سنة ١١٤١) ، وعناصر مستقاة من الفكر الطبى لمدرسة سالرنو Salerno الإيطالية . وجدير بالذكر أن هيلدجارد أبدت رأيها فى النظريات التقليدية عن الماكروكوزموس makrokosmos أى العالم الكبير وهو الكون ، والميكروكوزموس mikrokosmos أى العالم الصغير وهو الإنسان بوصفه صورة مصغرة من العالم ، وأشارت إلى العلاقة بينهما . وحول هذه الأفكار نسجت هيلدجارد آراءها الممتعة فى وظائف الأعضاء ، والنفس ، واللاهوت .

(١) ألبرت الكبير Albertus Magnus أو ألبرت الكولونى (حوالى ١٢٠٠ - ١٢٨٠) الفيلسوف والعالم الألمانى فى الطبيعة واللاهوت . أطلق عليه اسم العالم الجامع doctor universalis لشمول معارفه . طوبته الكنيسة قديساً فى سنة ١٩٣١ . إنضم ألبرت إلى جماعة الرهبان الدومينيكان فى بادوفا (بادوا) Padova (Padua) فى إيطاليا فى سنة ١٢٢٣ . وبعد ذلك قام بالتدريس فى مختلف الأديرة فى ألمانيا ، ثم التحق بجامعة باريس وحصل على درجة الماجستير فى اللاهوت ، وأصبح أستاذاً بالجامعة حتى سنة ١٢٤٨ ، ورجع إلى ألمانيا للتدريس فى كولونيا ، وتتلمذ على يديه هناك توما الأكوينى Thomas Aquinas كبير أساقفة ألبانو Albano . وفى سنة ١٢٦٠ قبل ألبرت أن يتولى أسقفية ريجنسبورج =

= (راتيسبون) (Ratisbon) Regensburg فى دوقية بافاريا Bavaria بناء على طلب البابا إسكندر الرابع Alexander IV ، ولكنه إستقال من الأسقفية بعد وفاة البابا فى العام التالى ، وعاد إلى جماعته فى بادوفا . وفى سنة ١٢٦٣ أرسله البابا أوربان الرابع Urbanus IV مبعوثاً إلى ألمانيا للدعوة لمشاركة الصليبيين بعد أن تحرج موقفهم فى الشرق . وبعد أن إنتهى ألبرت من هذه المهمة قام بالتدريس فى فورتسبورج Wuerzburg وشتراسبورج Strassburg ، وفى سنة ١٢٧٠ استقر بصفة نهائية فى كولونيا . وفى سنة ١٢٧٤ حضر ألبرت مجمع ليون ، وأيد فى هذا المجمع شرعية حكم الملك الهابسبورجى رودولف الأول Rudolf I فى ألمانيا . ولألبرت مؤلفات لاهوتيه وفلسفية وعلمية عديدة . ومن المؤلفات اللاهوتية كتب الأسرار de sacramentis ، والافخارستيا de sacramento eucharistiae ، والتجسد de incarnatione ، والقيامة de resurrectione ، والبحث الشامل فى اللاهوت summa theologiae ، والبحث الشامل فى المخلوقات snmma de creaturis ، وشروح للعهد القديم وصلنا منها شرح كامل لسفر أشعياء postillae super Isaiam ، وشذرات من شرح سفر حزقيال postillae super Ezechielem fragmentum وسفر أرمياء postillae super Ieremiam fragmentum ؛ وشروح لكتب ديونيسيوس الأريوباغى Dionysius Areopagita الذى ورد عنه أنه تلميذ بولس وهى كتب المراتب السماوية de caelesti hierarchia ، والمراتب الكنسية de ecclesiastica hierarchia ؛ واللاهوت الصوفى de mystica theologia ، وشروح لكتب المعانى sententiae التى كتبها بطرس اللومباردى Petrus Lombardus فى القرن الثانى عشر . ومن المؤلفات الفلسفيه كتب النفس de anima ، والخير de bono ، والعمر (أو الشباب والشيخوخة) de aetate sive de inventute et senectute ، والموت والحياة de morte et vita ، والنوم واليقظة de somno et vigilia ، وشروح لكتب أرسطو فى المنطق وهى أنا لوطيقا (التحليلات) الأولى analytica priora ؛ وأنا لوطيقا (التحليلات) الثانية analytica posteriora ، والطوبيقا topica ، وكتبه فى الطبيعيات physica ، وما بعد الطبيعة metaphysica ، والأخلاق النيقوماخية ethica ، =

= والسياسة politica، وكذلك شرح لكتاب العلل - de causis et processu uni versitatis المنسوب إلى أرسطو ، وشرح لكتاب تقسيم الأنواع de divisione الذى كتبه بويس فى أوائل القرن السادس ، ورسالة وحدة العقل فى الرد على ابن رشد de unitate intellectus contra Averroem . ومن المؤلفات العلمية كتب النبات de vegetabilibus et plantis ، والحيوان de animalibus ، وقوانين الحركة de principiis motus processivi ، والمعادن mineralia .

حاز ألبرت شهرة كبيرة بفضل هذه المؤلفات القيمة فى اللاهوت والفلسفة والعلوم. وقد لقبه معاصره الفيلسوف والعالم الإنجليزى روجر بيكون Roger Bacon بأعظم العلماء المسيحيين ، ولقبته الأجيال بعد وفاته بألبرت الكبير ، وكانت كتبه تذكر إلى جانب كتب أرسطو ، وابن سينا ، وإبن رشد . وكان ألبرت الوحيد من بين فلاسفة العصور الوسطى الذى أجرى شروحا كاملة لكتب أرسطو وأضاف إليها على طريقة إبن سينا فى كتاب الشفاء ، ولم يتبع طريقة الشرح التتابعى التى أختارها إبن رشد . وتكمن أهمية ألبرت فى أنه وقف بالمفاهيم الأرسطو طاليسية فى وجه التيارات الرجعية التى طغت على اللاهوت فى عصره ، وكان من أوائل العلماء الذين تصدوا لتعليم كتب أرسطو التى كانت محرمة وقتذاك . ومن جهة أخرى - ودون الشعور بأى تناقض أو تعارض — أعطى ألبرت أكبر الفرص لتأثير الفكر الافلاطونى الحديث ، وهو الإتجاه الذى أكمله أولريش الاشتراسبورجى Ulrich der Strassburger والمتصوفون الألمان فى القرن الرابع عشر . غير أن مؤلفات ألبرت فى العلوم الطبيعية كانت هى التى وفرت له قبل كل شىء هذه الشهرة الذائعة . فبالرغم من أن بعض الفضل فى الإهتمام الملحوظ بهذه العلوم كان يرجع إلى مدرسة أكسفورد التى إنتمى إليها ألفريد أنجليكوس Alfred Anglicus وروبرت جرستيستى Robert Grosseteste وروجر بيكون ، إلا أن ألبرت كان فى هذا المجال فريد عصره ، لأنه جعل المعرفة الأرسطو طاليسية فى الطبيعة — تلك المعرفة التى توسع فيها العرب — فى متناول الفكر الاوربى بعد أن أثراها ألبرت — على غرار الشروح العربية — بالنظرة النقدية الفاحصة .

ولا يعنى هذا بصفة أكيدة أننا نلقى كل اللوم على غطرسة الحركة الإنسانية التى ربطت ثقافتها بثقافة العصور الكلاسيكية القديمة ؛ ورسمت فى القرن الخامس عشر صورة تعيسة للعصور الوسطى مازالت عالقة بالأذهان ، وإنما كانت هناك على الطرف الآخر من وعى الأجيال الأوربية صورة أخرى لكنها صورة شاعرية حالمة ساهمت بطريقة عفوية فى طمس الحقيقة . ففى نهاية القرن الثامن عشر ظهرت الحركة الرومانطيقية (١) فى أوربا ، وأضفت هذه الحركة على العصور الوسطى دلالة مشرقة لاتتصل فى شىء بالهمجية كما رأى الإنسانيون والعقلانيون . فلم تعد أوربا العصور الوسطى لدى الشعراء الرومانطيقيين بلاداً آهلة بأقوام البرابرة وجموع الرهبان ، وإنما أصبحت فى روعهم ربوعاً مثيرة تموج بالفرسان والعذارى . ولا شك أن نظرة الشعراء الرمانطيقيين كانت مغرقة فى الخيال وبعيدة عن الواقع على غرار نظرة الإنسانيين والعقلانيين ، وإن إختلفت عنها بطبيعة الحال إلى حد كبير ، فلم تكن أوربا فى العصور الوسطى فى الحقيقة مجرد هذا النقيض أو ذاك .

* * *

مما سبق يتبين لنا أن نظرة الإنسانيين فى عصر النهضة إلى العصور الوسطى على أنها عصور همجية غير صحيحة تماماً ، فهذه العصور الممتدة فى التاريخ الأوربى شملت فى الواقع تغيرات سريعة ظهرت أحياناً فى صورة ثورية لا تدع مجالا لوصفها بالعقم والجمود . كما أن هذه العصور لا تتماسك فى وحدة زمنية ، وإنما هى تتدرج فى مراحل متميزة ثلاث .

ففى العصور التى وقعت بين القرن الرابع ومنتصف القرن الحادى عشر ، وهى

---

(١) Romanticism

فترة تقرب من سبعة قرون إعترف المؤرخون على تسميتها بالعصور الوسطى الأولى أو العصور الوسطى الباكرة (١) ، بزغت حضارة غربية فرضها صراع النظم والمفاهيم الكلاسيكية والمسيحية والجرمانية ، وشهد الغرب فيها — بالرغم من نواحي النقص والقصور — أحداثاً تاريخية خطيرة وجهوداً فكرية مشكورة كانت من غير شك علامات بارزة في تاريخ تلك العصور . ففي القرن الخامس تأسست ممالك جرمانية على أرض الامبراطورية الرومانية الغربية هي مملكة الفندال (٢) التي أسسها الملك جيزيريش (٣) في شمال أفريقيا في سنه ٤٢٨ ، ومملكة القوط الغربيين (٤) التي أسسها الملك أويريش (٥) في أسبانيا في سنة ٤٦٦ ، ومملكة الفرنجة (٦) التي أسسها الملك أشلودفيج الأول (٧) في بلاد الغال في سنة ٤٨١ ، ومملكة القوط الشرقيين (٨) التي أسسها الملك تيوديريش (٩) في إيطاليا في سنة ٤٩٣ . وشهد الغرب كذلك عزل

---

(١) Early Middle Ages (Fruehmittelalter) .

(٢) Vandals (Vandalen) .

(٣) يسمى جيزيريش وجيزريك (h) Geiseric ، وجنزيريش وجنزريك Genseric (h) ، وجوندريك Gunderic (٤٢٨ - ٤٧٧) .

(٤) وهم الفيزيقوط (Wisigoten) Visigoths .

(٥) يسمى أويريش وأيورك (h) Euric (٤٦٦ - ٤٨٤) .

(٦) Franks (Eranken) .

(٧) يسمى أشلودفيج وخلودفيج Chlodwig ، وعرفه الإنجليز باسم كلويس وكلوفيس Clovis (٤٨١ - ٥١١) .

(٨) وهم الأوستروقوط (Ostrogoten) Ostrogoths .

(٩) يسمى تيوديريش وثيودريك (h) Theoderic ، وثيودوريك Theodoric (٤٩٣ - ٥٢٦) .

الإمبراطور روموليس الصغير [١] آخر الأباطرة الرومان الغربيين على يد أودوفاكر [٢] الجرمانى فى سنة ٤٧٦ ، وإعلان البابا جيلاز الأول [٣] لنظرية الدولة والكهنوت [٤] فى سنة ٤٩٤ ، وهى النظرية التى فرضت خضوع الدولة للكنيسة . وفى القرن السادس أصدر بندكت النورسى [٥] دستور الرهبان [٦] حوالى سنة ٥٢٠ ، وهو الدستور الذى طبقته الأديرة البندكتية فى أوربا ، وأسس كاسيودور أول مدرسة ديرية هى مدرسة فيفاريوم فى جنوب إيطاليا حوالى سنة ٥٤٠ ، وغزا الجرمان اللومبارديون إيطاليا بقيادة الملك ألبوين [٧] الذى أسس المملكة اللومباردية فى سنة ٥٦٨ . وفى القرن السابع أحتل المسلمون شمال أفريقيا ، وأسس عقبة بن نافع مدينة القيروان فى سنة ٦٧٠ ، وسقطت قرطاجنة فى يد حسان بن النعمان فى سنة ٦٩٧ . وفى القرن الثامن فتح طارق بن زياد أسبانيا فى سنة ٧١١ ، وقام الراهب الإنجليزى فينفريد بونيفاس [٨] بالإرسالية الدينية فى ألمانيا فى سنة ٧١٨ وأسس هناك دير فولدا [٩] ، وإنتصر كارل مارتل [١٠] ، المعروف عند العرب باسم مارته، على المسلمين فى سنة ٧٣٢ فى موقعة بلاط الشهداء على الطريق الموصل

---

(١) Romulus Augustulus .

(٢) Odovacer .

(٣) Gelasius I (٤٩٢ - ٤٩٦) .

(٤) regnum et sacerdotium .

(٥) Benedictus من مدينة نورسيا Nursia فى إيطاليا .

(٦) regula monachorum .

(٧) Alboin (٥٦٨ - ٥٧٢) .

(٨) Bonifatius (Wynfreth) Winfrid (٦٧٢ / ٧٥ - ٧٥٤) .

(٩) Fulda .

(١٠) Karl Martell أمين القصر (٧١٤ - ٧٤١) .

بين تور[١] وبواتييه[٢] ، وأسس ببين الثالث[٣] القصير أسرة الكارولبين فى فرنكيا فى سنة ٧٥١ ، وأسس عبد الرحمن الداخل دولة الأمويين فى الأندلس فى سنة ٧٥٦ ، وتولى شارلمان حكم الفرنجة الكارولبين فى سنة ٧٦٨ . وفى القرن التاسع انقسمت دولة شارلمان باتفاقية فردون[٤] التى عقدت فى سنة ٨٤٣ ، واعتلى الملك الأديب ألفريد العظيم[٥] عرش انجلترا فى سنة ٧٨٠، وسقطت سراقوسة[٦] عاصمة صقلية فى أيدى المسلمين فى سنة ٨٧٧ . وفى القرن العاشر تأسس دير كلونى[٧] الشهير فى فرنسا فى سنة ٩١٠ ، وتولت الأسرة السكسونية حكم ألمانيا باعتلاء الإمبراطور هينريش الأول[٨] الصياد العرش فى سنة ٩١٩ ، وتولت أسرة كابيه حكم فرنسا باعتلاء الملك هوجو كابيه[٩] العرش فى سنة ٩٨٧ . وفى القرن الحادى عشر غزا النورمان جنوب إيطاليا فى سنة ١٠١٦ ، وصقلية فى سنة ١٠٦١ ، وتولت الاسرة السالية حكم ألمانيا باعتلاء الإمبراطور كونراد الثانى[١٠]

---

(١) Tours .

(٢) Poitiers .

(٣) Pepin (Pippin) III أمين القصر (٧٤١ — ٧٥١) ، وملك الفرنجة الكارولبين (٧٥١ — ٧٦٨) .

(٤) Verdun .

(٥) Alfred the Great (٨٧٠ — ٨٩٩) .

(٦) Syracusae .

(٧) Cluny .

(٨) Heinrich I (٩١٩ — ٩٣٦).

(٩) Hugo Capet (٩٨٧ — ٩٩٦) .

(١٠) Konrad II (١٠٢٤ — ١٠٣٩) .

العرش فى سنة ١٠٢٤ ، وغزا النورمان انجلترا واعتلى الملك وليـــام الأول الفاتح [١] العرش الإنجليزى فى سنة ١٠٦٦ ، وقرر مجمع روما حق الكرادلة فى اختيار البابا فى سنة ١٠٧٣ .

هـذه أحداث من الأحداث الهامة التى حددت — بالاضافه الى غيرها من الأحداث والمناسبات — مسار الفكر والتاريخ فى العصور الوسطى الباكره التى وقعت فيها الفترة التى أسميت بالعصور المظلمة ، وهى عصور اصطدمت فيها المثل العليا بواقع الحياة ، واختلطت فيها الفوضى بالنظام ، وكانت المحاولات التى بذلها رجال تلك العصور لخلق نهضة أوربية ، وهى المحاولات التى انبنت عليها النهضة الكارولية والنهضة الأوتونية ، جهودا مشكورة على طريق التطور الذى شهدته أوربا بعد ذلك . ولا شك أن أوربا جنت ثمار هذه الجهود فى أواخر القرن الحادى عشر ، فى الوقت الذى أخذت أوربا تواجه فيه — بل تصنع فيه — أحداثاً هائلة جنحت بالتاريخ . فقد عاشت أوربا فى تلك الفترة أسقفية البابا أغريغوريوس السابع هيلدبرانت [٢] من سنة ١٧٠٣ إلى سنة ١٠٨٥ ، وهى الاسقفية التى بدأ فى زمنها النزاع الصريح والخطير بين البابوية والإمبراطورية ، كما عاشت إتمام الغزو النورمانى لجزيرة صقلية فى سنة ١٠٩٠ ، والحملة الصليبية الأولى فى سنة ١٠٩٧ ، وتأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية فى سنة ١٠٩٩ .

وما أن أشرف القرن الحادى عشر على النهاية حتى كان الأوربيون قد اطلعوا — كما سبق أن رأينا — على العلوم العربية والفكر الإسلامى ؛ وأدى هذا الاطلاع إلى

---

(١) William I the Conqueror (١٠٦٦ — ١٠٨٧) .

(٢) Gregorius VII (Hildebrand) (١٠٧٣ — ١٠٨٥) .

ازدهار الفنون والعلوم الأوربية والآداب والفلسفة فى القرنين الثـــانى عشر والثالث عشر ، وهما يمثلان الفترة التى اصطلح المؤرخون على تسميتها بالعصور الوسطى العالية أو العصور الوسطى الناهضة (١) . وقد شهدت أوربا فى تلك العصور أحداثاً تاريخية هامة ، ففى القرن الثانى عشر عقدت اتفاقية فورمز (٢) بين البابوية والإمبراطورية فى سنة ١١٢٢ ، وتولت أسرة هوهنشتاوفن (٣) حكم ألمانيا باعتلاء الإمبراطور كونراد الثالث (٤) العرش فى سنة ١١٣٧ ، وقام الصليبيون بالحملة الثانية فى سنة ١١٤٧ ، واستولى صلاح الدين الأيوبى بعدها على بيت المقدس بعد انتصاره فى موقعة حطين فى سنة ١١٨٧ ، ثم أعقبت ذلك الحملة الصليبية الثالثة فى سنة ١١٨٩ . وفى القرن الثالث عشر توالت الحملات الصليبية الرابعة فى سنة ١٢٠١ ، والخامسة فى سنة ١٢١٩ ، والسادسة فى سنة ١٢٢٨ ، والسابعة فى سنة ١٢٤٨ . وشهدت أوربا فى هذا القرن صدور العهد العظيم المعروف بالماجنا كارتا (٥) ، وهو العهد الذى وقع عليه ملك انجلترا حنا الأول (٦) فى سنة ١٢١٥ ، ونص على تنظيم العلاقة بين الملك وأمراء الاقطاع وعلى كفالة حقوق الكنيسة ، كما شهدت أوربا سقوط الإمبراطورية اللاتينية الصليبية فى القسطنطينية فى سنة ١٢٦١ ، وقيام أسرة هابسبورج (٧) فى ألمانيا على يد مؤسسها الملك رودولف

---

(١) High Middle Ages (Hochmittelalter) .

(٢) Worms .

(٣) Hohenstaufen .

(٤) Konrad III (١١٢٧ - ١١٥٢) .

(٥) Magna Carta .

(٦) John I (١١٩٩ - ١٢١٦) .

(٧) Habsburg .

الأول (١) الذى تولى الحكم فى سنة ١٢٧٣ . وقد تميزت العصور الوسطى الناهضة بتأسيس الجامعات الأوربية على غرار جامعة الأزهر الشريف التى تأسست فى القرن العاشر ، واعتمدت هذه الجامعات فى تعليمها على الترجمات اللاتينية التى قام بها العلماء الأوربيون لأمهات الكتب العربية التى نقلت بدورها عن الكتب اليونانية فى الطب والفلسفة ، وعلى الشروح والتصحيحات التى أجراها عليها العلماء المسلمون ، واعتمدت كذلك على ترجمات الكتب العربية التى حوت معـــارف العرب فى الرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والجغرافيا . كما تميزت هذه العصور بالتيارات الفكرية التى قامت فى أوربا على الصراع بين الأفكار الأرسطوطاليسية والأفكار الرشدية .

ولكن بعد هذه المرحلة التى أثمرت هذه النهضة ، وعلى التحديد فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، قام صراع بين المثل القديمة والواقع الجديد ، وخلق هذا الصراع تحولا فى المجالات السياسية والاقتصادية ، وخاصة بعد أن دحر الصليبيون وسقطت عكا آخر المعاقل الصليبية الكبرى فى الشرق فى يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فى سنة ١٢٩١ ، وهو ما أدى إلى إصابة المراكز التجارية الأوربية بالكساد ، وعكس على الأوربيين شعوراً من اليأس والتشاؤم . واستمر هذا الوضع فى أوربا قرابة القرن ، أى حتى منتصف القرن الرابع عشر ، وهى الفترة التى يرى أغلب المؤرخين أنها تمثل العصور الوسطى الأخيرة (٢) . وقد تعمق التحول فى هذه العصور بانتقال البابوية إلى أفنيون (٣) فى مقاطعة البروفانس (٤)

---

(١) Rudolf I (١٢٧٣ - ١٢٩١) .

(٢) Late Middle Ages (Spaetmittelalter) .

(٣) Avignon .

(٤) Provence .

الفرنسية فى سنة ١٣٠٩ ، وانتقال الحكم فى فرنسا من أسرة كابيه إلى أسرة فالوا[١] باعتلاء الملك فيليب السادس العرش فى سنة ١٣٢٨ ، وانتشار الوباء الأسود فى سنة ١٣٤٨ ، وهو الوباء الذى كانت له آثار ديموغرافية (سكانية) جسيمة ، وكانت له بالتالى آثار اجتماعية واقتصادية خطيرة حتى نهاية القرن الرابع عشر .

هذا وإن كان بعض المؤرخين يرى أن العصور الوسطى الأخيرة امتدت حتى منتصف القرن الخامس عشر ، بل وحتى آخر هذا القرن ، وهم بذلك ينفون اصطلاح عصر النهضة . ومهما يكن الأمر فقد حدثت فى القرن الخامس عشر تطورات هامة ترتبت عليها النهضة الكبرى التى اهتمت بإحياء الآداب والعلوم والفنون الأوربية القديمة ، وجاءت مصحوبة باختراع آلة الطباعة والكشوف الجغرافية والثورة على الكنيسة ، ونتيجة لردود الفعل التى أفرزتها هذه الأحداث عاد التطلع فى نهاية القرن الخامس عشر إلى المثل العليا وسيادة القانون على أساس من سلطان الدولة والقومية والفردية ليأخذ العالم الحديث طابعه المعروف .

ومع ذلك فإن هذه الحدود التقريبية بين مراحل التاريخ الوسيط موضع نظر وخلاف بين المؤرخين ، وسوف نعرض وجهات النظر المختلفة الخاصة بالمراحل الأولى للتاريخ الأوربى عندما نتكلم فى الموضوع الرابع عن بداية العصور الوسطى .

* * *

على أية حال كان من الطبيعى ، وقد نهضت الدراسات العلمية للتراث الأوربى

---

(١) Valois

القديم كما رأينا بجهود العلماء الألمان فى القرن التاسع عشر ، أن تبدأ كذلك الدراسة العلمية لتاريخ العصور الوسطى فى ألمانيا ، وإن كانت الدوافع إلى هذه الدراسة فى الحقيقة دوافع قومية صرفة أملتها هزيمة الألمان أمام نابليون بونابرت ، فقد أحدثت هذه الهزيمة ردود فعل عنيفة لدى العلماء والمفكرين الألمان الذين تطلعوا إلى إحياء مجد الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى ألمانيا فى العصور الوسطى ، على أمل أن يكون فى هذا الإحياء عزاء للهزيمة . ولذلك أنشأت حكومة بروسيا معهداً فى برلين لدراسة التاريخ الألمانى الوسيط حسب المناهج التى وضعتها الحركة العلمية الإنسانية الجديدة لدراسة التاريخ القديم والعلوم الكلاسيكية ، وهى مناهج تدعو كما ذكرنا إلى الدراسة الفكرية والحضارية ، وتتوافق تماماً مع غرض الحكومة البروسية من إنشاء المعهد ، وهو دراسة الحضارة الألمانية التى أبدعتها الإمبراطورية الألمانية الوسيطة ، ودراسة تاريخ البابوية وتاريخ إيطاليا ، لكى يتضح الدور الكبير الذى لعبته هذه الإمبراطورية فى تاريخ أوربا . ولهذ الغرض تولى المعهد البروسى فى برلين إصدار مجموعة ألمانيا التاريخية[1] منذ سنة ١٨٢٦ تحت إشراف العالمين الكبيرين جيورج هينريش برتس[2] وتيودور مومسن . وتعد هذه المجموعة من أشهر المجموعات التاريخية ، وقد سجلت مصادر العصور الأوربية منذ القرن السادس حتى نهاية القرن الخامس عشر .

وكان للجهود التى بذلها هؤلاء الرواد من العلماء الألمان أثر كبير فى وضع الأسس التى أنبنت عليها الدراسة العلمية لتاريخ العصور الوسطى ، وفى توجيه هذه الدراسة فى ألمانيا نحو التاريخ الفكرى والحضارى . وأصبح هذا الإتجاه هو الإتجاه

---

(1) Monumenta Germaniae Historica

الذى ميز منهج المدرسة الألمانية فى دراسة العصور الوسطى حتى الآن ، وهو قبل كل شيء منهج جدلى يعنى بالأنشطة الفكرية كأساس للحضارة . ولا شك أن هذا المنهج كان مقترناً بالمثالية التاريخية التى كان قد إنتهجها الفيلسوف الألمانى فيلهلم فريدريش هيجل (١) ، والتى تبناها هيجل على أساس الفكر باعتباره وحده أصل الموجودات ، أو روح الموجودات ، وهى الفلسفة التى تأسس عليها ما عرف عند الألمان بالتاريخ الفكرى أو التاريخ الروحى (٢) ، وهو التاريخ الذى تقرر على أساسه كما قلنا إتجاه المدرسة الجدلية الألمانية فى دراسة العصور الوسطى . فقد حدد هذا الإتجاه فى ألمانيا إهتمام العلماء بالنواحى الثقافية والفكرية فى العصور الوسطى ، كما حدد بصفة قاطعة الطريقة الجدلية فى تدوين التاريخ . لقد إهتم العلماء بدراسة الفكر الوسيط ، وتتبع التغير التاريخى فى ضوء المناقشات حول طبيعة المجتمع المسيحى ، والمثل الإمبراطورى الأعلى الذى أحيته الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى ألمانيا ، والتفسيرات المختلفة حول معنى الحرية ، لكى يحجبوا بهذا الإهتمام واقع التاريخ الألمانى منذ القرن الثالث عشر ، وعيوب الملكية الألمانية ، ونقائص النبلاء فى ألمانيا فى العصور الوسطى . وكانت البحوث التى تولتها أقسام دراسات العصور الوسطى فى الجامعات الألمانية ، والتى إعتمدت على تحليل نصوص التراث الوسيط ، سبباً فى تعميق إهتمام العلماء الألمان بالتاريخ الثقافى .

وفى العقود الأولى من القرن العشرين حاول المؤرخون الألمان أن يتحرروا فى دراسة التاريخ الوسيط من فكرة الدعاية القومية التى بدأها المعهد البروسى أبحاثه فى القرن التاسع عشر ، ولكنهم أبقوا مع ذلك على المنهج الجدلى ، بل إنهم خبروا

---

(١) Wilhelm Friedrich Hegel (١٧٨٠ — ١٨٣٠) .

(٢) Geistesgeschichte .

هذا المنهج على نطاق أوسع . وقد ظهر هذا فى مؤلفات برسى شرام [١] عن رسائل السفير البيزنطى ليون التسعة التى ترجع إلى سنتى ٩٩٧ و ٩٩٨ عن بعثته إلى الإمبراطور أوتو الثالث [٢] ، ورسائل أوتو الثالث وجربير أسقف رنس التى ترجع إلى سنة ٩٩٧ [٣] والصور المعاصرة لشارلمان [٤] ، والأباطرة والملوك الألمان [٥] . كما ظهر فى مؤلفات جرد تلنباخ [٦] عن قيام الإمبراطورية الألمانية [٧] ، والأبحاث الجديدة عن دير كلونى والرهبان الكلونيين [٨] ، ومقالة كارل إردمان [٩] عن قلاع الإمبراطور هينريش الأول الصياد [١٠] .

---

(١) Percy E· Schramm .

(٢) "Neun Briefe des byzantinischen Gesandten Leo von seiner Reise zu Otto III aus den Jahren 997—998" : Byzantinische Zeitschrift XXV 1925 S. 89—105 .

(٣) "Die" Briefe Kaiser Ottos III und Gerberts von Reims aus dem Jahre 997" : Archiv fuer Urkundenforschung IX 1926 S. 87—122 .

(٤) Die Zeitgenoessische Bildnisse Karl des Grossen. Leipzig 1927 .

(٥) Die deutschen Kaiser und Koenige in Bildern ihrer Zeit 751—1152 . Leipzig 1928 .

(٦) Gerd Tellenbach .

(٧) Die Entstehung des Deutschen Reichs. 3. Aufl. O.O. 1947

(٨) Neue Forschungen ueber Cluny and die Cluniazenser Freiburg 1959.

(٩) Karl Erdmann .

(١٠) "Die Burgenordnung Heinrichs I": Deutsches Archiv fuer Forschung des Mittelalters I 1943 S. 59—101

وقد قوبلت المدرسة الجدلية الألمانية بنقد شديد من العلماء الأوربيين ، وكانت الحجة فى نقد هؤلاء العلماء أن التعمق فى المضمون العلى للأفكار ، ومعالجة الفروق بينها بطريقة جدلية ، لابد أن يؤدى فى النهاية إلى المغالاة فى تصور الفروق بين هذه الأفكار ، والبعد بها عن حقيقة الأحداث . ويبدو أن هذا النقد الذى وجهه العلماء الأوربيون إلى المدرسة الألمانية كان له أثر على تيودور شيفر (١) ، وهو مؤرخ ألمانى من مؤرخى الجيل التالى ، فقد إقتصد شيفر فى إستخدامه للمنهج الجدلى فى كتابه الذى نشره فى سنة ١٩٥٤ عن المبشر الإنجليزى فينفريد بونيفاس ودوره فى الثقافة المسيحيه فى أوربا (٢) . ولكن العلماء الألمان يردون على هذا النقد بأن الفهم الحقيقى للتغير التاريخى يتطلب — بحكم الطبيعة — أكثر من ترديد الأحداث ورصد الفعالية التى تنجم عنها ، وأن على المؤرخ قبل كل شىء — إن كان يبغى التوصل إلى الحقيقة — أن يتبين ما يربط بين الأحداث من إتفاق وما يفصل بينها من إختلاف ، لكى تتضح الفروق التى ينبنى عليها هذا التغير ، لأن جوهر الدراسة التاريخية الحقة يقتضى بالضرورة تقصى الديناميكية الحضارية التى تتعين على أساس الجذب والصراع بين مختلف القوى المادية والفكرية ، ويتوقف هذا الجذب وهذا الصراع على الفروق بين الأفكار والدوافع التى تكمن وراء الأحداث .

وفى إنجلترا بدأ الإهتمام بالعصور الوسطى كذلك فى أواخر القرن التاسع عشر ، وإنحصر هذا الإهتمام فى دراسة النظم السياسية وتاريخ القانون ، وهو الإتجاه الذى طبع المدرسة الإنجليزية . وكان من أعلام هذه المدرسة المؤرخ وليام ستبز (٣) الذى

---

(١) Theodor Schieffer .

(٢) Winfrid Bonifatius und die christliche Grundlegung Europas. Freidurg in Breisgau 1954 .

(٣) William Stubbs .

ألف كتاباً فى تاريخ القانون الكنسى فى إنجلترا [١]، وكتاباً جمع فيه وثائق مختاره لتاريخ الدستور الإنجليزى [٢] ، والمؤرخ ميتلاند [٣] الذى كتب عن تاريخ القانون الإنجليزى قبل حكم الملك إدوارد الأول [٤] (أى قبل سنة ١٢٧٢) . وظهر إتجاه المدرسة القانونية كذلك فى الكتاب الذى نشره المؤرخ الإنجليزى توت [٥] فى سنة ١٩٢٢ عن علاقة فرنسا وإنجلترا فى العصور الوسطى [٦] .

ولكن المدرسة القانونية بدأت تفقد تأثيرها فى إنجلترا منذ الأربعينات من القرن العشرين عندما خرج عليها المؤرخ الإنجليزى بوويك [٧]. فقد كتب بوويك فى سنة ١٩٣٠ سيرة مطولة للملك إنجلترا هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢) نشرها فى سنة ١٩٤٧ وعدل فيها عن التاريخ السياسى وتاريخ القانون ، واهتم فيها لأول مرة بالتاريخ الدينى . وكان لهذه السيرة أثر كبير فى ظهور المدرسة الإنجليزية الجديدة فى الأربعينيات ، وهى المدرسة الشخصية التى تزعمها نولز [٨] فى كمبريدج ،

---

(١) "History of Canon law in England". Lectures XIII-XIV in Stubbs : _ Seventeen lectures on the study of medteval and modern history and kindred Subjects. Oxford 1886 (3rd ed. 1900)

(٢) Select charters of English constitutional history. 9th ed. Oxford 1913 .

(٣) F.W. Maitland.

(٤) The history of English law before the time of Edward I. 2 vols. Cambridge 1895 (2nd ed. 1898).

(٥) T.F. Tout.

(٦) France and England : their relations in the middle ages and now. Manchester 1922 .

(٧) F.M. Powicke.

(٨) M.D. Knowles.

وسوثرن (١) فى أكسفورد ، وعنيت بمظاهر التطور الذى طرأ على الفكر الدينى ومبادىء الزعماء فى العصور الوسطى . وعلى ذلك فبدلا من إستخلاص الفروق الجدلية كما تفعل المدرسة الألمانية ، وبدلا من إستعراض النظم السياسية والقانونية كما فعلت المدرسة الإنجليزية القديمة ، تصور المدرسة الإنجليزية الجديدة حضارة العصور الوسطى كحضارة يمتزج فيها مختلف ظلال الفكر والشعور فى مجموعة الأمم المسيحية ، وهى بهذا تنتقص من أهمية الوزن المادى للحياة ، وتعطى لعالم الفكر الوسيط دماثة مفرطة يتم معها أغفال مناقشات العصر العنيفة حول طبيعة المجتمع المسيحى .

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد بدأت الدراسة الأكاديمية لتاريخ العصور الوسطى قبل الحرب العالمية الأولى بفترة وجيزة . وقد تأثرت المدرسة الأمريكية بإتجاهات المدرسة القانونية الإنجليزية التى كانت سائدة آنذاك بين المؤرخين الإنجليز . وكان أكثر إهتمام المدرسة الأمريكية فى أبحاث العصور الوسطى بدراسة النظم السياسية والقانونية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وقد تصدر هذه المدرسة العالمان الأمريكيان تشارلز جروس (٢) الذى كتب فى ببليوغرافية (٣) التاريخ البريطانى (٤) ، ومصادر التاريخ الإنجليزى (٥) ، وتشارلز هسكنز (٦) الذى ألف كتباً ومقالات عديدة

---

(١) E.W. Southern.

(٢) Charles Gross.

(٣) بيان بالمخطوطات والمؤلفات والمطبوعات الخاصة بموضوع من الموضوعات

(٤) Bibliography of British municipnl history, including gillds and parliamentary representation. New York 1897.

(٥) The sources and literature of English history from the earliest times to about 1485. New York—London 1900 (2nd ed. 1915).

(٦) Charles Haskins.

تربو على العشرين من بينها دراسات فى النظم النورمانية[٢] ، والمحلفون النورمان[٣] .
وقد إتبع جروس وهسكنز فى مؤلفاتهما الغزيرة إتجاهات المناهج العلمية الأوربية .
أما التاريخ الفكرى والثقافى للعصور الوسطى — والعصور الوسطى الأولى بصفة خاصة — فيتولى الأساتذة الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة تدريسه على نطاق واسع فى الجامعات الأمريكية . وعلى خلاف ما أضافته المدرسة الأمريكية إلى معرفتنا للتغير التاريخى من صور لبناء الدولة فى العصور الوسطى ، وما بذلته من محاولات لإيجاد أصول للدولة الحديثة من واقع التطورات التى تمت فيها ، أغفلت كثيراً من نقاط الخلاف التى شغلت رجال العصور الوسطى أنفسهم ، ووقفت موقف الحياد تجاه الصراعات العقائدية فى المجتمع الوسيط .

وقبيل منتصف القرن العشرين ظهرت مدرسة جديدة أخذت بمبدأ الحتمية الإقتصادية والتكنولوجية فى تفسير مشكلة التغير التاريخى نتيجة للتغيرات الإقتصادية والتصنيع المطرد فى الدول النامية . ولكن هذه المدرسة لم تهتم بالناحية الإقتصادية بوصفها عملا محركا للتاريخ كما قال كارل هينريش ماركس[٤] ، وإنما كان إهتمامها بالأوضاع الإقتصادية على أنها تمثل حقيقة من الحقائق التاريخية العامة التى ينطبق وصفها هذا على كافة الأوضاع الأخرى السياسية منها والإجتماعية والفكرية وغير ذلك .

أن نظرية التفسير المادى للتاريخ التى وضعها الألمانى اليهودى الأصل كارل ماركس تقول بأن التاريخ إنما تحكمه قوانين حتمية تنتج بدورها عن حركة التاريخ ،

---

(١) Studies in Norman institutions. Cambridge 1918 .

(٢) "The early Norman jury" : American Historical Review III 1902-1903 p. 613-640.

(٣) Karl Heinrich Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣)

وأن الأوضاع الإقتصادية هى التى من شأنها أن تحدد صورة النظام ومظاهر الحضارة، بمعنى أن الأوضاع الإقتصادية هى وحدها الكفيلة بأن تفسر لنا ظروف المجتمع ونشاطه وتطوره التكنولوجى الذى يقوم أساساً على الإنتاج ... ذلك التطور المادى الذى لا بد أن يكون — بحكم طبيعته — تطوراً حتمياً يحدد فيه الانتاج نوع العلاقات بين أفراد المجتمع ، ويحدد بالتالى أشكال النظم الإجتماعية والسياسية والفكرية بصفة عامة ... هذه النظرية الماركسية إذاً تفرض على الظروف المادية وحدها أن تكون هى الدافع إلى حركة التاريخ ... فحركة التاريخ إنما تدفعها فى الواقع — حسب هذه النظرية — عوامل تتمثل قبل كل شىء فى الأوضاع المادية التى تعد من أهم أسباب الحروب ، وأحوال الملكية التى يتحدد على أساسها شكل النظام ، والصراع الطبقى الذى يقود حتما إلى الثورة .

ولكن ما أهمية التطور الإقتصادى فى حضارة كالحضارة الأوربية الوسيطة التى لم يكن فيها ملاك الأرض ورجال الكنيسة على وعى تام بمثل هذا التطور ؟ وإلى أى حد كان التحول الإقتصادى مهماً فى مجتمع كالمجتمع الأوربى الوسيط الذى لم يكن يملك العقلية الإقتصادية كما نفهمها فى عصرنا الحديث ؟ الحقيقة أن الصلة بين التغير الإقتصادى والوجوه الحضارية فى العصور الوسطى تظل على الدوام موضع النظر ، لأن التغير الإقتصادى لم يكن حاسماً ، بل لم يقرر شيئًا قاطعاً ، فى إختيار رجال العصور الوسطى للدين ونظام الحكم والفن والأدب على النحو الذى يمكن معه أن نتصور هذا التغير إستناداً إلى تفسيرات المادية التاريخية . فمنهج التفسير المادى للتاريخ — أيا كان معناه — لا يمكن بصورة ما أن ينطبق فى فهمنا للتغير الذى حدث فى أوربا فى العصور الوسطى ، لأن العامل الذى شكل وجه التاريخ هناك فى تلك العصور تمثل قبل كل شىء فى جهود الملوك والحكام والعلماء والمفكرين ورجال الدين، وهى جهود لا نلمس فيها ملامح الصراع الطبقى كما حدده ماركس ، ولم تشارك فيها البروليتاريا بأى نصيب ، ولم تدفع إليها الأوضاع الإقتصادية فى المقام الأول ...

إذاً فمحاولة الكلام عن الحتمية الإقتصادية كأساس لتفسير التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى كما تقضى به نظرية التفسير المادى للتاريخ محاولة تبعد بنا عن الواقع .

وعلى أية حال فإن نظرية التفسير المادى للتاريخ لم توضع فى صياغة متكاملة ، ولم يحدد كارل ماركس على وجه الدقة المعنى الذى رمى إليه من مفهوم التغير الإقتصادى ، وهو التغير الذى جعله ماركس أساساً لفلسفته التاريخية ، الأمر الذى يضعف من الأساس الذى بنيت عليه هذه الفلسفة ويجعلها فلسفة قاصرة عن فهم الدوافع الحقيقية لحركة التاريخ (١) . ولذلك دفعت التغيرات الإقتصادية التى حدثت فى الدول النامية فى العقود الأخيرة بعض مؤرخى الإقتصاد والعلوم التقنية — بالرغم من إهتمامهم بفكرة الحتمية الإقتصادية والتكنولوجية — إلى رصد هذه الظاهرة على نحو يخالف ما ذهبت إليه النظرية الماركسية فى تفسير التاريخ ، كمحاولة لوضع التغير التاريخى فى إطاره الصحيح ، وذلك ببحث كافة الأوضاع والحقائق التى تعطى بمجموعها للتاريخ صورة كلية من ناحية ، وتعطى للتغير التاريخى بمجموعها من ناحية أخرى تفسيراً صادقاً يعبر عن الحقيقة بقدر المستطاع . وهـذا يعنى بعبارة أخرى أن التغير التاريخى فى نظر المدرسة الجديدة لا يمكن تفسيره إلا بدراسة العصور دراسة عامة شاملة من كافة نواحيها السياسية والإجتماعية والإقتصادية والعسكرية والفكرية ، وهى دراسة من شأنها أن تحيط بكل مايساعد على فهم هذا التغير فهما صحيحاً . إذاً فالمدرسة الجديدة تعنى فى النهاية بالتفسير الكلى أو التفسير الشامل للتاريخ ، وهو الإتجاه الذى سبق أن إرتبطت بوادره بحركة العلم التاريخى فى القرن التاسع عشر .

---

(١) لعل هذا القصور فى نظرية التفسير المادى للتاريخ هو الذى يستند إليه الآن — حسب علمنا — المفكر الفرنسى المعاصر وداعية الإيديولوجية البنيوية الحديثة ألتوزيه Althuser فى هجومه على الماركسية وفى نقده اللاذع الذى يكشف عن فسادها يوماً بعد يوم .

والحقيقة أن مؤرخ الاقتصاد البلجيكى هنرى بيرين [١] كان من أبرز رواد هذه المدرسة الجديدة التى عنيت بالتاريخ الشامل ، وله فى مجال الدراسات التاريخية والاقتصادية بحوث هامة منها كتاب عن مدن العصور الوسطى والتجارة [٢] ، ومقالة عن المدن والأسواق فى العصور الوسطى [٣] ، وإن كان أشهر مؤلفات بيرين على الإطلاق كتـــابه الذى صدر بعد وفاته فى باريس سنة ١٩٣٦ بعنوان « محمد وشارلمان» [٤] ، وعرض فيه بيرين —من وجهة نظره— أثر التوسع الإسلامى على تدهور التجارة فى البحر المتوسط فى القرن التاسع ، وأثره بالتالى على تدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى أوربا ، وبصفة خاصة فى فرنسكيا إبان حكم الفرنجة الكارولنجيين ، وهو الكتاب الذى أحدث ضجة كبيرة فى أوساط المؤرخين بسبب الأخطاء التاريخية الفادحة التى وردت فيه ، والمسئولية التى حملها بيرين دون وجه حق للمسلمين على هذا التدهور الذى لحق بأوربا ، وهى القضية التى رأينا أن نقدم لها فيما بعد مناقشة وافية ، لكى نعرض فيها الردود المقنعة على هذا اللغو والافتراء ... ومن رواد هذه المدرسة البارزين كذلك المؤرخ لين هوايت الأصغر [٥] الذى عالج فى مقالة من مقالاته موضوع التكنولوجيا والاختراع فى

---

(١) Henri Pirenne (١٨٦٢ — ١٩٣٥) .

(٢) Medieval cities: their origins and the revival of trade. Princeton 1925 (published with corrections as :Les villes du moyen âge. Bruxelles 1927).

(٣) «Villes, marches, et marchands du moyen âge»: Revue historique LXVII 1898 p. 59 - 70.

(٤) وقد أشرنا إليه فى مقدمة كتابنا ص ٢١ .

(٥) Lynn T. White Jr. .

العصور الوسطى(١) ، وروبير لوبيز(٢) مؤلف المقالة الهامة عن تطور السياسة التجارية فى العصور الوسطى(٣) .

ولعل أهم الممثلين لمنهج التفسير الشامل للتاريخ المؤرخ الفرنسى مارك بلوك(٤) الذى عمل أستاذاً بجامعة باريس ولقى مصرعه فى سنة ١٩٤٥ وهو يحارب فى صفوف المقاومة الفرنسية . لقد اهتم بلوك على وجه الخصوص بالتاريخ الزراعى والاقتصادى والتكنولوجى ، وهو فى الحقيقة يعد أبرع من كتب عن التطور الاقتصادى فى العصور الوسطى ، وله فى هذه المجالات كتاب عن خصائص التاريخ الريفى الفرنسى(٥) ، وعدة مقالات عن التقنية والتطور الاجتماعى(٦) ، ومشكلة الذهب فى العصور الوسطى(٧) ، والحقول والقرى(٨) ، وارتقاء طاحونة

---

(١) «Technology and invention in the middle ages» : Speculum XV 1940 p.141 - 159.

(٢) Robert Lopez .

(٣) "Du marche temporaire a la colonie permanente : l'èvolution de la politque commerciale au moyen âge» : Annales IV 1949 p. 389 - 405.

(٤) Marc Bloch .

(٥) Les caractères originaux de l'histoire rurale française. nouvelle èdition. Paris 1952.

(٦) «Technique et l'èvolution sociale. A propos de l'histoire de l'attelage et de celle de l'esclavage» t Revue de synthèse historique XLI 1926 p. 91 . 99.

(٧) «Le problème de l'or au moyen âge» : Annales d'histoire economique et sociale V 1933 p. 1 - 34.

(٨) «Champs et villages» : ibid. VI 1934 p. 467 - 489

الماء[١] ، والاختراعات فى العصور الوسطى[٢] ، والتقنيات والتاريخ والحياة[٣] ، ونهوض الزراعة الملتزمة والنظم الاقطاعية[٤] . وبقدر ما كان بلوك يميل أحياناً إلى مبدأ الحتمية الاقتصادية عنى بدراسة التاريخ دراسة إجمالية شاملة من أجل فهم المجتمع ، وكان التركيب الاجتماعى والاقتصادى يشكل فى رأيه — وبصفة خاصة — أساساً أولياً لتحليل التاريخ . وفى نظرته إلى المجتمع الإقطاعى ، وفرضه مقارنة للقوانين ، واعتباره المجتمع أكثر من مجموعة من الأفراد ، كان بلوك يتبع فى الواقع تقاليد علماء الاجتماع الفرنسيين . ولذلك يمكن — مع التجاوز — القول بأن بلوك وتلاميذه يمثلون النزعة الاجتماعية فى إطار التفسير الشامل للتاريخ .

ومن أنصار هذا الاتجاه الذى تزعمه بلوك روبير بوتريش[٥] ، وروبير لاتوش[٦] ، وجورج دوبى[٧] ، وفيليب فولف[٨] . وقد كرس هؤلاء العلماء جهودهم

---

(١) »Avénement et conquêtes du moulin à eau« : Annales d'histoire économique et sociale VII 1935 p. 538 - 563.

(٢) «Les inventions medievales« : ibid· p. 634 - 643 ·

(٣) «Les techniques, l'histoire et la vie. Note sur un grand problème d'influences« : ibid, VIII 1936 p. 513 - 515.

(٤) «The rise of dependent cultivation and seignorial institutions« : Cambridge Economic History I 1941 p. 224 - 277.

(٥) Robert Boutruche.

(٦) Robert Latouche .

(٧) Georges Duby .

(٨) Philippe Wolff ·

للدراسات الإقليمية المقارنة، ولكنهم أولوا للتاريخ الاجتماعى أهمية أكبر من الأهمية التى أولوها لتاريخ المجتمع ، وأخذوا فى الابتعاد شيئاً فشيئاً عن منهج التفسير الشامل الذى اتبعه بلوك ومن سبقه من العلماء ، وذلك من أجل دراسة البناء الطبقى الذى يعتبر أساساً لفهم النظام الاجتماعى على حقيقته . ويبدو أنهم مالوا كذلك إلى جمع البيانات والإحصاءات ، ولم يضعوا فى اعتبارهم قيمة التأملات المطلقة التى يمكن أن تستمد من النظريات الاجتماعية والأنثروبولوجية. غير أن العيب الواضح فى المدرسة الجديدة بصفة عامة هو عدم اكتراثها بدراسة أفراد المجتمع من حيث كونهم أفراداً يمدون المجتمع بطاقة من النشاط والفعالية التى تؤثر فى أحداث التاريخ، مما أدى إلى إهمال هذه المدرسة لشخصية الإنسان الحقيقية وقدرته المبدعة .

* * *

٢ – أزمة القرن الثالث

نقاط[1] الموضوع

أوضاع الدولة الرومانية قبل القرن الثالث — العصر الجمهورى الأخير وتحول السياسة الجمهورية فى عهد يوليوس قيصر — مصرع قيصر وتولى أوكتافيوس أغسطس السلطة — بداية العصر الإمبراطورى فى القرن الأول — سياسة الإمبراطور أغسطس — الجمع بين النظام الجمهورى والنظام الإمبراطورى — إيديولوجيه السلام الرومانى — إزدهار الإمبراطورية فى القرن الثانى — مجد الإمبراطورية فى عهد الإمبراطور تراجان — أزهى عصور الإمبراطورية فى عهد الإمبراطور مارك أوريليوس — مقتل الإمبراطور كومودوس ونهاية عصر السلام — القرن الثالث وبداية حكم الأباطرة العسكريين — عهد الإمبراطور سبتيميوس ساويرس — إمتيازات الجيش — مشورة رجال القانون — تعزيز جبهات القتال فى الشرق والغرب — عهد الإمبراطور كاراكالا — القانون الانطونينى — عهد الإمبراطور إسكندر ساويرس — عداء الحكم الأرشكى فى إيران — الثورة على ملك الأرشك أردوان الخامس — قيام أردشير بتأسيس دولة الفرس الساسانية — إنتصار إسكندر ساويرس على الفرس — إنتصاره على الألمان — عهد الامبراطور مكسيمين —

انتصاره على السرماطيين فى بانونيا — هجوم القوط والكربيين على موازيا — وصول الكربيين إلى شمال اليريا وتدمير مقاطعة إيستريا — عهد الإمبراطور جورديان الأول — عهد الإمبراطور جورديان الثالث — هجوم الكربيين على جنوب شرق داكيا — تحصين مدينتى رومولا وسوكيدافا — عهد الإمبراطور فيليب العربى — إتحاد القوط والكربيين وإحتلال موازيا — تحصين مدينة ماركيانوبوليس — رواية المؤرخ دكسيبوس — رواية المؤرخ زوسيموس — عهد الإمبراطور دقيوس — أحلك عصور التاريخ الإمبراطورى — هجوم ملك الفرس شاهبور الأول على اليونان — غزو الكربيين لداكيا — غزو القوط لتراقية — معركة بيرويا وهزيمة دقيوس — تحرير تراقية من القوط — تحرير داكيا من الكربيين — ضغوط الفرنجة والألمان على جبهة الراين — إزدياد نفوذ تدمر (بالميرا) وتهديد مصالح الإمبراطورية فى الشرق — الصراع على العرش الإمبراطورى — الإضطهادات الدينية — القبض على أوريجانوس وإيداعه السجن — مصرع فابيان أسقف روما — رواية المؤرخ بيون الأزميرى — رواية كيبريانوس القرطاجنى — عودة القوط إلى الهجوم على موازيا — موقعة إبريتوس ومقتل دقيوس وإبنه هيرينيوس — عهد الإمبراطور جالوس — عهد الإمبراطور إيمليان — عهد الإمبراطور فاليريان — سحب الفرق من جبهات الراين والدانوب وإرسالها إلى إيطاليا لحماية العرش — عبور الألمان نهر الراين وإحتلال الراينلاند والبفالتس — وصول الفرنجة عبر متس ورنس إلى باريس — إرسال جاليينوس ابن فاليريان إلى غالة — إسترداد منطقة الراين — تحصين مدينتى كولونيا وترير — تحرك الأقواضيين والمركومان بين الراين والدانوب — دخول القوط فى آسيا الصغرى والوصول إلى مدينة أفسس —

تحرك القوط فى موازيا وتراقية — الهجوم على سالونيكى — تحسين مضيق كورنثا — ترميم أسوار أثينا — تحرك البورانيين فى البحر الأسود — إستيلاء البورانيين على مرفأ بيتيوس وميناء طرابزون — رواية أغريغوريوس صانع العجائب — إضطهادات فاليريان فى مصر — رواية الأنبا ديونيسيوس بطريرك الإسكندرية — تحرك الألمان فى حوض البو والوصول إلى أواسط إيطاليا — إنسحاب جاليينوس من جبهة الراين والوقوف فى وجه الزحف الألمانى — إنتصار جاليينوس على الألمان عند ميلانو — إحتلال الفرنجة لشرق غالة — هجوم بعض العناصر الجرمانية على أسبانيا وشمال أفريقيا — حملة الرومان فى أرمينيا — إنتقام شاهبور الأول والهجوم على سوريا — سقوط مدينة الصالحية (دورا أفروبوس) ومدينة أنطاكية — إسترداد فاليريان لأنطاكية والزحف إلى فارس — هجوم الفرس على حاران (كاراى) والرها (أديسا) — أسر فاليريان ومصيره الغامض — نقش الرستم وتسجيل إنتصارات شاهبور — تولى جاليينوس العرش بعد إختفاء فاليريان — عهد الإمبراطور جاليينوس — — ثورة ماكريان وكويتوس — مقتل ماكريان فى تراقية — مقتل كويتوس عند الرها على يد التدمرى أذينة ابن السميدع — الإعتراف بأذينة ملكاً على تدمر وقيام حكومة مستقلة — إستقلال بسطوم بغالة وإمتداد نفوذه إلى بريطانيا وأسبانيا وشمال إيطاليا — إتخاذ بسطوم مدينة ترير عاصمة الإمبراطورية الغالية المستقلة — الغزو القوطى الجديد على آسيا الصغرى وتدمير معبد الإلهة أرتميس فى افسس — توجه القائد الإليرى كلاوديوس إلى شمال إيطاليا وإنتصاره على الألمان عند بحيرة بودن — تولى زينوبيا أرملة أذينة ابن السميدع الحكم فى تدمر — إحتلال الملكة زينوبيا لسوريا — إستيلاء زينوبيا على مدينة بصرى (بوستра)

عاصمة ولاية عرابيا — دخول الهيروليين والقوط إلى البلقان والتوغل حتى غرب البليبونيز — هجوم الهيروليين على تومى على البحر الأسود وإحتلال بيزنطة — تحركات الهيروليين فى براكيا — إنضمام الهيروليين والقوط فى اليونان والإستيلاء على أثينا ومعاقل البليبونيز — رواية المؤرخ دكسيبوس — إغتيال بسطوم وتولى ماريوس حكم الإمبراطورية الغالية — عهد الإمبراطور كلاوديوس الثانى (القوطى) — تحرير اليونان والبلقان من القوط والهيروليين والسماح لهم بالتوطن فى الإمبراطورية — إحتلال زينوبيا لمصر وآسيا الصغرى — حكم الإمبراطور أورليان مجدد الإمبراطورية — التنازل عن داكيا للكربيين — إقامة ولاية داكيا البحر متوسطية من موازيا وشمال تراقية — هجوم اليوت والفندال والأشفابيين والسرماطيين على إيطاليا — إنتصار أورليان على الفندال فى بانونيا — إنتصاره على اليوت عند بافيا — رواية المؤرخ دكسيبوس — تحصين روما — سور أدريان — إسترداد آسيا الصغرى من زينوبيا — سقوط تدمر وتحرير مصر — أسر زينوبيا — قيام الثورة فى مصر وتدمر ضد حكم أورليان — إخماد الثورة - إنتصار أورليان على تتريكوس آخر حكام الإمبراطورية الغالية وإسترداد غالة — الهجوم القوطى الجديد على آسيا الصغرى — الزحف على فارس ومقتل أورليان — عهد الإمبراطور تاكيتوس — إنتصاره على القوط فى آسيا الصغرى — عهد الإمبراطور بروبوس — الثورة المسلحة فى سوريا — تمرد الايسوريين فى جنوب آسيا الصغرى — القراصنة السكسون فى القنال الإنجليزى — تمرد البكت والاسكتلنديين — تمرد البلاعمة فى جنوب مصر — توطين القوط والبسترنيين فى الإمبراطورية — عهد الإمبراطور كاروس — غزو فارس والوصول

كاروس على السرماطيين والأقواضيين — عهد الإمبراطور دوقلديانوس وبداية الحكم الأوتوقراطى الصريح — عصر الإصلاحات — سمات ومشاكل الإمبراطورية فى القرن الثالث — الميل إلى الحكم المطلق — قداسة الإمبراطور — تقلص سلطان السناتو — الطبقة الثرية الجديدة فى السناتو — إنتقال أهم صلاحيات السناتو للديوان الإمبراطورى — سلطات الجيش وتنصيب الأباطرة على العرش — السياسة الإداريةالجديدة — فصل الإدارات العسكرية عن الإدارات المدنية — نجاح الحكم العسكرى فى مواجهةالتدهور والتصدى للفرس والجرمان — مشكلة تدعيم الجيش — ظاهرة توطين وتجنيد الجرمان والعناصر الأجنبية فى الجيش الأمبراطورى — وصول العناصر الأجنبية إلى المراكز القيادية — البحث عن تفسير الظاهرة — تعديل قوانين الجنسية الرومانية — السياسة الضريبية الجديدة — نظام الملكية الزراعية وأثره على الحياة الإجتماعية والحياة العسكرية — التهرب من الضرائب — برامج التسليح والدفاع — مصاعب الحالة الإقتصادية والعجز فى ميزان المدفوعات — مشكلة البناء والتعمير — إنتقال ثقل الحياة إلى الريف — التدهور النقدى والتضخم — محاولة دوقلديانوس لإنقاذ الموقف .

لكى نتعرف — ولو قليلا — على أبعاد الأزمة التى حلت بالإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث ، لا بد أن نتعرف بالضرورة — وبادىء ذى بدء — على الظروف والأحداث التاريخية التى أحاطت بهذه الإمبراطورية منذ أواخر

القرن الثانى . لا جدال فى أن هذه الظروف والأحداث تعطى أبعاداً لمشكلة النهاية التى سوف نسوق بواعثها فيما بعد ، وتكشف عن سياق منطقى يعيننا على إدراك التطورات المادية والمعنوية ، كما يعيننا على فهم السياسة الرومانية فى شتى مراحلها . ولا جدال كذلك فى أن تاريخ الجمهورية الأخيرة يعمق من هذه الأبعاد التى تكشف لنا عن حقيقة ما حدث ، وعلى أقل تقدير يظهر الخلاف الذى تأسست عليه كافة التغيرات السياسية فى عصر الجمهورية .

كانت روما الجمهورية قد وصلت فى عهد يوليوس قيصر إلى أوضاع يصعب معها أن تعبر التاريخ بكل ما كانت تحمل من مبادىء جمهورية فى عصورها الذهبية الأولى . فقد عمت البلاد قرابة قرن من الزمان موجات من الاضطرابات والحروب الأهلية المريرة ، أطاحت بالأمن والثقة ، وأشاعت جوا ثقيلا من اليأس والهلع ... موجات عاتية لم تفلح كل الأصوات المثالية الصامدة فى أن تقف سداً منيعاً فى طريقها ، لأن أعاصير المصالح الشخصية كانت تقذف بها على الدولة فى كل اتجاه بعنف وقوة. وبعد أن لقى يوليوس قيصر فى سنة ٤٤ قبل الميلاد مصرعه عند أقدام تمثال صديقه وغريمه بومبى[١] فى قلب روما ، جاء إلى ساحة السياسة الرومانية شاب طموح عليل ، غمرت عقله مبادىء الفلسفة الرواقية، وغزت نفسه نوازع الانتقام . هذا الشاب هو أوكتافيوس الذى قدر له أن يكون خليفة لقيصر ، وقدر له أن يكون أول إمبراطور فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية ... وقف على الساحة ليفتح عصراً جديداً فى التاريخ .

---

(١) Gnaeus Pompeius (١٠٦ - ٤٨ قبل الميلاد).

كثيراً ما يطرح النقاد والمؤرخون موضوع الحكم الإمبراطورى الذى أقامه أوكتافيوس على بساط البحث . ومهما اختلفت الآراء فى هذا الموضوع ، فإن حكم أوكتافيوس لا يوصف عادة بصفات الحكم المطلق ، لأن أوكتافيوس لم يكن يرمى إلى تجميع سلطات الدولة فى يده على النحو الذى كان يرمى إليه يوليوس قيصر ، وإنما كان حكم أوكتافيوس الإمبراطورى نوعاً من التجديد للجمهورية لم يسبق له مثيل . لقد اختار أكتافيوس لنفسه لقباً شرفياً هو لقب الرئيس أو الزعيم[١] ، وكان هذا اللقب فى حد ذاته يوحى بحقيقة مكانته الدستورية التى تخول له حق النظر فى كافة الشئون العامة بوصفه المواطن الأول[٢] فى الدولة ، وكانت له من ناحية أخرى معانى جمهورية تتلاءم مع حكمه ، وهى المعانى التى سبق أو وردت فى ألقاب العصر الجمهورى كلقب السناتور الأول[٣] الذى احتفظ به أوكتافيوس فى إحصاء سنة ٢٨ قبل الميلاد، ولقب رجل الدولة الأول[٤] الذى تردد ذكره كثيراً لدى كتاب العصر الجمهورى الأخير وبخاصة لدى شيشيرون[٥] ، وظل استخدامه فى عصر الإمبراطورية كما هو ثابت فى تاريخ أسويطون[٦] الذى ازدهر فى عهد

---

(١) princeps .

(٢) المواطن الأول هو المعنى الذى تعنيه كلمة برنسبس princeps على نحو أدق .

(٣) princeps senatus .

(٤) princeps civitatis .

(٥) Marcus Tullius Cicero (قبل ١٠٦ - ٤٣ الميلاد) .

(٦) Gaius Suetonius Tranquillus (ولد حوالى سنة ٣٩ ميلادية) .

الإمبراطورين تراجان(١) وأدريان(٢) .

والحقيقة أن لقب الرئيس بمعنى المواطن الأول كان نابعاً قبل كل شيء من شعور وطني(٣) أراد أوكتافيوس أن يؤكد به خلافه مع اتجاهات الدكتاتورية المشبوهة التي نحت سياسة يوليوس قيصر نحوها . وعلى ذلك فالرياسة أو الزعامة التي ابتدعها أوكتافيوس تقف على طرف النقيض مع السياسة التي أراد يوليوس قيصر أن يطبقها لحكم الدولة الرومانية . وهي من ناحية أخرى تخالف — في نظر المؤرخين اللاحقين — سياسة العصر الإمبراطوري الثاني ، وهو عصر الحكم الأوتوقراطي المطلق الذي بدأ بحكم الإمبراطور دوقلديانوس(٤) . ولقب الرئيس الذي اختاره أوكتافيوس بهذا المعنى يقف بدوره على طرف النقيض مع لقب السيد(٥) الذي أطلقه الأباطرة على أنفسهم بعد ذلك . ولما كان لقب الرئيس كما قلنا لقباً شرفياً يتمتع به الإمبراطور عند توليه الحكم ، فإنه لم يكن يمنح له بقرار معين من السناتو(٦) وهو مجلس الشيوخ ، ولم يكن يدرج ضمن ألقابه الرسمية . وإذا كان الأباطرة في عصر الحكم الأوتوقراطي ظلوا يحملون لقب الرئيس ، إلا أن هذا اللقب كان قد فقد معناه الجمهوري ومعناه

---

(١) Marcus Ulpius Traianus (٩٨ - ١١٧) .

(٢) Publius Aelius Hadrianus (١١٧ - ١٣٨) .

(٣) civilis animus .

(٤) Gaius Aurelius Valerius Diocletianus (٢٨٤ - ٣٠٥) .

(٥) dominus .

(٦) Senatus .

الرياسى الحقيق ، فلم يعد الإمبراطور فى هذا العصر هو المواطن الأول فى الدولة ، وإنما أصبح هو الحاكم الفرد الذى يهيمن على كافة شئون الدولة .

بعد أن انتصر أوكتافيوس على مارك أنطونيو[١] وكليوباترا ملكة مصر فى موقعة أكتيوم[٢] البحرية[٣] ، واستولى على مدينة الإسكندرية[٤] ، رجع إلى روما[٥] ، واستقبله الشعب الرومانى استقبال البطل الذى أنقذ روما من أخطار الشرق ، وصدق السناتو على لقب الإمبراطور[٦] الذى عرف به أوكتافيوس منذ أن نشبت الحرب[٧] بينه وبين بومبى الصغير[٨] ، كما منحه السناتو[٩] لقب أغسطس[١٠] ومعناه صاحب الجلالة ، واشتهر أوكتافيوس فى التاريخ بهذا اللقب، وحمله من بعده أباطرة روما .

وجدير بالذكر أن لقب الإمبراطور كان يعنى باللغة اللاتينية ، وهى لغة

---

(١) Marcus Antonius (حوالى ٨٣ - ٣٠ قبل الميلاد) .
(٢) Actium فى مقاطعة أكارنانيا Acarnania على الساحل الغربى لبلاد اليونان .
(٣) سنة ٣١ قبل الميلاد .
(٤) سنة ٣٠ قبل الميلاد .
(٥) سنة ٢٩ قبل الميلاد .
(٦) Imperator .
(٧) سنة ٣٨ قبل الميلاد .
(٨) Sextus Pompeius (حوالى ٦٧ - ٣٦ قبل الميلاد) .
(٩) فى ١٦ يناير سنة ٢٧ قبل الميلاد .
(١٠) Augustus .

الرومان ، أن السناتو منح أغسطس الامبريوم[1] ، ومعناه السلطة التي خولت له الحق في تولي منصب القنصلية ، والتربيونية ، والإشراف على الولايات ، وقيادة الجيش ، وتقرير العلاقات الخارجية . وكان الامبريوم لتولي مهمة من هذه المهام مفهوماً دارجاً في مؤلفات الكتاب في العصر الجمهوري السابق أمثال شيشيرون وليفيوس ويوليوس قيصر ، لأن الامبريوم كان يعني في الواقع الأمر والتكليف كما ورد في الشعر الروماني القديم عند بلاوتوس[2] وتيرنس[3] . ويعني كذلك السلطة لتنفيذ هذا الأمر ، وخاصة ما يتعلق بشأن من شئون الحكومة والدولة ، وبالتالي فإن كلمة امبريوم كانت تعني كذلك الحكومة والدولة . ولما كان السناتو قد منح أغسطس هذه السلطات التي تغطي نشاط الدولة ، فقد أطلق على الدولة الرومانية اسم امبريوم ، وتعريبه الإمبراطورية ، وعرف عصر أغسطس بالعصر الإمبراطوري ، وانصرف هذا الإسم على العصور اللاحقة ليعطي للتاريخ الروماني بعد ذلك مفهوماً إمبرياليا توسعيا يتفق مع واقع هذا التاريخ . وتناقلت الأجيال كلمة الإمبراطورية بهذه الأبعاد التوسعية لتعبر عن الإمبراطورية بالمعنى الذي نفهمه الآن .

كان أغسطس شخصاً حذراً ميالا إلى الصمت والأوهام ، ولكنه كان متروياً رذكياً وحازماً ما يحمل على كتفيه كما يقول الشاعر فرجيل عبء الزمن المستقبل . لقد تعاطف أغسطس مع الجمهوريين المعتدلين ، وأعلن للشعب الروماني أن التقاليد والأخلاق القديمة هي الدعامة الخالدة للدولة الرومانية عبر الزمن ، وأن العودة إلى

---

(١) imperium .

(٢) Titus Maccius Plautus (توفى سنة ١٨٤ قبل الميلاد) .

(٣) Publius Terentius Afer (توفي سنة ١٥٩ قبل الميلاد).

الجمهورية مطلب أساسى ، لأن الجمهورية تمتد جذورها وتتأصل فى هذه التقاليد والمبادىء . وإذا كان بعض المؤرخين يرصدون نقصاً فى عنصر النظام الجمهورى القديم ، فإن هذا صحيح إلى حد كبير ، ويجب ألا يغيب عن بالنا أن الجمهورية ، التى كانت بحسب معناها[١] ملكا عاما للشعب يتعين احترامه والحفاظ عليه والعمل من أجله ، لم تكن على الدوام جمهورية ديموقراطية بالمعنى الصحيح . ولعل هذه الحقيقة فى حد ذاتها هى التى تكشف عن أبعاد السياسة الأغسطية التى نشدت ربط الماضى والحاضر فى واقع واحد يسير بالدولة نحو الغاية التى صارع من أجلها رجال الجمهورية وسالت من أجلها الدماء . وها هم دعاة السياسة المعاصرون من مؤرخين وشعراء أمثال ليفيوس وفرجيل وهوراس[٢] ينظرون بأحداث الحاضر فى مرآة الماضى ، ويتغنون بعظمة الرومان القدامى الذين أرسوا قواعد الحكم الجمهورى على أساس من الأخلاق القديمة القويمة... لقد جاء فرجيل من ريف فينيتيا[٣] فى شمال إيطاليا ، ليس بعيداً عن مدينة بادوفا[٤] التى نشأ فيها ليفيوس بين أبناء العامة، وجاء هوراس من أحياء الفقراء فى أبوليا[٥] فى الجنوب... جاءوا إلى روما يحملون إلى البلاط الإمبراطورى معاناة شعب عاش أكثر من ستين عاماً فى أتون الحروب الأهلية والأحداث المضطرمة بالحقد والطمع والكراهية ، ويتحدثون — ولسان أغسطس يقول — بمولد عصر جديد يرجع لإيطاليا عصورها الذهبية الأولى . لقد انتقى أغسطس شعراءه ودعاته من بين أفراد الطبقة الكادحة المغمورة

---

(١) res publica .

(٢) Quintus Horatius Flaccus (٦٥ - ٨ قبل الميلاد) .

(٣) Venetia .

(٤) Patavium (Padova) .

(٥) Apulia .

التى تسبر بمشاعرها أغوار الأوضاع الراهنة المريرة ، لأن أغسطس كان يقف على أبواب ثورة حقيقية وبرامج للإصلاح الزراعى والاجتماعى واسع النطاق .

وهكذا أخذ الحكم الإمبراطورى منذ البداية مظاهر الجمهورية القديمة ... لقد كان أغسطس يملك السلطة العليا على الجيش والدولة ، ولكنه ترك للسناتو حكم إيطاليا والولايات التى كانت تحتاج إلى قوى دفاع صغيرة ، وترك له كثيراً من اختصاصاته السابقة دون مساس. وكان هذا بالنسبة إلى أغسطس مسألة حيوية فى برنامج التجديد ، على أقل تقدير لكى يضمن فى جانبه مراكز القوى التى كان يمثلها على الدوام أفراد الطبقة الأرستقراطية من أعضاء مجلس الشيوخ من ناحية ، ولكى يربط مصالح هذه الطبقة بمصالح الإمبراطورية من ناحية أخرى ، لأن فى هذا ضماناً أقوى لتأييد الإمبراطور فى سياسته والحفاظ على نظام الحكم . ولكن المعارضين من أنصار الحزب الجمهورى الراديكالى فهموا هذه الخطوة على أنها خطوة مرحلية فى تمشيط هذا المجلس النيابى الأعلى ، وعلى أنها اعتراف بالذنب أكثر مما هى اعتذار عن تجريده من اختصاصاته الأخرى . وقد كشفت الأيام عن صحة هذا الرأى ، فلم يلبث أغسطس بوصفه السناتور الأول أن منح نفسه الحق المطلق فى دعوة السناتو إلى الاجتماع ، والإشراف على جلساته ، وعرض الموضوعات عليه للمناقشة ، واتخاذ القرارات المناسبة التى تحقق أغراض الإمبراطور. وأخذ السناتو بذلك يفقد استقلاله شيئاً فشيئاً حتى اقتصرت سلطته فى النهاية على اختيار الأباطرة فى أوقات الاضطرابات والثورة وعند شغور العرش الإمبراطورى .

ومهما كان أمر الدعوة لإقرار نظام جمهورى متطور فإن بوادر الإمبراطورية أخذت تواكب الحكم الأغسطى ، لأن تجارب العصور السابقة والظروف التى

مرت بها الدولة الرومانية فى عهد يوليوس قيصر كانت كفيلة بأن تفرض على نظام الحكم طابعاً إمبراطوريا يصعب تذويبه فى شعار السلام الروعانى الذى أعلنه أغسطس لكى يفتتح به عصره الجديد. وهكذا نجد أن الحكم الإمبراطورى كان فى أول عهده مزيجاً من الحكم الأوتوقراطى والحكم الديموقراطى على نحو جعل للإمبراطورية صفة فريدة لا ترتبط من قريب أو من بعيد بصفات الحكم الجمهورى الذى عرفناه فى التاريخ الرومانى الأول. صحيح أن العصر الجمهورى السابق شهد موجات عاتية من العنف والاستبداد طمعاً فى الاستئثار بالسلطة، ولكنها كانت موجات عابرة لا تمثل جوهراً حقيقيـــا فى نظام الحكم حسب ما وضعه الرومان الأولون، وكثيراً ما كانت أصوات الديموقراطية ترتفع من جديد — حماسة أو مناورة — لتضع الأمور فى نصاب المبادىء الجمهورية القديمة. وعلى أية حال لم يكن غريباً أن يتحول الحكم الإمبراطورى على مر الوقت إلى حكم استبدادى مطلق تلاشت فى خضمه كل مظاهر الجمهورية، ولم يكن غريباً أن يجلس الإمبراطور فى النهاية على عرشه مجلس الآلهة المقدسين.

* * *

حقا لقد قامت الإمبراطورية الرومانية منذ عهدها على أيديولوجية السلام الرومانى(١) التى أراد بها أغسطس أن يفتح على التاريخ عصراً جديداً يعم فيه السلام والرخاء ربوع الدولة بعد أن هدتها الأحقاد والحروب الأهلية. وانبرى دعاة السياسة وارتفعت أصوات الهاتفين بمجد أغسطس يشيدون بالحق والسلام والعدالة والمستقبل الرغيد... تلك المبادىء والأحلام التى لمعت فى سطور فرجيل

---

(١) pax Romada.

وهوارس وحجبت عن أفئدة الناس نجم قيصر ... لقد انبعثت كل هذه المعانى من الفلسفة الرواقية التى تأثر بها أغسطس فى شبابه أيام دراسته على يد الفيلسوف الرواقى الكبير أثينودوروس[١] فى أبولونيا[٢] ... تلك الفلسفة التى نادت بأدب السلوك ومثل السعادة ... ولكن السلام الرومانى الأغسطى كان شعاراً أكثر من أى شىء آخر ، ولم يحقق أهدافه إلا لفترات قصيرة تكاد لا تذكر . وظل نظام العبيد سائداً كما هو ، وظل الفقر بين الطبقات الدنيا مدقعاً كما كان ، واستشرى انحلال الأخلاق أكثر من أى وقت مضى . ومع ذلك قدمت الإمبراطورية الرومانية حتى القرن الثانى حضارة زاهرة ، واكتمل مجدها على عهد الإمبراطور تراجان ، وشهدت أزهى عصورها حتى أخريات حكم الإمبراطور الرواقى مارك أوريليوس ، فقد أصبحت الإمبراطورية الرومانية وقتذاك دولة عالمية شملت كل أقاليم البحر المتوسط بكل مراكز حضاراتها السالفة العريقة فى مصر وفلسطين والعراق وسوريا وآسيا الصغرى واليونان. ويمكن أن يقال بحق أن العالم الرومانى[٣]

---

(١) Athenodorus (حوالى ٧٤ قبل الميلاد - ٧ بعد الميلاد) من مدينة طرسوس فى جنوب شرقى آسيا الصغرى . تعلم فى رودس على يد بوزيدون Poseidonius السورى ، وبعد ذلك ألقى دروسه فى طرسوس ثم فى أبولونيا حيث كان الإمبراطور أغسطس من بين تلاميذه أيام مصرع يوليوس قيصر سنة ٤٤ قبل الميلاد . ذهب أثينودوروس فى صحبة أغسطس إلى روما ، وكان له هناك تأثير كبير على الإمبراطور . وبعد فترة من الوقت رحل أثينودوروس إلى مسقط رأسه طرسوس .

(٢) Apollonia فى مقاطعة اليريا (Jllyria) Illyricum فى البلقان .

(٣) orbis Romanus .

أصبح عالم البلدان(١) ... امتدت ربوعه من لوزيتانيا(٢) حتى ميسوبوتاميا(٣)، ومن حدود كاليدونيا(٤) ووديان الراين والدانوب حتى أطراف الصحراء الكبرى والسودان. وكان البحر المتوسط(٥)، أو بحرنا(٦) كما كان يسميه الرومان، قلب هذا العالم النابض بالحركة والحياة.

منذ فتوحات الإسكندر المقدونى فى القرن الرابع قبل الميلاد أخذت الدول الشرقية المغلوبة ذات الحضارات القديمة والبلدان المزدحمة سمة الحضارة الهلينية (اليونانية)، وتغلغلت فى شعوبها روح الفكر اليونانى القائم على الفضول والتأمل. ونشأت عن امتزاج هذه الحضارة الهلينية بحضارة مصر وآسيا وقتذاك حضارة جديدة عرفت بالحضارة الهلينستية نظراً إلى العناصر الهلينية والعناصر الآسيوية فى هذه الحضارة التى استقرت منذ ذلك التاريخ فى دول الشرق، وتداولتها أوساط كثيرة من شعوبها حتى عصر الفتوحات الرومانية عندما انطوت هذه الدول فى الحكم الرومانى. والحقيقة أن الحضارة اليونانية لم تكن غريبة عن دول الشرق القديم تمام الغرابة، كما لم تكن حضارات الشرق غريبة على بلاد اليونان، فقد كانت هناك منذ زمن بعيد علاقات ثقافية وتجارية بين الشرق واليونان، كما كانت هناك منذ قديم الزمن جاليات يونانية مقيمة فى الشرق تتأثر بمفاهيمه وتقاليده وتؤثر بدورها فى حياته.

---

(١) orbis terrarum.

(٢) Lusitania وهى البرتغال.

(٣) Mesopotamia وهى بلاد النهرين.

(٤) Caledonia وهى اسكتلندا.

(٥) mare mediterraneum.

(٦) mare nostrum.

وحتى أسس التفوق الفكرى فى الحضارة اليونانية قامت على كثير من علوم الشرق . ومن هنا كان الشرق واليونان يمثلان منطقة من العالم تسرى فيها أساليب الحياة منذ زمن بعيد فى صراع يعطى لهذه المنطقة قدرة فائقة على النشاط الحضارى . ولكن بعد الفتوح المقدونية امتد تغلغل الحضارة اليونانية فى الشرق إلى آفاق أبعد ، وأصبح تأثر الحضارة اليونانية بالحضارة الشرقية على نطاق أوسع لم يمنع فى نفس الوقت هذه الحضارات من أن تأخذ مسارها فى هذا الخضم الجديد بكل ما أوتيت شعوبها من الشعور القومى والقدرة على حفظ تراثها الماضى . وإذا كنا نتحدث الآن عن حضارة هلينستية فمعنى هذا أن الجزء الشرقى من عالم البحر المتوسط أصبح منذ الآن يعيش عصراً جديداً تفككت فيه الروابط الوثيقة بالحضارات القديمة ... عصراً يمكن أن يكون له طابع واحد فى التعبير تلعب فيه اللغة اليونانية الدارجة دورها الأول فى العلم والثقافة .

وفى ظل مفاهيم الحضارة الهلينستية أخذت روما مكانتها الدولية ... وصاغت روما بلغة لاتينية بارعة وعقلية عملية دقيقة أصول هذه الحضارة الهلينستية فى حضارة رومانية عالمية جديدة استطاعت بأيديولوجيتها السياسية الخاصة أن تفرضها على غرب أوربا وعلى النصف الغربى من شمال أفريقيا ، واستطاعت فى نفس الوقت أن تربط الحياة الثقافية فى هذه الأقاليم اللاتينية التى طغى عليها الفكر المادى بالحياة الثقافية فى ربوع الشرق اليونانى ، ونبت بذلك وعى الرومان بالحضارة اليونانية التى كانت منبعاً للأنماط الحياتية بالنسبة للأوساط الرومانية الراقية ، وأصبح الأرستقراطيون والمثقفون الرومان يفضلون الدراسة فى بلاد اليونان وفى آسيا الصغرى ، ويفضلون التحدث فى مجتمعاتهم الخاصة باللغة اليونانية التى أصبحت بذلك لغة المجتمع الرومانى الراقى . ولكن الغرب أخذ منذ القرن الثالث — بل وقبل ذلك — يفقد اهتمامه

بالحضارة اليونانية واللغة اليونانية نتيجة لأحداث وظروف كانت حاسمة فى الكشف عن تلك الهوة السحيقة بين مشاعر الشرق والغرب .

وهكذا وبرغم اختلاف الحضارات واللغات فى عالم البحر المتوسط استطاعت الحكومات الرومانية ، بفضل فنون السياسة والإدارة البيروقراطية وقواعد القانون الرومانى واللغة اللاتينية وشبكة المواصلات الحديثة ، أن تخلق فى هذا العالم وحدة سياسية واقتصادية، وأن تخلق وحدة فكرية تجمع بين الثقافة اليونانية والثقافة الرومانية تحت شعار المبادىء الرواقية التى تقضى بالإخاء الشامل من أجل رفاهية الناس والدولة ... تلك المبادىء التى كانت قد تغلغلت فى فكر المثقفين الرومان . لقد ربطت طرق المواصلات البرية والبحرية العديدة بين المدن والموانىء التى كانت تمثل مراكز الفكر والمال والتجارة ، وكانت الحواضر تختال بالمعابد والكنائس والأسواق والحدائق والمساقى والملاعب والحمامات والمكتبات . وحتى القرى والضواحى هنا وهناك نالها نصيب من مظاهر المدنية التى كان المسافرون يشاهدونها عن كثب فى تلك الفيلات والمنتجعات والبيوت الريفية الأنيقة التى زودها أصحابها بكل وسائل الراحة ولمسات الفن المعمارى الرفيع .

ولكن الوحدة الحضارية التى عرف بها العالم الرومانى لم يكن من شأنها أن تذيب الفروق وأنماط الحياة المتعددة فى هذه الأقاليم الكثيرة ، وهى الفروق التى أوجدها اختلاف الإمكانيات وظروف البيئة وخلفيات الحضارة فى كل مكان . لقد كانت ولايات الشرق على الدوام مراكز صناعية وتجارية عالية المستوى ، ولذلك كانت تمثل هذه الولايات المصادر الهامة للطاقة الإنتاجية الضخمة ودخول الضرائب الوفيرة . أما الغرب فقد كان يمثل سوقاً استهلاكية فى الدرجة الأولى ، وكان فى نفس الوقت يصدر بعض أنواع المواد الأولية ، وكانت بعض مناطق فى غالة من أغنى مناطق الامبراطورية بصناعة الصوف والفخار. وعلى أية حال

كان تأثير الحضارة الرومانية تأثيراً يختلف باختلاف المناطق ، فبعض العادات والتقاليد القومية القديمة ظلت سارية فى ولايات الإمبراطورية ، ولا سيما ولايات افريقية ومصر وسوريا ، وكان لهذه التقاليد دور هام فى التطورات الفكرية والاجتماعية، الأمر الذى جعل لهذه الولايات شخصية حضارية خاصة دفعت بها إلى فرض اتجاهاتها القومية ، واتخاذ وجهات النظر المستقلة فى كثير من المواقف والمناسبات . وعلى أطراف الإمبراطورية البعيدة كان هناك العالم الذى اعتبره الرومان عالم الشعوب المتخلفة ... عالم الأليريين الذين كانوا يعيشون على الشاطىء المقابل لبحر أدريا وكانوا يكنون الرومان مشاعر البغض والكراهية ، وعالم الجرمان الذين كانوا يعيشون فى المناطق الشمالية والشمالية الشرقية المليئة بالغابات والأحراش والمستنقعات ، وعالم البدو والبربر الذين كانوا يعيشون فى المناطق الصحراوية خلف حدود الولاية الإفريقية . أما خطوط الدفاع الشمالية المقامة على أطراف الإمبراطورية القصية بين الراين والدانوب فلم تكن حدوداً مغلقة ، وإنما كانت هناك عند نهايات الطرق المؤدية إلى هذه الحدود مخافر ومحطات لتجارة العبيد والمواد الأولية والسلع النادرة كالجلود والكهرمان .

وكان الانفتاح التجارى بمعنى الكلمة انفتاحاً على الشرق . فهناك كانت مراكز للتجارة مثل أنطاكية ودمشق والإسكندرية نقاط النهاية فى طرق القوافل البرية وطرق النقل البحرى عبر الخليج العربى والبحر الأحمر ، تلك الطرق التى فتحت التجارة الرومانية أسواقاً فى جنوب شبه الجزيرة العربية وأثيوبيا وأوغندة وسيريلانكا(سيلان) والصين. فى هذه الأسواق كانت الإمبراطورية الرومانية تتاجر بالمصنوعات الفضية والأدوات الزجاجية والنحاسية والأقمشة الكتانية والصوفية والنبيذ وغير ذلك من السلع التى كان إنتاجها يحتاج إلى خبرة فنية خاصة ، وذلك في مقابل السلع الترفية الثمينة التي كان المجتمع الروماني الراقي يحتاجها من هذه

البلدان ويقبل عليها إقبالا شديداً كخشب الأبنوس والعاج والحرير والماس واللؤلؤ والتوابل والبخور . وكما قال المفكر الأفريقي الكبير ترتوليان القرطاجنى فى الفقرة الثلاثين من مقالة النفس : « كان العالم يزداد عمراناً وثراء يوماً بعد يوم ، فالطرق تمتد فى كل اتجاه والتجارة تزدهر فى كل مكان » . وهذه الحياة الاقتصادية المزدهرة التى صورها ترتوليان فى مطلع القرن الثالث[1] قدر لها أن تجتاز مصاعب جمة فى المستقبل القريب .

وعلى ذلك فقد كان الشرق شرقاً والغرب غرباً كما يقال . وكانت هذه الفروق الهائلة بين الشرق والغرب من الأسباب الحاسمة فى تعميق المشاكل التى أخذت تحيق بالإمبراطورية الرومانية ، وبالتالى فى اختلاف سير التاريخ فى كل من الشرق والغرب . لقد انبسطت هذه الإمبراطورية كما رأينا على رقعة شاسعة من بلدان ترامت فى مظاهرها وبنياتها العنصرية اختلافات عديدة . ولم تفلح فى الحقيقة كل الجهود التى كانت تبذلها الحكومة الرومانية لتحقيق الوحدة السياسية الفعلية بين هذه البلدان ، وظلت هذه البلدان كما كانت دائماً غريبة الحضور، مختلفة فى كل شىء، لا قبل لها إلى التلاقى تلاقياً طبيعياً فى دولة واحدة . ولذلك كانت فى نفوس شعوبها على الدوام رغبة دفينة فى الثورة والاستقلال ، وكان تحقيق هذه الرغبة رهيناً على الدوام بالوقت والظروف. وبالرغم من هذه التناقضات الحادة فإن أحداً فى القرن الثانى لم يكن يصدق ـ بل لم يكن يريد أن يصدق ـ أن الإمبراطورية ، وقد وصلت إلى أوجها وقمة عنفوانها ، سوف تقع فى القريب العاجل فريسة لمشاكل لم تكن فى حسبان أحد من الأهالى على وجه الدقة ، ولكن الحكومة والمصادر المطلعة كانت على علم تام بما كان يجرى هنا وهناك ، وكانت تشعر دنو

---

(١) كتب ترتوليان مقالة النفس بعد سنة ٢٠٢ .

العاصفة فى أى وقت . وفى الواقع هبت العاصفة مع هبوب القرن الثالث عندما اجتاحت الإمبراطورية تغيرات جنحت بالحياة بعيداً عن حياة العصور السالفة التى عاشت أحكام أغسطس وتراجان وأدريان .

* * *

لقد اتفق أكبر المؤرخين على طرح الظروف والمشاكل التى حلت بالعالم الرومانى فى القرن الثالث بحثاً عن الأسباب المقنعة التى أدت إلى سقوط الإمبراطورية فى النهاية . والحقيقة أن مناقشة المسائل على هذا النحو لا تقودنا بالضرورة إلى البحث عن أسبـــاب لنهاية الإمبراطورية بصفة مطلقة ، لأن الإمبراطورية الرومانية لم تسقط بادىء ذى بدء نتيجة لهذه الظروف وحدها كما قد يفهم من هذه الكلمة ، وعلى أية حال فإن هذه المسألة قابلة كما سنرى لوجهات النظر . صحيح أن الإمبراطورية تعرضت فى القرن الثالث لهجمات متوالية من الفرس والجرمان ، وفقدت بذلك مناطق على جانب كبير من الأهمية ولا سيما فى الغرب والشمال ، ولكن سرعان ما استرد الأباطرة هذه المناطق بعد حروب دفاعية عنيفة ، وسرعان ما أعادوا حدود الإمبراطورية إلى ما كانت عليه فى القرن الثانى . أما المشكلة الحقيقية فقد حدثت بعد ذلك فى القرن الخامس عندما اجتاح الجرمان أراضى الإمبراطورية الغربية وتغير فيها وجه التاريخ بعد أن قامت عليها ممالك جرمانية هى ممالك القوط الشرقيين فى إيطاليا ، والقوط الغربيين فى إسبانيا ، والفندال فى شمال أفريقية ، والفرنجة فى بلاد الغال ... ولم يبق من هذه الممالك على قيد الحياة غير المملكة الفرنجية ... ثم انطوى الشمال الأفريقى وأسبانيا وصقلية بعد ذلك تحت لواء العالم الإسلامى . وفى ظل الغزوات الجرمانية الكبرى وبعدها ظلت الإمبراطورية الشرقية البيزنطية قائمة قرابة الألف سنة ، وإن كان المسلمون قد

استولوا منها على مصر والشام ، فضلا عن الشمال الأفريقى ، حتى سقطت بيزنطة أخيراً فى منتصف القرن الخامس عشر فى أيدى الأتراك العثمانيين . ولما كان موضوع سقوط الإمبراطورية الرومانية يحتاج إلى مناقشة أبعد من ذلك بكثير ، فقد رأينا أن نفرد لهذا الموضوع جانباً من كتابنا لما له من أهمية خاصة .

وعلى ذلك فما تسمى بأزمة القرن الثالث كما جاءت على أقلام النقاد والمؤرخين لا تكشف كما قلنا عن الأسباب المباشرة لسقوط الإمبراطورية، لأن الإمبراطورية كان عليها أن تجتاز مراحل أخرى من التطور فى القرن الرابع كانت برغم صورتها الإصلاحية الشاملة حاسمة فى تعميق المشاكل التى أدت بعد ذلك إلى سقوط الإمبراطورية الغربية فى القرن الخامس . وغاية ما فى الأمر أن أزمة القرن الثالث يمكن أن تكون مقدمة طبيعية للغزوات الجرمانية الكبرى ، لأنها تمثل على أقل تقدير نقطة هامة من نقاط التحول الذى عاشته أوربا منذ الآن .

وقد يصعب علينا إذا ما أردنا أن نحلل تاريخ القرن الثالث أن نقرر على وجه الدقة ما نريد تحليله . وبعبارة أخرى نظل نسأل دائماً ما الذى حدث . وتزداد الصعوبة نتيجة لظروف علمية تتعلق بالمشكلة نفسها ، ونعنى بذلك قلة المصادر التى وصلتنا من ذلك العصر ، بل ندرتها فى كثير من الأحيان . وقد تكون المصادر الأدبية التى تروى تاريخ الإمبراطورية حتى نهاية حكم الإمبراطور جورديان الأول[1] فى سنة ٢٣٨ كافية إلى حد ما . ومن نافلة القول أننا نملك كذلك مصادر وفيرة تحدثنا عن الإمبراطور دوقلديانوس الذى إعتلى العرش فى سنة ٢٨٤ . ولكن ليست لدينا مصادر معاصرة كافية تتناول التاريخ السياسى فى الفترة التى تتوسط حكم جورديان ودوقلديانوس ، وهى فترة تقرب من نصف

(١) Marcus Antonius Gordianus (٢٣٧ - ٢٣٨) .

قرن ، وكل معلوماتنا عن هذه الفترة مستقاة فى الغالب من البيانات اللاتينية المقتضبة التى وردت فى النصف الثانى من القرن الرابع ، ومن المؤرخات اليونانية اللاحقة . وجدير بالملاحظة أن السير المعروفة بالتاريخ الإمبراطورى[1] وهى السير التى روت تاريخ الأباطرة منذ القرن الثانى — وعلى التحديد منذ حكم الإمبراطور أدريان — حتى عهد الإمبراطور كاروس[2] ، ترجع فى رأى أغلب النقاد المحدثين إلى أواخر القرن الرابع، ومنها جزء مفقود هو الجزء الذى يتناول تاريخ الأباطرة فيليب العربى[3] ، ودقيوس[4] ، وجالوس[5] ، وإيميليان[6] ، وفاليريان[7] .

ولذلك فإنه يجدر بنا فى بادىء الأمر أن نعرض الموضوعات التى يمكن التحقق منها ، والتى قد تعطينا صورة عامة عن تاريخ القرن الثالث . لقد رأينا أن الإمبراطورية الرومانية ظلت طوال القرنين الأول والثانى دولة عالمية ليس لها منافس ، ترادف فى عقائدية الاستعمار الرومانى شعار السلام الذى رفعه الإمبراطور أغسطس . وكانت الحماية التى تمتعت بها الإمبراطورية مع هذا الاتساع الكبير حماية طبيعية تمثلت فى الصحراء الكبرى فى الجنوب ، وتخوم الشام ومرتفعات الأناضول فى الشرق ، ونهر الراين ونهر الدانوب فى الشمال ، كما كانت المناطق المكشوفة فى جنوب غرب جرمانيا وشمال بريطانيا تحميها خطوط الدفاع القوية .

(١) historia Augusta .

(٢) Marcus Aurelius Carus (٢٨١ - ٢٨٣) .

(٣) Julius Verus Philippus Arabs (٢٤٤ - ٢٤٩) .

(٤) Gaius Messius Quintus Decius (٢٤٩ - ٢٥١) .

(٥) Gaius Trebonianus Gallus (٢٥١ - ٢٥٣) .

(٦) Marcus Aemilius Aemilianus (٢٥٣) .

(٧) Publius Licinius Valerianus (٢٥٣ - ٢٦٠) .

وكانت فرق الخفارة المتمركزة على طول الحدود قادرة فى أى وقت على التصدى لأية محاولات للهجوم قد تقوم بها الشعوب المعادية . ولا شك فى أن تأمين سلامة الإمبراطورية كان يعنى استمرار الحضارة الرومانية التى جاهدت من أجلها الحكومات الرومانية والشعب الرومانى على مر السنين...

ولكن منذ بداية القرن الثالث دخلت الإمبراطورية فى حلقة من المشاكل أخذت شيئاً فشيئاً تضيق عليها الخناق . فقد أصبح عدم الاستقرار السياسى موضوع الحياة اليومية ، وبدأت منذ مقتل الإمبراطور كاراكالا[١] سلسلة من الاغتيالات ، ودخلت الامبراطورية مع الفرس الساسانيين والجرمان فى حروب كثيرة ضارية لم تشهد لها مثيلا فى القرنين السابقين ، وكاد الأباطرة أن يقيموا بصفة مستمرة فى ساحات القتال ، وكانوا بذلك عرضة فى أى وقت لانقلابات القادة المقربين وقادة الفرق العسكرية فى كل مكان . وشاعت بذلك الحروب الأهلية الحروب الخارجية فى وقت واحد . وقامت حكومات مستقله هنا وهناك فى وغالة وفى بالميرا[٢] (وهى تدمر). وأصبحت الحكومة الرومانية فى حالة لا تسمح لها بمواجهة كل هذه المواقف إلا بانتهاج سياسة دفاعية واسعة النطاق فى الوقت الذى كانت تعانى فيه من مشكلة تدعيم الجيوش الإمبراطورية المحاربة فى شتى الميادين . هـذا فضلا عن الخلافات الدينية والمذهبية بين الوثنيين والمسيحيين ، وتدهور الحالة الاقتصادية نتيجة لكل هـذه الحروب والانقلابات وغيرها من الأسباب .

والحقيقة أن مشكلة الحدود مع دولة الفرس لم تكن مشكلة جديدة ، كما لم

---

(١) Marcus Aurelius Antoninus (Caracalla) (١٨٨ – ٢١٧) .

(٢) Palmyra فى الصحراء السورية .

تكن العداوة بين هذه الدولة الكبرى والعالم الغربى وليدة اليوم . لقد كانت بلاد فارس منذ عهد دارا الأول[١] ملك الهخمنشيين[٢] خصما لدودا لبلاد اليونان. وقد حدث أن ملوك الأرشك[٣] المعروفين بملوك الطوائف ، وهم الذين عرفهم الإغريق والرومان بملوك البارثيين[٤] ، حكموا إيران منذ سنة ٢٥٦ قبل الميلاد حتى سنة ٢٢٦ ميلادية ، فاستغرق حكمهم بذلك قرابة الخمسة قرون ضموا خلالها بلاد النهرين ، ونقلوا عاصمتهم من إكباتانا[٥] (وهى مدينة همذان) فى الشمال إلى أكتيزيفون[٦] المعروفة بطيسفون (وهى المدائن) على نهر دجلة فى الجنوب. وكان الأرشك يتحدثون اللهجة البارثية ، وهى لهجة شمالية من لهجات اللغة الفارسية الوسيطة التى كانت تمثل إحدى اللغات الدارجة منذ العهود الأخيرة لحكم الهخمنشيين. كما كان الأرشك يعتنقون الديانة المزدكية، ومع ذلك أضفوا على البلاد روح الحضارة الهلينية ، فنشروا معانى الديانة اليونانية فى الفكر الفارسى ، وساروا على نظم الإدارة اليونانية، واستعانوا فى مجالسهم بالعلماء والخبراء اليونان. ولكن تعلق الأرشك بالحضارة اليونانية كان فى الواقع من قبيل المظاهر ليس إلا.

والحقيقة أن الأرشك كانوا ينقسمون إلى طوائف كثيرة، وكانت تنقصهم الوحدة العسكرية ، كما كان ملوكهم يفتقرون إلى الحنكة السياسية ، وكانوا يشعرون بعقدة النقص تجاه الخبرة التى عركها الرومان فى مجال السياسة . ولذلك كان الأرشك

---

(١) Darius I (٥٢١ - ٤٨٦ قبل الميلاد) .

(٢) Achamenids .

(٣) Arsacids .

(٤) Parth(o)i .

(٥) Ekbatana .

(٦) Ktesiphon .

يكنون لروما كراهية شديدة ، وأخذوا يهاجمون الرومان ويحاولون دفعهم خارج آسيا . ويروى لنا التاريخ أخبار المعركة التى دارت رحاها فى سنة ٥٣ قبل الميلاد عند نهر الفرات ، وهى المعركة التى هزم فيها القائد الأرشكى سورينا[١] جيش الرومان هزيمة ساحقة ولقى فيها الزعيم الرومانى كراسوس[٢] مصرعه الدامى على مقربة من مدينة كاراى[٣] وهى مدينة حاران التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس[٤] . وبالرغم من انتصار الأرشك فى هذه الموقعة الكبيرة لم يستطيعوا القضاء على نفوذ الرومان فى الشرق . ومنذ عهد الإمبراطور تراجان حتى عهد الإمبراطور سبتيميوس ساويرس[٥] حاول الأباطرة الرومان مراراً وتكراراً تعزيز القوات الرومانية المرابطة على الحدود الشرقية وتحصين الخطوط الدفاعية على جبهة الفرات وفى أرمينيا ، ومع ذلك لم ينقطع خطر الأرشك .

وفى القرن الثالث الميلادى قامت ثورة ضد ملك الأرشك أردوان الخامس الذى عرفه اليونانيون باسم أرتبانوس[٦] ، واحتل أردشير الساسانى فى سنة ٢٢٤ مدينة طيسفون . وفى سنة ٢٢٦ أصبح ملك الملوك أردشير مؤسساً لدولة الفرس الساسانيين. وقد قرر الساسانيون اللغة البهلوية، وهى من اللغات الفارسية الوسيطة، لغة

---

(١) Surenas .

(٢) Marcus Licinius Crassus .

(٣) Garrhae .

(٤) أنظر تكوين ١١ : ٣١ ، ٣٢ ؛ ١٢ : ٤ ، ٥ ؛ ٢٧ : ٤٣ ؛ ٢٨ : ١٠ ؛ ٢٩ : ٤ ، ٥ ؛ ٢ ملوك ١٩ : ١٢ ؛ أشعياء ٣٧ : ١٢ . ومدينة حاران القديمة هى الآن قرية حران .

(٥) Lucius Septimius Severus (١٩٣ - ٢١١) .

(٦) Artabanus V .

رسمية البلاد، وجعلوا كتابتها بحروف الأبجدية الآرامية، بعد أن كانت اللغة الفارسية القديمة، وهى لغة الهخمنشيين التى كانت تكتب بأشكال مسمارية، هى اللغة الرسمية. كما تمسك الساسانيون بالديانة الزردشتية القديمة، وتعقبوا أتباع الديانة اليونانية الوثنية والديانة المسيحية، وأخذوا على عاتقهم إعادة أمجاد الإمبراطورية الفارسية السابقة، وكان هذا يعنى فى تقديرهم تحرير المستعمرات الفارسية القديمة فى آسيا الصغرى وسوريا ومصر من قبضة الحكم الرومانى. وبالفعل تمكن أردشير فى سنة ٢٣١ من دفع القوات الرومانية خارج بلاد النهرين، ووصل بجيشه إلى سوريا ومقاطعة قبادوقية فى آسيا الصغرى. غير أن الإمبراطور اسكندر ساويرس[١] رد أردشير على أعقابه، ولكنه لم ينتهز فرصة هذا الانتصار ليقضى على الجيش الفارسى قضاء مبرماً، وتوالت بعد ذلك هجمات الفرس كما سنرى.

ولم تقف الأخطار عند هذا الحد، وإنما كان هناك كذلك خطر الجرمان والشعوب الأخرى فى الشمال. صحيح أن الجبهة الشمالية كانت منذ زمن بعيد منطقة مناوشات عسكرية، وأن الصدام بين جيوش الإمبراطورية والقبائل الجرمانية المتفرقة فى الشمال كان على الدوام صداماً محدوداً، وكان قبل كل شىء مسألة روتينية فى برامج السياسة الرومانية. ولكن حل الآن خطر محقق عندما اقتحم الألمان[٢] حوالى سنة ٢٢٣ منطقة الدانوب العليا ومنطقة الراين. وبالرغم من أن الإمبراطور إسكندر ساويرس ومن بعده الإمبراطور مكسيمين[٣] نجحا فى صد هذا الهجوم بعد جهد كبير، إضطر مكسمين بعد ذلك إلى التوجه نحو سيرميوم[٤] فى بانونيا

---

(١) Marcus Aurelius Severus Alexander (٢٢٢ - ٢٣٥) .

(٢) Alamanni .

(٣) Gaius Julius Verus Maximinus (٢٣٥ - ٢٣٨) .

(٤) Sirmium .

السفلى(١) لمحاربة السرماطيين(٢) ، وبعد أن تغلب عليهم في سنة ٢٣٨ حل القوط والكربيون(٣) في موازيا السفلى(٤) على مقربة من مصب نهر الدانوب . واستطاع الرومان أن يوقفوا خطر القوط إلى حين بعد أن تعهدوا بدفع مبالغ مالية طائلة . أما الكربيون فقد كبدوا الرومان خسائر فادحة ، ووصلوا إلى شمال أليريا ، ودمروا مقاطعة إيستريا(٥) ، ولم تنجح كل المحاولات في صد غاراتهم التي إمتدت إلى حدود ولايتي بانونيا ونوريكوم(٦) . وفي عهد الإمبراطور جورديان الثالث هجم الكربيون من جديد بعد سنة ٢٤٠ على جنوب شرق داكيا(٧) وموازيا السفلى ، واضطر الرومان بعد ذلك إلى تحصين المدينتين الداكيتين رومولا(٨) وسوكيدافا(٩) . وفي عهد الإمبراطور فيليب العربي إتحد القوط والكربيون ، وقاموا في سنة ٢٤٨ بهجوم كبير على موازيا السفلى أدى إلى تدمير المناطق المجاورة لمدينة نيكوبوليس(١٠) . وقد تم تحصين مدينة ماركيانوبوليس(١١) لإيقاف هذا

---

(١) Pannonia Inferior .

(٢) السرماطيون Sarmati كانوا في الغالب من أصل أسقيطي Scythian ثم توطنوا في المناطق الشاسعة الممتدة بين جنوب الروسيا وشرق بانونيا .

(٣) Carpi نسبت إليهم جبال الكربات .

(٤) Moesia Inferior .

(٥) (H)istria .

(٦) Noricnm .

(٧) Dacia وهي منطقة رومانيا .

(٨) Romula .

(٩) Sucidava .

(١٠) Nikopolis .

(١١) Markianopolis .

الزحف ، ويحدثنا المؤرخ الأثينى المعاصر دكسيبوس[١] عن المقاومة العنيفة التى أبداها سكان هذه المدينةفى كتابه عن الحروب القوطية الذى تناول فيه هذه الحروب منذ سنة ٢٣٨ ، أى منذ تولى الإمبراطور جورديان الثالث الحكم، وحتى عهد الإمبراطور أورليان[٢] ، وهو كتاب لم يصلنا منه غير شذرات متفرقة ، وإن كانت قد حفظت لنا منه مقطوعات كثيرة فى التاريخ الجديد[٣] الذى ألفه المؤرخ اليونانى زوسيموس[٤] فى القرن الخامس، والذى عرض فيه تاريخ الامبراطورية الرومانية منذ عهد الامبراطور أوكتافيوس أغسطس حتى سنة ٤١٠ .

وفى عهد الأمبراطور البانونى دقيوس عاشت الأمبراطورية الرومانية فترة عصيبة تعتبر فى تقدير بعض المؤرخين من أحلك عصور التاريخ الأمبراطورى . لقد تهاوى فى عصر دقيوس كثير من قلاع الولايات اليونانية أمام جيوش ملك الملوك الفارسى شاهبور الأول ابن أردشير ، وأمام جحافل الجرمان التى أغارت من سواحل البحر الأسود. ففى سنة ٢٥٠ غزا الكربيون داكيا ، واقتحم القوط موازيا السفلى ووصلوا إلى تراقية[٥] حتى مدينة فيليبوبوليس[٦] ، ونال دقيوس هزيمة منكرة بعد معركة ضارية بالقرب من مدينة بيرويا[٧] التراقية ، ولكن سرعان ماشن دقيوس هجوما مضاداً على القوط ودفعهم خارج تراقية.وهناك نقش من مدينة

---

(١) Publius Herennius Dexippus (إزدهر حوالى ٢٥٣ - ٢٧٦) .

(٢) Lucius Domitius Aurelianus (٢٧٠ - ٢٧٥) .

(٣) historia nova .

(٤) Zosimos .

(٥) Thracia .

(٦) Philippopolis (حالياً فيليبوبولى Philipopoli) .

(٧) Beroea

أبو لوم(١) الداكية يثبت أن دقيوس حرر كذلك داكيا من الكربيين فى نفس السنة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما إزدادت ضغوط الفرنجة والألمان على الجبهه الراينية ، كما إزدادت قوة تدمر المستقلة وأصبحت تهدد مصالح الامبراطوارية فى هذه المنطقة التجارية الهامة التى كانت أكبر مركز للقوافل بين سوريا وبابل. وشهد عصر دقيوس صراعات ضارية على العرش الأمبراطورى ، كما شهد أولى إضطهادات عنيفة ضد المسيحيين ، تلك الإضهادات التى لحق أذاها العالم والفيلسوف الاسكندرى الكبير أوريجانوس ، وراح ضحيتها أسقف روما فابيان(٢) وأسقفا أنطاكية وأورشليم . وتصور لنا قصص الشهداء التى رواها الكاتب المعاصر بيون(٣) الأزميرى ، والمعروفة بأعمال بيون(٤) ، لمحات من تاريخ الامبراطور دقيوس والحياة فى مدن آسيا فى عهده ، كما تلقى رسائل الاسقف كيبريانوس القرطاجنى ومقالته فى الخطايا(٥) ضوءاً على أحداث هذا العصر ، تلك الأحداث التى تردد ذكرها بعد ذلك فى الكتاب السادس من التاريخ الكنسى الذى كتبه أوسابيوس القيصرى فى القرن الرابع . وفى عام ٢٥١ قام القوط بهجوم آخر على موازيا السفلى ، وفى معركة فاصلة عند مدينة أبريتوس(٦) قتل الامبراطور دقيوس وابنه هيرينيوس(٧) . وكان

---

(١) Apulum .

(٢) Fabianus (٢٣٦ - ٢٥٠) .

(٣) Pionius حكم عليه بالموت حرقاً فى مضمار أزمير .

(٤) acta Pionii .

(٥) de lapsis .

(٦) Abrittus .

(٧) Herennius .

دقيوس بذلك أول أمبراطور رومانى يقع صريعا فى ساحة القتال . ولم تتوقف بعد ذلك غارات الجرمان .

وتدعنا النقود وآثار التدمير فى منطقة الالزاس نرجح أن الجرمان قاموا بغزوة فى هذه المنطقة فى عهد الأمبراطور فاليريان بعد أن سحب فرق الجيش المرابطة على جبهات الراين والدانوب وأرسلها إلى إيطاليا لحماية عرشه. فعلى أثر هذا الإنسحاب تحركت أمام خطوط الدفاع المقامة بين الراين والدانوب حشود جرمانية هائلة من الألمان والفرنجة والأقواضيين[٣] والمركومان[٤]... تلك الشعوب التى كانت هجرة الجرامنة من القوط والبورجونديين[٥] والهيروليين[٦] والفندال من أقاصى الشمال إلى وسط وشرق أوروبا قد دفعتهم فى الماضى إلى التجمهر فى مناطق جرمانيا[٧] الجنوبية والغربية المتاخمة لبانونيا ونوريكوم وريتيا[٨] وبلاد الغال... عبر الألمان الآن نهر الراين بجوار مدينة مانهايم[٩] الحالية ، وتقدموا فى مناطق الراينلاند[١٠] والبفالنس[١١] ، بينما انطلق الفرنجة عبر مقس[١١] ورنس[١٢] إلى باريس . وأرسل

---

(١) Quadi .

(٢) Marcomanni .

(٣) Burgundi .

(٤) Heruli .

(٥) Germania .

(٦) Raetia .

(٨) Mannheim .

(٨) Rheinland .

(٩) Pfalz .

(١٠) Metz .

(١١) Reims

فاليريان ابنة جاليينوس [١] إلى غالة حيث استطاع أن يسترد منطقة العبور عند الراين ، ولكنه لم يسترد خط الدفاع المقام فى شرقى المنطقة . وأخذ الرومان منذ الآن يحصنون المدن القريبة من حدود غالة مثل كولونيا [٢] وترير (تريف) [٣] .

وفى سنة ٢٥٣ دمر القوط شواطىء آسيا الصغرى الشمالية ، ونفذوا نحو الجنوب حتى مدينة أفسس ، بينما تقدمت جماعات قوطية أخرى عبر موازيا السفلى وتراقية، وهاجمت سالونيكى [٤] التى هرع سكانها للدفاع عنها وفك الحصار الذى أقيم حولها . وكان هذا الهجوم الشامل كفيلا بأن يشيع الخوف والفزع فى كل بلاد اليونان ، ودفع أهالى البليبونيز إلى تحسين مضيق كورنثا ، كما دفع الأثينيين إلى ترميم أسوار مدينة أثينا لأول مرة منذ سنة ٨٦ قبل الميلاد . ثم أبحر البورانيوان [٥] فى البحر الأسود وهاجموا مرفأ بيقيوس [٦] على الشاطىء الشرقى ، ولكنهم لم يستطيعوا الإستيلاء عليه، وعاودوا الكرة واستولوا عليه وعلى ميناء ترابيزوس [٧] المعروف حالياً باسم طرابزون على الشاطىء الجنوبى فى مقاطعة قبادوقية [٨] . وتفصح رسائل الأسقف أغريغوريوس صانع العجائب [٩] ، الذى كان قد هرب إبان

---

(١) Galliennes (إمبراطور ٢٥٩ - ٢٦٨) .

(٢) ColoniaA grippiensis (Koeln) .

(٣) Augusta Treverorum (Trier/Tréves) .

(٤) Thessalonica (Saloniki) .

(٥) Borani .

(٦) Pityous .

(٧) Trapezus .

(٨) Cappadcoia .

(٩) Gregorius Thaumaturgus (حوالى ٢١٣ - حوالى ٢٧٥) .

اضطهادات الامبراطور دقيوس ثم عاد الآن إلى أسقفيته فى قيصرية الجديدة[١] فى ولاية بنطس[٢] ، عن مدى الاضطراب الذى أصاب المجتمع الأسيوى من جراء هذا الغزو . وحوالى سنة ٢٥٦ سارت جماعات من القوط فى هذا الشاطىء الغربى للبحر الأسود نحو الجنوب ، وعبرت مضيق البوسفور ، وأعملت السلب والنهب فى مدن بيثينيا[٣] الغنية ، وأشعلت فيها النـــيران ، ثم اضطرت إلى العودة من حيث أتت .

وفى نفس الوقت على التقريب شهدت الجبهة الشرقية أعنف هجوم فارسى . كتب شاهبور الأول ملك الملوك على نقش الرستم[٤] كيف أنه — رداً على حملة قام بها الجيش الرومانى على أرمينيا — هجم على سوريا واستولى على كثير من مدنها . وإذا كان تاريخ هذه الأحداث غير معروف على وجه التحديد ، إلا أنه من المحتمل أن مدينة دورا إفروبوس[٥] ، وهى الآن مدينة الصالحية فى شرق سوريا على نهر الفرات ، سقطت فى يد شاهبور الأول فى سنة ٢٥٦ ، وكذلك مدينة أنطاكية التى دمرت تماما فى هذا الغزو[٦] . وفى مطلع سنة ٢٥٧ أسرع الامبراطور فاليريان

---

(١) Neocaesarea .

(٢) Pontus .

(٣) Bithynia .

(٤) فى أطلال مدينة برسيبوليس Persepolis القديمة .

(٥) Dura Europos .

(٦) من المحتمل أن الواقعة التى ذكرها بعد ذلك فى القرن الرابع الخطيب الأنطاكى ليبانيوس Libanius (٣١٤ -حوالى ٣٩٠) ، وتلميذه المؤرخ الرومانى أميانوس مرشلينوس Ammianus Marcellinus (حولى ٣٣٠ - ٣٩٥) ، تشير إلى هجوم الفرس على أنطاكية فى ذلك الوقت . وفحوى هذه الواقعة أن شعب أنطاكية كان مجتمعاً فى المسرح فى نفس الليلة التى شن فيها الفرس هجومهم على =

إلى الشرق ، واسترد أنطاكية وأعاد بناءها ، ثم سار فى اتجاه فارس . وما حدث بعد ذلك تعبر عنه كلمات شاهبور فى نقشه خير تعبير : « فى أثناء الحملة الثالثة عندما هاجمنا كاراى واديسا [١] [وهى الرها] دخلنا فى معركة كبيرة مع فاليريان القيصر ، وقبضنا عليه وأرسلناه إلى فارس ، وأحرقنا مناطق سورية وقيليقية [٢] وقبادوقية ودمرناها وأخذنا شعوبها أسرى» . ونقش الرستم هذا يبين الامبراطور فاليريان وهو راكع أمام الملك شاهبور . ويحتمل أن يكون فاليريان قد وقع فى الأسر فى سنة ٢٥٩ أو فى سنة ٢٦٠ ، ولم يعرف شىء عن مصيره بعد ذلك . وبعد هذه الهزيمة الساحقة لم يفلح الأباطرة الرومان فى إيقاف الخطر الفارسى . واهتزت مكانة روما فى الشرق من الأعماق .

وعندما إقتحم الألمان حوض البو [٣] فى سنة ٢٥٨ ووصلوا إلى أواسط إيطاليا ، إضطر القائد جاليينوس ابن فاليريان إلى الإنسحاب من جبهة الراين لكى يواجه الزحف الألمانى ، وترك سالونين [٤] للدفاع عن هذه الجبهة . وإستطاع جاليينوس فى العام التالى أن يحرز نصراً على الألمان عند ميلانو . وبعد إخلاء الجبهة الراينية من الجيوش الرومانية قام الفرنجة وجماعات أخرى من الألمان بحملة كبيرة وغزوا

= المدينة ، وأن أحد الممثلين الهزليين رفع يده فجأة فى الهواء وهو يؤدى دوره علامة الذعر وقال صارخاً : « إذا كنت لا أحلم فإنى أرى الفرس أمامى على قاب قوسين أو أدنى » ، وأن الصرخة والخبر أثارا فضول النظارة على الفور ، فالتفتوا خلفهم ورأوا حاملى الأقواس الفرس يطوقون المسرح .

(١) Edessa .

(٢) Cilicia فى جنوب شرقى آسيا الصغرى .

(٣) Po .

(٤) Saloninus .

شرق غالة . وانفلت بعض الجرمان إلى أسبانيا وخربوا المدينة الساحلية تاراكو[١] ، ووصل فريق منهم إلى أفريقيا . وفى هذا الوقت أقيمت أسوار حول المدن فى مختلف المناطق فى أسبانيا التاراكونية وما زال سور لوجو[٢] باقياً حتى الآن. وزاد من سوء الموقف أن السرماطيين اخترقوا خط الدفاع المقام على جانبى نهر التايس[٣] ، ونفذوا إلى أقليم موازيا العليا[٤] فى شمال البلقان ، وأصبحوا يهددون الامبراطورية فى عقر دارها .

وقد شهدت الامبراطورية إضطرابات ومظاهرات عنيفة فى عهد الامبراطور فاليريان نتيجة الاضطهادات القاسية التى شنها على المسيحيين ولا سيما فى مصر . ويصف لنا الأنبا ديونيسيوس بطريرك الإسكندرية فى رسائله المعاصرة تفاصيل هذه الاضطهادات ، كما يصف لنا أحداث الحرب الأهلية التى إندلعت فى الإسكندرية وتفشى من جرائها الطاعون . وقد جاءت هذه الحرب الأهلية فى نفس الوقت الذى قامت فيه ثورة ماكريان[٥] الصغير وأخيه كويتوس[٦] لإغتصاب العرش الامبراطورى بعد إختفاء الامبراطور فاليريان ، وهى الثورة التى اعترف بها

---

(١) Tarraeo (Victrix Julia Tarraconensis) حالياً تاراخونا Tarragona الواقعة جنوبى برشلونة Barcelona . كانت أطلالها هناك عندما كتب المؤرخ الأسبانى المسيحى بولس أوروزيوس Paulus Orosius فى مطلع القرن الخامس كتب التاريخ السبعة فى الرد على الوثنيين historiarum adversus paganos libri septem.

(٢) Lugo (Lucus Augusti) .

(٣) Theiss (Tisia) .

(٤) Moesia Superior .

(٥) Macrianus .

(٦) Quietus .

المصريون ، وانتهت فى سنة ٢٦١ بعد أن أرسل جالبينوس ــ الذى كان قد اعتلى عقب إختفاء والده عرش الإمبراطورية ــ أحد قواده ويدعى أريولوس[١] لملاقاة ماكريان الثائر فى تراقية ، وانتهى اللقاء بمقتل ماكريان ، كما قتل أخوه كويتوس عند الرها على يد أذينة ابن السميدع الذى عرفه الرومان باسم أوديانتوس[٢] ، والذى اعترف به جالبينوس ملكاً على تدمر . وقاد أذينة على رأس الجيش الرومانى وقواته التدمرية حملتين ضد الفرس فيمابين سنة ٢٦٢ وسنة ٢٦٦ ، ووصل إلى طيسفون دون أن يتمكن من الإستيلاء عليها . وعلى أية حال فبعد وفاة الأنبا ديونيسيوس فى سنة ٢٦٤ لم تتوقف الحرب الأهلية فى الإسكندرية .

ولم يكن قيام حكومة مستقلةفى تدمر هى الحالة الوحيدةالتى سببت للإمبراطورية الرومانية مشاكل معقدة فى مجال السياسة الخارجية ، وإنما كان على الإمبراطورية أن تواجه حالة مشابهة فى غالة . فعلى جبهة الراين التى كانت الآن فى حماية سالونين حدثت مفاجأة لم يكن يتوقعها أكثر الناس استسلاماً للموقف . لقد حاصر القائد بسطوم[٣] الرومانى[٤] سالونين فى مدينة كولونيا فى سنة ٢٥٩ وقتله شر قتلة ، ونصبت الفرق العسكرية بسطوم إمبراطوراً مستقلا على بلاد الغال . واتخذ بسطوم مدينة ترير عاصمة المملكة الجديد ، وامتد نفوذه كذلك على بريطانيا وأسبانيا ، وحتى على شمال إيطاليا ، وكانت له مواقف مشرفة فى حروبه ضد الفرنجة الجرمان . وبعد اغتيال بسطوم فى سنة ٢٦٨ بقيت الإمبراطورية الغالية ، وتولت بعده امرأة تدعى

---

(١) Areolus .

(٢) Odeanthus .

(٣) Postumus .

(٤) كان بسطوم فى الغالب من أصل غالى .

فيكتوريا[١] مهمة الدفاع عن غالة[٢] وخلف بسطوم فى حكم الغال ماريوس[٣] ، وفيكتورينوس[٤] ، ثم تتريكوس[٥] الذى تم القضاء على الإمبراطورية الغالية فى عهده عندما تغلب عليه الإمبراطور الرومانى أورليان فى معركة شالون[٦] فى سنة ٢٧٤ وقاده أسيراً إلى روما .

وما لبث أن حل غزو قوطى جديد على آسيا الصغرى حوالى سنة ٢٦٢ ، ودمر القوط معبد الآلهة أرتميس[٧] فى أفسس فى أثناء هذا الغزو . وفى سنة ٢٦٤ أرسل جالينوس قائده الأليرى كلاوديوس[٨] إلى شمال إيطاليا ، وانتصر كلاوديوس إنتصاراً حاسماً على الألمان على مقربة من بحيرة بودن[٩] . ولكن فى نفس الوقت كانت زينوبيا[١٠] ، التى خلفت زوجها أذينة ابن السميدع على عرش تدمر ، قد احتلت سوريا واستولت على المدينة التجارية الهامة بصرى[١١] عاصمة الولاية

---

(١) Victoria .

(٢) تذكرنا فيكتوريا بالملكة زينوبيا Zenobia ملكة تدمر التى حكمت فى نفس الوقت بعد مقتل زوجها أذينة ابن السميدع فى سنة ٢٦٧ ، وتولت بعد ذلك فى عهد الإمبراطور أورليان محاربة الفرس دفاعاً عن مصالح تدمر التجارية .

(٣) Marius .

(٤) Victorinus .

(٥) Tetricus .

(٦) Châlons .

(٧) Artemis .

(٨) Marcus Aurelius Claudius (امبراطور ٢٦٨ - ٢٧٠) .

(٩) Bodensee .

(١٠) Zenobia .

(١١) مدينة بصرى معروفة فى كتب الرومان باسم بوسترا Bostra .

الرومانية عرابيا[١] . وأثبتت هجمات الجرمان المتوالية ، كما أثبت دخولهم فى الأراضى الرومانية ، عدم الجدوى من الخطوط الدفاعية التى أقامها الرومان لحماية الإمبراطورية ، وعلى أقل تقدير تلك الخطوط التى كان قد أقامها الإمبراطور أدريان فى القرن الثانى دون النظر إلى الاستراتيجية التى تتطلبها طبيعة المناطق المكشوفة ، مما دفع الإمبراطور جاليينوس إجراء بعض التعديلات على تكتيك القوات المسلحة وحشد فرق خفيفة من الاحتياط لكى تكون أقدر على صد هجمات الأعداء . ومع ذلك فإن هذه التدبيرات وغيرها لم تمنع الهيروليين والقوط من النفاذ إلى البلقان والتوغل فى أراضيها حتى مقاطعة أليس[٢] فى غرب البليبونيز.

فى سنة ٢٦٧ أبحر الهيروليون من شبه جزيرة القرم وهاجموا مدينة تومى[٣] على الشاطىء الغربى للبحر الأسود ، ثم استولوا بعد ذلك على بيزنطة ، ونفذوا إلى بحر إيجة ودمروا جزيرتى لمنوس[٤] وسكيروس[٥] ، ورسوا على شواطىء اليونان ، وانضموا إلى القوط واستولوا على أثينا والفسيس[٦] وكورنثا[٧] وأرجوس[٨] ، وأسبرطة[٩] وأولمبيا[١٠] . ولدينا شذرات عن هذه الأحداث

---

(١) الولاية الرومانية عرابيا Aradia تقع شمالى مملكة النبطيين .
(٢) Elis .
(٣) Tomi .
(٤) Lemnos .
(٥) Skyros .
(٦) Eleusis .
(٧) Korinthos .
(٩) Argos .
(١٠) Sparta .
(١١) Olympia .

مما كتبه المؤرخ الأثينى دكسيبيوس الذى قاد فى هذه المرة عملية الدفاع فى مقاطعة أتيكا(١). وينسب بعض المؤرخين تحرير اليونان والبلقان من القوط والهيروليين إلى الإمبراطور جالينوس، ولكن أغلب المؤرخين ينسبون هذا الإنتصار الكبير إلى كلاوديوس الذى إعتلى بعد مقتل جالينوس فى سنة ٢٦٨ عرش الإمبراطورية باسم الإمبراطور كلاوديوس الثانى. فقد هزم كلاوديوس القوط والهيروليين هزيمة ساحقة فى سنة ٢٦٩ فى معركتين حاسمتين عند دوبيروس(٢) ونايسوس(٣) فى مقاطعة تراقية، واضطرت هذه العشائر الجرمانية بعد ذلك إلى التراجع خارج البلقان والتجمهر فى داكيا. وقد أسر كلاوديوس عدداً كبيراً منهم ثم سمح لهم بالتوطن فى الإمبراطورية، كما جند بعضهم فى الجيش الرومانى. ولكن خطر القوط ظل مع ذلك يهدد الإمبراطورية. وقبيل نهاية حكم كلاوديوس سارت زينوبيا ملكة تدمر سنة ٢٦٩ إلى مصر واحتلتها، وتوجهت فى العام التالى إلى الشمال نحو آسيا الصغرى، ودخلت مقاطعة غلاطية(٤) ووصلت إلى حدود مقاطعة بيثينيا. وعلى أية حال ذاع صيت كلاوديوس بأنه محرر الإمبراطورية من القوط، ولعل هذا هو السبب فى إشتهاره باسم كلاوديوس القوطى(٥) ولا سيما بعد أن إدعى قسطنطين فى القرن الرابع — دون سند — أنه ينحدر من أسرة هـــذا الإمبراطور العظيم.

وبعد وفاة كلاوديوس الثانى بمرض الطاعون فى سيرميوم فى مطلع عام ٢٧٠

---

(١) Attica.

(٢) Doberos.

(٣) Naissos.

(٤) Galatia.

(٥) Claudius Gothicus.

جلس على عرش الإمبراطورية أورليان الذى أسمته الوثائق المعاصرة بمجدد الإمبراطورية (١) . واضطر أورليان إلى التنازل عن مقاطعة داكيا وأقام ولاية جديدة من وسط موازيا وشمال تراقية أسماها داكيا البحرمتوسطية (٢) . وسرعان ما وقع فى أول عهده فى سنة ٢٧٠ هجوم كبير من اليوت (٣) والفندال والإشفابيين (٤) والسرماطيين الذين وصلوا إلى الأراضى الإيطالية . وأسرع أورليان إلى بانونيا وهزم الفندال . وبعد أن تغلب اليوت على أورليان عند بلاكنتيا (٥) عاد أورليان وهزمهم عند بافيا (٦) ، واضطر الجرمان بعد ذلك إلى الاستسلام . ويذكر لنا دكسيبوس كيف تفاوض أورليان مع اليوت ، وكيف أن الفندال أرسلوا إليه بعثة سلام وعرضوا عليه تسليم بعض الرهائن وفرقة من ألفين من الفرسان للخدمة فى الجيش الرومانى ، وكيف أنهم تقهقروا عبر الدانوب بعد أن سمح لهم أورليان بعقد علاقات تجارية مع الإمبراطورية . وكان هذا الزحف هو الذى دفع أورليان إلى التفكير فى إعادة تحصين روما ، فذهب فى العام التالى (سنة ٢٧١) إلى العاصمة وأمر بإقامة سور كبير حولها وهو السور الذى عرف باسمه لكى يحميها من أى هجوم قد يشنه الجرمان فى أية لحظة .

وبعد ذلك سار أورليان فى نفس السنة نحو الشرق للقضاء على نفوذ زينوبيا ،

---

(١) restitutor Orbis .

(٢) Dacia Mediterranea .

(٣) Iuthungi .

(٤) Suebi .

(٥) Placentia حالياً بياتشنزا Piacenza .

(٦) Pavia .

ولكن قائده وكان يدعى بروبوس[١] قتل وهو يحاول إسترداد مصر . غير أن أورليان إستطاع أن يسترد المناطق التى كانت زينوبيا قد إحتلتها فى آسيا الصغرى ، وبعد معارك عنيفة فى أنطاكية والرها إستولى على مدينة تدمر ، وأسر زينوبيا وأرسلها إلى روما حيث عاشت بقية حياتها . وهكذا أعاد أورليان تدمر إلى حظيرة الحكم الرومانى . ويرجح أن الإسكندرية قامت فى العالم التالى (سنة ٢٧٢) بثورة إستطاع أورليان أن يخمدها بعد مقاومة عنيفة ، كما أخمد الثورة التى قامت فى تدمر بعد ذلك فى سنة ٢٧٣ . ثم توجه أورليان نحو الغرب وتغلب على تتريكوس وقضى بذلك على الإمبراطورية المنشقة فى غالة كما سبق أن ذكرنا . وعلى ذلك فقد أرجعت حملات أورليان حدود الإمبراطورية إلى ما كانت عليه فيما عدا داكيا والمنطقة الواقعة بين الراين الأعلى وبحيرة بودن التى كان الألمان يسيطرون عليها منذ سنة ٢٥٤ . وفى عام ٢٧٥ حاول أورليان محاربة الفرس ، ولكن حدثت مؤامرة عسكرية وهو فى طريقه إلى الحرب وقتل عند مدينة كينوفروريوم[٢] (وهى الآن بيفادوس[٣]) فى مقاطعة تراقية على مقربة من بيزنطة .

ظل التوتر سائداً بعد ذلك فى عهود الأباطرة الذين خلفوا أورليان وهم تاكيتوس[٤] وبروبوس[٥] وكاروس حتى إعتلى دوقلديانوس عرش الإمبراطورية . فقد عاد القوط فى أواخر عهد أورليان (سنة ٢٧٥) من شمال البحر الأسود إلى

---

(١) Probus .

(٢) Caenophrurium .

(٣) Bivados .

(٤) Marcus Claudius Tacitus (٢٥٧ — ٢٧٦) .

(٥) Marcus Aurelius Probus (٢٧٦ — ٢٨٢) .

آسيا الصغرى وخربوا أراضيها حتى مقاطعة قيليقية فى الجنوب الشرقى ، وتصدى لهم الإمبراطور تاكيتوس بعد توليه الحكم وانتصر عليهم بعد معارك عنيفة . وفى عهد الإمبراطور بروبوس حدث ثورة عسكرية فى سوريا وحركة تمرد خطيرة من سكان الجبال الأيسوريين[١] فى جنوب آسيا الصغرى ، وصال القراصنة السكسون فى القنال الإنجليزى . وحتى الشعوب التى كانت تسكن المناطق النائية وجدت فرصة سانحة للسلب والتمرد كشعوب البكت[٢] الاسكتلنديين الذين كانوا يعيشون على مقربة من سور أدريان ، والبلاعمة[٣] فى جنوب مصر ، وكذلك البدو والبربر الذين كانوا يوالون الهجوم على الولايات الأفريقية والإغارة على المدن والمزارع. ونسمع أن بروبوس وطن فى تراقية جماعات جرمانية من القوط والبسترنيين[٤] الذين كانوا قد استقروا فى مناطق جاليسيا[٥] وبودوليا[٦] فى شمال وشرق جبال الكربات ، ولكنه لم يستطع السيطرة عليهم بعد ذلك . ولكن سرعان ما عم الجبهة الشرقية بصفة عامة هدوء نسبى بعد أن غزا الإمبراطور كاروس فى سنة ٢٨٣ بلاد فارس ووصل إلى طيسفون ، ودفع الملك الفارسى بهرام الثانى[٧] إلى عقد صلح مع الحكومة الرومانية . وانتصر كاروس فى طريقه إلى الشرق على

---

(١) Isauri .

(٢) Picti .

(٣) Blemmii .

(٤) Bastarnae .

(٥) Galicia .

(٦) Podolia .

(٧) Bahram II (٢٧٦ - ٢٩٣) .

السرماطيين والأقواضيين . ولما جاء الآن دوقلديانوس إلى الحكم بدأت صفحة جديدة فى تاريخ الإمبراطورية ...

* * *

كانت هذه هى الحالة التى وصلت إليها الإمبراطورية الرومانية فى صراعها مع القوى الأجنبية التى أحاطت بها من كل جانب . لقد تجاوزت الإمبراطورية طور شبابها وناءت بمطامعها ومتاعبها ، وأصبح عليها الآن أن تواجه حقيقة العمر التى لم يعد ينفع معها غرور جديد . ومع ذلك فإن ما وصلت إليه الإمبراطورية على صعيد السياسة الخارجية لم يكن كل الحقيقة، وإنما كانت تفتك بها المتاعب الداخلية. وكانت الخلافة على العرش الإمبراطورى من أوليات المتاعب التى عمت كل ركن من أركان الدولة ، لأن سياسة الإمبراطورية الأولى لم تشأ أن تجعل الحكم الإمبراطورى حكما وراثيا ، لكى لا تنقض الحكومة الرومانية مبادىء الجمهورية التى رفعت شعارها وأرادت أن تكون مبادىء الإمبراطورية الجديدة ، ولكى تأمن معارضة الأغلبية التى كان يمثلها فى مجلس الشيوخ أنصار التقاليد الجمهورية القديمة . لقد جرى العرف على أن يختار الإمبراطور من يخلفه فى الحكم ويحقق من بعده براج السياسة الموضوعة ، ولكن سرعان ما تحللت هذه السياسة بعد وفاة الإمبراطور مارك أوريليوس فى سنة ١٨٠ ، وأخذت الإمبراطورية تجنح نحو الفوضى ، وأصبح إعتلاء العرش أمراً تتحكم فيه أهواء الجيش .

وبالرغم من أن مسألة وراثة العرش الإمبراطورى شغلت بال الأباطرة فترة طويلة من الزمن ، إلا أنها كانت إلى حد ما مشكلة جانبية إذا قيست بحجم المشاكل الأخرى التى كانت كفيلة بأن تقوض الأوضاع المستقرة فى الإمبراطورية

فى وقت هددت فيه أخطار الفرس والجرمان حدودها الشاسعة . لقد أصبح التشاؤم الذى أطل به المؤرخ الرومانى تاكيتوس [١] فى القرن الأول على المستقبل حقيقة ملموسة، وولت فى النهاية أقانيم السياسة الرومانية القديمة الثلاثة وهى القوة [٢] والمجد [٣] والحرية [٤] ولم يعد لهذه المعارف وجود ملموس بعد الآن، فبعد مقتل الإمبراطور كومودوس [٥] فى سنة ١٩٢ انتهى ذلك العصر الذهبى السعيد من حياة الإمبراطورية، ذلك العصر الذى كان فى رأى جيبون — وهذا صحيح إلى حد كبير — يمثل قمة الحضارة الرومانية . وعم الشغب والتمرد بعد ذلك ، وشاعت الفوضى فى صفوف المدنيين والعسكريين ، وأصبح الرعاع تواقين إلى الإخلال بالأمن ، وتدهورت مكانة روما فى خضم هذا الشغب ، وإن ظلت روما كما كانت مقراً للحكومة المغلوبة على أمرها . وأخذت فرق الجيش هنا وهناك فى سائر الولايات الثائرة على الأوضاع تحاول تنصيب قادتها على عرش الإمبراطورية ليقودوا دفة الحكم فى أجواء السياسة العاصفة الهوجاء . وعندما تغلب سبتيميوس ساويرس قائد فرق الدانوب على بيكينيوس نيجر [٦] قائد فرق الشرق وكلوديوس ألبينوس [٧] قائد الفرق فى بريطانيا وتولى الحكم فى سنة ١٩٣ بدأ عصر جديد فريد فى حياة الإمبراطورية الرومانية ... عصر الأباطرة العسكريين ...

---

(١) Cornelius Tacitus ولد حوالى سنة ٥٦ وأصبح قنصلا سنة ٩٧ .

(٢) virtus .

(٣) gloria .

(٤) libertas .

(٥) Lucius Aelius Aurelius Commodus (١٨٠ — ١٩٢) .

(٦) Gaius Picennius Niger Justus .

(٧) Decimus Clodius Albinus .

ومن يرى أن يدون تاريخ الأباطرة العسكريين الأوائل قد يجد فى حياتهم إلى حد كبير تاريخاً معاداً لحياة حكام عظام أمثال يوليوس قيصر وأغسطس وتيبريوس[١] ، لأن الحكومة الرومانية لم تكن فى عهود هؤلاء الأباطرة مجرد مؤسسة عسكرية تحكم بما كانت تمليه عليها ظروف الدولة بالقوة ، وإنما بدت الامبراطورية الرومانية فى عهودهم كما لو كانت قد انتفضت من جديد بمجد العصور السالفة أيام عهد تراجان . ويذكر لنا التاريخ أن الامبراطور سبتيميوس ساويرس كان يستميل إليه رجال الجيش ، كما كان يحيط نفسه بأشهر المستشارين من رجال القانون فى عصره أمثال بابينيان[٢] ، لكى يعزز حكمه بالقوة وحسن الرأى والمشورة . ولكن الأمر الذى قد لا يفيد فيه الجدل هو أن الحكم الامبراطورى الذى عاشته الأمبراطورية فى القرنين الأول والثانى أخذ — بسبب الظروف العصيبة التى واجهتها الأمبراطورية فى القرن الثالث — يتحول شيئاً فشيئاً إلى حكم أوتوقراطى ، وأن التاريخ الناصع الذى صنعته جهود الأباطرة السابقين أخذ ينقشع شيئاً فشيئاً فى غمرة الأحداث ، وأن ظلام الحكم أخذ يرخى شيئاً فشيئاً سدوله على الامبراطورية .

صحيح أن الأباطرة العسكريين وضعوا نقاطاً كبيرة واضحة على حروف السلطة ، وجعلوا لها واقعاً سياسياً تدعمه عقائدية الأمن والنظام ، ولكن أيديولوجية الحكم صارت نابعة من نوع القداسة التى كان قد فرضها من قبل ملوك الشرق على الشعوب . وبعد أن كان الإمبراطور الرومانى هو المواطن الأول

---

(١) Tiberius Julius Caesar Augustus (١٤ - ٣٧).

(٢) Aemilius Papinianus ازدهر فى عهد الأمبراطورين سبتيميوس ساويرس وكاراكالا ، وتوفى فى سنة ٢١٢ .

فى الدولة طبقاً لمبادىء السياسة الامبراطورية فى القرنين الأول والثانى ومطالع القرن الثالث ، أصبح حكمه الآن يميل إلى الحكم المطلق ، وأصبح الامبراطور بوصفه مبعوث الرب فى هذا العالم يملك وحده أمر الحرب والسلام ومستقبل الأمة . وفى سنة ٢٧٠ لم يعد خافياً على الناس أن الامبراطور أورليان عندما اعتلى عرش الامبراطورية كان هو السيد والاله[١] . بهذه الصفات المقدسة والألقاب حدد أورليان المعانى النهائية لمفهوم السلطة الامبراطورية التى سوف تتبلور فيما بعد فى صورة أوتوقراطية صريحة فى عهد الامبراطور دوقلديانوس . وعلى أية حال فإن محاولات الامبراطور أورليان فى تدعيم السلطة وفى تجديد الامبراطورية المتهاوية لم تفلح فى القضاء على المشاكل هنا وهناك ، لأن المشاكل كانت أكبر من أن تجد لها حلا سليما على أيدى أورليان وغيره من الأباطرة العسكريين ... وبدا أن السلام الرومانى ... ذلك الشعار الذى كان يعبر بكل معانى الطموح عن وجد الامبراطورية السياسى ... أخـــذ فى تلك الآونة يتحطم على صخرة الواقع الامبراطورى المرير ...

ولا شك فى أن الخلاف الجوهرى فى سياسة الحكم العسكرى كان يكمن قبل كل شىء فى شخصية الأباطرة. ففى العصر الأول من عصور الامبراطورية الرومانية كانت هناك سلطة ثلاثية ممثلة فى الامبراطور والجيش والسناتو . وإذا كان الامبراطور قد أخذ منذ عهد أغسطس يجرد السناتو من سلطاته القديمة ، إلا أن السناتو أخذ منذ الآن يفقد سلطاته أكثر وأكثر . وحتى الموافقة الشكلية التى كان السناتو يعبر بها عن رأيه — مجرد رأيه — فى تنصيب الأباطرة على العرش ... حتى هذه الموافقة الشكلية لم تعد الآن أمراً مرغوباً فيه ... وانتقلت أهم صلاحيات

(١) domiuns et deus .

السناتو شيئاً فشيئاً إلى ديوان المستشارين[1] فى بلاط الامبراطور . كما أخذ السناتو ، الذى كان معقلا للطبقة الأرستقراطية القديمة ، يمتلىء بأفراد الطبقة الثرية الجديدة . وانحصرت مهمة السناتو فى النهاية فى التصويت على ما يعرض عليه من موضوعات ، وفى تأييد المشروعات التى يطرحها الامبراطور . وأصبحت الفرق العسكرية وحدها هى الحامى الحقيقى للسلطة . صحيح أن الجيش فى عصر الحكم الامبراطورى الأول كان له دور فى مباشرة السلطة ، وصحيح أن هذا الدور لم يكن دوراً ثانويا تماماً برغم السلطات الواسعة التى كان الامبراطور يمارسها على الجيش ، ولكن الجيش أصبح له الآن تأثيره الكبير فى جميع نواحى الحياة السياسية ، وليس أدل على ذلك من أن الفرق العسكرية دأبت على تنصيب الأباطرة على العرش ، ودأبت على عزلهم دون النظر إلى مصالح البلاد القومية . لقد شهد الحكم العسكرى كثيراً من هذه المواقف بين صفوف الفرق المرابطة على جبهات الراين والفرات والدانوب .

واتخذت الحكومة الرومانية سياسة إدارية جديدة تتمشى مع التغيرات التى شهدتها الامبراطورية فى العقود الأخيرة . وقضت هذه السياسة بفصل الادارات العسكرية عن الادارات المدنية التى كان يربط بينها فى السابق تنظيم إدارى واحد ، وذلك لكى تتجنب الادارات العسكرية أيه إجراءات روتينية قد تؤثر على سير العمل بها ، ولكى تصبح هذه الادارات أكثر إستقلالا مما يحقق الغرض الذى أنشئت من أجله ويساعد على إنجاز المهام المطلوبة منها على وجه السرعة التى تقتضيها الأعمال العسكريه . وأصبح لكل إدارة من هذه الإدارات أجهزة قائمة بذاتها تنسق العمل بينها دون انتظار لأية أوامر تصدر إليها من الجهات المدنية . ووضعت كل الإدارات

---

(١) Consilium principis .

العسكرية والمدنية تحت إشراف الديوان الإمبراطورى الذى كان من حقه وحده أن يحدد الأولويات حسب ما تقتضيه المصلحة العامة . وأخذت هذه البيروقراطية المركزية المحكمة التى يتولاها الديوان الإمبراطورى تهيمن شيئاً فشيئاً على كل نواحى الحياة .

وإذا كانت الإمبراطورية قد عاشت فى القرن الثالث عقوداً من الفوضى ، ولا سيما تلك الفوضى التى بدأت منذ حكم الإمبراطور مكسيمين(١) واستمرت حتى حكم الإمبراطور كاروس ، وهى فترة تقرب من الخمسين عاماً تربع خلالها على العرش جنود وضباط من الفرق الرومانية فى جو صاخب وصراع رهيب على السلطة ، وكان القتل فيها مصير أكثر الأباطرة والمطالبين بالعرش الإمبراطورى ، الأمر الذى جعل من هذه الفترة فى رأى أغلب المؤرخين من أسوأ الفترات فى تاريخ الإمبراطورية ... نقول إذا كانت الإمبراطورية قد عاشت فى القرن الثالث عقوداً من هذه الفوضى ، إلا أن الحكم العسكرى بصفة عامة خطا خطوات كبيرة ونجح نجاحاً لا يستهان به فى مواجهة التدهور الذى كان يهدد العالم الرومانى . وقد رأينا مقدار الجهد الذى بذله الأباطرة فى صد هجوم الفرس والجرمان ، ورأينا كيف حاول بعض الأباطرة أمثال أورليان إنقاذ سمعة الإمبراطورية ، لأن الحكم العسكرى كان بالرغم من كل شىء عاملا من عوامل النظام الذى حفظ الإمبراطورية من البربرية والشواش . ففى منتصف القرن الثالث ، بعد أن بدت الإمبراطورية فى عهد فاليريان وجالينوس على حافة الهاوية ، صحت الإمبراطورية صحوة سياسية تجاوزت الأزمة على يد أباطرة خمسة نشأ ثلاثة منهم فى ولايات البلقان المشهورة ببأس رجالها وهم كلاوديوس الثانى وأورليان وبروبوس ... ثلاثة من الأباطرة

(١) Gaius Julius Verus Maximinus (٢٣٥ - ٢٣٨) .

رفعهم الجيش إلى المناصب القيادية العليا ليقودوا معارك الدفاع الصعبة ، وتم فى عهودهم صد الهجمات الجرمانية بنجاح ، ومنيت بلاد الفرس بهزيمة نكراء ، وتم القضاء على الحكومات المنشقة التى قامت فى غالة وبالميرا . وكشف الميزان السياسى فى النهاية عن حقيقة مثيرة أكتملت فى عهد بروبوس ، فمنذ سنة ٢٨٠ أعادت الإمبراطورية تأمين حدودها ووصلت فى إتساعها إلى ما كانت عليه فى القرن الثانى . وعلى أية حال كان ما وصلت إليه الإمبراطورية فى أواخر القرن الثالث منطلقاً لأشكال التطور الذى أصاب المجتمع الرومانى بعد ذلك ... التطور الذى نشأ من الفوضى أن صح التعبير ...

* * *

لا جدال فى أن الإمبراطورية الرومانية كانت تواجه فى تلك الآونات المضطربة صعوبة كبيرة فى تجنيد جيوش قوية قادرة على درء أخطار الفرس والجرمان ، تلك الأخطار التى كانت تزداد يوماً بعد يوم فى كل مكان . وقد يكون من المبالغة أن نرجع الصعوبة فى تكوين جيوش على المستوى الذى يسمح لها بالوقوف فى وجه هذه الأخطار المحدقة ... قد يكون من المبالغة أن نرجع هذه الصعوبة إلى عوامل ديموغرافية ، لأن تعداد الإمبراطورية كان يكفى من غير شك لتزويد الجيوش بأعداد هائلة من الجنود والضباط . ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن الظروف الإقتصادية والتغيرات الاجتماعية ، التى قلبت موازين التوقعات ، لعبت دوراً لا يستهان به فى هذه الناحية . كما أن التدابير القهرية المتضاربة التى كان الأباطرة العسكريون يتخذونها واحداً بعد الآخر لمواجهة هذه الظروف القاسية كان من شأنها أن تؤثر بدورها على الأوضاع السياسية، الأمر الذي جعل من هذه التدابير - على عكس

ما كانت تهدف إليه سياسة الأباطرة — عاملا من عوامل الفوضى والتمرد فى وقت كانت فيه الإمبراطورية فى أشد الحاجة إلى التماسك والوقوف فى صف واحد لكى تبعد عنها أخطار الغزو . ولذلك كان من الضرورى — بل كان من الطبيعى — فى مثل هذه الظروف الحرجة أن يضع الأباطرة العسكريون — مهما كانت المواقف — بعض اللمسات الجريئة على واقع السلطة الإمبراطورية . ولكى تتحقق هذه السياسة على أكمل وجه وضع الأباطرة كذلك بعض النقاط الصريحة على أهلية المواطنين وسكان الولايات فى كل مكان ، لكى تذوب الفروق الكبيرة التى فصلت بين المواطنين والأهالى فى التزامهم بالواجبات العامة ، وبالتالى فى التزامهم بواجب الخدمة العسكرية ، تلك الفروق التى أستقرت فى الماضى نتيجة لقوانين الجنسية المجحفة التى سنتها الحكومات الرومانية السابقة ، والتى أدت إلى تلك الفروق الحادة فى التمتع بحقوق المواطنة الرومانية .

وإذا كانت الأوامر التى إتخذها سبتيميوس ساورس من أجل تجهيز الجيش قد حددت دور الجميع فى أداء الخدمة العسكرية ، إلا أن تنفيذ هذه الأوامر كان أمراً غاية فى الصعوبة ، لأن القوانين القديمة كما رأينا لم تكن تساوى فى الحقوق السياسية والمدنية بين جميع الأهالى ، ولأن مجرد الأمر — والحالة هذه — بفرض واجبات جديدة على جميع سكان الإمبراطورية دون إستثناء كان كفيلا بأن يثير الغضب والاستياء . وكانت النتيجة المحتومة مزيداً من القلق والتوتر ، ومزيداً من فقدان الثقة فى واجب الخدمة العسكرية . ولعل القانون الأنطونينى (١) هو الذى وضع — وبصورة واضحة — أول لمسات جريئة لدرء هذه التناقضات ، وهو القانون الذى أصدره الإمبراطور كاراكالا فى سنة ٢١٢ ، ومنح بموجبه الجنسية الرومانية لجميع أهالى الإمبراطورية الأحرار على قدم المساواة بعد أن كانت الجنسية من الدرجة الأولى

---

(1) Constitutio Antoniniana .

وقفاً على المواطنين الرومان . وإذا كان القانون الأنطونيني قد قرر المساواة الإعتبارية في الحقوق السياسية على هذا النحو إلا أن أهالي الولايات ، الذين كان من المفروض أن يستفيدوا بنص هذا القانون ، ظلوا كما كانوا في واقع الأمر مواطنين من الدرجة الثانية . ولكن هذا القانون كان يقصد في الحقيقة — وقبل كل شيء — تقرير المساواة في تحمل الأعباء المالية من أجل زيادة دخول الدولة من الضرائب . ولذلك لم يضع هذا القانون — برغم مميزاته — حداً لغضب الأهالي ، وخاصة بعد أن أخذت الحالة الإقتصادية في التدهور ، وبعد أن أصبحت الإدارات المحلية في الولايات في حاجة ماسة إلى فرض ضرائب جديدة باهظة لكي تواجه الإختلاسات والاسراف الشديد في إقامة المنشآت العامة دون مبرر . ولا جدال في أن عدم الوعي بضرورة دفع الضرائب المستحقة ، لكي تستطيع الدولة أن تتغلب بدخولها على تلك الأزمة ، هو الذي ساعد على تفاقم الحالة الإقتصادية ، وأوقف الحكومة الرومانية أمام هذه المشكلة ، ولذلك كان من الطبيعي أن تتخذ الحكومة من الاجراءات ما يكفل لها تطبيق القانون والحصول على مزيد من الدخل لكي تواجه به كل هذه المسئوليات .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نرى أن تغيراً داخلياً خطيراً أخذ يطرأ على القوات المسلحة . فقد أخذ الأباطرة العسكريون في تسريح الجنود الإيطاليين وتجنيد جماعات من الايليريين والبارثيين والجرمان ، كما أخذوا في إحالة الضباط النظاميين الرومان من أبناء الطبقة الأرستقراطية إلى الإستيداع خوفاً من تمردهم واستئثارهم بالسلطة ، وأخذوا في تعيين ضباط محترفين من أبناء الشعوب الأجنبية كان كل همهم الطموح والمغامرة على حساب المواقف القومية . وأدى هذا التصرف إلى تغلغل بعض الضباط الانتهازيين من الأجانب في شتى مواقع الجيش ، ووصل فريق منهم إلى المناصب العسكرية العليا ، بل ووصل أفراد منهم إلى قيادة الجيش الإمبراطوري .
ولا شك في أن هذه السياسة الغريبة في حاجة إلى تفسير إن لم تكن في حاجة إلى

تبرير ، لأنها إنطوت على خطورة محققة قد لا نستطيع إستبعادها من تقديرات السياسة الرومانية ، وخاصة أن هذه السياسة كانت بادرة أثارت مخاوف المراقبين السياسيين كما أثارت مخاوف المحافظين الأرستقراطيين .

والحقيقة أن نظام الملكية الزراعية وما طرأ عليه من تغيير — سوف نعرض له فيما بعد — كان له أثر مباشر على مستوى الحياة الريفية وعلى أوضاع الفلاحين وصغار المزارعين الذين أخذوا فى الهجرة من الريف وراحوا يتوافدون على المدن القريبة والبعيدة بحثاً عن موارد المعيشة وطلباً للعمل فى قطاعات التجارة والصناعة . وقد أصبح بعض هؤلاء المهاجرين عمالا ، بينما توفرت الظروف الحسنة للبعض الآخر فاشتغلوا بالتجارة وأصبحوا من رجال الأعمال القادرين على تعليم أبنائهم ، وإنضموا إلى أفراد الطبقة المتوسطة من سكان المدينة . وقد أثرى بعض هؤلاء الرجال على حساب الشعب ، وكان يحكم سلوكهم ، كما كان يحكم سلوك بعض الموظفين المنحرفين ، منطق الحياة الجديدة وعالم المال والثراء ، فكانوا يتفننون فى الحصول على الدخول الطفيلية بكل الوسائل ، ويتفننون فى التهرب من الضرائب ، كما كانوا يتفننون فى تهريب أبنائهم من الخدمة العسكرية . هذا وإن كان بعض رجال الأعمال والأثرياء الجدد قد فضلوا — بسبب اضطراب الحالة وأخطار الحروب — شراء الأراضى الزراعية والنزوح إلى الريف لاستثمار هذه الأراضى بما حصلوا عليه من إمكانيات مادية . وعلى أية حال كان لا بد لهجرة الفلاحين وصغار الملاك الجماعية من الريف أن تؤدى بصفة عامة إلى إزدحام العاصمة والمدن الكبيرة ، وإلى تناقص عدد السكان فى مختلف الأقاليم ، كما كان لا بد لهذه الهجرة أن تؤثر بدورها على الحياة العسكرية ، لأن الفلاحين والمزارعين كانوا فى الحقيقة يمثلون الفئة التى تمد الجيش بأكبر عدد من الجنود والمحاربين . ومن ناحية أخرى لم يكن أفراد الطبقة

والانخراط فى سلك الجنديه، الأمر الذى جعل الأباطرة الرومان فى حالة لا تسمح لهم بالإعتماد عليهم ، ولم يعد أمامهم غير الإعتماد على العمال والجنود المرتزقة من الأجانب المغامرين .

وفضلا عن ذلك كان للجرمان وغيرهم من الذين وافق الأباطرة الرومان على توطينهم فى مناطق الحدود الشمالية ، ووافقوا على تمليكهم الاراضى من أجل المشاركة فى مشاريع التنمية الزراعية ، ومن أجل أن يكونوا حاجزا بشريا أمام العناصر الجرمانية والأجنبية الأخرى التى كانت تواصل الاغارة على الامبراطورية ... نقول إن هؤلاء الجرمان وغيرهم كان لهم دور فى تعميق المشكلة ، فقد كان لهم بإعتبارهم معاهدين (١) للدولة الرومانيـة حق الالتحاق بالجيش الرومانى ، وكان هذا الوضع من شأنه أن يثير كثيرا من التساؤلات ، وخاصة بعد أن حدثت خلافات بين هذه العناصر وبين الأهالى وصلت إلى حد الإشتباك . وقد يبدو أن أى تبرير لا يمكن أن يكفى وحده لاعطاء الأباطرة الرومان حقا — ناهينا عن الضرورة — فى إنتهاج مثل هذه السياسة الخطرة ، وأن الشك فى ولاء الضباط الارستقراطيين والصعوبة فى تجنيد أعداد كبيرة من أبناء الأثرياء والفلاحين لا يمكن أن يكون هو المبرر . ولكن إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الإمبراطور كلاوديوس الثانى ، وهو الذى بادر كما رأينا بتوطين القوط والهيروليين فى أراضى الامبراطورية وتجنيد فريق منهم فى الجيش الرومانى ... اذا وضعنا فى أعتبارنا أنه كان من مقاطعة دالماتيا (٢) فى غرب البلقان ، ومعنى هذا أنه كان من منطقة اليريا المعروفة منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد بعدائها للسياسة الرومانية ،

---

(١) Foederati

وإذا رأينا كذلك أن الامبراطور بروبوس ، الذى اتبع بعد ذلك نفس السياسة على نطاق أوسع عندما وطن القوط والبسترنيين فى تراقية ، كان من بانونيا وهى المقاطعة الايليرية الثانية . . . اذا وضعنا هذا فى الاعتبار فقد تكشف هذه الخلفية عن الدوافع التى دفعت الأباطرة الإليريين إلى فرض هذه السياسة ، وتكشف عن الفجوة فى مشاعر هؤلاء الأباطرة تجاه القضية القومية . وعلى أية حال فإن هذه البادرة الغريبة أصبحت قاعدة سار عليها الأباطرة الرومان بعد ذلك . ولكن مهما كانت الدوافع ، فإن هذه السياسة تظل فى حد ذاتها سابقة خطيرة ، وقد أثبتت الأيام فى النهاية — وكان لابد أن يحدث هذا — خطورة هذه السياسة عندما حانت لحظة الحروب الجرمانية الكبيرة فى القرن الخامس وكشفت عن خيانة الجرمان المجندين فى جيش الإمبراطورية .

ولا شك فى أن الحالة الاقتصادية كانت قد تأثرت بالحروب الخارجية التى شنها الفرس والجرمان ، والحروب الأهلية التى نشبت نتيجة للصراع على ولاية العرش الإمبراطورى . ولا شك كذلك فى أن دمار هذه الحروب قد لحق بعض المدن والقرى ، وأن حركة المواصلات قد توقفت فى بعض الطرق البرية والبحرية ، وأن هذا كان من شأنه أن يؤثر بصورة أو بأخرى على الإنتاج فى مختلف المجالات الصناعية والزراعية ، كما كان من شأنه أن يؤثر على التجارة الدولية . ويحدثنا كيبريانوس أسقف قرطاجنة فى مقالته التى كتبها بعد سنة ٢٥٢ ، والتى وجهها إلى ديميتريان أسقف أنطاكية(١) عقب اضطهاد الامبراطور دقيوس للمسيحيين فى سنة ٢٥٠ ، فيقول فى الفصل الثالث من هذه المقالة ان التربة قد أصابتها اليباسة وأن جموع الزارعين انحدرت كما انحدرت محاصيل الأرض . وقد أراد كيبريانوس

---

(١) ad Demetrianum ,

بهذه المعلومة أن يبين مدى التدهور الذى أصاب الأرض الزراعية من جراء اضطهاد دقيوس على هذا النحو الذى قد يفهم منه أن الاضطهادات الدينية كان لها مثل هذه العواقب الوخيمة على الحياة الزراعية والحياة الاقتصادية . ولكن يحسن بنا أن نأخذ كلام كيبريانوس بشىء من الحذر ، لأن الاضطهادات لم تكن تستهدف الأراضى الزراعية بقدر ما كانت تستهدف الكنائس ودور العبادة . ولا يمكن أن تكون أعداد الشهداء بالقدر الذى يؤثر على العمالة فى هذه الأراضى . وقد يحمل كلام كيبريانوس جانبا من الحقيقة ، ولكنه لا يحمل كل الحقيقة ، فهو بالرغم من درايته — كما روى عنه — بالشئون الإدارية والإقتصادية ، إلا أنه كان قبل كل شىء يتحدث فى مقالته من وجهة نظر معينة وفى ظروف معينة بوصفه أسقفا يريد - من موقعه — أن يجاهر بنقده للسياسة الدينيه التى اتخذها الإمبراطور دقيوس تعبيرا عن شجبه ورفضه لهذه السياسة .

وإذا استبعدنا عواقب الدمار الذى ألحقته الإضطهادات الدينية بالحياة الزراعية ، وهى عواقب لم تكن — على أية حال — بالحجم الذى صوره كيبريانوس ، تبقى أمامنا عواقب الحروب مع الفرس والجرمان . صحيح أن هذه الحروب كان لها آثار سيئة على المناطق الزراعية وخاصة فى شمال إيطاليا وفى شرق غالة ، وصحيح أن مساحات من الأراضى أصبحت غير صالحة للزراعة بعد أن أصابها الخراب وهجرها أصحابها إلى مناطق القلاع والحصون طلبا للحماية ، ولكن حتى الدمار الذى خلفته تلك الحروب لم يكن حتى ذلك الوقت بالصورة التى يمكن أن تخل بالحياة الزراعية اخلالا تاما ، وإنما كان هذا الدمار محصورا فى بعض مناطق من الإمبراطورية الواسعة . وهذا الكلام ينطبق بطبيعة الحال على آثار الحروب التي دارت في كل من الشرق والغرب. كما أن الغارات التي كان يقوم بها البدو والبربر

على مزارع الولاية الأفريقية الخصيبة لم تكن من شأنها أن تلحق بالحياة الزراعية اضرارا جسيمة بالصورة التى قد تفهم من بعض المصادر .

أما الأضرار التى صورها كيبريانوس بسبب سياسة الاضطهاد فقد كانت من غير شك أضرارا جانبية لا يمكن أن تعمم على كل أرجاء الامبراطورية . وإنما كانت هناك الى جانب هذه العوامل وتلك عوامل أخرى كفيله بأن تؤثر على البنية الإنتاجية ذاتها . فمن المعروف أن الإنتاج الزراعى فى عصور الجمهورية كان يعتمد بصفة أولية على قدرة أصحاب الدخل المحدود من صغار الملاك على الإنتاج ، ولكن منذ عصر الجمهورية الأخير — وعلى التحديد منذ القرن الأول قبل الميلاد — تغيرت أوضاع هؤلاء الملاك الصغار بعد أن رسخ نظام اللاتيفونديا [١] ، وهو نظام الضياع الكبيرة ، فى السيطرة على إنتاج الدولة الزراعى ، ذلك النظام الذى كان يعتمد فى المقام الأول على العمالة الرخيصة للعبيد غير المدربين على تمنيات الزراعه بالرغم من توفر الوسائل التقنيه لأصحاب هذه الضياع . ومع ذلك كانت قدرة اللاتيفونديا الإنتاجية قدرة كبيرة نظرا إلى إتساعها ، ولم يكن من الممكن بطبيعة الحال أن تقاس بها قدرة الاراضى التى كان يملكها أصحاب الدخل المحدود الذين كانوا يجدون مشقة بالغة فى توفير الوسائل والإمكانيات الزراعية التى يمكن أن تعود عليهم بالفائدة ، وكانوا لا يستطيعون منافسة أصحاب الضياع الكبيرة فى الإنتاج والتسويق ، لأن كبار الملاك كانوا بما لهم فى نفوذ وإمكانيات مالية وعينية ضخمة يسيطرون على السوق ويتحكمون فى أسعار السلع الزراعية ، الأمر الذى أصاب الملكيات الصغيرة بالكساد ، ودفع أصحابها إلى التصرف فيها بالرهن والبيع لأصحاب الضياع وأثرياء المدن الذين أقبلوا على الشراء نظير مبالغ ضئيلة لا تفى بالحاجة .

(١) Latifundia

ولجأ بعض صغار المزارعين إلى الخدمة فى الضياع الكبيرة ، ولجأ البعض الآخر ممن كانت لهم موارد تكفى للحياة الكريمة إلى استئجار مساحات صغيرة من هذه الضياع لكى يعيشوا على فلاحتها ويقتاتوا من رزقها . ولكن أصحاب الضياع أخذوا يبالغون فى تحديد قيمة الإيجار، كما أخذوا يبالغون فى رفع هذه القيمة من وقت لآخر بحجة التعذر فى سداد الضرائب الباهظة التى كانت تفرضها الحكومة يوما بعد يوم . ولذلك أخذت الضغوط المالية تحيط بالمستأجرين الجدد من كل جانب ، وأصبح هؤلاء المستأجرون فى أكثر الأحيان عاجزين عن الوفاء بالإيجار ، لأن فرص تسويق المحاصيل — إن فاضت عن الحاجه — كانت قليلة ، بل كانت معدومة ، وغالبا ما كان يستولى كبار الملاك على هذه المحاصيل بأسعار زهيدة بخسة تكاد لا تكفى لسداد الإيجار المطلوب ومواجهة أعباء الحياة الملحة . وكان لا بد من أن تتراكم الديون على المستأجرين موسما بعد موسم ، ولم يكن هناك بد من أن يعمل المستأجرون فى النهاية فى خدمة أصحاب الضياع وفاءاً لهذه الديون . أما من كانت تضيق بهم سبل الحياة فكانوا يضطرون إلى الهجرة إلى المدينة طلبا للرزق فى مجالات التجارة والصناعة وغير ذلك من المجالات . وقد أدى كل هذا فى النهاية إلى إهمال العناية بالفلاحة وإلى تدهور الحياة الزراعية، وكان طبيعيا أن نرى مساحات كثيرة من الأراضى وقد أصابها الجفاف والتلف .

* * *

وجدير بالذكر أن الهجرة من الريف إلى المدينة لم تكن تعنى فى الواقع أكثر من هجرة الطبقات الدنيا من الفلاحين وصغار الملاك دون أن يكون لهذه الطبقات بعد الهجرة دور ملموس فى عملية التقدم الإجتماعى والاقتصادى ، لأن معظم هؤلاء المهاجرين كانوا يواجهون صعوبات كثيرة في الحصول على أعمال مناسبة

بسبب انتشار البطالة ، وكان الكثيرون يضطرون تحت ضغط الظروف إلى الإنضمام إلى جماعات السوقة والدهماء والخارجين على القانون مما كان يهدد الأمن ويؤثر على حياة المدينة ، ويلقى عبئا إقتصاديا جديدا على الدولة لكونهم قوة بشرية معطلة لا تساهم إلا فى أعمال السلب والعنف والشغب . ونظراً إلى كل هذه الظروف والمخاطر الناجمة عن الحروب ، تلك الحروب التى كانت تستهدف فى المقام الأول تدمير المدن الهامة والعواصم ، فقد انتقل ثقل الحياة إلى القريه ، وخاصة بعد أن نزح إليها بعض أثرياء المدينة الذين أقبلوا على شراء الضياع والأراضى ، وأخذت تتضح بذلك معالم الإقتصاد الريفى الذى سيصبح بعد ذلك عمادا للحياة الإقتصادية .

وندرة المصادر المكتوبة والشواهد الأثرية الدالة على عمليات البناء والتعمير هى السمة الجوهرية فى المعلومات القلية التى وصلتنا عن الأزمه الإجتماعية فى القرن الثالث . وقد يؤدى هذا الى الإعتقاد بأن القرن الثالث شهد تقلصا فى الحياة المدنية . ولكن الحقيقة أن المدن شهدت فى هذا القرن زحاما بل كثافة سكانية لم يسبق لها مثيل . ومن المؤكد أن العمران فى القرنين الأول والثانى كان عمرانا ظاهرا فى مختلف أرجاء الإمبراطورية . فماذا يعنى الآن التوقف عن التعمير ؟ إن النقوش تتحدث عادة عن المنشآت العامة والمؤسسات الرسمية ، وندرة مثل هذه النقوش قد تدل على عدم التوسع فى إقامة منشآت جديدة . ومع ذلك توجد هنا وهناك اشارات عابرة على بناء بيوت ومنازل خاصه فى مختلف المدن والضواحى . وقد لا يعنى هذا أن التوقف عن التعمير كان بسبب الحروب والغزوات المتوالية بطريقه مباشرة ، اذ أننا نرى نفس الظاهرة مثلا فى ميناء أوستيا (١) فى مقاطعه

لاتيوم[1] الإيطالية منذ نهاية القرن الثانى، وكذلك فى الولايه الأفريقية منذ مطلع القرن الثالث وهى الولاية التى كان السلام إلى حد ما يرفرف عليها آنذاك .

فهل يمكننا أن نتوسم فى هذه الظاهرة انهيارا اقتصاديا عاما ؟ أم أن المدن كان قد أصابها التقاصر فى القرن الثالث نتيجة لاعتبارات احصائية صرفةمع أنها ازدحمت كما رأينا بالسكان.؟ الحقيقة أننا لا نجد لهذه الظاهرة تفسيرا ثابتا ، ولا سيما أن بناء البيوت الريفية الفاخرة استمر فى مقاطعة بانونيا فى القرن الثالث برغم توقف البناء مثلا فى شتى القرى والمدن البريطانية . كل ما يمكننا إدراكه بصفة عامة هو أن الظروف الحربية كانت تقتضى من الحكومة الرومانية أن تولى اهتماما أكبر لبناء الحصون والاستحكامات العسكرية وتقوية خطوط الدفاع على سائر الجبهات ، وكان هذا يستلزم تخصيص جانب كبير من الميزانية للانفاق على برامج التسليح والدفاع ، لأن هذه المنشآت يتعلق بها قبل كل شىء أمن الدوله ، وقد رأينا كيف اضطرت الحكومة إلى تحصين مدن داكيا وموازيا وغاليا وأسبانيا وبلاد اليونان . ولاشك أنهذه الأعباء الثقيلة كان لها أثر ما على تعثر المشروعات التى كان قد وضعها الأفراد والدولة للانشاء والتعمير . والحقيقة أن كل ما نراه من مظاهر الثراء فى تشييد البيوت الخاصة فى مختلف الأقاليم يمكن أن نرجعه إلى سطوة الطبقة العليا واستغلال أصحاب النفوذ من محترفى السياسة والأثرياء . ومهما يكن الأمر فإن ظروف القرن الثالث كانت بداية لانتقال الحياة الناعمة إلى ربوع الريف حيث المنتجعات والبيوت الأنيقةالتى استمر تشييدها بعد ذلكفىالقرنالرابع علىنطاقأوسع .

لاشك إذاً فى أن الحروب الدفاعية والحروب الأهلية الكثيرة وماتطلبته من

تجنيد وتسليح وإنفاق على المرافق العسكرية ألقت عبئاً مالياً كبيراً على كاهل الدولة، ولاشك فى أن هذا العبء رفع من احتياج الدوله إلى الضرائب . وإذا كانت الحكومة الرومانية قد حاولت جاهدة باجراءاتها البيروقراطية الجريئة أن تواجه الحالة بشىء من الحزم ، إلا أن التدهور الاقتصادى لم يتوقف بسبب التهرب من دفع الضريبة المقررة وبسبب الخلل فى ميزان المدفوعات .

وظلت عواقب هذا التدهور وخيمة على الأوضاع المالية وعلى مستوى المعيشة بصفة عامة . وكان أوضح العواقب تدهور قيمة العملة وإرتفاع الأسعار . كان الدينار الفضى[١] والأوروس الذهبى[٢] الذى كان يساوى خمسة وعشرين ديناراً من أكثر العملات النقدية قيمة فيما مضى . أما الآن فقد أصابهما التدهور شأن العملات النقدية الأخرى التى انخفضت قدرتها الشرائية . وانصب التدهور بصفة خاصة على الدينار . صحيح أن قيمة الدينار أخذت فى التدهور منذ أواخر القرن الثانى بعد أن أنقص الامبراطور مارك أوريليوس وحدات الدينار الفضية إلى خمسة وسبعين فى المائة ، ولكن فى أوائل القرن الثالث نقصت الوحدات الفضية فى الدينار فى عهد الإمبراطور سبتيميوس ساويرس إلى خمسين فى المائة . وما لبث الامبراطور كاراكالا أن أصدر ديناراً أكبر فى الحجم مرة ونصف — ويحتمل أنه كان يساوى قيمة دينارين من الدنانير القديمة — هبطت فيه الوحدات الفضية إلى خمسة فى المائة . وأصدر الامبراطور أورليان عملتين من النحاس مخلوطتين بالفضة مختلف حتى الآن على قيمتهما .

---

(١) denarius .

(٢) aureus .

أما السسترس[1] البرونزى — وقيمته ربع دينار — فقد ظل إصداره حتى سنة ٢٧٠ ، وبعد ذلك اختفى من التداول إزاء الارتفاع الكبير فى أسعار السوق . وليس أدل على هذا الارتفاع من أن سعر القمح كان فى سنة ٣٠١ أعلى مائتى مرة من سعره فى القرن الأول .

والحقيقة أننا لانعرف إلا القليل عن نظام العملة الرومانية فى القرن الثالث ، ولا سيما فى الفتره الواقعة بين سنة ٢٧٠ وسنة ٣٠٠ ، وكذلك العمليات التى كانت ترتبط بها . فنحن مثلا لا نعرف على وجه الدقة كيف كانت البلدية ودور سك النقود الامبراطورية تحصل على المعادن الخام . وتوجد شواهد على أن تلك العصور سادتها الفوضى والصعاب ، فهناك نقش من منطقة كاريا[2] فى آسيا الصغرى يرجع إلى حوالى سنة ٢١٠ يحدد العقوبات على التلاعب فى الكامبيو وفروق العملة ، كما توجد بردية من سنة ٢٦٠ تحذر الصرافين فى مصر من إستبدال العملات الامبراطورية أو رفضها ، وبردية أخرى يرجع تاريخها إلى حوالى سنة ٣٠٠ تحتوى على خطاب من أحد الموظفين المصريين إلى أحد رجاله يطلب منه أن يصرف فى الحال كل ما لديه من النقود الإيطالية ، لأن الأباطرة كانوا يريدون إنقاص قيمتها إلى النصف .

ولا يمكننا حتى الآن أن نحيط بكل أسباب التدهور النقدى والتضخم المستمر. ولكن هذه الحالة كانت — على أية حال — عاملا فى إزدياد مطالب الدولة من الأموال لمواجهه المصروفات وأعباء الخدمة العامة ومعاشات الجنود ، ولا سيما بعد أن إزدادت نقط المراقبة البوليسية فى مختلف الولايات من أجل السيطرة على أعمال العنف والسلب التى عمت فى هذه الولايات . هذا وإن لم يكن هناك

---

(١) sestertius .

(٢) Caria .

مايشير إلى أن هذه الأعمال كانت لها صلة بأية ثورة اجتماعية . صحيح أن مؤشرات الثورة الاجتماعية وأسبابها — وهى فى الدرجه الأولى الضغوط الاجتماعية والمصاعب الاقتصادية — كانت موجودة ، ولكننا لانستقرىء من التاريخ قيام ثورات اجتماعية بالمعنى المفهوم . ولعل الثورة الوحيدة التى يمكن أن يكون لها هذا الطابع الإجتماعى هى ثورة الفلاحين الباجوديين[1] التى اندلعت فى غالة . أما تمرد الإيسوريين فى عهد الإمبراطور بروبوس فقد كان شيئاً آخر ، لأن هذا التمرد كان مجرد انتفاضة لجماعات جبلية خرجت على السلطة واستطاعت أن تنتهز فترات الأزمة لتقوم بأعمال السلب . وهناك دلائل على قيام أعمال مشابهة ، ولكن هذه الأعمال لم تكن تخفى وراءها فى النهاية أى صراع طبقى . وعلى أية حال فمن المحتمل أن توزيع عدد كبير من جنود الجيش على نقط المراقبة البوليسية فى مختلف الولايات لقمع مثل هذه الإعمال كان له أثر ما على تحرج الموقف فى خطوط الدفاع وعلى المقاومة العسكرية ضد الغزوات الإجنبية .

وهكذا نجد أن الإجراءات التى اتخذتها الحكومات الرومانيه فى القرن الثالث — وكان من المعتقد أنها إجراءات ضرورية للتغلب على الأزمة — لم تكن رغم صدق النوايا كفيلة بأن تضع الأمور فى نصابها ، لأن حجم المشاكل كما رأينا كان أكبر بكثير من حجم الإمكانيات التى تملكها الدولة . ومع ذلك كانت هذه الإجراءات — على أقل تقدير — أساساً سليما للاصلاحات التى تمت بعد ذلك فى القرن الرابع ، وهى الاصلاحات التى حددت بصورة أولية طبيعة الخدمات

(1) Bagaudi

التي يجب على الأفراد أن يقدموها للدولة ، وحددت أوضاع الملاك والمستأجرين ، ورسمت خطوط التطور الذى شكل مسار الاقتصاد وبصفة خاصة مسار الاقتصاد الريفي ، كما كانت هذه الإجراءات خطوة لتقرير نظام الوراثة الاجبارية للحرف من أجل الإبقاء على دخول الضرائب التى توالى الدولة فرضها على الورثة .

* * *

كان هناك نظام فى البداية . وكان هذا النظام يعنى أكثر من توزيع جديد للسلطة . وكان للسياسة التى اتبعها أباطرة القرن الثالث والمهام التى تولتها البيروقراطية الجديدة أثر حاسم على الحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية . لقد أصابت المجتمع الرومانى تطورات هامة بسبب هذه السياسة ، تطورات اتضحت أبعادها فى اصلاحات القرن الرابع . . . لاجدال فى أن الأوضاع الداخلية فى القرن الثالث نتجت عنها أزمة كبيرة تداخلت فيها الصراعات السياسية والمشاكل الاقتصادية ، ولاجدال فى أن الأوضاع الخارجية كانت هى العامل المعجل لهذه الأزمة ، ولكن كان من الضرورى أن يتغير السلوك الاجتماعى ، وكان من الضرورى أن تواكب هذا التغير تطلعات صادقة إلى حياة اجتماعية جديدة بعد أن أخذ أفراد المجتمع ينحون نحو التحرر من العلاقات الاجتماعية القديمة . . . وبعبارة أخرى يمكن أن يقال بأن شعور الرفض والقلق من جراء الأنظمة التقليدية كان لابد أن يؤدى فى النهاية إلى تغير فى عقلية المجتمع .

* * *

٣ — سقوط الامبراطورية الرومانية

نقاط الموضـــوع

قضية سقوط الامبراطورية فى الغرب — أهمية القضية فى نظر العلماء الأوربيين — خلاف المفكرين الوثنيين والمسيحيين المعاصرين على القضية — التأويل المسيحى لسفر دانيال ودوام الدولة الرومانية — التأويل المسيحى لإستوروية فرجيل الرابعة والعلاقة التاريخية بين الامبراطورية والمسيحية — الوثنيون والدورية التاريخية — المسيحيون ونظرية التاريخ عند أوغسطين — الكنيسة وتنظير مشكلة الامبراطورية — جيروم وفكرة الخيانة — سالفيان المرسيلى ومحنة الأخلاق — الجدل حول انهيار الحضارات القديمة — الإنسانيون فى عصر النهضة ومصير الإمبراطورية الرومانية — مشكلة الحضارة الكلاسيكية والمثل الامبراطورى — سقوط الامبراطورية كوحدة سياسية المدينة الدولية اليونانية أساس للنظام السياسى فى أوربا — فكرة الجمهورية المثالية — ايديولوجية المواطن والدولة — أرسطو ومفهوم الإنسان السياسى — فساد الديموقراطية الأثينية فى القرن الخامس قبل الميلاد وتطور نظام المدينة — فكرة المدينة فى العالم الهلينستى — الحضارة الرومانية والمفاهيم الهلينستية — رفض النظام الملكى فى إيطاليا — الرومان ونظرية

الجمهورية المادية — الإمبراطورية والفن السياسى — معانى الخلاص المسيحى بديل للحرية السياسية — استمرار التراث الكلاسيكى — دور اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى — اللغة اللاتينية لغة عالمية — قضية الفصحى والعامية ومشكلة الثقافة — الكنيسة واللغة العامية — التراث الرومانى فى العصور الوسطى — اللغة اللاتينية أصل اللغات الرومانسية — سيادة اللغة اللاتينية على اللغات القومية — دور الجامعات فى حفظ التراث الكلاسيكى — نهضة الفكر الأرسطوطاليسى — عصر النهضة وإحياء التراث القديم — كشوف المخطوطات اللاتينية — مصير اللغة اليونانية فى أوربا وكشوف المخطوطات اليونانية — المديتشى والتراث الكلاسيكى — اللغة اليونانية واللغة اللاتينيه فى العصر الحديث — الثقافة الكلاسيكية والفكر المسيحى — القانون الرومانى — أثر الشروح الفقهيه فى بيزنطه على دراسة القانون فى أوربا — القانون الكنسى — الكنيسة والمفاهيم السياسيه الرومانيه — البابويه وفكرة الإمبراطورية — سقوط الإمبراطوريه وتفسير المؤرخين المحدثين — إدوارد جيبون — الرخاء الإقتصادى والإضمحلال — أخطار الإيديولوجيات المستوردة على مفاهيم السلطة والحرية — المسيحيه ومحنه الإمبراطوريه — ميخائيل روستوفزيف — العامه ومشكله الحضارة — فرديناند لوت — مشاكل الإمبراطوريه وضعف الشعور بالمصلحه — فتور شخصية الدولة — الحضارة الرومانيه ونزعات التصوف — بيورى — نظريه المصادفه — أندريه بيجانيول — الحروب الجرمانيه — أرنولد توينبى — الخاتمه الطبيعيه لاخفاق الحضارة اليونانيه — قصور الحضارة الرومانيه عن منافسه الدين المسيحى — تشارلز كوشرين — القوة اللامحدودة للعقل وعيوب الفكر الكلاسيكى .

إذا كانت الدراسات التاريخيه المعاصرة تعالج قضيتين على جانب من الأهمية هما قضية العصور المظلمة وقضية البداية الحقيقية للعصور الوسطى التى سوف نعرض لها بعد ذلك ، فإن هناك قضية ثالثة تعنى بها هذه الدراسات ولا تقل عن القضيتين السابقتين فى الأهمية ، بل إن علم التاريخ الأوربى بالذات يعتبرها من أخطر القضايا على الإطلاق . ونقصد بهذه القضية قضية سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية فى القرن الخامس ، وهى القضية التى تحقق فى العوامل والظروف التى أدت إلى تصدع امبراطورية تعد فى نظر أغلب العلماء المحدثين ، والعلماء الأوربيين بصفة خاصـــة ، من أعظم الامبراطوريات التى شهدها التاريخ . ولعل المبالغة التى قد نلمسها فى هذه النظرة لا يبررها إلا اعتزاز الأوربيين بالشخصية الأوربية وعيهم بالتراث الأوربى القومى القديم . وليست هذه النظرة فى الحقيقة إلا حلقة من حلقات الرأى الذى عقده من قبل المؤرخون والمفكرون الرومان الذين عاصروا أحداث الإمبراطورية الأخيرة وعاشوا مراحل انهيارها المختلفة .

فمنذ أن ساءت أحوال الإمبراطورية الرومانية فى أواخر القرن الثانى تعلقت بأذهان المفكرين الوثنيين والمسيحيين على السواء قضية الحضارة الإنسانية ، ومثلت أمامهم رؤيا نبوخذ نصر ملك بابل ورؤيا النبى دانيال كما وردتا فى العهـــد القديم [1] ، وهما الرؤيتان اللتان رأى فيهما الفكر العبرانى المتأخر تفسيرا أخرويا لغروب الحضارات القديمة ، ورأى فيهما الفكر المسيحى شروق الدولة الرومانية التى تبقى حتى الأزل . ولذلك لما أخذت حضارة العصور الرومانية العريقة فى الأفول ، أصبح هذا الحدث الجلل موضع ريبة وجدل عنيف ، وأثارت القصيدة البستورية الرابعة التى كتبها الشاعر الوثنى فرجيل قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو

---

(١) دانيـال ٢ : ٣٧ — ٤٤ ؛ ٧ : ١٢ — ١٤ . أنظر العمراوى ، « نظرات هيستوريوغرافية فى التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى فيما قبل القرن العاشر » : مجلة كلية الآداب والتربية بجامعة الكويت ، العدد الثالث والعدد الرابع (يونيو

أربعين عاما (١) وتنبأ فيها فرجيل — كما اعتقد آباء الكنيسة — بمولد السيد المسيح ... أثارت هذه القصيدة كثيرا من التساؤل ، لأن العلاقة التاريخية الأبدية ، التى افترضها التفسير المسيحى للقصيدة بين الامبراطورية الأغسطية الجديدة وبين المسيحية التى أخذت حديثا مسارها فى العالم الرومانى (٢) ، بدأت تفقد معناها بعد أن أصاب هذه العلاقة كثير من الشك إزاء التطورات المحزنة التى تكاد الآن تقضى

(١) كتب فرجيل هذه القصيدة الرعوية حوالى سنة ٣٩ قبل الميلاد ، وذلك فى عهد الإمبراطور أغسطس ، وهى القصيدة التى اشتهرت بالقصيدة المسياوية messianic eclogue ومعناها القصيدة المسيحية ، وقد ذهبت الأبحاث الاخيرة الى أن السيد المسيح ولد بين السنة السادسه والسنة الرابعة قبل الميلاد المعروف .

(٢) ذكر فرجيل فى القصيدة أن طفلا سعيدا سوف يولد لأم فاضلة عظيمة وسوف يتحقق فى عهده السلام والعصر الذهبى . وفهم البعض هذه النبوءة على أنها اشارة الى الابن المنتظر لانطونيو وأوكتافيا Octavia ابنة الامبراطور أغسطس من زوجته الثانية ليفيا Livia لأن زواج أوكتافيا من أنطونيو الذى تم فى سنة ٤٠ قبل الميلاد هو الذى سيقرر فى برنديزى Brundisium (Brindisi) بصفة نهائية ميثاق السلام مع أنطونيو ، وأن هذه النبوءة لا يمكن أن تنصرف إلى أولاد أغسطس من زوجته الأولى سكريبونيا Scribonia ، لأن أغسطس وسكريبونيا لم ينجبا غير ابنة تعيسة هى جوليا Julia التى طلق أغسطس أمها عقب مولدها . أما التفسير المسيحى للقصيدة فقد اعتبر أن الطفل الذى تحدث عنه فرجيل هو السيد المسيح ، وأن الأم العظيمة التى مجدها هى السيدة مريم العذراء . ويقول أوسابيوس القيصرى فى خطابه لقداسة الأساقفة oratio ad sonctos أن الامبراطور قسطنطين هو الذى استهل هذا التفسير فى مجمع نيقية المسكونى الأول الذى انعقد فى سنه ٣٢٥ ، واعتقد أوسابيوس على هذا الأساس أن ارتباط المسيحيه بالسلام الأغسطى كان بفضل العنايه الالهيه . وانبثقت من هذا الاعتقاد فكرة المصير الواحد للمسيحيه

على كل توقع لاستمرار هذه الدولة المتهاوية . وعلى ذلك فإن الامبراطورية الرومانية والمسيحية لن يتحقق لهما مستقبل واحد ومصير واحد كما ذهب تفسير آباء الكنيسة ، لأن الامبراطورية الآن كما تبدو للمعاصرين فى طريقها إلى الزوال .

اختلف الوثنيون والمسيحيون حول الأحداث وحول مستقبل الإمبراطورية الرومانية فى وضعها الراهن . لقد رأى الوثنيون أن مجد الإمبراطورية لابد أن يعود ، لأن النظرية التاريخية اليونانية التى ورثها الرومان تقول بدورية التاريخ حسب تقديرات ثابتة وحادثة لقيام الحضارة وزوالها. وبالرغم من أن أوريجانوس الاسكندرى أشهر آباء الكنيسة الشرقية كان قد تبنى فى القرن الثالث نظرية الدورة التاريخية فى الفكر المسيحى ، الا أن المسيحيين عادوا ونفوا أزلية الدوله الرومانية التى أشار اليها حسب اعتقاد الكنيسة سفر النبي دانيال ، لأن بوادر الانهيار بدت حقيقة ملموسة لا يمكن أن يغفلها أحد ، ولأن هذه البوادر لا يمكن أن تؤدى إلى مستقبل ذهبى تدور فيه الامبراطورية والمسيحية فى فلك واحد ، واستندوا إلى الفكرة التى اعتنقها أشهر آباء الكنيسة الغربيه وهو أوغسطين أسقف بونه ، تلك الفكرة التى اعتبرت حركة التاريخ حركة طردية فى مستقبل الأمم ، حركة ليس لها عوده الى الماضى ، لإن الهدف النهائى من التاريخ انما هو فى نظر أوغسطين هدف واحد يتجسد فى المسيح ، والمسيح ولد مرة واحدة ، ومات مرة واحدة ، وقام من الاموات مرة واحد [1] . وراح كل فريق يكيل التهم للفريق الآخر

أخذ الوثنيون بتلابيب المسيحية ، لأن المسيحية غرست فى النفس روح الوداعة والسكينة ، وصرفت الناس عن مكارم القوة والغلبة التى قام عليها فى الماضى مجد الرومان . وراع المسيحيين أن الدولة تهوى صريعة الغدر والشرك والمظالم التى

(١) أنظر الغمراوى ، موضوعات فى الثقافة الاوربية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٣٠ — ٢١ .

أشاعتها الحضارة الوثنية على مر التاريخ . وبلغ الجدل أشده بعد أن سقطت روما في سنة ٤١٠ على يد الجرمانى الاريش ملك القوط الغربيين . ولم يكن هذا الجدل في الحقيقة إلا صدى الخلاف الذى ثار قبل ذلك بين الوثنيين وبين الابولوجيين المدافعين عن الايمان المسيحى حول تدهور الامبراطورية الرومانية منذ أواخر القرن الثانى بعد أن وصلت الامبراطورية إلى ذروة حضارتها . . . فهل أخذ التدهور يسرى نتيجة لعزوف المسيحيين عن آلهة الدولة ؟ أم نتيجة لغضب الله على مضطهدى الكنيسة ؟ القضية بهذا المعنى قضية دينية وأخلاقية .

وهل يا ترى هذه القضية رهينة بجواب هذا السؤال وذاك ؟ ان المعيار الاخلاقى فى حد ذاته معيار صحيح ، وقد يصدق هذا المعيار على الحضارات القديمة ، والحضارة الرومانية على وجه التحديد ، وهى الحضارة التى ساد فيها انحلال الاخلاق والقيم ووصل فيها الإنحلال مداه فى عصور الإمبراطورية . تلك الجوانب الكئيبة فى حياة العالم الرومانى ، الجوانب التى أفصحت عنها هنا وهناك سطور الشعراء ، والتى يفضل علماء الدراسات الكلاسيكية أغفالها ، لأنها تسقط قيم الدولة الرومانية ومثلها العليا . على أية حال نحن نذهب مع الذين يعتقدون بأن المعيار الأخلاقى فى تفسير التاريخ إنما هو معيار ايديولوجى بحت ، لأن مفاهيم الإخلاق تختلف بطبيعتها من عصر لآخر . وحسبنا مثل الرق الذى كان نظاماً سائداً فى المجتمع اليونانى القديم لا يثير فضول أحد ، وكذا المفاهيم العاطفية والجنسية . تلك الأوضاع التى يرفضها عصرنا بكل تأكيد . ولكن مهما كانت آراء المعاصرين فى أزمة الإمبراطورية الرومانيه ، فان رأى الكنيسة كان لا بد أن ينبع من قيم الدين والأخلاق ، فضلا عن أن هذا الرأى كان تنظيراً للمشكلة لكى ترد الكنيسة على مزاعم الوثنيين . ومع ذلك فإن حياة أمة من الأمم لا يمكن أن تنتهي بسبب واحد. ومن الطبيعي أن

يكون هناك أكثر من سبب . ولابد أن تتضافر كل الأسباب مهما كانت على خلق الإنهيار .

* * *

سبق أن بينا طبيعة الظروف القاسية التى أحاطت بالإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث ، وتركت على وجهها — برغم التطور الذى حدث فى القرن الرابع — بصمات من التدهور لاتنمحى جعلت من مواجهة الغزو الجرمانى الكبير فى القرن الخامس مسألة لا يمكن حسابها بتقديرات السياسة الرومانية القديمة . بل أن الناس غمرت نفوسهم مشاعر اليأس والقنوط منذ أن نفذ الجرمان فى أراضى الإمبراطورية . وقد نقل إلينا المؤرخون والأدباء المعاصرون هذه المشاعر فى خواطر تلقائية حية أفصحت عن كثير من الأمور التى سادها الاضطراب والفوضى ، ودب بين المفكرين كما رأينا خلاف حول دوافع الهزائم التى منيت بها الامبراطورية الرومانية فى عصورها الأخيرة ولاسيما هزائم القرن الخامس التى قضت على الإمبراطورية الغربية قضاءاً مبرماً . وكان أن هزت الأحداث أثنين من كبار رجال الكنيسة فى القرن الخامس هما جيروم الذى وافته الأنباء المحزنة وهو فى عزلته فى فلسطين يسطر النسخة الجديدة للكتاب المقدس ، وسالفيان المرسيلى[١] الذى شهد بنفسه غزو القوط الغربيين لبلاده وهم يزحفون نحو أسبانيا .

أرجع جيروم سبب الهزيمة فى كتابه عن مشاهير الرجال[٢] إلى خيانة الضابط

---

(١) Salvianus Massilienis (حوالى ٤٠٠ - حوالى ٤٧٠) .

(٢) liber de viris illustribus ، كتب جيروم مشاهير الرجال فى سنة ٣٩٢ .

الفندالى استيليكو(١) الذى عينه الامبراطور ثيودوسيوس الأول مستشار لابنه أونوريوس . لقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية بعد وفاة ثيودوسيوس فى سنة ٣٩٥ إلى امبراطورية شرقية حكمها ولده أركاديوس ، وإمبراطورية غربية حكمها ولده الثانى أونوريوس . وكان استيليكو الشخصية الأولى فى بلاط الامبراطور الغربى ، وتجاوز طموحه أمور السياسة فأصبح القائد الأعلى للجيش الرومانى الذى كان عليه أن يحارب ألاريش ملك القوط الغربيين عندما هجم على إيطاليا . وثبتت خيانة استيليكو عندما تواطأ مع ألاريش وسمح له بالهرب بعد أسره ، مما أعطى الفرصة لملك القوط أن يعاود هجومه على إيطاليا ، وأن يحتل روما عاصمة الإمبراطورية . ولعل جيروم كان يدين هنا سابقة الأباطرة الخطيرة فى توظيف الأجانب وتجنيدهم فى الجيش الإمبراطورى ، وأن كان جيروم قد دافع عن سياسة أركاديوس وأونوريوس ، ووصفهما كما لم يصف أحد أحداً من قبل بالتقوى والصلاح ، وكأن جيروم كان يخفف عن كاهل الأخوين عبء الخطأ الذى ارتكبه أبوهما عندما نصب استيليكو مستشاراً فى بلاط الغرب ونصب روفينوس(٢) الغالى مستشارا فى بلاط الشرق . . . لقد تساءل جيروم والألم يعتصر قلبه : « من ذا الذى يصدق الحقيقة بعدئذ ؟ وأى سجل أحداث سيروى أن روما كانت تحارب داخل حدودها ليس بقصد المجد وإنما من أجل مجرد الحياة ؟ » .

---

(١) Stilicho .

(٢) Rufinus .

(٢) Marcus Annaeus Lucanus (٣٩ — ٦٥) .

وإذا كان الشاعر لوقان قد قال فى القرن الأول فى ملحمة الحرب الأهلية وفى مقطوعة تحتـــدم بالانفعال : « إذا وهنت روما فأين عسانا نتشوف المقدرة ؟ » ، فان جيروم يسأل الآن بحق : « إذا ضاعت روما فأين ترانا نبحث عن العون ؟ » .

أما سالفيان المرسيلى فيعزو إنهيار الإمبراطورية فى كتاب حكومة الله[١] إلى انحلال الأخلاق الذى ساد المجتمع الرومانى ، والحياة الآثيمة التى كانت داعية إلى الهزيمة أمام الجرمان . إن سالفيان يقول وقد علت قلمه الدهشة : « أى رجاء يحق لدولتنا أن تتعلق بأهدابه إذا كان الجرامنة أبلغ منا صفاءاً ونقاءاً ؟ إن ماأقوله الآن لهو القليل . أى رجاء فى الحياة والغفران ونحن نرى عفافة الجرامنة ونحن الرومان لانقوى على أن نـكون أعفة ؟ أليس حقيقا بنا أن نشعر بالخزى والحياء ؟ إنى أصيح بأعلى صوتى لـكى يسمع العالم أجمع أن كفوا أيها الرومان عن هذا الصلف أينما كنتم ، وأخزوا النفس بمر الحق وليـكن معشركم الخجل والندامة . . . ألا تعلمون أننا شقينا بالدنس ؟ . . . إن قوة الغرماء لم تـكن هى التى لطمتنا الهزيمة ، ولـكن نحن الذين لطمنا أنفسنا بتلك الحياة الآثيمة الشنعاء » .

وتعمق النقاش حول فجيعة الامبراطورية الرومانية وعلا صوت الاحتجاج فى كتاب مدينة الله[٢] الذى ألفه[٣] أوغسطين إبان المأساة التى كانت تعانيها الامبراطورية أمام جحافل الجرمان الزاحفة فى كل اتجاه ، وكان أوغسطين

---

(١) de gubernatione dei ، كتب سالفيان المرسيلى حكومة الله من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٤٥١ .

(٢) de Civitate dei .

(٣) استغرق تأليف كتاب مدينة الله ثلاثة عشر عاما (من سنة ٤١٣ إلى ٤٢٦)

يبحث عن جواب شاف لهذه المأساة[1] . وانتقلت المعانى التى دار حولها النقاش والتساؤل فى كتاب أو غسطين إلى فكر الإنسانيين فى عصر النهضة . ومنذ ذلك الوقت أصبح البحث عن أسباب انهيار الإمبراطورية الرومانية فى الغرب تقليد المفكرين والمؤرخين والساسة الأوربيين على مر الأجيال مروراً بآراء ماكيافيلى ومونتسكيو وإدوارد جيبون وإنتهاء بالمفاهيم الحديثة لمورفولوجيا (بنية) الحضارة فى فكر أوزفالد اشبنجلر[2] وأرنولد توينبى . . . وأصبحت نهاية العالم الأوربى القديم قياساً لمصير كل الحضارات والمجتمعات .

حقا لقد كانت كوارث الإمبراطوريات والحضارات السابقة معروفة للأوربيين منذ زمن بعيد يرجع إلى العصور الكلاسيكية نفسها كالهجرة الدورية ، وسقوط امبراطوريات الإشوريين ، والبابليين ، والميديين ، والفرس القدماء ، وإمبراطورية الإسكندر المقدونى ، ولكن كارثة الامبراطورية الرومانية كانت هى المثل الوحيد الذى استقر فى ضمير الأوربيين عبر الزمن ، لأن الآثار الرومانية هنا وهناك من سور أدريان[3] فى أقصى شمال إنجلترا حتى جنوب الفرات كانت دائماً ماثلة للعيان ، ولأن اجتياح الجرمان للامبراطورية كان دائماً فى ذاكرة رجال الكنيسة ، فكتب العصر الرومانى الأخير كانت تردد ذكرى الأحداث الفاجعة دون ملل ، وفى الملاحم وأناشيد البطولة التى تروى هجرة

---

(١) أنظر الغمراوى ، موضوعات فى الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٩ يتبع .

(٢) Oswald Spengler (١٨٨٠ - ١٩٢٣) .

(٣) أمر الإمبراطور الرومانى أدريان ببناء هذا السور على وجه الإحتمال عقب زيارته لبريطانيا فى سنة ١٢٢ . ويمتد السور من نهر التاين Tyne شرقا إلى سولواى Solway غربا فى مقاطعة نورثومبريا Northumbria القديمة فى شمال إنجلترا .

الشعوب الجرمانية[1] كان يدوى صوت المعارك على الدوام . وجاءت الحركة الإنسانية فى القرن الخامس عشر وتعلق الإنسانيون بتراث الحضارة الكلاسيكية وراعهم مصير الإمبراطورية الرومانية التى استوعبت هذه الحضارة وفرضت القانون والنظام فى عالم شاسع كبير راقت له مظاهر المدنية الجديدة ... هذا المصير الذى جذب إهتمام الإنسانيين كما جذبت روعة التراث القديم . وظل إهتمام العلماء والمفكرين بمصير الإمبراطورية الرومانية الغربية حتى يومنا هذا . وحتى بعد أن كشفت الدراسات المقارنة الحديثة عن حالات مشابهة كثيرة تغلبت فيها الجماعات المرتحلة على أمم الحضارات العريقة المستقرة ، ونذكر منها غلبة الرعاة الساميين على السومريين فى العراق ، وغلبة الآخيين على عالم الحضارة المينية فى كريت ، والهندوآريين على الدرافيديين فى الهند ، ظلت غلبة الجرمان على الإمبراطورية الرومانية فى الغرب فى وجدان الأوربيين حتى الآن مثل الأمثال .

وما دام الأمر كذلك فقد حاول المؤرخون المحدثون إستخلاص عيوب الحضارة الرومانية من أجل الوصول إلى إستنتاجات يفسرون بها مشكلة إنهيار العالم الغربى القديم . ونظراً إلى أن النقاد والمؤرخين قد توصلوا إلى تفسيرات وآراء كثيرة لا يمكن الإحاطة بها جميعاً ، فقد رأينا أن نعرض هنا بعض التفسيرات والآراء التى تعتبر فى حدود علمنا أهم ماطرح فى هذا الموضوع . ولكن علينا قبل كل شيء أن نسأل : هل أنصرفت إحالة المؤرخين على هذه المشكلة إلى نهاية الحضارة الكلاسيكية كحضارة ؟ أم إلى فتور المثل الأعلى الامبراطورى ؟ أم إلى تصدع

(١) انظر الغمراوى ، ملحمة البطولة الجرمانية ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٠ يتبع .

الإمبراطورية الرومانية كوحدة سياسية ؟ وعلينا أن نجيب على هذه الفروض الثلاثة قبل الخوض فى هذه المشكلة .

* * *

الحق أن روح الحضارة الأوربية القديمة ظهرت أول ما ظهرت فى بلاد اليونان فى نظام المدينة الدولية الذى كان معروفاً عند اليونانيين القدماء بنظام البوليس(١) ، ونعرفه الآن فى مصطلح اللغة الإنجليزية بنظام السيتى ستيت(٢) . والحقيقة أن كلمة بوليس كانت تعنى فى اللغة اليونانية القديمة مدينة بالمعنى الطوبوغرافى ، وكانت تعنى كذلك بالمفهوم السياسى الذى تأسس عليه هذا النظام الجديد فى اليونان مدينة لها صفات الدولة المستقلة التى تمارس سيادتها على أراضيها وكل الأقاليم التابعة لها ، وتعمل من أجل إسعاد جميع المواطنين الذين يعيشون داخل حدودها وتأمين حاضرهم ومستقبلهم ، لأن المواطنين هم الذين يقومون بأداء الواجبات التى تفرضها عليهم قوانين المدينة ، وهم الذين من حقهم أن يكتسبوا وأن يتمتعوا بكل الحقوق التى تكفلها لهم القوانين مقابل هذا العمل الجاد وهذه الخدمة الوطنية الكبرى . وقد قدم لنا الشاعر اليونانى القديم هسيود الذى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد ايديولوجية هذا العمل الجاد فى ملحمة الأعمال والأيام(٣) ، كما قدم الفيلسوف اليونانى الكبير أرسطوطاليس الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد تقييما لنظام المدينة الدولية من وجهة نظره فى كتاب السياسة(٤) ... هذه المدينة اليونانية بهذه الأبعاد الطوبوغرافية

---

(١) polis .

(٢) City-state .

(٣) erga kai hemerai .

(٤) politica

والسياسية كانت منطلقاً أوليا لفكرة الدولة والمجتمع فى أوربا ، وكانت منطلقاً أولياً لمعانى الحرية والديموقراطية . . . لقد انبثقت من مفهوم المدينة اليونانية بهذه المعانى كل الأنظمة السياسية والأوضاع الحياتية التى أقرتها بلاد اليونان وخالفت بها كل الأنظمة والأوضاع فى دول الشرق القديم .

ويكاد يكون من المتفق عليه أن نظام المدينه الدولية بمعناه السياسى الجديد نشأ فى بلاد اليونان فى القرن التاسع قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل عندما كان النظام الملكى فى طريقه إلى الإندثار . ويمكن أن يقال أن هذا النظام نشأ فى زمن الشاعر اليونانى القديم هوميروس ، على فرض أن هوميروس كما يذهب أغلب نقاد الأدب اليونانى عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . لقد أمكننا أن نعرف من المصادر الأدبية والمصادر التاريخيه القديمة ومن الكشوف الأثرية الاخيرة مدى التدهور الذى لحق بعالم الحضارة الميكينية بعد حرب طروادة ، ومدى التدمير والتخريب الذى أحدثته الثورات الداخلية والحروب الضارية التى نشبت بين المدن اليونانية فى أواخر العصر البرونزى . وعلى أثر ذلك وصلت بلاد اليونان إلى حالة من الإضطراب والفوضى ، وإندفعت جموع الدوريين من إبيروس وغرب مقدونيا نحو الجنوب وغزت مقاطعات البلبيونيز ما عدا مقاطعة أتيكا ومقاطعة أركاديا ، وإنطلقت هذه الجموع فى هجرات عارمه عبر البحار . وأمام هذا الغزو الدورى الكبير رحل كثير من الآخيين من شبه جزيرة البلبيونيز واستقروا فى جزر بحرايجة ومناطق الساحل الغربى من شبه جزيرة آسيا الصغرى ، وتغيرت بذلك الملامح الديموغرافية على خارطة العالم اليونانى . وما أن حل القرن الحادى عشر قبل الميلاد حتى كان العصر الحديدى قد بدأ فى بوس وشواش شملا جميع اليونان وشرق البحر المتوسط .

لقد كانت المدينة وحدة النظام الحياتى فى أرض اليونان وفى جزيرة كريت منذ أقدم الأزمان، فقد كانت هناك في جزيرة كريت وفي بلاد اليونان مدن عديدة

تكون كل مدينة منها وحدة قائمة بذاتها يسود فيها نظام الحكم الملكى الذى يعمل لمصلحة الملك والنبلاء والأثرياء . والحقيقة أن مظاهر الإستقلال التى طبعت المدن اليونانية على هذا النحو كانت راجعة إلى الطبيعة الإقليمية ، فبلاد اليونان كما هو معروف بلاد جبلية وعرة تكثر فيها المناطق السهلية المنعزلة والجزر وأشباه الجزر ، كما كان الشعب اليونانى ينقسم إلى عشائر وقبائل كثيرة تعددت بينها اللهجات والعادات والعبادات ، ولذلك كان لابد أن تكون كل مدينة وحدة قائمة بذاتها تعتمد على مواردها وعلى ما تجلبه من المدن الأخرى فى حدود العلاقات التى كانت تربطها بها .

ولكن المدن اليونانية كانت تنهك قواها منازعات الملوك والعشائر ، كما كانت تمزقها صراعات ملاك الأرض والعبيد . وكثيراً ما كانت تنشب الحروب بين المدن اليونانية نتيجة للخلافات والأحقاد ، ولكن كانت تجمع بينها المواقف فى أوقات الشدة ، وإلياذة هوميروس تذكر لنا كيف جمع أجاممنون(١) ملك ميكيناى(٢) ملوك اليونان على رأى واحد وقادهم إلى حرب طروادة . على اية حال أدت خلافات المدن إلى حالة من الفوضى إشتدت حدتها ابان الحرب الطروادية وبعدها ، وخمدت بذلك جذوة الحضارة الميكينية . وبعد أن زاد الغزو الدورى من سوء الحالة وشردت كما رأينا جموع غفيرة من الآخيين إلى جزائر البحر الايجى وآسيا الصغرى ، أصبحت شبه جزيرة اليونان يتهددها الفقر والمجاعة ... تلك الحالة التى بدأ بها العصر الحديدى ...

وما أن إقترب القرن العاشر قبل الميلاد حتى كانت الحياة فى العالم اليونانى قد تغيرت تماماً عما كانت عليه فى العصر البرونزى ، فقد بدأ الآن عصر جديد شاركت فيه أجيال الدوريين والآخيين الشاردين فى صنع المستقبل الحضارى الذى كان على

---

(1) Agamemnon .

العالم اليونانى أن يشهده عن كثب عصر جديد كان لابد أن يبحث فيه اليونانيون عن نظام جديد يجمع شمل الحياة من جديد . عصر يتحقق فيه الأمن والإستقرار بعيداً عن مطامع الملوك والنبلاء . كان لابد من توفير المقومات لحياة تدفع اليونان إلى مستقبل حضارى أفضل . . . وفى مستقبل الحضارة اليونانية الموعود لاحت هنا فى سماء أقريطش[١] والبليبونيز شمس المدينة الدولية الجديدة . . . ولاحت هناك فى أيونيا فى آسيا الصغرى شمس الأدب اليونانى العظيم . . .

وعلى ذلك قام نظام المدينة اليونانية الجديد لكى يناهض نظام الحكم الملكى . قام فى جزيرة كريت وفى مدن البليبونيز كورنثا[٢]، وميجارا[٣] وإسبرطة[٤] ، ثم عمم فى جميع مدن اليونان . وقدر لبعض هذه المدن أن تلعب دوراً هاماً فى التاريخ اليونانى على رأسها أثينا وإسبرطه . وقرر هذا النظام أن تكون سياسة المدينة لصالح جميع المواطنين الذين يخضعون لقوانينها ويعيشون فى ظل مبادئها السياسية وعقائدها الدينية ، وأكد على العلاقة العضوية الوثيقة بين المدينة والمواطن ، ومن هنا أخذت المدينة اسم البوليس نسبة إلى البوليتيس[٥] وهو المواطن ، لأن المواطن هو الإنسان الذى تدور حوله ومن أجله سياسه المدينة ، وهو الذى يحكم المدينة مع أقرانه المواطنين ، لأن المدينه مدينة المواطنين . . . المواطنين بمختلف طبقاتهم . . . طبقات النبلاء والأثرياء وعامة الشعب على السواء . . . وباصطلاحات اللغة الإجتماعية طبقات الأرستقراطيين والأليجاركيين والعامة .

---

(١) كريت .

(٢) Korinthos .

(٣) Megara .

(٤) Sparta .

وكان تطور المدينة تطوراً قائماً على الديناميكية السياسية لجميع طبقات المجتمع . ولكن الصراع بين هذه الطبقات لم يكن صراعاً إجتماعياً ، لأن المجتمع اليونانى كان مجتمعاً طبقياً صريحاً وعلى هذا الأساس الطبقى كان تنظير الفكر وتفعيل الحضارة عبر تاريخ اليونان ، وإنما كان الصراع بين هذه الطبقات صراعاً سياسياً على مستقبل الدولة ... كان صراعاً من أجل تحقيق السياسة المثلى التى يمكن أن يفيد منها أكبر عدد من المواطنين . وعلى هذا الأساس السياسى لم تكن البوليتيا (١) وهى المواطنة تعنى فى حد ذاتها جنسية الفرد وانتماءه إلى المدينة بقدر ما كانت تعنى جنسية مجموع المواطنين الذين يصدق عليهم هذا الإنتماء ويسعون معاً إلى رسم السياسة المثلى التى من شأنها أن تحقق الرخاء والسعادة للجميع . وكانت البوليتيا تعنى كذلك نظام المدينة الدولية كايديولوجية للحكم ، وتعنى المدينة الدولية نفسها ، لأن هذا النظام يهدف إلى خدمة الديموس (٢) ، أى الجمهور أو الشعب الذى يتمتع بجنسية المدينة ، ولأن المدينة تدير شئونها حكومة جمهورية شعبية ، أى حكومة ديموقراطية .

فنظام المدينة الدولية فى بلاد اليونان كان فى النهاية نظاماً جمهورياً يقوم على أساس ديموقراطى ، والمدينة الدولية فى النهاية جمهورية ديموقراطية . ومع ذلك فإن هذه المفاهيم السياسية كانت مثاراً لخلافات فى مختلف المدن اليونانية وخاصة فى أثينا ، خلافات حول التطبيق إنبثقت منها بعض الإتجاهات الفلسفية التى كانت علامات على طريق الفكر اليونانى على مر القرون ، ولا سيما فى القرن الخامس حينما أخذ الخلاف فى أثينا صفة الثورة بين السوفسطائيين المجــــددين أمثال جورجياس (٣) وهيبياس (٤)

---

(١) Politeia .

(٢) demos .

(٣) Gorgias .

وأنطيفون (١) وبين الفلاسفة التقليديين أمثال أفلاطون ... حول ما أسميت بالديموقراطية الأثينية وحول المعانى الحقيقية للحياة الديموقراطية السليمة .

هكذا لم يكن مواطنو المدينة الدولية مجرد أفراد جمعتهم المقادير فى مكان واحد ، وإنما كانوا مجتمعاً تربط أفراده علاقات النسب والدين والموقع . وكل فرد إنما كان ينتمى إلى هذا المجتمع فى هذه الدولة الصغيرة . بل ولم تكن المدينة الدولية مجرد مدينة يعيش فيها مجتمع سياسى تحكمه مفاهيم المواطنة والحقوق السياسية وتدور فيه لصالح كل أفراده عجلة السياسة ، وإنما كانت المواطنة الحقة تعنى كذلك إحترام آلهة المدينة ، كما كانت تعنى أداء الخدمة العسكرية ، والدفاع عن الوطن والنظام القائم ، والعمل على إزدهار الحياة الإقتصادية ، وطاعة القوانين ، وغير ذلك من الواجبات التى يفرضها الدين والقانون والوازع الأخلاقى . فكل هذه المبادىء والواجبات هى التى تتوقف عليها سياسة المدينة الدولية فى مقابل الحقوق التى يكفلها القانون للمواطنين . وهى مبادىء وواجبات لا تقبل النقض . ومن ينقضها من المواطنين ومن غيرهم هو بالضرورة شخص غير مرغوب فيه (٢) ، خارج على القانون وتقاليد المجتمع ، شخص يحل عقابه وطرده من المدينة . فكل سياسة مهما كانت لابد أن تدور فى فلك هذه المبادىء والواجبات التى تحدد مسار الحاضر والمستقبل . والمواطن اليونانى المثالى كان هو المواطن الذى أسماه أرسطو بالكائن السياسى ... زوون بوليتيكون (٣) ... ذلك الإنسان الحر الذى يتبع سياسة الدولة وقوانينها ، الإنسان الذى ينشد مثل

---

(١) Antiphon .

(٢) persona non grata .

(٣) zöon politikon.

الدولة السياسية العليا وهى الحرية والإستقرار والرخاء ، ويتفهم مطلبها الأول وهو الحكم بالقانون وفى سيادة القانون .

وكانت كفاءة الحكم فى المدينة الدولية رهينة قبل كل شيء بالقدرة على إستعمال السلطة الحكيمة . ومع ذلك كان القانون الإلهى وهو القانون الطبيعى هو القانون الذى يوجه السياسة لأنه القانون الأعلى . وكان النجاح السياسى رهيناً بالقدرة على التوفيق بين القانون الطبيعى والقانون الوضعى . تلك المعادلة الصعبة التى كثيراً ما ثار حولها النقاش وتفجرت منها إيديولوجيات السياسة والفلسفة التى رسمت مسار الفكر والتاريخ . ولكن مهما أختلفت أنظمة المدن الدولية فى العالم اليونانى ومهما اختلفت سياساتها كانت هناك دائماً جهات عليا ثلاث قد تختلف أسماؤها من مدينة لأخرى ولكنها تعمل جميعاً فى إدارة شئون الدولة وهى المجلس الأعلى ، والجمعية الشعبية ، والجهاز القيادى من كبار الموظفين ، وكانت الغلبة لجهة على أخرى تتوقف على ظروف الحكم .

كان هذا هو النظام الذى قامت على أساسه المدينة الدولية الجديدة فى أثينا وغيرها من المدن اليونانية ، وكل إختلاف بين مدينة وأخرى إنما كان إختلافاً فى الحدود التى رسمتها كل مدينة لنظامها بما يحقق لها السيادة والإستقلال ، ويحقق لها الرخاء والتقدم من أجل الوصول بالمجتمع إلى حياة فاضلة ومستقبل أفضل . حقاً لقد عاش العالم اليونانى حياة المدينة الدولية على أوسع نطاق ، وإنتشرت فى أرجائه هنا وهناك دول كثيرة أشرقت منها بدائع الفكر والحضارة ، ولكنها عاشت تاريخاً حافلا بالصراع ، ونشبت بينها حروب ضارية أخفقت معها كل المحاولات لجمع اليونان فى شمل واحد . وحتى الأحلاف والتكتلات التى قامت بين بعضها والبعض الآخر والإتفاقيات التى عقدت بينها لم تحقق غرضها المنشود ، وظلت مدن اليونان قابعة فى عزلتها

وإذا كانت المدينة الدولية فقد فقدت فى آخر الأمر كثيراً من نفوذها وقيادتها السياسية فإنما حدث ذلك نتيجة للفساد الذى طرأ على الديموقراطية ، وأكثر من ذلك نتيجة للقوة الساحقة التى فرضتها إمبراطورية الإسكندر المقدونى والممالك الهلينستية على العالم . ومع ذلك لم يختف نظام المدينة الدولية تماماً من الوجود ، ولم تتوقف المدينة تماماً عن ظهورها فى ثوبها السياسى المستقل القديم ، فقد ظلت الصراعات السياسية والاقتصادية فى مدن العالم الهلينستى قائمة بين أطراف مجتمعاتها المتنازعة ، بل وظلت بعض المدن فى بلاد اليونان كما كانت مراكز قيادية للحياة الثقافية والتجارية ، كما أصبحت أكثر المدن التى تأسست حديثاً فى الممالك الهلينستية فى آسيا مراكز لنشر الثقافة اليونانية فى الشرق . فالعصر الهلينستى كان من غير شك مديناً بالكثير من حياته الفكرية لتقاليد المدينة الدولية القديمة ، ومديناً للدور الذى لعبته فى إتجاهات الفلسفة اليونانية . وقبيل منتصف القرن الرابع قبل الميلاد ، بعد أن أخذت المدينة الدولية فى التدهور ، رسم أفلاطون صورته الخالدة عن الدولة المثالية . وفى أواخر هذا القرن إبتدع أرسطو علم السياسة . وفى خلد كل منهما كانت النظرية السياسية قبل كل شىء نظرية المدينة الدولية . وحتى فى نظر الفلاسفة الرواقيين كان العالم عبارة عن وحدة من الكوزموبوليس . . . كان عبارة عن وحدة من المدينة الدولية العالمية .

وكان لابد للرومان ، وقد بدأوا يلعبون دورهم على مسرح الحضارة العالمية فى ظل مفاهيم العالم الهلينستى ، أن يتبنوا فكرة الجمهورية التى نادى بها نظام المدينة الدولية القديمة كفكرة فى إطار جديد يناضلون من أجلها ، ولذلك رفضوا نظام الحكم الملكى بالرغم من المبادىء الدستورية التى وضعها هذا الحكم والمنجزات السياسية التى تمت فى عهده ، وأقاموا نظام الحكم الجمهورى ليأخذ تاريخ روما فى ظله مساره العظيم . ولكن الرومان إستطاعوا بمالهم من عقلية تجريبية أن يترجموا النظرية الجمهورية المثالية إلى نظرية مادية من شأنها أن تضفي على الحكم مزيداً من الواقعية

التى تتلاءم مع أهداف السياسة التوسعية ، واستطاعوا أن يضعوا لهذه النظرية المادية أصولا وقواعد كفيلة بأن تعطى تطبيقاتها مزيداً من الحنكة والدراية ، وأن تجعل من السياسة الديموقراطية فناً عالياً من فنون الدولة بحكم القانون . ووجد الشعب الرومانى فى هذه الواقعية وهذه الأصول العملية التى يسندها القانون نبعاً لا ينضب لمشاعره ، وطريقة وحيدة للتعبير عن آماله وأحلامه . واستطاعت روما بهذه المشاعر أن ترسى فى عصورها الجمهورية كثيرا من المبادىء والتقاليد السياسية ، وأن تبسط بهذه المبادىء والتقاليد سلطانها على بلدان البحر المتوسط ، وأن تقيم للدولة الرومانية كياناً هائلا إرتبطت به كل الأنشطة الحضارية للشعب الرومانى .

ومع أن نظام المدينة القديمة كان قد فقد تأثيره على مر الزمن الطويل ، ومع أن طبائع العصر كانت قد اختلفت على نحو جعل من فكرة الحياة اليونانية ذكرى من ذكريات الماضى ، ظل مفهوم المواطن الرومانى (١) مرادفاً للدولة (٢) ، وظلت الدولة مرادفة للمواطن ، لأن الدولة دولة المواطنيين قبل كل شىء ، ولأن الدولة والمواطن معنيان لمفهوم واحد كما كان الأمر فى الدولة اليونانية القديمة لا يفصل بينهما غير الخطأ والخيانة ، ولأن ولاء الدولة والمواطن لآلهة واحدة هو شعور سياسى قومى تكتمل به صفات الدولة العظيمة وصفات المواطن الصالح .. صفات الكائن السياسى الذى قال عنه أرسطوطاليس ... المواطن الذى يتعلق بسياسة الدولة .

وحتى بعد أن تغير الحكم فى عصور الإمبراطورية إلى حكم أوتوقراطى مطلق وتحول العالم الرومانى إلى المسيحية واختلطت حياته بمفاهيم الشعوب الجرمانية لم يفتر هذا الشعور الحضارى وهذا الوعى بالتراث . صحيح أن الدولة الرومانية لم تعد

---

(١) civis .

(٢) civitas

كما قلنا تعيش مفاهيم المدينة القديمة التي نشدت الحرية بمعانيها الكلاسيكية، لأن السياسة التي كانت في وقت من الأوقات فن تحقيق السعادة غدت الآن لعبة خطرة من ألعاب الأذكياء لمجرد الحفاظ على مجد الدولة الرومانية السابق. وصحيح أن المسيحية طالعت بمعاني بديلة للحرية السياسية وهي معاني الخلاص في شخص المسيح شملت واقع الحياة الجديدة، ولكن العلاقة بين المواطن والتراث والدولة ظلت عميقة في وجدان الناس تتفجر منها الأحاسيس والمشاعر في لحظات اليأس والأمل. وحتى الآلهة القديمة لم تبرح خيال الناس، وإنما ظلت ترتع مع الأطياف والشياطين في عالم المعجزات والفكر الجديد تضفي على العقل والإيمان أبعاداً من الخوف والرجاء... هذه العلاقة الفريدة بين المواطن والدولة التي وجد فيها الجرامنة الغزاة كما سنرى مهداً يحققون فيه حلم المستقبل.

* * *

فالحضارة الكلاسيكية التي إنبثقت من مفاهيم المدينة القديمة وتبنتها الدولة الرومانية منذ أول عهدها لم تكتب عليها النهاية التي كتبت على الإمبراطورية الغربية بالرغم من تحول الإمبراطورية إلى المسيحية وبالرغم من قيام الممالك الجرمانية، وإنما ظلت تتفجر من ينابيع هذه الحضارة في أوربا على مر القرون بعض مظاهر الحياة التي نلمس فيها عن كثب مقدار التعلق بالتراث القديم.

لقد ظلت اللغة اللاتينية في أوربا طوال العصور الوسطى لغة الكنيسة، وبصفة عامة لغة الثقافة والديبلوماسية في مختلف الممالك والإمارات الأوربية، مما جعل منها لغة عالمية عرفت في مصطلح العصور باللغة الفرنكية أو الفرنجية[1] نسبة إلى فرنكيا[2] وهي

---

(١) lingua franca.

(٢) Francia. فرنكيا وتنطق كذلك فرنسيا أصبحت فرنسا France، وما زالت تكتب في اللغة الإيطالية كما هي Francis وتنطق فرنشا.

مملكة الفرنجة التى كانت أهم الممالك الجرمانية فى أوربا . فقد تداولت معاهد العلم فى جميع أنحاء أوربا هذه اللغة اللاتينية العالمية كلغة للدراسة تلقى بها الدروس ويتفاهم بها جميع الأساتذة والتلاميذ على اختلاف جنسياتهم ، كما استخدمتها الممالك الأوربية حتى بعد ظهور اللغات القومية [١] فى مراسلاتها ومعاهداتها الدولية . ولكن هذه اللغة اللاتينية العالمية التى تداولتها الممالك والمعاهد العلمية طوال العصور الوسطى لم تكن بطبيعة الحال على نفس المستوى الذى كانت عليه اللغة اللاتينية فى العصور الكلاسيكية . وبعبارة أخرى لم تكن على مستوى اللغة اللاتينية العالية التى كان يكتب بها فحول الشعراء والمؤلفين الرومان فى عصـــور الجمهورية الأخيرة وعصور الإمبراطورية الأولى ، وإنما كان قد طرأ على هذه اللغة منذ القرن الثالث على التقريب تغير كبير نتيجة لتحللها على مر الزمن من القواعد اللغوية والأساليب الفصيحة ، الأمر الذى جعل منها فى النهايه لغه لاتينيه دارجة عرفناها فى مصطلحنا الحديث باللاتينيه العصور الوسطى [٢] ، وهى لغه لاتينيه سلسة خلت من الكلمات العقيمة [٣] والأساليب المعقدة ، وخرجت على قواعد اللغة ، لأنها كانت فى الحقيقة لغة شعبية أدخل عليها الشعب — حسب ظواهر لغويه منطقيه يرصدها علماء اللغة — كثيراً من المفردات اليوميه البسيطه والتصورات التلقائيه التى تتناسب مع

---

(١) Vernacular ·

(٢) Medieval Latin ·

(٣) Sermo latina vulgaris · نسبه إلى كلمه vulgus ومعناها الشعب . وجدير بالذكر أن ظواهر ومفردات اللغه اللاتينيه الشعبيه فى عصور الإمبراطوريه الرومانيه الأخيرة والعصور الوسطى كانت تشبه إلى حد كبير ظواهر ومفردات اللغه اللاتينيه التى كان يتحدث بها العامه فى إيطاليا والولايات الرومانيه فى العصور القديمه . وقد وردت هذه المفردات والظواهر فى مختلف النقوش . ولكن اللغه اللاتينيه فى عصور الإمبرطورية الأخيرة والعصور الوسطى أضيفت إليها بطبيعه الحال مفردات جديدة لم تكن في اللغة اللاتينية القديمه فرضتها ظروف العصر والبيئه

إنفعالات اللحظه ، وتتناسب مع الطريقه السلسة فى التعبير عما يعن للشعب من الآراء والأفكار فى مختلف المواقف .

وهذا التغير — وإن شئنا هذا التدهور — الذى أخذ يطرأ على اللغه اللاتينيه منذ القرن الثالث هو الذى دفع العالم النحوى دوناتوس [١] فى القرن الرابع إلى تأليف كتاب من جزءين فى قواعد اللغه اللاتينيه أسماهما النحو الكبير [٢] والنحو الصغير [٣] ، لكى يثبت بهذ الكتاب قواعد اللغه من ناحية ويحافظ على مستويات اللغة الأدبية الفصحى من ناحية أخرى خشية الضياع . ولا شك أن دوناتوس إعتمد فى كتابه على مؤلفات من سبقه من النحويين . وقد قررت المعاهد الدينية هذا الكتاب ككتاب مدرسى يعين التلاميذ على فهم الكلمات الواردة فى النسخ اللاتينيه القديمه للكتاب المقدس ولاسيما النسخه المعروفه بالنسخة الإيطاليه [٤] التى حوت كثيراً من الكلمات المعقدة . وعندما وصلت اللغه اللاتينيه إلى أدنى مستوياتها فى القرن السادس برزت الحاجة إلى كتاب جديد فى النحو . وقام بهذه المهمة عالم من مواليد قيصريه [٥] فى موريتانيا [٦] هو العالم النحوى بريسكيان [٧] الذى عمل معلماً اللغه اللاتينيه فى القسطنطينية فى عهد الإمبراطور أنسطاس الأول [٨] ،

---

(١) Aelius Donatus .
(٢) ars grammatica maior .
(٣) ars grammatica minor .
(٤) versio Itala .
(٥) Caesarea .
(٦) Mauritania .
(٧) Priscianus .
(٨) Anastasius I (٤٩١ — ٥١٨) .

وألف كتاباً موسعاً فى النحو اللاتينى [١] استفاد فيه من مناهج الكتب النحوية التى كتبها العلماء اليونانيون فى اللغة اليونانية ، وأورد فيه أقوالا كثيرة من شيشيرون وفرجيل وهوراس وغيرهم من كتاب عصر الجمهورية . وقد شاع الرجوع إلى كتاب بريسكيان والتعليق عليه فى العصور الوسطى شأنه فى ذلك شأن كتاب النحو الذى ألفه دوناتوس .

ولكن الكنيسة الكاثوليكية راقت لها اللغة اللاتينية الدارجة التى كانت تتحدث بها القاعدة الجماهيرية العريضة ، ورأت أن تكون هذه اللغه لغة الليتورجيا التى يؤدى بها القداس والطقوس الدينية ، لأنها كانت تتناسب مع مستويات الجماهير المسيحية . وفى سنة ٣٨٢ أمر البابا داماس الأول [٢] أن يقوم الأب جيروم بمراجعة النسخ اللاتينية القديمة للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد على النسخ العبرية واليونانية ، وكانت هذه النسخ اللاتينيه القديمة عبارة عن نقول غير دقيقة ومعقدة ، كما أمر البابا داماس ان يقوم جيروم بكتابة ترجمة جديدة باللغة اللاتينية الدارجة . والحقيقة أن جيروم ، الذى كان يتقن الكتابة باللغة اللاتينية الكلاسيكية ، استطاع فى ترجمته الجديدة للكتاب المقدس أن يستخدم اللغة اللاتينية الدارجة بأسلوب أدبى رصين اقترب بهذه الترجمة من مستوى اللغة اللاتينية الفصحى . وأعتمدت الكنيسة الغربية هذه النسخة الجديدة التى عرفت بالفولجاتا أى النسخة الشعبية [٣] ، بالرغم من النقد الشديد الذى وجهه اليها بعض آباء الكنيسة وفى مقدمتهم الأب أوغسطين

---

(١) institutiones grammaticae .

(٢) Damasus I (٣٦٦ – ٣٨٤) .

(٣) versio vulgata ، مشتقة من الكلمة اللاتينية vulgus ومعناها الشعب .

الذى فضـل القراءة فى النسخة الأيطالية القديمة . ومازالت الفولجاتا هى النسخة المعتمدة فى الكنيسة الكاثوليكية حتى اليوم .

وهكذا أصبحت اللغة اللاتينية الدارجة لغة الكنيسة الغربية . ولم يكن غريباً أن يعلن بعض زعماء الكنيسة أنهم لا يقيمون وزنا للغة اللاتينية الكلاسيكية التى لم يعد فهمها مستطاعاً الا لقلة من المثقفين ، وأنهم لايقيمون وزناً للأساليب اللغوية التى استخدمها الرومان القدامى ، بل ولا يقيمون وزناً لقواعداللغة . كل ما كانوا يسعون إليه هو أن يستطيع كل المسيحيين على أختلاف مستوياتهم أن يفهموا الكتاب المقدس والعظات التى كانت تلقى عليهم فى الكنائس . وكان البابا أغريغوريوس الأول من أشد المعادين للغة اللاتينية الكلاسيكية ، بل من أشد المعادين للثقافة الكلاسيكية بصفة عامة ، وكثيراً ما كان يؤكد على أن اللغة اللاتينية الدارجة التى كان يتحدث ويكتب بها هى اللغة الوحيدة الصالحة للتعليم فى المدارس المسيحية . ولعل أشهر ماوصل الينا من مكتوبات مدونة باللغة اللاتينية الدارجة تلك المكتوبات التى وصلتنا من القرن السادس كدستور الرهبان (١) الذى كتبه الأب بندكت النورسى (٢) ، وتاريخ الفرنجة (٣) الذى كتبه الأسقف أغريغوريوس التورى (٤)، فهذه المكتوبات لم تتقيد على الاطلاق بالقواعد النحويه والمفردات اللاتينية الفصيحة ، وهى فى نفس الوقت تعتبر خير شاهد على التحول الكبير الذى

---

(١) regula monachorum .

(٢) Bene dictus Nursianus .

(٣) historia Francorum.

(٤) Gregorius Turonensis .

أخذ يطرأ على العالم الغربى ، والذى يدعنا نعتقد أن الغرب بدأ فى القرن السادس يدخل فى عصوره الوسطى دون حرج .

ومع ذلك ظلت اللغة اللاتينية الكلاسيكية حية فى المخطوطات التى نسخت فى شتى موضوعات التراث الرومانى وحفظت فى مكتبات القصور والكنائس والأديرة . فقد حفظ رهبان العصور الوسطى كل ما وقع تحت أيديهم من مخطوطات لاتينية قديمة ، وعملوا على نسخها فى الأديرة جرياً وراء التقليد الذى وضعه الأب الايطالى كاسيودور فى القرن السادس فى دير فيفاريوم ، لكى تكون هذه المخطوطات المنسوخة نماذج للغة اللاتينية السليمة . وتنافس الملوك والأمراء على أقتناء هذه المخطوطات — مجرد أقتنائها — لكى تزدان بها مكتبات القصور الخاصة التى كانت سمة من سمات الثراء والجلالة . وجرى العرف فى المدارس الدينية التابعة الأديرة والكاتدرائيات على تدريس بعض هذه المؤلفات الرومانية القديمة التى لاتتعارض مع مبادىء التربية المسيحية ولا سيما المؤلفات التعليميه والموسوعات الشاملة لمختلف العلوم والمعارف وذلك من خلال الملخصات والموجزات والمعاجم المبسطة التى تتلاءم مع المستويات الثقافية لطلاب العصور الوسطى . ولكن كان لابد أن يشوب هذه المخطوطات — وغيرها من الوثائق — كثير من الكلمات اللاتينيه الدارجة ومفردات اللهجات والتعبيرات اللغوية الركيكه التى انزلقت لسبب أو لآخر من أقلام الكتبه والناسخين ، وخاصة فى غالة فى عهود الفرنجه الميروفيين فى القرنين السادس والسابع نتيجه للتدهور الذى منيت به الثقافه آنذاك .

وحتى المحاولات التى بذلت فى عهود الفرنجه الكارولنجيين فى القرن التاسع لاحياء اللغه اللاتينيه الكلاسيكيه والأساليب اللغويه المنمقه لم تكن فى الواقع إلا محاولات محدودة من بعض العلماء وبعض الأدعياء للتشدق ببعض روائع الأدب الروماني في

المنتديات وفى بلاطات الملوك والأمراء على سبيل التظاهر بالعلم والثقافه . فهذه النهضه التى إزدهرت فى عصر شارلمان وعرفت بالنهضه الكاروليه أو النهضة الكارولينجيه لم تكن — برغم النوايا الحسنه — الا مجرد تعبير لفئة مثقفه أحاطت ببلاط شارلمان عن رغبة صادقه لتطوير المجتمع الفرنجى والارتقاء به فى شتى مجالات الحياه ، ورغبة صادقه فى نشر الثقافه الكلاسيكيه دون أن تتوفر الظروف لتحقيق هــــذه الرغبه ، لأن ميول هذه الطليعه المثقفة لم تتجاوز آفاق المطارحة بالمقتطفات الأدبيه الكلاسيكية المختارة ، ولأن هـذه الطليعة لم تسهم بعلمها فى تفهم مشكلات المجتمع ، ولم تنجز ما أنجزته الطليعة بعد ذلك فى نهضة القرن الثانى عشر وطليعه الانسانيين فى عصر النهضة الكبرى فى القرن الخامس عشر . وما يقال عن أهداف النهضة الكاروليه فى القرن التاسع يمكن أن يقال عن أهداف النهضه الأوتونية فى القرن العاشر . ولكن بالرغم من أن طليعه الكاروليين لم تتناول مشكلات المجتمع بالدراسة والاهتمام الكافى ، إلا أنها أستطاعت أن تحدد بدايه سليمه لوضع الوعى طوع المشكلات الاجتماعيه — تلك البداية التى استفادت منها نهضة القرن الثانى عشر — واستطاعت قبل كل شيء أن تبدع نمطاً جديداً للكتابه كرمز لأهدافها الدقيقة الصادقة تمثل فى الحروف الهجائية اللاتينيه الصغيرة (١) المنمقة التى ورثتها الأجيال الأوربيه حتى اليوم .

والحقيقه أن انشقاق الامبراطورية الرومانية الغربية بعد سقوطها على يد الجرمان إلى ممالك جرمانيه أدى إلى أنشقاق اللغه اللاتينية الدارجه إلى لهجات مختلفة فى مختلف هذه الممالك ، ونشأت من هذه اللهجات عدة لغات قومية عرفت باللغات الرومانسية نسبة إلى اشتقاقها من اللغه اللاتينيه التى كانت فى الماضى لغه الرومان ، ومن أهمها اللغات

---

(١) minuscula .

البرتغاليه ، والاسبانيه ، والقطالونيه (أو الكتالانيه) ، والفرنسيه ، والبروفنسالية ، والايطاليه ، والسرديفيه ، والكورسيكيه ، والرومانيه وهى لغه رومانيا . وإن كانت اللغه الفرنسيه بصفه خاصه مزيجاً من اللغه الغاليه الكلتيه واللغه الفرنجيه الجرمانيه واللغه اللاتينيه . فكل هذه اللغات الرومانسيه مشتقه من اللغه اللاتينيه الشعبيه التى كانت سائدة فى عصور الامبراطوريه الرومانيه الأخيره والتى استمرت فى أوربا فى العصور الوسطى مع بعض التطورات التى دخلت عليها نتيجه لتأثرها بظروف البيئه الجديدة وتأثرها ببعض مفردات اللغات الجرمانية . ولكن تأخر التدوين بهذه اللغات القومية الرومانسية — شأنها فى ذلك شأن اللغات القومية الجرمانية كاللغة الألمانية القديمة واللغة الإنجليزيه القديمة المعروفة باللغة الأنجلوسكسونية — بسبب السيادة التى تمتعت بها اللغة اللاتينية كلغة عالمية ولغة للكتابة ، وبسبب استخدام الكنيسة لها فى الطقوس الدينية وفى القانون الكنسى ، وأخيراً بسبب اضطراب الأحوال السياسية فى العصور الوسطى الباكرة ، ذلك الاضطراب الذى جعل من الصعب على أية لغة قومية من هذه اللغات أن تحظى بمكانة تستطيع بها أن تتغلب على غيرها من اللغات القومية الأخرى .

وبالرغم من ظهور بعض المؤلفات باللغات القومية فى مختلف بلدان أوربا ظلت اللغة اللاتينية هى اللغة العالمية واللغة الثقافية طوال العصور الوسطى ، فكانت هذه اللغة بحق قناة طبيعية لحفظ التراث الرومانى والحضارة الرومانية . . . كان هناك فى أوربا فى العصور الوسطى تقدم حضارى يسير بخطوات وئيدة ، وكان أغلب هذا التقدم تقدماً تعليمياً تميز بنشر اللغة اللاتينية والثقافة الكلاسيكية . . . لقد قبلت الكنيسة الغربية أن يقوم تلاميذ المدارس الدينية بدراسة بعض مؤلفات الأدب الرومانى التى لا تتعارض مع علوم الدين المسيحى بوصفها شطراً فى تراث الأجداد ومصدراً تستقي منه الأجيال قواعد النحو وأساليب اللغة والبيان، ووضعت قصائد

الشاعر الوثنى فرجيل فى مقدمة المطالعات المختارة ، لأن فرجيل — حسب اعتقاد الكنيسة — كان هو الذى تنبأ فى قصيدته الرعوية الرابعة بمولد المسيح عليه السلام... كان الانسان المسيحى فى العصور الوسطى كلما ألم به الحزن والاكتئاب ينشد العزاء والسلوى فى سطور الانيادة — تلك الملحمة التى يجد فيها فرجيل فضائل التقوى والتواضع — كما كان ينشدها فى الكتاب المقدس .

هكذا تولت المدارس الديرية ومدارس الكاتدرائيات فى أوربا طـوال العصور الوسطى الباكرة نشرة الثقافة الكلاسيكية مع التحفظ الذى فرضه الشعور الدينى . ولكن فى أواخر القرن الحادى عشر نشأت فـكرة الجامعات الأوربية كؤسسات للثقافة الحرة (١) ، واعتمدت هذه الجامعات بعد تأسيسها على مناهج

(١) الجامعات الأوربية التى تأسست فى العصور الوسطى فى أواخر القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر كانت جامعات سالرنو Salerno وبولونيا Bologna وريدجو (ريجيو) Reggio فى إيطاليا ، وباريس Paris ومونبلييه Montpellier فى فرنسا ، وأكسفورد Oxford فى انجلترا . وفى القرن الثالث عشر جامعات بادوفا (بادوا) Padova (Padua) ونابولى Napoli وبياتشنزا Piacenza وفرتشيلى Vercelli فى إيطاليا ، وتولوز Toulouse وأنجيه Angers وأورليان Orléans فى فرنسا ، وكمبريدج Cambridge فى انجلترا ، وسلمنكا Salamanca وليريدا Lerida وبالنثيا Palencia وأشبيلية (سيفيليا) Sevilla فى اسبانيا ، ولشبونة (اشبووا) Lisboa فى البرتغال . وفى القرن الرابع عشر جامعات روما Roma وبيرودجا (بيروجيا) Perugia وفلورنسا Firenze وبيزا Pisa وفيرارا Ferrara وبافيا Pavia وسيينا Siena وتريفيزو Treviso فى إيطاليا ، وبالرمو Palermo فى صقلية ، وأفينيون Avignon وليون Lyons وجرينوبل Grenoble وأورانج Orange فى فرنسا ، وهويسكا Huesca فى أسبانيا ، وكويمبرا Coimbra فى البرتغال ، وهيدلبرج Heidelberg وكولونيا (كولن) Koeln وأرفورت Erfurt فى ألمـانيا ، وفيينا Wien (Vienna) فى النمسا ، وبراغ Prag (Prague) فى تشيكوسلوفاكيا .

الفكر الأسطوطاليسي ... ذلك الفكر العقلاني الذي عاد الاهتمام به في أوربا بعد أن تعرف الأوربيون على الفلسفة الأرسطوطاليسية في ثوبها الجديد من خلال النقول اللاتينية التي نقلت هذه الفلسفة عن الكتب العربية مضافة اليها شروح أبن رشد. وانعكست مفاهيم المناهج الأرسطوطاليسة العقلانية على سائر فروع الدراسة في الجامعات الأوربية التي لعبت دوراً هاماً للغاية في نشر الثقافة الكلاسيكية على ضوء الآراء الحرة التي جاءت بها هذه المناهج..وحتى كلية اللاهوت في جامعة باريس جرفها تيار الفكر الأرسطوطاليسي، وبدا تأثير هذا الفكر واضحاً على عقول الشباب من الطلبة الاكليريكيين الذين أمضهم الفقر والحرمان فانطلق يراعهم بأشعار قطرت نقداً لاذعاً مريراً لأمراء الكنيسة الذين أتخمهم الشبع والثراء وهبطوا — كما قالوا — في هاوية الفساد والغواية.. تلك الأشعار التي عرفت بأشعار الجولارديين (١)... أشعار الطلبة الجوالين الثائرين على الكنيسة في كل درب وزقاق.

وبنشأة الجامعات الأوربية وبداية الإنطلاقة العقلانية الحرة الجديدة ولت العصور الوسطى الباكرة في أوربا بمفاهيمها الأفلاطونية وبدأت العصور الوسطى الناهضة بمفاهيمها الأرسطوطاليسية ... لقد شحنت هذه الجامعات بالفكر الجديد والجدل حول مشاكل العصر، وانبعثت تياراتها الفكرية تثرى مدارك الأجيال بروائع الفكر الإسلامي الذي عرفته أوربا عن طريق العلوم العربية. ونشب الصراع الفكري الكبير بين أنصار الأرسطوطاليسية وأنصار الرشدية ... أنصار أرسطو وأنصار ابن رشد... ذلك الصراع الذي وضع النقاط فوق حروف التقدم الثقافي الذي شهدته أوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وحفز الفكر الجديد بعض الجماعات الدينية على البحث والدراسة في جو من الدأب والحماسة، وكان على رأس هذه الجماعات جماعة

---

(١) Goliardi

البندكتيين الذين وصلوا بثقافتهم إلى مستوى ما زلنا نلمسه عن كثب فى تلك التقاليد التى وضعوها فى خدمة العلم والثقافة ... إن أغلب المخطوطات اللاتينية الرائعة الدقيقة نسخت فى أديرة الرهبان البندكتيين .

وكانت هناك سمة فريدة لعلماء العصور الوسطى ... علماء المسلمين وعلماء الأوربيين على حد سواء.. لقد كانوا رجالا رحالة(١) يجوبون الأقطار بحثاً عن العلم والمعرفة . وقد لعب العلماء الرحالة الأوربيون دوراً هاماً فى نشر الثقافة الكلاسيكية ومهدوا الطريق للنشاط العلمى فى أوربا فى العصر الحديث . كان هؤلاء العلماء الأوربيون يتحدثون ويكتبون ويتفاهمون باللغة اللاتينية ، لأن اللغة اللاتينية كما ذكرنا كانت فى أوربا هى اللغة العالمية ولغة الثقافة التى كانت تلقى بها الدروس وتدون بها المؤلفات ، لأنها كانت قد استوعبت على مر العصور كل الموضوعات التى تم بحثها فى مختلف العلوم والفنون ، وأصبحت بذلك — وبالرغم من تدهورها عما كانت عليه فى العصور الكلاسيكية — تضم كل ما يحتاجه العالم والسياسى والأديب والفيلسوف من مفردات تعينه على التعبير الصحيح ... وهذا هو ما لم تكن تتيحه اللغات القومية الناشئة بعد.

وعندما جاء عصر النهضة ... ذلك العصر الذى تلاشت فيه كما يقول هايت فى كتاب "التحدار الكلاسيكى"(٢) حدود الزمان والمكان لينطلق فى سرعة مذهلة ... فتحت الكشوف الجغرافية عالما جديداً أوسع ، وفتحت الرؤية إلى مكامن الجمال فى الإنسان آفاقاً جديدة للرسم والنحت والتشريح ، وجعلت التجارب العلمية من الإنسان إنساناً أقوى من الماضى ..." تلك القوة التى تجلت فى أبهى صورها فى لوحات وتماثيل عصر النهضة ... فالمطبعة والمقراب (التلسكوب) والبوصلة

---

(١) doctores vagantes (the wandering scholars).

(٢) Highet (Gilbert), The classical tradition : Greek and Roman influences on western literature> Oxford ١٩٤٩ P١١

والبارود جعلت من الإنسان سيداً جـــديداً فى عالمه ، وحطمت نظرية العالم الكوزمولوجى (الكونى) التى وضعها الفلكى البولندى كوبرنيقوس [١] نظرية العالم الفيزيقى لإنسان العصور الوسطى . . . كان عصر النهضة بحق عصر إكتشاف... وقد إكتشف الإنسانيون الباحثون عن بدائع التراث الكلاسيكى عدداً من مخطوطات المؤلفات اللاتينية القديمة على رفوف المكتبات فى مختلف القصور والأديرة كان قد عفا عليها الزمن وعلاها الغبار . . . لم يكن أحد قد مسها منذ مئات وعشرات السنين ... كما إكتشفوا عدداً كبيراً من التماثيل والنقود والميداليات التى تزدان بها الآن أروقة وقاعات المتاحف فى إيطاليا وفى مختلف بلدان أوربا . وشرع العلماء الانسانيون فى تصويب الأخطاء الإملائية والأسلوبية التى كان قد أدخلها الناسخون على هذه المخطوطات على مر العصور الوسطى لسبب أو لآخر ، لأن الانسانيين كانوا جادين فى أحياء اللغة اللاتينية الكلاسيكية السليمة والكتابه على مستواها . والحقيقة أن الإنسانيين وصلوا فى الكتابة باللغة اللاتينية إلى مستوى لم يكن يقل كثيراً عن مستوى اللغة اللاتينية الكلاسيكية التى كان يكتب بها شيشيرون وغيره من الكتاب فى عصر الجمهورية . ويخبرنا المؤرخ البريطانى جون إدينجتون سيموندز [٢] الذى أرخ لعصر النهضة الإيطالية . . . يقول فى الفصل الثانى من المجلد الثانى عن احياء الثقافة [٣] أن كولوتشو دى سالوتاتى [٤] الذى كان مستشاراً فى بلاط فلورنسا ظل يكتب المراسلات الديبلوماسية والكتيبات السياسية لأكثر من خمسة وعشرين سنة بلغة لاتينية صحيحة كانت نموذجاً للمكتب البابوى فى الفاتيكان والمكاتب الإستشارية فى أكثر الولايات والإمارات الإيطالية .

---

(١) Nicolaus Copernicus (١٤٧٣ — ١٥٤٣) .

(٢) John Adington Symonds (١٨٤٠ — ١٨٩٣) .

(٣) The renissance in Italy. 7 vols London 1875—1881 (new edition 1897—1898). vol. II : The revival of learning, ch. 2.

(٤) Coluccio de Salutati (١٣٣٠ - ١٤٠٦)

ومن إكتشافات عصر النهضة المخطوطات اليونانية لمؤلفات العلماء والفلاسفة اليونانيين القدامى ولاسيما أعمال أرسطو فى المنطق ، تلك المؤلفات التى كان العلم بها فى لغتها اليونانية الأصلية قد أخذ يندثر فى الغرب منذ القرن الثالث لإهمال المعرفة باللغة اليونانية منذ ذلك التاريخ على وجه التقريب ، والتى عرف العلماء الغربيون بعضاً منها عن طريق الترجمات اللاتينية التى قدمها فيلسوف الكنيسة بو ثيوس . الحقيقة أن الدولة البيزنطية التى ظلت تستخدم اللغة اليونانية كلغة رسمية توالت على مر العصور الوسطى حفظ التراث اليونانى القديم الذى عمل العلماء المسلمون فى القرنين التاسع والعاشر على نقل كثير من موضوعاته الفلسفية والطبية إلى اللغة العربية ، وعرف الاوربيون هذه الموضوعات من الكتب العربية عن طريق الترجمات اللاتينية التى أجراها العلماء الاوربيون منذ أواخر القرن الحادى عشر ، وكان للكتب العربية بذلك فضل فى تعرف أوربا من جديد على أرسطو والفكر الأرسطوطاليسى قبل أن يبدأ الأوربيون فى تعلم اللغة اليونانية وإكتشاف المخطوطات اليونانية بمدة تزيد على قرنين .

فمنذ النصف الثانى من القرن الرابع عشر أقبل علماء النهضة الإيطاليون على تعلم اللغة اليونانية على أيدى العلماء والسفراء البيزنطيين الذين كانوا يقومون بزيارة إيطاليا من حين لآخر . وكان بترارکا من أوائل الذين أقدموا على دراسة اللغة اليونانية ، وتبعه فى ذلك بوكاشيو الذى قام بترجمة هوميروس إلى اللغة اللاتينية . غير أن اللغة اليونانية التى كان العلماء والسفراء البيزنطيون يعلمونها للإيطاليين كانت قد إختلفت عن اللغة اليونانية الكلاسيكية فى بعض مفرداتها وفى نطق بعض حروفها نتيجة للتغيرات التى طرأت عليها فى العصور الوسطى ونتيجة لإكتسابها مفردات جديدة فرضتها ظروف البيئة الجديدة والمؤثرات التى أحاطت بالدولة البيزنطية على مر تاريخها . وبعبارة أخرى كانت هذه اللغة اليونانية لغة يونانية وسيطة (١) حاول العلماء الانسانيون فى إيطاليا أن يرتفعوا

---

(١) medieval Greek .

بها إلى مستوى اللغة اليونانية القديمة . ومن ناحية أخرى ظهرت فى الغرب مخطوطات لمؤلفات من التراث اليونانى القديم جلبها البيزنطيون الذين لجأوا إلى أوربا عندما إقترب خطر الأتراك العثمانيين من القسطنطينية قبيل منتصف القرن الخامس عشر.

وفى نفس الوقت عمل بعض البابوات وحكام الدوقيات والإمارات الإيطالية على البحث عن المخطوطات اليونانية واللاتينية وعلى شرائها من كل مكان فى الشرق والغرب بأى ثمن . وكان من أوائل الباحثين عن المخطوطات اليونانية البابا نيقولا الخامس الذى أسس مكتبة الفاتيكان وأهدى مجموعة المخطوطات اليونانية واللاتينية التى جمعها كنواة لهذه المكتبة الضخمة . وكوزيمو دى مديتشى[1] الذى اشترى عددا كبيراً من المخطوطات اليونانية واللاتينية ، وهو الذى شجع الفيلسوف الإيطالى الشاب مرسيليو فيتشينى[2] على ترجمة مؤلفات أفلاطون إلى اللغة اللاتينية . وكذلك حفيد كوزيمو الشهير لورنزو دى مديتشى[3] الذى كان قصره فى فلورنسا منتدى العلماء ورجال الفكر ، فقد اختلف إلى قصر لورنزو البابا ليو التاسع[4] ، والبابا أكليمنض السابع[5] ، وفيتشينو ، وميكلانجلو ، وبيكو ديلا ميراندولا[6] ، وجماعة الأكاديمية الأفلاطونية التى أسها كوزيمو ، وغيرهم من مشاهير الرجال فى عصر النهضة[7] . كان لورنزو دى مديتشى قد ورث عن جده كوزيمو ولعه بالبحث

---

(١) Cosimo de Medici (١٣٨٩ — ١٤٦٤) .

(٢) Marsilio Ficini (١٤٣٣ — ١٤٩٩) .

(٣) Lorenzo de Medici (١٤٤٩ — ١٤٩٢) .

(٤) Leo IX (١٥١٣ — ١٥٢١) من أسرة المديتشى .

(٥) Clemens VII (١٥٢٣ — ١٥٣٤) من أسرة المديتشى .

(٦) Pico della Mirandolai (١٤٦٣ — ١٤٩٤) .

(٧) مازال القصر قائماً حتى الآن وقد تحول إلى مكتبة أسميت على اسم =

عن المخطوطات ، ويروى عنه أنه طلب من صديقه اليونانى يى لاسكاريس[٨] ، الذى كان قد استضافه فى فلورنسا وعرفه الإيطاليون باسم يانوس ، أن يذهب إلى بلاد اليونان ليشترى له المخطوطات اليونانية الجيدة ، وأن لاسكاريس زار فى جولته دير أثوس[٩] البعيد وعثر هناك على مخطوطات الخطباء الأثينيين .

والحقيقة أن أحياء الثقافة الكلاسيكية فى عصر النهضة كان أكثر من مجرد إضافة بعض الكتب إلى المكتبة . . . كان بالأحرى عودة بالرؤية الجمالية إلى فنون الماضى . . . لقد تحول الدرس الأخلاقى الذى استخلصته العصور الوسطى من كل حقيقة ومن كل عمل فنى إلى إحساس بالجمال ، وإنساب هذا الإحساس فى فنون النحت والعمارة والرسم والموسيقى بأسرها . وتحول النقد فى مجالات الدين والفلسفة إلى نقد فى مجالات الفنون لإستخلاص الأنساق الجمالية فى الإنسان . . . وانعكست هذه القدرة النقدية الجديدة على الأخلاق والحياة الإجتماعية ، وعرف الإنسان كيف يعيش مع الطبيعة من جديد ، وعرف لأول مرة كيف يراقب

= لورنزو بالمكتبة اللورنزية biblioteca Laurenziana وتحولت قاعة المكتب الخاص بلورنزو ، وهى قاعة مستديرة ، إلى قاعة اطلاع ، كما تحولت القاعة المستطيلة الملحقة بها ، وتسمى بقاعة ميكلانجلو ، إلى قاعة عرض لأقدم وأندر المخطوطات بالمكتبة . وتضم المكتبة المخطوطات التى كانت تمتلكها عائلة المديتشى ، وأضيف إليها كثير من المخطوطات والمطبوعات القيمة . وكانت هذه المكتبة ضمن المكتبات الايطالية العريقة التى أسعدنا الحظ بزيارتها أثناء دراستنا فى إيطاليا فى الخمسينيات ، وقد حققنا فيها المخطوطات اللاتينية الخاصة بخطبة شيشيرون فى الدفاع عن الممثل الكوميدى روسكيوس pro Quinto Roscio comoedo oratio .

(٨) Joannes (Janus) Lascaris (١٤٤٥ — ١٥٣٥) .

(٩) Athos وهو جبل فى أقصى النتوء الشرقى لشبه جزيرة خلقيديقى Chalcidice .

الكون الرحيب عن كثب من خلال المقراب وكيف ينظر إلى الحياة بعين الفضول والتفاؤل ، وعرف أخيراً كيف يعبر بعاطفة جياشة عن مشاعر السعادة الحقيقية ... كانت هذه القدرة على النقد والإبداع فى عصر النهضة واحدة من أهم المآثر التى جاد بها فكر اليونان والرومان على فكر العلماء الإنسانيين .

وإذا كانت الثقافة الكلاسيكية قد إنساب تأثيرها حتى عصر النهضة فى قنوات اللغة اليونانية واللغة اللاتينية فى كل من الشرق والغرب ، فإن هذا التأثير تجاوز عصر النهضة إلى العصر الحديث . فقد ظلت اللغة اللاتينية لغة التشريع فى هنغاريا (المجر) وبولندا ولغة متداولة فى الأوساط الأدبية والعلمية حتى منتصف القرن التاسع عشر ... لقد كتب بها بعض الشعراء والعلماء والفلاسفة أمثال كوبرنيقوس ، وديكارت[١] ، وميلتون[٢] ، وسبينوزا[٣] ، ونيوتن[٤] ، ولاندور[٥] .

بل أن اللغة اللاتينية ما زالت حتى الآن لغة القداس والطقوس الدينية فى الكنيسة الكاثوليكية واللغة الرسمية التى تكتب بها وثائق الفاتيكان . وما زالت المعاهد المدرسية والجامعية فى أوربا وبعض المعاهد غير الأوربية تقوم حتى الآن بتدريس اللغتين اليونانية القديمة واللاتينية لطلابها المقدمين على البحوث الأكاديمية . ومن نافلة القول أن لمعرفة هاتين اللغتين أهمية خاصة فى دراسة التاريخ اليونانى والتاريخ الرومانى ، لأن مؤرخ التاريخ الأوربى القديم يستطيع بهذه المعرفة أن يقدم على قراءة وتحقيق المصادر الأدبية وغير الأدبية من نقوش وبرديات وغير

---

(١) René Descartes (١٥٩٦ — ١٦٥٠) .
(٢) John Milton (١٦٠٨ — ١٦٧٤) .
(٣) Benedictus de Spinoza (١٦٣٢ — ١٦٧٧) .
(٤) Sir Isaac Newton (١٦٤٢ — ١٧٢٧) .
(٥) Walter Savage Landor (١٧٧٥ - ١٨٦٤).

ذلك فى لغاتها اليونانية واللاتينية الأصلية واستقاء المادة التاريخية من منبعها الحقيقى. وهذا ينطبق على أهمية العلم باللغتين اليونانية واللاتينية الوسيطتين فى دراسة تاريخ بيزنطة وتاريخ أوربا فى العصور الوسطى . وهناك فى التاريخ الحديث بعض المصطلحات اللاتينية التى تعبر عن معانى سياسية وايديولوجية محددة(١) قد لا تعبر عنها مفردات اللغات الأوربية الحديثة بهذه الدقة ، مما يجعل من اللغة اللاتينية لغة أكاديمية بالدرجة الأولى من الواجب على كل باحث فى العلوم الإنسانية أن يكون ملما بها . ناهينا عن العلوم التجريبية والتكنولوجية التى اشتقت معظم مصطلحاتها ومسمياتها من المفردات اليونانية واللاتينية ، وخاصة اللغة اليونانية التى تصلح مفرداتها المركبة للتعبير عن أسماء المنتجات الكيميائية والميكنية .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تجلى استمرار الثقافة الكلاسيكية فى المفاهيم الفلسفية التى أعتمد عليها الفكر المسيحى فى العصور الوسطى كأسس لفهم الكتاب المقدس على غرار القواعد التفسيرية التى كان قد وضعها علماء الكنيسة الأوائل ، فقد نشأ من هذه المعالجة الفريدة أدب دينى نستطيع من خلاله دون عناء أن نلمس الأصول الفكرية اليونانية القديمة . فالفكر المسيحى كان قناة من القنوات التى حفظت جانباً من مظاهر الحضارة الكلاسيكية على مر العصور الوسطى وهـــو جانب الفلسفة اليونانية وخاصة الفلسفة الأفلاطونية القديمة والحديثة . . . قـد

---

(١) على سبيل المثال ad hoc (لهذا الغرض بالذات ، فيما يتعلق بهذا الموضوع) de facto(فى الواقع سواء على نحو شرعى أو غير شرعى) ، de jure (شرعياً ، وفقاً للشرع) ، ipse dixit (التوكيد من غير دليل أو برهان ، هكذا قال) ، ipso facto (تلقائياً ، بحكم الطبع) ، in medias res (فى صميم الموضوع ، من غير تمهيد أو مقدمات) ، modus vivendi (التسوية المؤقتة ، التعايش السلمى) ، status quo (الوضع الراهن) .

تكون تعاليم السيد المسيح فى حد ذاتها فى غير حاجة إلى مناقشه وفى غير حاجة إلى صبها فى قوالب الفكر الفلسفى ، لأنها تعاليم أخلاقية سلمة قد لا يختلف عليها أحد ، ولكن مكانة المسيح والغرض من رسالته وموقف المسيحية من الدولة وغير ذلك من من الموضوعات الدينيه والسياسية العامة هى التى كانت فى حاجة إلى المناقشة فى نظر المفكرين المسيحيين الأوائل ، وكان لابد أن تكون المناقشة كما رأينا على أسس فلسفية ، وهذا هو مابدأ به بولس . ومن منطلق هـــذه البداية ظلت الفلسفة اليونانية حية فى خدمة الفكر المسيحى طوال العصور الوسطى .

وكما أحيت كنائس الشرق والغرب مفاهيم الفلسفة ، أحيت الكنيسة الغربية مفاهيم القانون الرومانى والمفاهيم السياسية الرومانية . فبعد تأسيس الممالك الجرمانية احتفظت كنيسة روما بروح القانون الرومانى ، وقد وردت أشارة إلى ذلك فى أحد القوانين الجرمانية فى أوائل القرن السابع وهو قانون الفرنجة الريبواريين(١) الذى ذكر فى نصوصه أن الكنيسة تحيا بالقانون الرومانى (٢) ومعنى هذا أن الكنيسة الغربية التى كانت تستلهم مبادئها من الكتاب المقدس وقرارات المجامع والمراسيم البابوية والتقاليد والأعراف الكنسية كانت فى نفس الوقت تصدر قراراتها ومراسيمها على نسق القانون الرومانى ،فأصبحت هى المؤسسة الوحيدة فى الغرب التى احتفظت بهذا التقليد النابع من تراثها الرومانى القديم فى الوقت الذى أخذ يبطل فيه العمل بقواعد القانون الرومانى بعد أن أخذت الممالك الجرمانية فى اصدار قوانينها

---

(١) Lex Ribuaria نشره بايرلى ويوخنر فى سنة ١٩٥٤ فى مجموعة ألمانيا التاريخية ، القوانين ١/٣ ، ٢ .

F. Beyerle und R. Buchner, Lex Ribuaria : Monumenta Germaniae Historica (Leg. sectio I 3,2) 1954

(٢) ecclesia vivit leg Romana

المحلية كقانون الفرنجة الساليين (١) الذى صدر فى أوائل القرن السادس ، وقانون الفرنجة الريبواريين الذى صـــدر فى أوائل القرن السابع كما ذكرنا ، وقوانين الألمان (٢) والبافاريين (٣) التى صـــدرت فى القرن الثامن ، وقوانين

---

(١) Lex Salica (recensio Merovingica) صدر قانون الساليين فى مملكة الفرنجة الميروفيين فى سنة ٥٠٧ فى عهد أشلودفيج الأول ، وأضيفت إليه القوانين التى صدرت حتى سنة ٥٩٦ فى عهد تويديبرت الثانى Theudebert II . نشره إيكهارت فى سنة ١٩٥٥/١٩٥٦ فى ميثاق القانون السالى ٢ / ١ ، ٢
K. A. Eckhardt, Pactus legis Salicae II 1 (Kapitulairien und 65 Titel - Text) 1955. II 2 (Kapitularienund und 70 Titel - Text) 1956 p. 98 - 440
وقد أجرى عليه تعديل وإضافات فى سنة ٧٦٣ تحت حكم الأسرة الكارولية فى عهد بيبين الثالث القصير Lex Salica (recensio Pippina) ، ونشر ايكهارت هذا التعديل فى سنة ١٩٥٣ Lex Salica (100 Titel - Text) 1953 p. 82 - 240 ، كما أجرى عليه تعديل آخر فى سنة ٨٠٢ فى عهد شارلمان Lex Salica (recensio Carolinga) نشره ايكهارت فى سنة ١٩٥٦ فى ميثاق القانون السالى ٢/٢ Pactus Legis Salicae II 2 (Kapitularien und 70 Titel - Text) 1956 p. 466 - 528

(٢) Lex Alamannorum صدر حوالى سنة ٧٢٠ ، نشره كارل ليهمان فى سنة ١٨٨٨ فى مجموعة ألمانيا التاريخية ، القوانين ١/٥ ، K.Lehmann : Monumenta Germaniae Historica (Leg. sectio I 5,1) 1888 p. 36. 157.

(٣) Lex Baiuvariorum. صدر حوالى سنة ٧٤١ — ٧٤٤ ، نشره البارون فون شفيند فى سنة ١٩٢٦ فى نفس المجموعة السابقة ، القوانين ١ / ٥ ، ٢
E. Frh. von Schwind : MGH (Leg. sectio I 5,2) 1926

الفريزيين(١) والسكسون(٢) والتورينجيين(٣) التي صدرت في القرن التاسع . وأما القرارات والمراسيم التي كانت تصدرها الكنيسة الغربية على غرار القانون الروماني طوال العصور الوسطى فيطلق عليها في مجموعها اسم القانون الكنسي (٤) . فهذا القانون يتضمن القواعد التنظيمية التي وضعتها الكنيسة الغربية بموجب هذه القرارات والمراسيم وحددت بها دستورها وعلاقاتها مع غيرها من المؤسسات الدينية والعلمانية والمسائل التي تتعلق بأنظمتها الداخلية(٥) . وهذا ينطبق بطبيعة الحال على قانون الكنائس الشرقية .

ولكن نظرا إلى تطور القانون الروماني في بيزنطة من خلال الدراسات والشروح الفقهية التي قام بها علماء القانون البيزنطيون كان بالتالي تطور القانون الكنسي في الشرق أسرع من تطوره في الغرب ، لأن تطور القانون في الكنائس الشرقية لم تتخلله فترات انقطاع كما حدث في الغرب بالنسبة للقانون الكنسي الذي

(١) Lex Frisionum صدر حوالي سنة ٨٢٠ ، نشره البارون فون ريشتهوفن في سنة ١٨٦٣ في نفس المجموعة السابقة ، القوانين ٣ : K. Frh. von Richthofen MGH (Leg III) 1863 p. 656 - 682

(٢) Lex Saxonum صدر في سنة ٨٠٢ — ٨٠٣ ، نشره البارون فون شفيرين في سنة ١٩١٨ في نفس المجموعة السابقة ، المصادر القانونية الجرمانية القديمة
C.Frh. von Schwerin : MGH (font. iur. Germ. ant.) 1918 p. 15-34

(٣) Lex Thuringorum صدر في سنة ٨٠٢—٨٠٣ ، نشره البارون فون شفيرين في نفس المجموعة السابقة ص ٥٧ — ٦٦ .

(٤) ius canonicum

(٥) في القرن الثامن (سنة ٧٧٤) تلقى شارلمان من البابا أدريان الأول مجموعة من القرارات والمراسيم البابوية التي وافقت عليها الكنيسة الفرنجية بعد ذلك=

= فى مجمع آخن Aachen فى سنة ٨٠٢. وفى أسبانيا كانت أبرشية طليطلة Toletum (Toledo) تملك مجموعة أكبر من المراسيم البابوية وقرارات المجامع اليونانية والأفريقية والغالية والأسبانية. وفى القرن التاسع ظهرت مجموعة المراسيم المزورة التى عرفت بمجموعة ايزيدور التاجر Isidor Mercator (ونسبت خطأ إلى ايزيدور أسقف أشبيليه المتوفى سنة ٦٣٦) وكان ضمنها وثيقة هبة قسطنطين الشهيرة التى لم يتم الكشف عن زيفها بصفة مؤكدة إلا فى القرن الخامس عشر على يد العالم الايطالى لورنزو ديلا فالى، وان كانت هذه المجموعة قد ضمت بعض المراسيم الصحيحة. على أية حال تداولت أسبانيا وإيطاليا وفرنسا وانجلترا مجموعة ايزيدور، ولكن البابويه لم تستند إليها رسمياً إلا منذ منتصف القرن الحادى عشر. وفى أوائل القرن الحادى عشر (١٠٠٨ — ١٠١٢) ظهرت أول مجموعة تاريخية لقرارات الكنائس والمجامع والمراسيم البابوية جمعها بوركهارت أسقف فورمز Burchardus Wormatiensis عرفت بمراسيم بوركهارت decreta Burchardi (نشرها مينى Migne فى الباترولوجيا اللاتينية Patrologia Latina، مجلد ١٤٠، عمود ٥٣٧ — ١٠٥٨) وحوت الأوامر والقوانين التى أصدرها بابوات روما، كما حوت أقوال آباء الكنيسة وقرارات المجامع حتى أوائل القرن الثامن، وشروط الكفارة (التى تناول بعضها الأب رجينو الأبرى Regino Prumiensis فى أوائل القرن العاشر / سنة ٩٠٦ / فى كتابه عن أنظمة المجامع الكنسية de synodalibus causis et disciplinis ecclesiasticis ونشره فاسرشليبين F. G. A. Wasserschleben فى سنة ١٨٤٠)، وهى الموضوعات التى تحدد السلطة الكهنوتية، وتعليمات الكنيسة وعلاقتها بالدولة، وإجراءات الزواج؛ والرسوم المقررة، والعقوبات وغير ذلك. وبالرغم من شهرة مجموعة بوركهارت إلا أن المجموعة التى جمعها ايفو Ivo أسقف شارتر Chartres فى أوائل القرن الثانى عشر وأجرى فيها بعض المقارنات بين القوانين الكنسية والقانون الرومانى تفوقت عليها. ولكن قبيل منتصف القرن الثانى عشر (١١٣٩=

= — ١١٤١) جمع راهب بولونيا الايطالى فرانشسكو جراتيان Franciscus Gratianus ، الذى يعتبر أب القانون الكنسى ، مجموعة أسماها اتفاق القوانين الكنسية Concordia discordantium canonum واشتهرت بأسم دكريتو decretum Gratiani جراتيـــان (مرسـوم) وانتهى جراتيان من جمعها فى ديرسان فيليتشى San Felice فى بولونيا قبل سنه ١١٥٠ ، وقد صدرت لها طبعات كثيرة من أدقها الطبعة التى أصدرها العالم الألمانى فريدبرج فى سنه ١٨٧٩ Friedberg, Corpus juris Canonici. Leipzig 1879، وكانت هذه المجموعة أوفى من المجموعتين السابقتين ، وقد قسمها جراتيان إلى ثلاثه أجزاء تناول فى الجزء الأول مصادر القانون الكنسى والشخصيات الكنسيه ، وتناول فى الجزء الثانى السلطة القضائية والأجراءات والملكية والزواج ، وتناول فى الجزء الثالث التكريس والأسرار المقدسة والليتورجيا (الطقوس الدينية) . ولأهميه مجموعة جراتيان أصبح لها حجية لدى رجال الكنيسه الغربيه ، وجرت عليها طوال القرن الثانى عشر شروح وتصنيفات ودراسات مقارنة فى القانون الرومانى كان أهمها تصنيف الأب الانجليزى جيلبرت Gilbert الذى أجراه فى أواخر القرن الثانى عشر وعرف بالتصنيف الثانى secunda compilatio ثم أجرى البابا أنوسنت الثالث Innocentius III فى أواخر القرن الثانى عشر (١١٧٩ — ١١٨٠) والبابا أونوريوس الثالث Honorius III فى أوائل القرن الثالث عشر (١٢١٦ — ١٢٢٧) تصنيفات رسميه ثلاثة compilatio tertia, quarta, quinta أضيفت فيها المراسيم البابويه التى صدرت بعد مجموعة جراتيان ، فأصبحت للمجموعه بذلك تصنيفات خمسه قام بتنقيحها راهب بنيافورتى Penaforte الاسبانى رايموندو Raimundus المتوفى سنه ١٢٧٥ بناء على طلب البابا أغريغوريوس التاسع Gregorius IX (١٢٢٧ — ١٢٤١) الذى أضيفت مراسيمه إلى المجموعة . ثم أضاف البابا يونيفاس الثامن Bonifatius VIII (١٢٩٤ - ١٣٠٣) القرارات والمراسيم=

وان كان قد استقى بعض مفاهيمه من القانون الرومانى على قدر ما استطاعت الأجيال الأوربية منذ أن سادت القوانين الجرمانية أن تستوعبه بطريق التواتر الذى شابه القصور وسوء الفهم ، لم يشهد تطوره الحقيقى الا فى القرن الحادى عشر بعد أن عادالعلم بالقانون الرومانى فى أوروبا عن طريق بيزنطة ، وقدر للفقه القانونى فى الغرب أن يدخل بعد ذلك فى مرحلة جديدة فرضها الفكر الأرسطوطاليسى الذى أضفى ظلالا عقلانية على منطق العصور الوسطى وعلى الفلسفة المسيحية بصفة عامة انعكست على فقه القانون الرومانى منذ القرن الثانى عشر ولا سيما فى جامعة بولونيا ، وان كانت دراسة الفقه القانونى ، التى كان لابد أن تتم فى ظل المفاهيم المسيحية ، قد اعتمدت فى نفس الوقت على شروح المصادر القانونية الرومانية القديمة ، واستفاد منها من غير شك شراح القانون الكنسى فى القرون التالية . ولا شك كذلك فى أن بعث الحياة فى القانون الرومانى فى أوربا كان له أثر كبير على

= التى صدرت فى عهده حتى سنه ١٢٩٨ فى مصنف عرف بالكتاب السادس liber sextus . أما المراسيم التى أصدرها البابا أكليمنضس الخامس Clemens V فى أوائل القرن الرابع عشر (١٣٠٥ — ١٣١٤) فقد أدرجها خليفته البابا يوحنا الثانى والعشرون Johannes XXII (١٣١٦ — ١٣٣٤) فى ملحق عرف باسم الدساتير الأكليمنضيه Constitutiones Clementinae . وفى أواخر القرن الرابع عشر (فى سنة ١٤٨٤) أضاف البابا سيكستوس الرابع Sixtus IV المراسيم التى لم تضم إلى المجموعات السابقة ، وقد عرفت هـــذه المراسيم بالمراسيم الإضافية extravagantes . كل هذه المجموعات التى جمعت منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى أواخر القرن الرابع عشر تكون المجموعه الكبيرة المعروفه بمجموعة القانون الكنسى Corpus juris canonici التى أمر البابا أغريغوريوس الثالث عشر Gregorius XIII بنشرها فى طبعة نهائية فى أواخر القرن السادس عشر وصدرت هذه الطبعة فى سنة ١٥٨٢ .

القوانين الوضعية فى مختلف الممالك والبلدان الأوربية التى سنت دساتيرها وقوانينها على الأسس الفقهية فى القانون الرومانى وفى مقدمتها فرنسا وبلجيكا .

* * *

أما المفاهيم السياسية الرومانية التى أحيتها الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى فقد تمثلت فى المثل الامبراطورى الأعلى . لقد أرادت الكنيسة ألا يضيع اللقب الإمبراطورى بعد سقوط رومولوس الصغير آخر الأباطرة الغربيين فى خضم الأحداث ، لأن البابوات الذين أخذوا يلعبون فى غياب السياسة الرومانية فى الغرب دور الأباطرة فى الزعامة كانوا يدخرون هذا اللقب لكى يمنحوه عندما تحين الفرصة لبطل قوى يستطيع أن ينقذ الغرب من أخطار بيزنطة ، ويقبل ثمنا لهذا اللقب أن يحافظ على مصالح الكنيسة وأملاكها ، لأن البابوية كانت تخشى أن تقع الكنائس الغربية ممثلة فى كنيسة روما فريسة للأباطرة البيزنطيين اذا ما نجحوا فى تحرير الغرب من الجرمان وضمه إلى الامبراطورية البيزنطية وإعادة وحدة الامبراطورية الرومانية القديمة . . . كانت البابوية تعرف تماما أن الأباطرة البيزنطيين فى هذه الحالة سوف يخضعون الكنيسة الغربية لسلطانهم ، وسوف يستولون على أملاكها ، لأن سياسة بيزنطية قامت منذ البداية على نظرية القيصرية البابوية (١) التى تقضى بفرض سلطان الامبراطور على الكنيسة . فكان من الواجب طبقا لهذه النظرية أن يكون الامبراطور حاكما للدولة والكنيسة فى نفس الوقت ، وهى السياسة التى طبقها الأباطرة البيزنطيون على الكنيسة الشرقية وعارضتها الكنيسة

الغربيه أيما معارضة ... ولهذه الأسباب رأت الكنيسة الغربية أن تمسك زمام السياسة فى الغرب .

هذا التصرف أدى بالبابوية إلى مواجهة وضع غريب . فقدكان على البابوية من ناحية — وهى وريثة الإمبراطورية الغاربة — أن تتصدى لحكم الجرمان الأريوسيين الذين آمنوا بناسوت المسيح ، والذين أسسوا ممالكهم على أرض الامبراطورية وشيدوا الكنائس الأريوسية فى عرين العالم الكاثوليكى ، وكان عليها من ناحية أخرى أن تتصدى للأطماع البيزنطية . واختارت البابوية للأسباب التى ذكرناها ميدان الصراع الثانى. وأصبح عليها الآن أن تبحث فى الغرب عن ملك قوى حتى لو كان ملكا جرمانيا ... ويا حبذا لو كان جرمانيا يدين بمذهب الكنيسة الكاثوليكية ...لكى تمنحه اللقب الامبراطورى ، ولكى يتولى هذا الملك مهمة الدفاع عنها وعن مصالحها . وأخيرا وجدت البابويه ضالتها فى شخص ملك الفرنجة كارل العظيم الذى عرفناه فى التاريخ باسم شارلمان . ولم يبق غير اتخاذ الخطوة الأولى لتنفيذ هذه السياسة . وقد تمت هذه الخطوة على يد البابا ليو الثالث ... ففى سنة ٨٠٠ وابان قداس عيد الميلاد فى كنيسة القديس بطرس اختال البابا ليو فى مشيته وفاجأ شارلمان وهو يصلى خاشعا أمام المذبح ووضع على رأسه تاج الامبراطورية، وأعلن وصوته يختلج بين صياح المصلين أن شارلمان أصبح امبراطورا للرومان (١) . وكانت لحظة حاسمة من لحظات التاريخ . فقد كان شارلمان يفضل أن يظل ملكا للفرنجة والفرنجة فحسب ، ولم تسعده المفاجأة قط وعلت وجهه علامات الاستياء والغضب ، وتمنى فى تلك اللحظة لو أن قدماه لم تطأ صحن الكنيسة . وكان على البابا منذ تلك اللحظة أن يدفع غاليا ثمن فعلته ، وكان على

---

(١) imperator Romanorum

الكنيسة أن تدفع معه الثمن مئات السنين . . . ثمنا من التوتر والقلق . . . لقد بدأت في تلك اللحظة وعلى غير ما كان البابا يرجو مرحلة قاسية من مراحل الصراع بين الكنيسة والدولة . ولكن كان للبابا هدف وكان لشارلمان هدف آخر . وهذا هو لب المشكلة . لقد أقدم البابا على تتويج شارلمان وفى خياله حقه المزعوم الذى خولته له هبة قسطنطين ، تلك الوثيقة المزورة التى أعطت بابوات روما حق تتويج الملوك والأباطرة ، وفى نفسه رغبة عارمة فى أن يفرض سلطانه على شارلمان لكى يكون لعبة فى يده ينفذ بها سياسة الكنيسة فى مواجهة بيزنطة ويحفظ أملاك البابوية الشاسعة فى إيطاليا . وكان شارلمان ، وهو الرجل القوى الذى تربع على عرش الفرنجة لكى يحقق حلم الفرنجة الكبير فى غزو أوربا ، يدرك كل هذا ورسم سياسته على هذا الأساس .

ومع ذلك ظل المثل الامبراطورى الأعلى حلم الكنيسة ، وظلت هبة قسطنطين ورقة رابحة فى يد البابوية تشهرها فى كل لحظة يضعف فيها ملك وملك ... هذا الدأب الذى عرفت به الكنيسة الغربية كان علامة من علامات القوة التى صاحبتها وأحيت بها الكنيسة مجد الإمبراطورية الرومانية على مسارح السياسة عبر القرون ... عندما ولد السيد المسيح فى فلسطين كانت الإمبراطورية فى أوج نفوذها وقوتها ، وكان نفوذها يطبق آفاق المشرق والمغرب ، وكانت روما عروس الغرب آنذاك رمزاً للقوة التى لا تقهر . . . لقد أدرك بولس تلك الحقيقة لأول وهلة ، وأدرك الدور الكبير الذى يمكن أن تلعبه تلك المدينة فى نشر المسيحية لو قدر لها أن تدين بدين المسيح . ولذلك - وكما قال أوزفالد اشبنجلر فى كتاب غروب الغرب - لم يشد بولس رحاله الى المدن الشرقية كالرها وطيسفون ، وانما طفق يتركز فى كورنثوس وأثينا ورومية . . . وهناك فى رومية شاء القدر أن يلقى بولس مصيره المحتوم، لأن روما سوف تبني هناك على رفاته مجد المسيحية. ولكن لم يكن يدور

بخلد بولس وقتذاك أن الكنيسة التى كان قد باركها هناك فى روما سوف تخلق بهذا المجد قوة لا تبارى كما فعلت روما بجدها فى عصورها الذهبية الأولى . . . لقد انساب تاريخ أوربا فى العصور الوسطى فى الواقع على أساس هذه القوة وعلى أصول الفنون السياسية التى ورثتها البابوية عن الامبراطورية الرومانية وأتقنتها على مر الزمن حتى فاقت بها فنون الدولة .

فتاريخ أوربا فى العصور الوسطى أخذ سياقه الطبيعى من الصراع الذى دار بين الدولة والكنيسة صراع الند للند . وكانت الكنيسة الغربية بتلك القوة التى اكتسبتها سليلة الامبراطورية الرومانية بحق . فالكنيسة الكاثوليكية كدولة لها حاكم ليس له مثيل بين حكام العالم هو البابا ، ومجمع خاص هو مجمع الكرادلة الذين يمثلون أمراء الكنيسة ، وأملاك وثروة ضخمة وادارة وخبرة فى مجال السياسة والديبلوماسيه ، تمثل فى الحقيقه النظام الدولى المؤثر الوحيد الذى يشبه إلى حد كبير ذلك النظام الفريد الذى خلقته روما كنظام له التأثير الأول والأخير فى سياسة العالم المعروف . ولا ننسى أن الامبراطورية الرومانيه بعد أن انقسمت فى أخريات القرن الرابع الى امبراطوريه شرقية وامبراطورية غربية بقيت عظمة الامبراطوريه فى الامبراطوريه الشرقيه التى يطلق عليها من واقع الأحداث التى تبلورت منذ القرن السادس اسم الدولة البيزنطيه وعاصمتها القسطنطينيه . وقد عاشت هذه الامبراطوريه حتى سقطت فى أيدى الأتراك العثمانيين فى سنه ١٤٥٣ ، أى أنها عاشت قرابه ألف سنه بعد سقوط الامبراطوريه الغربيه فى سنه ٤٧٦ . ومع ذلك ومن الناحيه الايديولوجيه الصرفه ظل الأباطرة البيزنطيون حتى القرن الثانى عشر يعتبرون أنفسهم ورثه شرعيين للإمبراطوريه الرومانيه (١) . وكانت الديبلوماسيه التى اتبعتها الكنيسه الغربيه صورة من صور الديبلوماسيه الرومانيه التى استمرت

---

(١) J. Bach : Classica et Mediaevalia 8 (1945) 1—2

تقاليدها فى الدولة البيزنطيه وانتقلت منها إلى دوقية البندقية وعن طريق البندقية انتقلت هذه التقاليد إلى البابويه (١) . فلا شك فى أن البابوية احتفظت بكثير من تقاليد الديبلوماسيه الرومانيه القديمه .

وهكذا نجد أن انهيار الإمبراطورية الرومانية فى الغرب لم يكن يعنى بحال من الأحوال إنهيار الفكرة الإمبراطورية . صحيح أن اللقب الإمبراطورى تهاوى فى الغرب منذ أن أخذ الجرمان فى غزو الإمبراطورية الغربية فى القرن الخامس ، وعلى وجه التحديد بعد أن عزل الجرمانى أودوفاكر الأسكيرى فى سنة ٤٧٦ آخر الأباطرة الغربيين رومولوس الصغير ، وظل المثل الإمبراطورى بعد ذلك ركاما فى الغرب حتى منتصف القرن الثامن ، ولكنه بقى نابضا بالحياة فى الدولة البيزنطية فى الشرق ، ولم يطرح البيزنطيون جانبا فكرة الإمبراطورية ، وإنما اعتبروا إمبراطور القسطنطينية إمبراطورا رومانيا له كل مظاهر أجداده من الأباطرة الرومان السابقين ، ومن هنا أطلق على البيزنطيين اسم الروم ، وظلت فكرة الإمبراطورية قائمة فى بيزنطة حتى بعد أن لم يعد لمفهوم الإمبراطوريه بعد القرن السادس أساس من الواقع . وكان لبيزنطة فى الحقيقة هدف سياسى من الإبقاء على الفكرة الإمبراطورية وهو تحرير الغرب من الشعوب الجرمانية وضمه إلى الشرق فى إمبراطورية واحدة تعيد مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة وتكون عاصمتها القسطنطينية . ولكن القدر لم يكتب لبيزنطة أن تصل إلى هدفها ، ولم يكتب لها القدر أن تصون فى أوربا غير قاعدة ضعيفة لقواتها العسكرية فى جنوب إيطاليا بقيت فى حوزتها حتى القرن الحادى عشر .

ونظرا إلى الظروف التاريخية والمشاكل التى مربها الغرب الأوربى فى القرنين

---

(١) J. B. Bury, "Later Roman Empire" : Encyclopaedia Britannica

السابع والثامن ، ومن أخطر هذه الظروف ظهور البابوية كقوة سياسية دولية تقف أمام بيزنطة موقف الند للند خشية أن تنجح بيزنطة فى استرداد الغرب وتفرض سيطرتها على الكنيسة الغربية كما فعلت مع الكنيسة الشرقية من قبل ، ومن أخطرها كذلك عداء الكنيسة الغربية للحركة اللاايقونية[1] التى قامت فى بيزنطة ، وهى الحركة التى هاجمت فكرة الصور الدينية التى عرفت بالايقونات نسبة إلى الايقونة فى اللغة اليونانية ومعناها الصورة ... تلك الظروف والمشاكل التى زادت من حدة الخلاف بين بيزنطة والكنيسة الغربية ... رأت الكنيسة الغربية أن مصلحتها تقتضى رفض الوحدة الإمبراطورية بين الشرق والغرب حتى لا تفقد استقلالها ومكانتها على أيدى أباطرة بيزنطة ، وأن من الأجدى لها أن تتزعم المواقف الوطنية بنفسها ولا سيما بعد أن أصبح لها ثقل فى مجال السياسة الدولية ، وأن تتولى هى قضية المطالب الإمبراطورية ، ورأت قبل كل شىء أن ترسم سياسة جديدة تستطيع على أساسها أن تقف فى وجه الأطماع البيزنطية . لقد فضلت الكنيسة الكاثوليكية أن تهادن الجرمان الأريوسيين على أن تضع يدها فى أيدى القادة البيزنطيين . وكان هذا الإختيار من أدق الأحداث التى حددت علاقة الغرب بالشرق على مر تاريخ العصور الوسطى . ومن أجل أن تحقق الكنيسة هذه السياسة رأت أن تعيد اللقب الإمبراطورى فى الغرب ، وأن تمنح هذا اللقب لرجل يصلح لأن يكون إمبراطورا رومانيا جديرا بالوقوف مع أباطرة بيزنطة على قدم المساواة ... حتى لو كان هذا الرجل لا ينتمى إلى شعب الرومان ... وكان على الكنيسة أن تنتظر حتى يظهر هذا الرجل عاجلا أو آجلا على المسرح وتضع التاج الإمبراطورى على رأسه . وأخيراً وجدت الكنيسة رجلها فى أخريات

---

(١) Iconoclasm .

القرن الثامن عندما ظهر على المسرح ذلك الجرمانى الذى رفل فى الشباب والقوة ... شارلمان ملك الفرنجة . . .

ففكرة روما الجديدة كانت موضوعا من الموضوعات الهامة التى شغلت بال الكنيسة الغربية على الدوام ، لأن روما ظلت بالنسبة إلى المسيحيين الكاثوليك رمزا سياسيا وثقافيا لوحدة العالم بوصفها عاصمة الإمبراطورية الرومانية القديمة وبوصفها الآن مدينة الكرسى الرسولى ومقر البابا ولذلك عندما أخذت مكانة روما فى الضعف والتدهور فى عصور الغزوات الجرمانية وجدت الكنيسة الغربيه فرصة سانحة لأن تتولى زعامة السياسة لما لم يعد هناك فى الغرب امبراطور قادر على درء أخطار الجرمان والبيزنطيين ، وخاصة أن البابا كان حسب إيديولوجية الكنيسة الجديدة وريثا شرعيا للأباطرة الرومان يقوم على حفظ تراث الإمبراطورية القومى وبطلا شعبيا يذود عن الوطن فى أوقات المنايا . وبعد أن اضطرم الصراع بين بيزنطة والكنيسة الغربية بحث البابا عن زعيم سياسى مغوار يستطيع من جديد بعث الإمبراطورية فى الغرب الصريع وإعادة وحدة الأقطار اللاتينيه التى كانت قد مزقتها فلول الجرمان وأقامت عليها هذه الفلول ممالك هنا وهناك . ولما وجدت الكنيسة ضالتها المنشودة فى شخص الملك الجرمانى شارلمان وقام البابا ليو الثالث بتتويجه فى ليلة عيد الميلاد وخلع عليه لقب إمبراطور الرومان أصبح شارلمان بموجب هذا اللقب الإمبراطورى الغريب إمبراطورا على إمبراطورية رومانية لم يعد لها فى الواقع وجود .

وهذا اللقب الإمبراطورى الذى منحه البابا ليو الثالث لشارلمان لم يكن يعنى فى الحقيقة — بوصفه لقبا إيديولوجيا بحتا — أكثر من أن شارلمان أصبح الآن يحكم قطاعا من أوربا هو الآن فرنسا كان فى الماضى جزءاً من الإمبراطورية الرومانية وكان يسمى غاليا ومعناه بلاد الغال ، وأن أوربا كانت فى نظر البابوية فى أمس الحاجة إلى اللقب الإمبراطوري أكثر من أي وقت مضى - حتى لوكان صاحبه

جرمانيا قحا ــ لكى تواجه بيزنطة بعد أن عظم شأنها . . . ورب ملك جرمانى فى نظر الكنيسة أفضل من إمبراطور بيزنطى سوف يبسط سلطانه لا محالة على كنائس الغرب كما بسطه على كنائس الشرق . . . وعلى أية حال ظلت فكرة الإمبراطورية منذ ذلك الوقت وحتى القرن الرابع عشر هى الفكرة الجذابة فى ممالك أوربا ، وأمكن لهذه الفكرة أن تجد تطبيقا حيا من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر فى الامبراطورية الرومانية المقدسة فى ألمانيا على أيدى الملوك الألمان الذين اعتبروا أنفسهم خلفاء الإمبراطور شارلمان . ومع أن هذه الفكرة الإمبراطورية لم تثمر واقعا ماديا للوحدة السياسية المفقودة فى أوربا ، لأن الألمان لم ينجحوا فى بسط نفوذهم على إنجلترا وفرنسا وإنما تخطى حكمهم جبال الألب فحسب ، إلا أن أحداث أوربا كشفت عن حقيقة هامة وهى أن الإمبراطورية الرومانية لم تكتب عليها النهاية كمثل أعلى على مر تاريخ العصور الوسطى .

* * *

وعلى ذلك فالإمبراطورية الرومانية كما رأينا لم تلق مصرعها كفكرة وحضارة. كل ما حدث هو أن وحدتها السياسية تصدعت فى محنة الغزو الجرمانى التى حلت بالغرب . . . لقد جمعت هذه الإمبراطورية فى ربوعها كما سبق القول كل الفروق والمفارقات . . . الشرق والغرب معا . . . إمبراطورية افتقدت منذ البداية كل عناصر الوحدة ، ومع ذلك جعلت العبقرية السياسية من وحدة الامبراطورية اللامنطقية أمرا واقعا تجاوزت به كل الخلاف والشقاق ، وأثمرت رفاهية وفكرا ومبادىء مازالت ــ مهما كانت ومهما كان الرأى ــ قواعد التقدم فى عصرنا الحديث . . . قواعد التقدم فى شتى مجالات الحكم والسياسة والادارة والقانون .
هذه الإمبراطورية قدر لها أن تتصدع لان خطأ ما قد وقع . . . أو لعله أي سبب

آخر . . . وقد يكون من الممكن أن نفسر تصدع الدولة من ناحية العبء الكبير الذى ألقته الإمبراطورية بجورها على الأهالى ، دون أن تقدم لهم فى مقابل ذلك ما يدفع إهتمامهم إلى الولاء والحماسة عندما بدأ الجرمان فى غزو الإمبراطورية التى أصبحت لا تستحق الآن مجرد الإنقاذ أو الدفاع . ولكن هل يكفى مثل هذا التفسير لفهم مصير إمبراطورية ذهبت فيها الأمور إلى أبعد من العسف والجور ؟

* * *

يرى المؤرخ الإنجليزى إدوارد جيبون فى كتابه «اضمحلال وسقوط الامبراطوريه الرومانيه» ، أن انهيار روما كان أثراً طبيعياً وحتمياً ، لأن الرخاء الإقتصادى ينضج قاعدة الاضمحلال . لقد تضاعفت أسباب الإنهيار مع توسع الإمبراطوريه فى كل هذه الأرجاء العامرة بالبلدان ذات الحضارات التى اختلفت مفاهيمها عن مفاهيم الحضارة الأوربيه . وبعد أن أزاح الزمن تلك الدعائم الواهيه التى قامت عليها ماد الكيان الهائل تحت ضغط الثقل . وعلى ذلك فقصة أنهيار روما فى نظر جيبون قصة بسيطة وواضحه . وبدلا من أن نسأل عن أسباب سقوط الإمبراطوريه يدعونا جيبون إلى إبداء الدهشه لبقائها كل هذه المدة الطويله . فالفرق العسكريه الرومانيه التى اكتسبت خلال حروبها البعيدة أخلاق الشعوب الأجنبيه ومساوىء الجنود المرتزقه أخذت فى بادىء الأمر تخمد صوت الحريه التى نادت بها الجمهوريه السابقه ، وأخذت تنهتك بعد ذلك حرمة السلطة الإمبراطورية ذاتها ، واضطر الأباطرة خوفاً على سلامتهم وعلى أمن الدولة إلى إتخاذ التدابير العنيفة التى كانت تؤدى فى أغلب الأحيان — وعلى غير المتوقع — إلى الإخلال بالأمن والنظام وتؤثر على الأوضاع الداخلية والخارجية . وبسبب هذه الإجراءات والتدابير أخذت الحكومات العسكرية تفقد قوتها وتأثيرها على

النفوس ، وأخيراً تناقص نفوذها إلى حد كبير عقب القوانين الصارمة التى أصدرها الإمبراطور قسطنطين فى القرن الرابع لكى يحافظ على أمن الإمبراطورية وسلامتها ، كما أصبح طوفان الجرامنة الآن يغمر العالم الرومانى .

ولقد كان من المتوقع أن يخوض جيبون بلا هوادة فى الهجوم على المسيحية التى حملها مسئولية كبيرة عن خلق هذه الأوضاع السيئة التى ألمت بالإمبراطورية الرومانية ، فتعاليم الحلم التى كان يدعو اليها رجال الكنيسة والرهبان ساهمت — على حد قوله — فى تثبيط الهمم وكل الصفات الإيجابية فى الناس ، وكل ما تبقى من الروح العسكرية الباسلة وجد نهايته الأليمة فى حياة الدير . لقد لاذت بالصمت والفراغ — على حد تعبيره — جموع المتبطلين ومخلوعى الفؤاد والباحثين عن الحياة الرخية دون بذل أو عطاء . وضاع جانب كبير من الأموال العامة والخاصة على طقوس العبادة وأعمال الخير بطريقة لا يمكن أن يبررها حسن النية ، فبدلا من الانفاق على تجهيز الجيوش ودفع معاشات الجنود راحت أموال الدولة والمحسنين تهدر بغير حساب على هذه الحشود الغفيرة العاطلة من الرهبان والراهبات الذين لم يكن فى وسعهم أن يناشدوا العالم إلا بحسنات العفة والعزلة والتقشف . ولم يعد هناك من خصال تبعث الحياة فى هذا العالم سوى المكر والفضول والخديعة ، فهى التى أثارت بغضاء الطوائف الدينية والتدنى إلى مسالك الشر والوقيعة . وكما قال جيبون انصرفت الكنيسة وحتى الدولة عن أمور الدنيا كما لا ينبغى . . صرفها الشقاق والنزاع الدينى . . . وأصبحت كل فرقة دينية مدانة عدوا سريا للدولة .

صحيح أن حياة الرهبانية جذبت بعض الرجال والنساء من هذا الطراز وذلك كما أشار الأب بندكت النورسى فى القرن السادس فى مستهل دستور الرهبان دون مواربة ، ولكن جيبون مؤرخ القرن الثامن عشر كان قبل كل شىء يمثل وجهة النظر العقلانية التى أبتدعها المفكرون المتحررون فى عصره من أصحاب حركة التنوير الذين ذهبوا إلى حد انكار الوجود التاريخي للسيد المسيح كما فعل الفيلسوف

والعالم اللاهوتى هرمان صمويل ريماريوس ... ذلك الشك الذى ظل ماثلا فى أذهان بعض علماء اللاهوت فى القرن التاسع عشر أمثال هنرى بوينتون سميث[١]، أولئك الذين اعتبروا المسيح شخصيه أسطورية ليس لها وجود، تقابل إله الشمس الفارسى ميثرا وأبطال ملحمة جلجامش[٢] البابلية . . . شخصية خلقها البؤس والوجد الدينى فى الجماعه المسيحية الأولى .

* * *

ويعزو المؤرخ الروسى ميخائيل رستوفزيف [٣] تدهور الامبراطوريه الرومانيه فى كتابه « التاريخ الإجتماعى والاقتصادى للامبراطورية الرومانية»[٤] الى تغير حالة العامة الاجتماعيه . لقد وصلت فئات العمال والعبيد فى القرنين الثالث والرابع إلى مناصب هامة فى الدولة دون أن يكون لدى هذه الفئات — كما يقول — تصور للمثل الأعلى الإمبراطورى وحرية الفرد والقانون ، ولم يكن فى وسعها بالضرورة أن تستوعب التقاليد التى أرستها الإمبراطوريه فى القرن الثانى . ويضيف رستوفزيف أن العالم الأوربى القديم شهد انتفاضات وخلافات عنيفة فى بلاد اليونان ، ولكن المدن اليونانيه ذات الصدارة كانت دائما هى الطليعة فى هذه الخلافات . وفى القرن الأول الميلادى ثارت فى بلاد الرومان حروب أهلية شملت كل العالم المتحضر ، وكان الفوز فى هذه الصراعات معقودا بصفة عامة للطبقات العليا

---

(١) Henry Boynton Smith (١٨١٥ — ١٨٧٧) .

(٢) Gilgamesch—Epos.

(٣) Michael Rostovtzeff (١٨٧٠ — ١٩٥٢) .

(٤) The social and economic history of the Roman Empire. Oxford 1926. 2 nd ed. 1957 (Deutscher Uebersetzung : Die sozial — und wirtschaftliche Geschichte des roemischen

أصحاب الحضارة والمدنية . ولكن الحرب الأهلية التى نشبت بعد ذلك فى القرن الثالث انتهت على عكس الحروب الأهلية السابقة بانتصار الطبقات الدنيا ،وسددت ضربة إلى الحضارة الرومانية فى المدن . وأنغمرت هذه الحضارة أخيرا فى دفق العناصر البربريه التى جاءت من الخارج عن طريق تغلغلها فى الحياة الرومانيه من ناحية ، وعن طريق الغزو من ناحية أخرى ، ولم تكن الإمبراطورية فى حالة تسمح لها بأن تستقطب ولو جانبا ضئيلا من هذه العناصر .

ولذلك فإن الظاهرة المحورية التى تكون أساس انهيار الحضارة القديمة — فى رأى رستوفزيف — تمثلت فى استيعاب الجماهير التدريجى لفئات المثقفين، والتبسيط الناتج عن هذا الاستيعاب فى جميع النشاطات السياسية والإقتصادية والفكريه ، وهو ما أسماه رستو فزيت بهمجية العالم القديم . ويوجه رستوفزيف عناية الأجيال القادمة إلى أن التطورات التى حدثت فى العالم القديم تقدم درسا وتحذيرا يجب ألا تغفل هذه الأجيال من شأنهما إذا ما أرادت أن يتحقق لحضارتها البقاء . فالقاعدة فى رأيه أن الحضارة لا تستقيم ولا تستمد عناصر استمرارها إلا إذا كانت حضارة تخص كل فئات الشعب وليس طبقة واحدة فحسب ، ولذلك كانت الحضارات الشرقية القديمة أكثر استقرار ودواما من الحضارتين اليونانية والرومانية ، لأن هذه الحضارات كانت أقرب إلى عواطف الجماهير قاطبة لاعتمادها فى الدرجة الأولى على الدين .

ويرى رستو فزيف أن الدرس الثانى الذى تطرحه مشكلة العالم الأوربى القديم هو أن المحاولات السلطوية فى فرض المساواة الفكرية بين مختلف فئات الشعب لم تؤد إلى الارتفاع بمستوى الجماهير ، والذى حدث هو أن الجماهير الرومانية على العكس من ذلك قضت على مكانة المثقفين ، وساهمت بذلك فى التعجيل بالهمجية التى اجتاحت العالم الرومانى منذ القرن الثالث . وأياً كان القصد الذى رمى

إليه رستوفزيف فإن الإرتفاع بمستوى الجماهير يجب أن يتم بطريقة طبيعية وحسب برامج موضوعية مدروسه ، لكى يكون هذا الارتفاع نابعا من التطور الفوق لهذه الجماهير ، ويجب على المثقفين ألا يقفوا عند حد تنظير المشاكل ، وإنما يجب عليهم أن يبسطوا للجماهير معطيات الحضارة فى صورة كفيلة بأن تحقق التوازن الفكرى بين كافة فئات الشعب ، وأن تحقق التقدم الاجتماعى أساس من التطبيق العلمى الواعى السليم .

ومهما يكن الأمر ، فان المشكلة الجوهرية التى عرضها رستوفزويف من غير حل هى : هل من الممكن بسط حضارة عاليه إلى الجماهير دون خفض فى مستواها ونوعيتها إلى نقطة التلاشى ؟ الحقيقة أن رستوفزيف يقدم فى هذه المقولة صورة محددة للعامة تقابل الطبقات ، فى الوقت الذى لم يكن فى وعى العامة أنهم يقومون بحركة طبقية من أجل الحفاظ على مصالحهم . صحيح أن بعض عناصر العمال والفلاحين وصلت فى عصر الإمبراطورية إلى مراكز السلطة ، ولكن بقى مع ذلك كثير من الارستقراطيين فى مناصب الدولة .

* * *

ويرى المؤرخ الفرنسى فرديناند لوت[1] فى كتابه « نهاية العالم القديم ومطلع العصور الوسطى »[2] أن الامبراطوريه الرومانيه كانت قد اتسعت اتساعا كبيرا فاق كل حد ، وأصبحت بذلك كيانا غاية فى التعقيد ، وأن العالم البحر متوسطى

(١) Ferdinand Lot (١٨٦٦ — ١٩٥٢) .

(٢) La fine du monde antique et le debut du moyen âge. Pairs 1927. 2e ed. 1951 (Translated into English by P. and M. Leon, The end of the ancient world. London ١٩٣١)

لم يعد فى حالة تسمح له بأن يتجاوز المشكلات التى أخذت تلاحقه منذ أن أصابه التدهور الإقتصادى فى القرن الثالث . وزادت الحالة سوءاً عندما انقسمت الإمبراطورية فى أواخر القرن الرابع إلى قطاع شرقى وقطاع غربى ، واضطرت الحكومة الغربيه من جراء ذلك ، وحتى تكون قادرة على ممارسة سلطتها ، إلى تضييق المجال فى نشاطها ، فضلا عن مشكلة الغزو الجرمانى الذى فرض على الغرب أن ينشق إلى ممالك عديدة تضم الرومان والجرمان فى مجتمعات واحدة عليها أن تواجه وضعا جديداً تختلط فيه كل التناقضات . وصاحب هذا التدهور السياسى ضعف فى الشعور بالمصلحة العامة وفتور فى شخصيه الدولة منذ أزمان الأحكام الجرمانية الأولى . وإذا كانت الإمبراطورية الرومانية قد ظلت حتى نهاية القرن الرابع محتفظة بمظاهرها الإمبراطورية كما كانت فى سابق عصورها ، فإنها لم تعد — على حد تعبير لوت — غير قشرة هشة لثمرة جوفاء لم تستطع أن تقاوم الرجفة التى أطاحت بها .

وهناك فى رأى لوت — فضلا عن ذلك — شىء أعمق بكثير وأبقى من المواقف السياسية التى هى فى حد ذاتها مواقف حالة وسريعة الزوال ، وهذا الشىء هو الحضارة . فقليلا ما تصدمنا التغيرات التى تتكثر على الآداب والفنون والفلسفة لأنها تغيرات غالباً ما تتم بصورة تدريجية من شأنها أن تعطى فرصة لقبولها أو رفضها فى جو من التأمل والتفكير الهادىء ، وذلك على خلاف العمل السياسى الذى كثيراً ما تصدمنا فيه التغيرات بصورة حادة ومفاجئة . وإذا ما أخذنا الحضارة الرومانية بعين الإعتبار ، نرى أن هذه الحضارة قد استسلمت بصورة أو بأخرى لنزعات التصوف التى غمر بها فكر الشرق فكر الغرب ، وهى نزعات أحدثت من غير شك تحولا حقيقياً فى قيم الحياة ، وعزوفاً أكيداً عن أمور العالم . وإذا سلمنا بصحة ماقاله لوت — وهو صحيح إلى حد كبير — فيجب ألا يغيب عن البال

ذلك التغير الواضح فى قيم العالم الرومانى بين القرن الثانى والقرن الخامس ، كما يجب ألا يغيب عن البال ذلك الافتقار الحقيقى — إلا فيما ندر — إلى الزعامة السياسية الواعية القادرة على مواجهة المواقف . حقاً لقد ظهر رجال ذوو موهبة فذه ومقدرة فكرية كبيرة أمثال أمبروز كبير أساقفة ميلانو وأوغسطين أسقف بونة ، كان من الممكن أن يندرجوا بقوة شخصيتهم فى الحياة السياسية بصورة أفضل ويوفروا الزعامة التى كانت تفتقر إليها الإمبراطورية ، ولكنهم توجهوا بدلا من ذلك شطر الكنيسة وكرسوا جهودهم للفكر والدين .

* * *

أما المؤرخ الانجليزى بيورى[١] فيؤكد فى كتابه « مقالات مختارة »[٢] أن التاريخ بوصفه علماً يجب أن ندرسه وفق مناهج علمية معينة ، ولكنه لايعتقد فى نفس الوقت أننا نباشر البحث التاريخى حسب إتجاهات محددة وطبقاً لقوانين رياضة . وحيث أن التاريخ فى رأيه لايعيد نفسه أبداً ، فإن تاريخ الانسان الماضى لايمكن أن نستدله بدقة ، كما لا يمكن أن نتنبأ بالمستقبل على وجه الضبط ، وأحداث التاريخ قد تخالف كل الحسابات . وينتهى بيورى من كلامه هذا إلى ما يمكن أن يسمى بنظرية المصادفة فى التاريخ . وهذه النظرية تصدق فى إعتقاده على أسباب إنهيار الامبراطورية الرومانية . لقد تغلغل الجرمان فى الامبراطورية فى بادىء الأمر بطريقة سلمية من أجل الاستقرار فى حياة جديدة فى رحاب الحضارة ، وحصلوا

---

(١) J. B Bury (١٨٦١ — ١٩٢٧) .

(٢) Selected essays. Introduced by Harold Temperley. Cambridge ١٩٣٠

فى النهاية على حق الخدمة فى الجيش الرومانى مما أدى أخيراً إلى إنهيار الروح العسكرية .

استطرد بيورى يقول إن هذه السياسة الغربية فى حد ذاتها لم تكن تدفع إلى تمزيق الامبراطورية ، وإنما كان هذا التمزيق بسبب صدف عديدة تعاقبت دفعة واحدة دون توقع . فقد كان تدفق القبائل المغولية التى عرفت بقبائل الهون نحو أوربا مفاجأة تاريخية وقعت نتيجة لأحداث فى وسط آسيا لم تكن لها أية صلة بأحداث أوربا . وأمام هذا الزحف الجارف الذى هدد حياة القوط المقيمين فى حوض الدانوب ، إضطر القوط الغربيون إلى الاندفاع جنوباً وغرباً نحو حدود الامبراطورية الرومانية على أمل اللجوء إليها خوفاً من أخطار الهون . وبعد أن سمح لهم الامبراطور فالنز[١] بالاقامة فى أراضى الامبراطورية نشب بينهم وبين الرومان صراع أدى فى النهاية إلى الحرب . وفى سنة ٣٧٨ تقابل القوط مع جيش الامبراطورية فى موقعة أدرنة[٢] فى إقليم تراقية اليونانى إنتهت بمقتل الامبراطور .

لقد تمت هـــذه الهزيمة كذلك بطريق الصدفة ، ولم يكن أحد يصدق آنذاك هزيمة الجيش الرومانى الكبير أمام حفنة من القبائل الجرمانية الشاردة . ولكن الهزيمة وقعت نتيجه لضعف الامبراطور فالنز وطيشة وهو أمر لم يكن يتوقعه أحد . وجاء بعد ذلك الامبراطور ثيودوسيوس الأول وتصالح مع القوط الغربيين ومنحهم حق الاقامة داخل حدود الامبراطورية بصفة مستديمة ، ولم

(١) Valens (امبراطور الشرق ٣٦٤ — ٣٧٨) .

(٢) وهى أدريانوبوليس Hadrianopolis ومعناها مدينه أدريان (حالياً أدريني Adrene).

تسعفه مهارته السياسية فى تجنب شرور هذا الخطأ الذى ظهرت نتائجه بعد ذلك .
ثم تحقق عامل آخر لايرتبط بحالة الإمبراطورية وهو تقسيم الامبراطورية بناء على وصية ثيودوسيوس بين ولديه أركاديوس وأونوريوس . ونظراً إلى حداثة أونوريوس وعدم درايته بشئون الحكم فإن استيليكو الجرمانى ، الذى كان ثيودوسيوس قد عينه مستشاراً فى البلاط الامبراطورى وأصبح آخر الأمر قائداً عاماً للجيش الرومانى فى الحرب الناشبة ضد القوط الغربيين ، دفع الامبراطور الصغير إلى قبول الجماعات الجرمانية فى الامبراطورية دون تحفظ . وكانت الكارثة عندما إجتاح الجرمان بعد وفاة أونوريوس إيطالياً وغالة وأسبانياً .

* * *

أما المؤرخ الفرنسى أندريه بيجانيول[1] فينفى فى كتابه « الإمبراطورية المسيحية »[2] فكرة تدهور روما فى القرن الرابع لأن روما إستطاعت بعد المشاكل التى واجهتها فى القرن الثالث أن تنهض من جديد ، وأن تحدث فى نفس الوقت تحولا داخلياً بعد أن دفعت ثمن الأزمة . وأخذ مبدأ القوة الإمبراطورية ، الذى إعتنقته بيزنطة بعد ذلك ، خطوطه الأولى ، ذلك المبدأ الذى أصبح فى قالبه الجديد المثل السياسى الأعلى فى العصور الوسطى . وأما الصورة القاتمة التى عانت منها الامبراطورية من جراء المغالاة فى فرض الضرائب وتحلل الثروة والأوضاع الاجتماعية ، فلم تتضح معالمها فى ظل هذا التحول ، وإنما اتضحت معالم الصورة القاتمة بالحروب الجرمانية المتواصلة . وحسب تعبير بيجانيول لا يمكن القول

---

(١) André Piganiol .

(٢) L'empire chretien ٣٢٥-٣٩٥ paris ١٩٤٧

بأن الامبرارية قد انتهت بلطمة واحدة بعد أن غلبها نعاس طويل ، فهى لم تذق هذا الموت الهادىء البطىء ، وإنما تم إغتيالها غدراً على يد الجرمان .

* * *

وفى كتاب « إختبار الحضارة »[1] يقدم المؤرخ الانجليزى أرنولد توينبى تفسيرين أحدهما قد يعتبر منافياً للعقل، وهو القائل بأن تاريخ الإمبراطورية الرومانية خاتمة طبيعية لإخفاق الحضارة اليونانية التى استوعبتها الامبراطورية ،ذلك الاخفاق الذى وضحت علاماته منذ الحروب البليبونيزية فى القرن الخامس قبل الميلاد. أما التفسير الثانى فيرمى فى النهاية إلى أن تدهـــور الحضارة الرومانية كان نتيجة لقصورها عن الإستجابة لمنافسة الدين المسيحى والكنيسة . يقول توينبى إستطراداً لهذا الرأى : إن النمط المألوف للانحلال الإجتماعى يتمثل فى انشقاق المجتمع المتفسخ إلى فئة عمال متمردة وأقلية مهيمنة على مقدرات الدولة تتناقص إيجابياتها يوماً بعد يوم . وعملية التفسخ هذه لا تشرع باطراد وفى هدوء ، وإنما هى ترتج فى نوبات مترددة من الشغب واستجماع القوة . وتطبيقاً لهذه القاعدة المألوفة نرى أن الأقلية الرومانية المسيطرة نجحت فى النوبة قبل الأخيرة من إستجماع قوتها — على حد قوله — فى كبح جماح التمزق الخطير الذى اعترى المجتمع الرومانى ، وذلك بإقرار الأمن وسيادة القانون تحت شعار الدولة العالمية . وفى إطار هذه الدولة العالمية التى اختلقتها الأقلية خلقت فئات العمال والكادحين بدورها كنيسة عالمية . وبعد الشكوك التى أبدتها الحكومة الرومانية تجاه الدين الجديد والشغب الذى تلى ذلك أمكن للكنيسة العالمية أن تظل صامدة لتنبثق منها حضارة جديدة .

ولعل هذه الظواهر قد تمثلت خير تمثيل فى السلام الرومانى والكنيسة المسيحية . لقد أقر الإمبراطور أغسطس فكرة السلام الرومانى ، وبدا حينئذ أن

(١) Givilization on trial. Oxford 1948 .

هذه الفكرة لابد أن توفر سياسة صلبة يرتكز عليها مستقبل العالم الرومانى أجمع بعد أن كان نهباً للحروب وسوء الحكم والتمرد ، ولكن ثبت من مجريات الأحداث أن استجماع القوة لم يكن إلا مجرد إرجاء للنذير ، فبعد مائتين وخمسين سنة من الهدوء النسبى ، أو لعله الهدوء الذى يسبق العاصفة ، عانت الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث من إنهيار لم تستطع معه أن تستعيد حيويتها السالفة ، وعند الأزمة التالية فى القرنين الخامس والسادس تعذر استدراك الموقف تماماً وتفككت الإمبراطورية التى عجزت عن إحلال القانون الدولى والنظام . لقد ألحق المجتمع الرومانى بكيانه إصابات دامية كما يقول توينبى ولم يشعر بالندم إلا بعد فوات الوقت ، ولم يكن فى طوع السلام الرومانى أن يبدع الإستقرار المنشود ومن ثم لم يتحقق له الدوام . وكل الحقيقة الماثلة التى أظهرتها فكرة السلام الرومانى على واقع العالم تكمن فى أن الكنيسة استطاعت أن تستفيد من هذا الوهم إلى أقصى حد .

* * *

وبصدد الإنتقادات التى أبداها المؤرخون حول إنهيار الإمبراطوارية الرومانية لا يمكن أن نغفل النقد الذى قدمه تشارلز كوشرين[١] فى كتابه « المسيحية والثقافة الكلاسيكية »[٢] . والفكرة الأوغسطينية المحدثة التى قدمها كوشرين فى هذا الكتاب عن الطبيعة البشرية تقضى بأن العيوب الجوهرية للفكر الكلاسيكى كانت بذاتها أكبر عائق فى استمرار الحضارة القديمة كما كان يجب لها أن تكون . فبسبب الإعتقاد فى القوة

---

(١) Charles N. Cochrane .

Christianity and classical [illegible] (٢)

اللامحدودة للعقل الإنسانى ، تلك القوة التى مجدها الفكر الكلاسيكى ، أخفق زعماء السياسة فى تحقيق الغاية المنشودة لأنهم خلقوا مثلا سياسيا أعلى للكمال لا يطابق حقيقة الأوضاع ، واستبعدوا واقع الغرائز الإنسانية وحنين الشعوب إلى الحرية. ولعلنا نسلم مع نورمان كانتور فى كتابه عن التاريخ الوسيط (ص ٥٠) بأن كوشرين فى وجهة نظره الأوغسطينية هذه يقرر بحق أن النظرة الخاطئة إلى الطبيعة البشرية كانت سبباً حيوياً لعجز زعماء العالم الرومانى عن أن يتصرفوا بطريقة واقعية إزاء مشاكل العصر السياسية والإجتماعية والفكرية .

وهذا الرأى فى أعتقادنا لا ينفى بطبيعة الحال صفة الواقعية التى اتصفت بها العقلية الرومانية وتجلت فى شتى الأنظمة التى حكمت نواحى الحياة اليومية المختلفة. ولكنه يعنى فى تقديرنا أن الدولة الرومانية ، شـأنها فى ذلك شأن الدول الاستعمارية ، أخفقت منذ البداية فى فهم واقع الشعوب التى حكمتها ، أو لعلها كانت تفهم هذا الواقع منذ البداية ولم تشأ أن تعترف بحق الشعوب الآمنة فى الحرية والحياة الكريمة ، لأن السياسة أصبحت قبل كل شىء فنا خبيثا من فنون الدولة الرومانية ، ولأن الصراع بين السياسة السلطوية والمثل الإنسانية العليا كان بعد كل شىء صراعا إيديولوجيا من أجل تبرير البطش والطغيان . ولا جدال فى أن الشاعر فرجيل داعية الحكم الإمبراطورى كان يدرك الغاية من الإيديولوجية التى نادى بها أغسطس أول الأباطرة الرومان ، وكان يدرك كذلك وبمشاعره المرهفة الحزينة فرط الأحداث ، وكم من الدموع سوف تذرف على ساحة الإمبراطورية القادمة . إن كل من يقرأ قصائد فرجيل بعقل حساس يسمع صوت البكاء الصادق المكتوم ... العالم كله والأشياء تبكى[1] . . . لأن العالم لا يمكن

(١) sunt lacrimae rerum .

أن يقوم فى الزمان من غير البطش والقوة . . . من غير الدولة والسلطة ... من غير الإمبراطورية والحرب ... كل هذه الأمور التى تجلب الدموع والآلام .

والدراسات التاريخية الأخيرة التى تكاد تتفق على هذه المقولة المثيرة للجدل تخلص إلى أن الإمبراطورية الرومانية لم تحقق غير وحدة حضارية ظاهرية فى عالم البحر المتوسط . ففى الأقاليم الشرقية من هذا العالم لم يكتسب روح الحضارة الرومانية غير نفر من الصفوة المثقفة التى أضحت تتشدق جذلة باللغة اللاتينية المتحذلقة . فضلا عن اللغة اليونانية التى كانت سائدة بين طليعة المثقفين فى تلك المناطق كما سبق أن رأينا منذ فتوحات الاسكندر الأكبر بوصفها لغة الثقافة فى كبريات المدارس . أما الجماهير الغفيرة فقد ظلت وفية لحضاراتها القديمة وتراثها العريق ، وكانت بطبيعة الحال تتحدث لغاتها القومية جيلا بعد جيل ، وإن كانت ظروف المعاملات اليومية تفرض على عدد من هذه الجماهير أن يتكلموا اللغة اليونانية الدراجة وأحياناً اللغة اللاتينية الركيكة .

وما أن بدأت الحكومة الرومانية تواجه المشاكل العسكرية والاقتصادية ، وما أن أخذ برنامج السلام الرومانى يفقد جدواه ، حتى أخذت هذه القوميات بدورها تؤكد أصالتها بمشاعر وطنية عارمة وتفرض تراثها على الطليعة المرومنة من أبناء البلاد فى مثابرة وعزم ، واستطاعت فى القرنين الرابع والخامس صرف الجماهير الكادحة عن ولائها للحكم الرومانى . ومن ناحية أخرى كان هناك دور الأرستقراطية الرومانية فى مقاومة السلطة . . . لقد كان الأرستقراطيون الرومان الذين ظلوا أبداً على عهد المبادىء الجمهورية القديمة يسخرون من المثل الإمبراطورية العليا فى كل مناسبة ... سراً وعلانية وبكل ما أوتوا من براعة الحديث والقدرة على الإقناع. وهذه الحركات القومية والثورية التي كان يقوم بها أهالي البلدان

الحكومة والفئة المناهضة من الإرستقراطية الرومانية كشفت عن الواجهة السياسية لوحدة الإمبراطورية المزعومة . وليس هذا بغريب علينا كما يقول نورمان كانتور، فنحن عندما نشاهد فى عصرنا هذا كم كان ضحضاحا تغلغل الحضارة الأوربية فى آسيا وأفريقيا تحت حكم الإمبراطورية الغربية الحديثه نستطيع أن نقدر عن كثب كم كانت رومنة العالم وقتذاك نفوذا ظاهريا فى وجه الحضارات القومية العريقة .

* * *

٤ – بداية العصور الوسطى

نقـــاط الموضـــوع

بداية العصور الوسطى قضـــية موضوعية – تواريخ البداية المطروحة منذ القرن الثامن عشر – تقسيم سيلاريوس الثلاثى للتاريخ وصعوبة البحث عن بدايات العصور – مشكلة المنظورات التقليدية فى التاريخ – المنظور الأسطورى – المنظور الفلسفى – منظـــور فكرة الدولة – مفهوم الدورية التاريخية عند اليونانيين – العصور المفردة ومفهوم التاريخ المسيحى – المسألة الجدلية فى التقسيم التاريخى – كروتشه وتعلق العصور بالذاكرة – كولينجوود واختلاف بداية الأحداث ونهايتها فى كتب التاريخ – قامة الأستمرارية فى الحياة التاريخية – تقسيم التقدم أداة لتجزئة المستودع التاريخى – صعوبة المعيار فى التعرف على تحول العصور – فكرة فترات الانتقال وتطبيقها على العصور القديمة والعصور الوسطى – تفهم الظروف والأعماق الزمنية – انتقاء وتحليل الديناميات الحضارية – قصور فكرة التاريخ للتاريخ – أدامز ودراسة التاريخ الأوربى الوسيط – مؤرخو القانون والحقائق الجديدة – ميتيس – فياكر – مؤرخو الاجتماع والاقتصـــاد – بلوك – دوبش – [illegible] – مكفنتس –

رستوفزيف ـــ هالر وفكرة الوحدة التاريخية والحضارية بين العصر الرومانى الأخير والهجرات الجرمانية وعصر شارلمان ـــ موافقة ماير ولوت على فكرة هالر ـــ تأييد ريجل ودوبش لاستمرار التطور الحضارى العالم الرومانى ـــ توحيد البرامج الثقافية ـــ توحيد أساليب الفنون التشكيلية ـــ استمرار الطبيعة الرومانية فى مملكة الفرنجة ـــ شتروهيكر ورأيه عن ملامح العصر الرومانى فى مملكة القوط الغربيين فى اسبانيا ـــ ظواهر فترة الانتقال بين العصور القديمة والعصور الوسطى ـــ نفوذ الديانات السماوية وارتباط الدين بالسياسة ـــ بيرين وكتاب محمد وشارلمان ـــ مزاعم بيرين حول التوسع الإسلامى وتدهور التجارة فى حوض البحر المتوسط ـــ دفاع بيرين عن الجرمان ـــ ردود مؤرخى المدارس الاقتصادية والاجتماعية ـــ بينز ـــ جانزهوف ـــ لوبيز ـــ فوكيون ـــ لومبار ـــ دينيت ـــ أرشيبالد لويس ـــ بولين ـــ بيروى ـــ بارك ـــ بينز ورأيه فى مسؤلية الفندال عن تحطيم وحـــدة البحر المتوسط أرشيبالد لويس ورأيه فى مسئولية بيزنطة ـــ لوبيز ورأيه فى احياء المسلمين للتجارة ـــ بارك ورأيه فى عنصر الائتمان فى التجارة الاسلامية ـــ تدهور الحالة الاقتصادية فى فرنكيا نتيجة للظروف الداخلية ـــ بداية العصـــور الوسطى فى رأينا على مفترق القرنين السادس والسابع ـــ شواهد رأينا من واقع دراسات لجنة كنز اللغة اللاتينية ولجنة تراث العصور الوسطى التابعتين لأكاديمية العلوم البافارية ـــ الشواهد التاريخية ـــ تأسيس المملكة اللومباردية ـــ أسقفية البابا أغريغوريوس العظيم ـــ اصلاح الدولة البيزنطية فى عهد الامبراطور هرقل الأول ـــ ظهور السلاف والآفار فى البلقان ـــ بداية التوسع الاسلامى ـــ فتور الثقافة فى القرن السادس بعد أغلاق أكاديمية أثينا ـــ التدهور الفكرى فى القرن السابع ـــ ظروف غالة على منعطف التحول ـــ أحوال فرنكيا فى عهود ملوك الفرنجة الميروفيين ـــ جهود الرهبان [illegible] النهضة الشارلمانية ـــ بوادر

الإقطاع فى المجتمع الفرنجى — مظاهر الوحدة العالمية بين العصر الرومانى الأخير وعصر شارلمان — الثقافة الكلاسيكية — القانون الرومانى — فكرة الدولة الرومانية — الوحدة الدينية — وحدة البناء الاجتماعى — مناهج التعليم والوحدة الفكرية .

ليس هناك فى الدراسات التاريخية قضية أكثر اثارة للشك من قضية البحث عن بداية للعصور الوسطى وقد تبدو هذه القضية لأول وهلة قضية شكلية يتوجب علينا أن نبادر بنظرها قبل الخوض فى أية قضية أخرى تتعلق بدراستنا للتاريخ الوسيط ، ولكنها فى الحقيقة قضية موضوعية صرفة لا يمكن نظرها دون التعرف على الظروف التى أحاطت بالدولة الرومانية فى عصورها الامبراطورية الأخيرة ، لأن الفصل فى هذه القضية يكمن قبل كل شىء فى تاريخ هذه الدولة . ومع تلك فتاريخ الامبراطورية الرومانية فى حد ذاته لا يعطينا منطوق الحكم ، لأن المسألة ليست مسألة بداية ونهاية بالمعنى المألوف .

منذ أن طرق ماكيافيلى فى القرن السادس عشر وسيلاريوس فى القرن السابع عشر هذا الموضوع والمناقشات حوله لم تهدأ حتى الآن . لقد طرح الباحثون والنقاد بعدهما منذ القرن الثامن عشر أحداثاً عديدة وتواريخ شتى لبداية العصور الوسطى ، وتراوحت هذه الأحداث والتواريخ حسب وجهات النظر الخاصة بين إعتناق قسطنطين[١] للدين المسيحى — على فرض صحة الروايات المعاصرة — فى سنة ٣١٢ ، واتفاق قسطنطين وليكينيوس[٢] فى ميلانو على حرية العقيدة فى سنة ٣١٣ ، وتولى قسطنطين حكم الإمبراطورية فى سنة ٣٢٤ ، وإنعقاد المجمع المسكونى الأول فى نيقية[٣] فى سنة ٣٢٥ ، وتأسيس القسطنطينية فى سنة ٣٣٠ ، وإجتياح

---

(١) Flavius Valerius Constantinus (٣١١ — ٣٣٧) .

(٢) Valerius Licinianus Licinius (٣١١ — ٣٢٤) .

(٣) Nicasea في مقاطعة بيثينيا Bithynia في آسيا الصغرى.

الهون[1] اشرق أوربا سنة فى ٣٧٥ ، وإنتصار القوط الغربيين على الإمبراطور فالنز والقضاء عليه فى موقعة أدرنة فى سـنة ٣٨٧ ، وإلغاء الأمبراطور ثيودوسيوس الأول لقب الكاهن الأعظم[2] الوثنى فى سنة ٣٨١ ، وتقـرير ثيودوسيوس للمسيحية كدين رسمى للامبراطورية فى سنة ٣٩١ ، ووفاة ثيودوسيوس وتقسيم الإمبراطورية بين ولديه أركاديوس وأونوريوس فى سنة ٣٩٥ ، وغزو القوط الغربيين لروما تحت قيادة ألاريش فى سنة ٤١٠ ، ووفاة الامبراطور الغربى فالنتينيان الثالث[3] ونهاية حكم الأسرة الثيودوسية فى سنة ٤٥٤ ، وعزل الجرمانى أودوفاكر الأسكيرى لآخر الأباطرة الرومان الغربيين رومولوس الصغير فى سنة ٤٧٦ ، وصعود الجرمانى أشلودفيج الأول[4] ملك الفرنجة الميروفيين إلى السلطة وتثبيت الأسرة الميروفية فى حكم غالة فى سنة ٤٨١ ، وإعتناق أشلودفيج للدين المسيحى على المذهب الكاثوليكى فى سنة ٤٩٦ (؟) ، وإغلاق الامبراطور البيزنطى جوستينيان الأول[5] لأكاديمية العلوم الإنسانية فى أثينا فى سنة ٥٢٩ ، وتولى البابا أغريغوريوس الأول[6] لأسقفية روما فى سنه ٥٩٠ ، وتتويج البابا ليو الثالث لملك الفرنجة شارلمان إمبراطورا على الغرب فى سنة ٨٠٠ .

---

(١) Hunni كما أسماهم الرومان ، وهم قبائل هسيونج هو Hsiung Hu المغولية .

(٢) Pontifex Maximus ، والحقيقة أن الامبراطور جراتيان Flavius Gratianus (٣٦٠ — ٣٨٣) كان أول من استبعد لقب الكاهن الأعظم من ألقابه .

(٣) Valentinianus III (٤٢٥ — ٤٥٤) .

(٤) Chlodwig I (٤٨١ — ٥١١) .

(٥) Flavius Petrus Sabbatius Justinianus (٥٢٧ — ٥٦٥) .

(٦) Gregorius I (٥٩٠ - ٦٠٤).

وغنى عن القول أن هذه التواريخ المفردة المطروحة وغيرها لايمكن بحال من الأحوال أن تدل دلالة قاطعة على نهاية عصر وبداية عصر آخر ، لأنها أن فعلت فإنما تدل بذلك على إنقطاع فى التقدم التاريخى ، وهذا أمر لايقبله العقل ، بل هو ضرب من المستحيل . ولذلك فإن البحث عن حد فاصل بين العصور القديمة والعصور الوسطى فى ميعاد بعينه أو حدث بعينه إنما هو تقدير تاريخى يفتقر إلى الصواب . صحيح أنه كل حقبة من أحقاب حكم الإمبراطور دوقلديانوس فى القرن الثالث والإمبراطور قسطنطين فى القرن الرابع وملك الفرنجة شارلمان فى مفترق القرنين الثامن والتاسع يمكن فى حد ذاتها وبما تحتوى عليه من أحداث أن تكون مرحلة تحول هامة فى مجرى التاريخ لايختلف عليها المؤرخون إختلافاً جوهرياً ، ولكن المسألة لها من غير شك بعد آخر أوجده منظور المؤرخين منذ أن طلع سيلاريوس فى أواخر القرن السابع عشر بتقسيمه الثلاثى لعصور التاريخ الإنسانى إلى عصور قديمة وعصور وسطى وعصور حديثة ، وهو التقسيم الذى يرجع فى معناه إلى تقييم الإنسانيين فى عصر النهضة الكبرى فى القرن الخامس عشر للتاريخ الثقافى فى أوربا ، فعصور التاريخ الأوربى كانت تنقسم فى نظر الإنسانيين من الناحية الحضارية إلى عصور ثلاثة هى عصر الحضارة الكلاسيكية القديمة ، والعصر المسيحى الوسيط ، وعصر النهضة الكبرى الذى كان يمثل بالعبارة الايديولوجية عصر الحضارة الكلاسيكية الجديدة ، لأنه — فضلا عن تقدم العلوم التجريبية والكشوف الجغرافية — كان فى حقيقته عصر أحياء للثقافتين اليونانية والرومانية .

وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا المنظور يدفعنا إلى إختيار حتمى هو فى نفس الوقت إختيار صعب قد لايستقيم فى جميع الحالات مع طبيعة العملية التاريخية التى يجب أن نفهمها تحت مصنفات من نوع آخر . وعلى ذلك فالمشكلة قبل كل شىء مشكلة منظورات تقليدية جرى عليها عرف المؤرخين منذ أن وعوا على تسجيل

التاريخ . . . منظورات نبعت فى بادىء الأمر من إعتبارات خرونولوجية (زمنية) صرفة ، وقامت على أسس من الأسطورة والفلسفة وفكرة الدولة . فقد تراوحت هذه المنظورات بين التقديرات الجنيالوجية (النسبية) التى وصلتنا منذ أقدم العصور ومازالت سارية المفعول فى فهمنا لمراحل التاريخ الذى ينقسم على أساسها إلى أزمان أحكام وأسرات وهذا هو ما نعرفه بتاريخ الأنساب ، وبين المفاهيم الأسطورية كما فى فكرة العصور الخمسة التى وردت عند الشاعر اليونانى القديم هسيود فى قصيدة الأعمال والأيام[١] ، تلك الفكرة التى تبناها الفقيه الاسكندرى الكبير أوريجانوس فى القرن الثالث على نسق تاريخى من واقع أخبار الكتاب المقدس[٢] ، وبين فكرة التتابع الحتمى لدساتير الدولة عند المؤرخ اليونانى بوليبيوس[٣] الذى كتب تاريخ روما ، ذلك التتابع الذى يعتبر لصيقاً بما أسماه بوليبيوس بالتاريخ البراجماتى[٤] وهو يعنى فى مفهومه الأحداث السياسية والحربية .

وإذا كانت أحقاب التاريخ حسب المفهوم اليونانى القديم تعود مرة أخرى فى سياق دائرى ثابت ، مما يجعلنا نقول على نحو دارج أن التاريخ يعيد نفسه ، فإن الفكر المسيحى جاء بتصور طولى مفرد لسياق التاريخ منذ بدء الخليقة إلى يوم الحساب . ومعنى هذا أن التاريخ فى تقدير الفكر المسيحى لايعيد نفسه أبدا ، لأنه إن فعل ذلك فإن المسيح قد يتكرر على مر الزمن ، وهذا مالا يمكن أن يحدث ، لأن المسيح جاء مرة واحدة ولن يأتى مسيح مثيل له أو شبيه به غير المسيح الدجال .

(١) erga kai hemerai (سطر ١٠٦ — ٢٠١) .
(٢) أنظر الغمراوى ، « نظرات هيستوريوغرافيه ... » ص ٢٣٣ .
(٣) Polybius (حوالى ٢٠٠ — حوالى ١١٨ قبل الميلاد) .
(٤) pragmatike istoria

وهذا التصور ما زال يمثل طرف النقيض فى قضية التطور التاريخى الدائرة فى أوساط المفكرين حتى اليوم ، فمازال المفكرون يسألون حتى اليوم إذا كان التاريخ يعيد نفسه أم لا ، ونظن أن الأجيال سوف تطرح دائماً وأبداً هذا السؤال .

وعلى ذلك فكل عصر من العصور التاريخية إنما يكون من وجهة النظر المسيحية عصراً مفرداً سواء قسم الإنسان تاريخ العالم إلى خمسة عصور كما فعل أوريجانوس الإسكندرى فى القرن الثالث ونعنى بها عصور آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح ، أو قسمه إلى ستة عصور كما فعل معاصره هيبوليتوس[١] الرومانى تبعاً لأيام الخليقة الستة فى التوراة وذلك باضافة عصر داود إلى العصور الخمسة السابقة ، أو قسمه إلى أربع دول كما فعل جيروم فى أواخر القرن الرابع حسب التفسير المسيحى لرؤيا نبوخذ نصر ملك بابل ورؤيا النبى دانيال فى العهد القديم ، وهذه الدول الأربعة هى دوله الأشوريين والبابليين ، ودولة الميديين والفرس ، ودولة المقدونيين ، ودولة الرومان[٢] . ومنذ القرن السابع عشر أخذت هذه التقسيمات النقهية تخفت فى زحام الآراء الفلسفية الجديدة ، ولكن على نقيض كل التصورات فرض التقسيم الثلاثى الذى ابتدعه سيلاريوس نفسه على النظرة الحديثة إلى ماضى التاريخ ، وهو التقسيم الذى ما زال يسيطر حتى الآن فى علم التاريخ بل وفى الوعى التاريخى ، ونقصد بذلك تقسيم التاريخ إلى تاريخ قديم وتاريخ وسيط وتاريخ حديث ، وإن كان قد أضيف أخيراً إلى هذا التقسيم الثلاثى ما يسمى بالتاريخ المعاصر ، ولا ندرى ماذا سيكون عليه هذا الأمر فى تصور الأجيال القادمة . . .

ومع ذلك فإن حجية التقسيم التاريخى مسألة جدلية يختلف عليها . فالمؤرخون

---

(١) Hippolytus (حوالى ١٧٠ — حوالى ٢٣٦) .

(٢) أنظر الغمراوي ، "نظرات هيستوريوغرافيه . . ." ص٢٢٣.

ونقاد التاريخ المحدثون أمثال بندتو كروتشه[١] الذى يعتقد أن فكرة الأحقاب والعصور إنما لها قصد يتعلق بأمور الذاكرة فحسب ، وروبين جورج كولينجوود[٢] الذى يرى أن كتب التاريخ إنما تبدأ وتنتهى على خلاف الأحداث التى تتناولها ، أعلنوا من ناحية أن تقسيم التاريخ إلى فترات وأحقاب وعصور ماهو إلا تقسيم لمفاهيم ثلاثة كلها مترادفة ، وأن كل تقسيم على هذا النحو فى مواجهة استمرار الحادثة التاريخية إنما هو فى الأساس تقسيم غير تاريخى من ناحية أخرى ، لأن الحيـــاة التاريخية لاتتحدد أبداً على عكس الوجود الفردى تحديداً تاماً ، حتى فى أكثر الثورات حسما وفى أكثر الانقطاعات الحضارية معناه — على فرض حدوثها — لابد أن تتوفر دائما قامة من الإستمراريه الشخصية والفكرية والنظامية يختلف حجمها ومداها ولكنها قامة نلمسها دائماً عن كثب .

وهناك بطبيعة الحال وجهات نظر وردود تعارض هذا الرأى ، لأنه إذا كان هناك على الدوام مسوغ لتأكيد الإستمرارية التاريخية ، إلا أن إطلاق هذا المفهوم كما يقول فرانز جيورج ماير فى كتابه « تحول عالم البحر المتوسط » (ص ٢٤) لايؤدى فحسب إلى اللعبة الفكرية المضللة لتحريك حدود الأحقاب وإزالتها فى فى نهاية الامر ، وإنما هو كذلك لايقاس عموما على الحقيقة التاريخية . وعلى ذلك فإن تقسيم التقدم التاريخى ليس مجرد تقسيم مفتعل ، وإنما هو أداه ضرورى لتجزئة المستودع التاريخى الهائل إلى قطاعات تكون فى المتناول ويمكن شمولها فى التصور ، فهذا التقسيم بالأحرى ينطبق مع عادة أولية توافق التاريخ كما توافقه الإستمراريه تمام الموافقة . وصحيح أنه لا توجد فى إنسياق هذه القطاعات واحدة

---

(١) Benedetto Croce (١٨٦٦ — ١٩٥٢) .

(٢) Robin George Collingwood (١٨٨٩ - ١٩٤٣).

تلو الأخرى أية لحظات من الفراغ والعدم ، ولكن توجد على اليقين تغيرات يمكن ملاحظتها بوضوح ، وبين هذه التغيرات تكون الحقيقة التاريخية الكاملة مختلفة من حيث الجوهر والظاهرة وقوة التأثير .

* * *

وعلى أية حال فإن المسألة قبل كل شيء خاضعة لوجهات النظر . ومهما كان الرأى فليس هناك فى الواقع معيار دقيق نتعرف بواسطته على إنتقال الأحقاب والعصور ، وإنما هناك دائماً كما يقول أوبن[1] فى مقالته « موضوع الإنتقال بين العصور القديمة والعصور الوسطى »[2] تطورات عريضة ممتدة تحدثها قوة الدفع التاريخى ، وتتم على مدى زمنى معين ، وقد تكون أحداث سنوات بعينها حلقة من حلقاتها ، ولكن من شأن هذه التطورات أن تؤدى فى النهاية إلى أشكال حياتية مغايرة تدعنا نتعرف على عصر جديد . وفى الحقيقة يمكن أن نقول بعبارة أخرى أن هناك دائماً فترة انتقال بين عصر وعصر — على فرض اعترافنا بهذه الكلمات — وليس لحظة انتقال .. فترة يتم فيها تفاعل ما بين مقومات حضارية متفقة أو مختلفة على نحو نستطيع معه أن نتتبع سير التاريخ وأيا كانت الطريقة التى يتم بها التفاعل بين هذه المقومات .

فمن البديهى لدراسة عصر من عصور التاريخ أن نتفهم الظروف التى تصاحبه كما نتفهم أعماقه الزمنية السابقة لكى نصل إلى مواضع السببية والكيفية التى يبدأ بها هذا العصر إذا كان له أن يبدأ . وعلى ذلك فيتوجب علينا قبل كل شيء أن نطرح

---

(١) H. Aubin .

(٢) "Die Frage der Scheide zwischen Altertum und Mittelalter" : Historische Zeitschrift 172 Oktober 1951 — 245 — 263 .

جانباً ذلك المنهج التسجيلى — أو الروائى أن شئنا — فى سرد أحداث التاريخ ، إلا فى حدود ماتقتضيه الدراسة النقدية بطبيعة الحال ، لأن المسألة ليست إضافة حقيقة أو أخرى إلى مجموعات الحقائق الكثيرة الماثلة أمامنا بقدر ما هى انتقاء وتحليل للديناميات الحضارية التى تنقل المجتمعات الإنسانية من عصر إلى عصر آخر... وكما يقول وليام كارول بارك فى كتابه عن أصول العالم الوسيط (ص ٤) : « ليس المقصود هنا التاريخ للتاريخ[١] وإنما المقصود هو فهم ذلك العالم الساحر المضطرب الذى تداخلت فيه الأنظمة والقيم القديمة والجديدة والذى قاد أوربا إلى عصورها الوسطى » .

وإذا كان جورج بيرتون أدامز[٢] « عميد علماء العصور الوسطى الأمريكيين »[٣] ، كما أسماه جيمس وستفول[٤] فى مقالته عن « المجالات المفيدة فى أبحاث التاريخ الوسيط »[٥] ، قد أعلن منذ حوالى سبعين عاماً فى مقالته عن « المشاكل الحاضرة فى تاريخ العصور الوسطى »[٦] أن تاريخ أوربا منذ بداية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع قد تم بحثه بدقة متناهية حتى أنه يكاد يكون هناك إتفاق فى الرأى بين

---

(١) historia gratia historiae .

(٢) George Burton Admas .

(٣) Dean of American medievalistis .

(٤) James Westfall .

(٥) "Profitable fields of investigation in medieval history": American Historical Review XVIII 1913 p. 490 .

(٦) "The present problems of medieval history" : International Congress of Arts and Science, edited by Howard J. Rogers, vol. III. London and New York

العلماء على كل الموضوعات المهمة فى هذا الحقل ، فإن هذه المقولة — فضلا عن عدم صحتها — لابد أن تفقد الآن سحرها بعد مرور نحو سبعين سنة تكشف خلالها بين يوم وآخر كثير من الحقائق التى أضافها المتخصصون فى تاريخ القانون أمثال هينريش ميتيس [١] ، وفرانز فياكر [٢] ، ووجهات النظر المثيرة التى طلع بها من يسمون بالمؤرخين الإجتماعيين والاقتصاديين أمثال مارك بلوك ، وألفونس دوبش [٣] وهنرى بيرين ، وجونار ميكفيتس [٤] ، وميخائيل رستوفزيف ، وجعلوا بآرائهم ما سبق الاتفاق عليه أمراً يتعذر الدفاع عنه ، وإن كان هؤلاء المؤرخون لم يقدموا بطبيعة الحال وجهات نظر شاملة يمكن أن يرضى عنها علماء التاريخ الدينى ونقاد الأدب . ولذلك فإن هناك دائماً متسعاً من الوقت لمناقشة الدلالات النسبية لمختلف التطورات التى تفرقت فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ أوربا ، ومن ثم يتبين لنا كلما تقدمت بنا الدراسة مدى الصعوبة التى تعترض طريقنا فى تحديد بداية للعصور الوسطى تحديداً دقيقاً .

وقد يبدو من الغريب أن عالماً مثل يوهان هالر [٥] يقول فى كتابه عن ظهور الجرمان فى التاريخ [٦] — برغم صحة رأيه إلى حد كبير — إن هجرات الشعوب الجرمانية لا تمثل فاصلا بين عصور تاريخية مختلفة ، وأنه يجب علينا بالأحرى أن نعود أنفسنا

---

(١) Heinrich Mitteis .

(٢) Franz Wieacker .

(٣) Alfons Dopsch .

(٤) Gunnar Miokwitz .

(٥) Johann Haller .

(٦) Der Eintritt der Germanen in der Geschichte (Reden und ... Geschichte und Politik), Stuttgart 1941 S. 35.

على أن نرى بين العصر الرومانى الأخير والهجرات الجرمانية وعصر شارلمان وحدة لا تنفصم عراها . ووجه الغرابة فى هذا الرأى ، الذى ذهب إليه كذلك بعض المؤرخين أمثال إدوارد ماير وفرديناند لوت ، أنه يفترض فترة إنتقال إلى العصور الوسطى من نحو خمسة قرون . ولعل الحجة فى هذا الرأى أن طوابع العالم القديم كما سوف نرى ظلت ماثلة بمقدار أو بآخر حتى القرن الثامن بل وبعد ذلك ، ولا سيما أن مؤرخى الفن والإقتصاد أمثال ريجل [1] وألفونس دوبش يسلمون باستمرار التطور الحضارى للعالم الرومانى حتى عصر شارلمان ، وإن كان تطوراً أخذ يسرى فيه وقع آخر لا يمكن أن يغطى تماماً وقع العصر الرومانى الأخير ، ويبدو هذا الإستمرار أكثر ما يبدو فى الميل إلى توحيد البرامج الثقافية ، وكذلك فى أساليب الفنون التشكيلية التى تأثرت بطوابع الفن التجريدى فى بيزنطة ، والتى لا يمكن أن توصف بمفاهيم العصور القديمة ولا بمفاهيم العصور الوسطى . كما أن المؤرخين كثيراً ما يشيرون إلى الطبيعة الرومانية الغالبة على الطبيعة الوسيطة فى مملكة الفرنجة فى تلك الفترة . وكذلك أثبت شتروهيكر [2] فى مقالته عن «الحدود الفاصلة بين العالم القديم وعالم العصور الوسطى» [3] أن العصر الرومانى المحتضر ظلت ملامحه فى مملكة القوط الغربيين فى أسبانيا حتى الفتح العربى سنة ٧١١ .

وعلى أقل تقدير إذا ما سأل الإنسان بدلا من ذلك عن خطوط عامة للقرون الممتدة بين دوقلديانوس وشارلمان لا تنتمى إلى العالم القديم ولا إلى العالم الوسيط ، فإن هذه القرون يمكن أن تفهم على أنها عصور خاصة قائمة بذاتها نظراً إلى العناصر

---

(١) A. Riegel .

(٢) K. F. Stroheker .

(٣) "Um die Grenze Zwischen Antike und abendlaendischem.

الجوهرية فى هذه الوحدة العامة التى يشار إليها من خلال الدراسة . ولا سيما أن هذه العصور شهدت ظاهرة جديدة ، وهى ظاهرة نفوذ الديانات السماوية التى تمثلت فى المسيحية والإسلام فى دور الدولة والحضارة ، وهو نفوذ لم يكن يفرق فى تلك الفترة بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية ، فلم يكن هناك نقيض بين الكنيسة والعالم ، أو بين الدين والسياسة بالمعنى الذى عرف بعد ذلك . ولعل هذا فى حد ذاته هو الذى كان يشكل الفارق الحاسم بين تلك العصور والعصور الوسطى . ولكن الأمر على أية حال رهين بدراسة الظروف التى مرت بها أوربا فى تلك الفترة ، حتى تبين لنا الجوانب المختلفة التى تعيننا على فهم هذه القضية فهماً أعمق .

* * *

والحقيقة أن مؤرخ الإقتصادى البلجيكى هنرى بيرين كان قد سبق ونادى برأى أعتقد من خلاله أن العالم القديم إمتد حتى عصر شارلمان ، وظهر هذا الرأى فى كتابه « محمد وشارلمان » الذى سبق أن ذكرناه ، وفسر إعتقاده بقوله أن التدهور الذى أخذ يصيب الحضارة الكلاسيكية فى حوض البحر المتوسط ، والذى حدث حسب إدعائه نتيجة للتوسع الإسلامى ، وصل إلى منتهاه فى منتصف القرن الثامن بعد قرون من الثورات والإنقلابات . ولا نحسب أننا قادرون على النظر فى قضية العصور الوسطى دون أن نتوقف قليلا أو كثيراً عند رأى بيرين ، لأن الفرضية التى إنطلق منها بيرين تمثل — برغم خطئها الفادح — وجهة نظر محورية نظراً إلى الدوى الهائل الذى أحدثته فى أوساط المؤرخين ، ونظراً إلى الجدل الذى ثار حولها لفترة طويلة والرفوض القاطعة التى أكدتها أبحاث العلماء الأخيرة . فضلا عن أن تقديم هذه النظريه من شأنه أن يلقى ضوءاً على بعض المسائل التى تتعلق بطبيعة العصور الوسطى وعلاقتها بالتاريخ ، كما أن مشكلة العصور الوسطى يمكن أن تناقش بدورها من

بعض الجوانب على ضوء تفسير بيرين ، لأن الضرر الذى أصاب تجارة البحر المتوسط بسبب المسلمين — فى زعم بيرين — وقع بصفة خاصة على دولة الفرنجة الميروفنجيين فى فرنكيا ، ومناقشة هذه المزاعم لا بد أن تؤدى بنا إلى دراسة أحوال تلك المنطقة الهامة التى مثلت فى الحقيقة مركز الثقل فيما حدث من تطورات يعين فهمها من غير شك على تتبع ظروف التحول الذى مرت فيه أوربا إلى عصورها الوسطى .

كان هنرى بيرين واحداً من أشهر العلماء الذى أنجبتهم بلجيكا فى القرن العشرين ، وله عدة كتب ومقالات فى التاريخ الاقتصادى فى العصور الوسطى ، وخاصة فى تاريخ بلجيكا والأراضى المنخفضة (هولندا) ، ولكنها لم تحظ فى الحقيقة بنفس الشهرة التى حظى بها كتابه « محمد وشارلمان » . وقد أعلن بيرين فكرته التى جاءت فى هذا الكتاب لأول مرة فى مقالة له عن « الفروق الاقتصادية فى عهد الميروفيين والكاروليين » [١] ، وترددت الفكرة بعد ذلك فى عدد من المقالات جمعها بيرين لتصبح موضوع كتابه الشهير الذى انتهى من إعداده قبيل وفاته فى سنة ١٩٣٥ . ونشر الكتاب فى سنة ١٩٣٦ فى باريس تحت إشراف أبنه وأحد تلاميذه السابقين ويدعى فرناند فركوتيرن [٢] ، وأعيد نشره فى باريس وبركسل فى سنة ١٩٣٧ .

يرى بيرين أن بداية العصور الوسطى فى أوربا أرتبطت بتوسع الإسلام نحو الغرب وأنهيار الوحدة البحر متوسطية التى ناضلت روما من أجلها على مر تاريخها الطويل ، ومن ثم فإن الإنقطاع الذى حدث بين العالم القديم وعالم العصور الوسطى لم يكن نتيجة للغزوات الجرمانية كما ذهب كثير من المؤرخين ، فلا القوط الغربيون

---

(١) "Un contraste economique : merovingiens et calolingiens": Revue belge de philologie et d'historie II 1923 p. 223—235.

(٢) Fernand Vercauteren

فى أسبانيا ولا القوط الشرقيون فى إيطاليا ولا حتى الفرنجة الميروفيون فى فرنكيا هم الذين أخلوا بميزان القوة فى عالم البحر المتوسط ، وإنما فتح المسلمين لشمال أفريقيا وأسبانيا هو الذى أحدث هذا التغير ، فقد أدى هذا الفتح بالفرنجة إلى السيطرة على الغرب الأوربى ، وتسبب فى خصام السياسة الشرقية والغربية ، لأن صدام المسلمين مع البيزنطيين فى الشرق جعل بيزنطة فى حالة لاتسمح لها بمساعدة البابوية ضد اللومبارديين الجرمان الذين احتلوا الآن إيطاليا ، واضطر البابا إزاء هذا الموقف إلى طلب المعونة من الفرنجة الذين كانوا يمثلون القوة الحقيقية الوحيدة فى أوربا فى ذلك الوقت . كما أن التوسع الإسلامى — وهذا هو أخطر ما فى نظرية بيرين — قضى على حركة التجارة الأوربية فى غربى البحر المتوسط ، وأثر بذلك على العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ، وبالتالى على إقتصاديات أوربا وإقتصاديات فرنكيا بصفة خاصة .

هذا هو مضمون فرضية بيرين ، وهو يعنى أن نهوض القوه الإسلامية الجديدة فى عالم البحر المتوسط فى القرنين السابع والثامن دفع أحداثاً خطيرة فى أوربا إلى الحركة ، وأدى فى النهاية إلى ظهور شارلمان على مسرح السياسة العالمية ، فقد جلب التوسع الإسلامى — حسب إدعائه — تدهوراً إقتصادياً فى عالم البحر المتوسط ، وأدى إلى اضطراب العلاقة بين الشرق والغرب ، وكان فى هذا قضاء على الوحدة البحر متوسطية التى ظلت — كما زعم بيرين — قائمة طوال فترة الغزوات الجرمانية ، فولايتا أفريقيا وأسبانيا ، اللتان كانتا أبداً جزءاً من العالم اللاتينى ، أصبحتا من الآن فصاعداً تابعتين لعالم الحضارة الإسلامية . لقد أصبح غرب البحر المتوسط بحيرة إسلامية بعد أن كان البحر كله بحراً رومانياً ، وتم بذلك إقصاء الغرب الأوربى وأجبر على العيش على موارده المحدودة ، وتحول إلى مدار الاقتصاد الزراعي ، ونشط إلى

أنظمة جديدة للدولة الإقطاعية والمجتمعات الإقليمية الريفية ، كما أنتقل مركز الحياة الأوربية الغربية من أقاليم البحر المتوسط إلى الشمال . وكان من جراء ذلك أن تغيرت أساليب الحكومة الفرنجية تجاه الإقطاع الذي أخذ يسيطر على الحياة الإجتماعية والاقتصادية ويهدد نفوذ الدولة الفرنجية ذاتها ، وتطورت علاقة الكنيسة الرومانية بالدولة والمجتمع بعد أن تقابلت مصالح البابوية مع المصالح التوسعية في السياسة الفرنجية من ناحية والمصالح الإقطاعية من ناحية أخرى ، وتولت الكنيسة زعامة مجتمع كان من قبل مجتمعا علمانياً . ووصلت هذه التطورات إلى قمتها في سنة ٨٠٠ بتتويج شارلمان وتأسيس امبراطورية أوربية جديدة عليها أن تلعب نفس الدور الذي كانت تلعبه الإمبراطورية الرومانية القديمة في الماضي .

وإذا كان هناك موضع دفاع واحد في نظرية بيرين فإنما هو موضع دفاعه عن الشعوب الجرمانية . . . دون تحفظ ودون الإستناد إلى التاريخ . لقد كان بيرين جرمانياً أكثر من الجرمان ، أو لعله كان بابوياً أكثر من البابا كما يقول البعض ، أو ملكياً أكثر من الملك كما يقول البعض الآخر . إن الجرمان في رأي بيرين لم يغيروا من الوضع الراهن في الامبراطورية الرومانية في القرنين الرابع والخامس ، والقول بغير هذا في ظنه بدع سياسي مغرض ، لأن الجرمان الذين أعجبتهم النظم الرومانية المتطورة لم يخلقوا نظاماً جديداً للحكم ، ولم يفعلوا أكثر من أن حلوا عدداً من الدول محل النصف الغربي من الدولة الرومانية القديمة . وفضلا عن ذلك فإن الغزوات الجرمانية لم تكن نقطة التحول في التاريخ الاقتصادي والتجاري لعالم البحر المتوسط كما يقول بيرين ، وإنما توسع الإسلام كما يقول هو الذي كان نقطة التحول الجائحة التي أودت بكيان هذا العالم . فلم يكن هناك في رأي بيرين تغير جوهري في الحالة الاقتصادية للغرب الأوربي قبل المسلمين ، واستمرت الحياة

الاضطراب المؤقت نتيجة للغزوات الجرمانية ، وهذا هو ماحدث كذلك فى مجالات الزراعة والمالية والضرائب وغير ذلك من النشاطات الاقتصادية . وخلاصة القول فى رأى بيرين أن شيئاً ما لم يطرأ حتى القرن السابع على التقدم الحضارى الذى صنعه الرومان ، فالعالم الجديد لم يفقد الطابع البحر متوسطى للعالم القديم .

وواضح أن بيرين يستند فى هذه الدعوى إلى أفتراض غريب : إذا لم يكن الجرمان قد أحدثوا تغيراً ما فإن تغيراً ما لم يحدث . وهذا الشرط أساسى عند بيرين لأن فرضيته تنبنى عليه قبل كل شيء . ولاشك أن هذه الفرضية تتقوض منذ البدايه ، لأن مجريات الأمور تكشف عن خطئها منذ البداية . فعلى فرض أن الجرمان لم يحدثوا تغيرات سياسية تذكر ، إلا أن الامبراطورية الرومانية شهدت تغيرات أخرى هامة وكثيرة قبل أن يحل بها الجرمان وبعد ذلك . أما التغير الذى نتج عن التوسع الإسلامى وسيطرة المسلمين على غربى البحر المتوسط فقدكان — على عكس ماقاله بيرين — لصالح تلك المنطقة كما سنرى ، كما أن التدهور الذى تحدث عنه بيرين كان قد بدأ فى أوربا قبل مولد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

على أية حال فإن نظرية بيرين بدت للعلماء الأوربيين فى أول الأمر جذابة طلية ، وخاصة أن بيرين أدخل عليها بعض شواهد الإثبات التى هى فى الحقيقة شواهد المغالطة أن صح التعبير ، ولذلك جذبت إليها عدداً من مؤرخى الجيل السابق الذين سكتوا — لسبب أو لآخر — عما جاء بها من إفتئات على الحقيقة التاريخية ، ولم يقووا على هجرها حتى بعد أن نقدها العلماء الموضوعيون بعد ذلك نقداً شديداً . لقد ساق بيرين فى كتابه مقولات خاطئة فرضها على التاريخ واحدة تلو الاخرى ، وأقام حججاً واهية حاول بها أن يسند آراءه الظالمة فى دور الحضارة الإسلامية ، وكأن نجاح المسلمين في عالم البحر المتوسط قد أثار حفيظته فراح يحمل المسلمين

الأمر الذى يجعل من نظريته مبالغه تاريخية جسيمه وتبسيطاً ساذجاً لمسار الحضارة الوسيطة الباكرة. لقد عاد بيرين وقال أن بيزنطه منعت المسلمين، بعد أن جعلوا غرب البحر المتوسط بحيرة إسلامية، من الاستيلاء على المناطق الشرقية لهذا البحر، وأن البحر الرومانى القديم أصبح بذلك حدوداً بين المسيحية والإسلام وإنفصل الغرب عن الشرق، وأن المسلمين كانوا هم الذين حطموا بهذه الطريقة وحدة البحر المتوسط التى لم يمسسها الجرمان، وأن هذا التمزيق، الذى هو من أهم الأحداث التى وقعت فى التاريخ الأوربى منذ الحروب البونية بين روما وقرطاجة، كان نهاية للتقاليد القديمة وبداية للعصور الوسطى، وفى نفس الوقت الذى كانت فيه أوربا واقعة تحت المؤثرات البيزنطية.

وكان يكفى أن نرد على بيرين — إذا كان رأيه يقف عند هذا الحد — بأن الامبراطورية الرومانية كانت قد تفككت وحدتهـا فى طوفان الغزوات الجرمانية التى إجتاحت الإمبراطورية منذ القرن الرابع، وأدت إلى قيام الممالك الجرمانية على أرضها هنا وهناك، أى قبل ظهور الإسلام بنحو قرنين من الزمان، فلم تكن أسبانياً ولاية رومانية عندما فتحها المسلمون وإنما كانت تحت الحكم القوطى منذ أن إستولى عليها ملك القوط الغربيين أويريش فى سنة ٤٦٦ وضاعت بذلك من الإمبراطورية، كما لم يكن الغالورومان هم الذين قاوموا غزو المسلمين فى جنوب فرنكيا وإنما فرسان الفرنجة الذين كانوا قد إقتطعوا غالة من الإمبراطورية وأقاموا فيها مملكة فرنجية باسم فرنكيا تحت حكم الملك أشلودفيج الأول فى سنة ٤٨١. ولكن بيرين لم يقف عند حد هذا الزعم، وإنما تعداه إلى الضرب هنا وهناك فى شتى النواحى السياسية والإقتصادية والأوضاع الإجتماعية فى عالم البحر المتوسط أزمان التوسع الإسلامى، وخاصة فى فرنكيا بل وحتى فى الاراضى المنخفضة، الامر الذي لابد أن يوسع من دائرة النقاش ويجعل موضوع الرد على بيرين دراسة شاملة

إنبرى للرد على نظرية بيرين جمع غفير من المؤرخين من شتى المدارس التاريخية ولاسيما المدارس الإقتصادية والاجتماعية فى مقدمتهم نورمان بينز[1] وفرانسوا جانزهوف[2] وروبير لوبيز[3] وهنرى فوكييون[4] وموريس لومبار[5] ودانييل دينيت[6] وأرشيبالد لويس[7] وستور بولين[8] وإدوار بيروى[9] ووليام كارول بارك . . . لم يتركوا شاردة ولا واردة فى كتاب بيرين إلا وكالوا لها النقد اللاذع المرير .

يرى نورمان بينز فى دراسته النقدية لكتاب « محمد وشارلمان »[10] أن الفندال الجرمان الذين استولوا على شمال أفريقيا منذ سنة ٤٢٨ ونشطوا للقرصنة فى غربى البحر المتوسط هم الذين تسببوا فى تحطيم وحدة عالم البحر المتوسط فى القرن الخامس ، وإن كان هذا الرأى ، الذى ورد كذلك فى مقالة أخرى كتبها بينز عن

---

(١) Norman H. Baynes .

(٢) François Canshof .

(٣) Robert Lopez .

(٤) Henri Focillon .

(٥) Maurice Lombard .

(٦) Daniel C. Dennett Jr.

(٧) Archibald R. Lewis .

(٨) Sture Bolin .

(٩) Edouard Perroy .

(١٠) Journal of Roman Studies XIX 1929 p. 224 - 235.

«التفسيرات الجديدة لتدهور النفوذ الروماني في غرب أوربا»[١] ، وجد معارضة من أرشيبالد لويس الذي ذهب في كتابه عن القوة البحرية والتجارة في البحر المتوسط من القرن السادس حتى القرن الثاني عشر[٢] إلى أن بيرنز قد بالغ كثيراً في دور القوة البحرية الفندالية ، وأكد أن بيزنطة هي المسئولة عن تحطيم الوحدة القديمة للبحر المتوسط . ويرجع رأى أرشيبالد لويس في موضوعيته إلى مقالة كتبها فرانسوا جانزهوف عن « موانى البروفانس من القرن الثامن إلى القرن العاشر »[٣] ومقالة كتبها روبير لوبيز عن كتاب « محمد وشارلمان »[٤] ردا على رأى بيرين في المسألة الاقتصادية زمن الحكم الكارولى في فرنكيا . وهذه المقالة التي كتبها لوبيز تعد من أقوى الردود التي وجهت إلى نظرية بيرين ، وتتلخص في أن التجارة ظلت قائمة بين بلدان البحر المتوسط في ظل التوسع الإسلامي ، وأن المسلمين — على خلاف ماذهب إليه بيرين — ساهموا في إحياء التجارة بين الغرب والشرق الإسلامي والبيزنطي .

وقد حاول بيرين أن ينال من النشاط التجاري الإسلامي ، وعاق دون مبرر أهمية كبيرة على وحدة البحر المتوسط التي كانت بالنسبة له مسألة حيوية للغاية . غير

---

(١) "The decline of the Roman power in Western Europe. Some modern explanations" : Journal of Roman Studies XXXIII 1943 p. 25 - 35.

(٢) Naval power and trade in the mediterranean A D. 500 - 1100. Princeton 1951.

(٣) "Note sur les ports de Provence du VIIIe au Xe siècle" : Revue historique CIXXXIII 1938 p. 28 - 37.

(٤) "Mohammed and Charlemagne : A revision" : Speculum XVIII. 1943 p. 14 - 38.

أن المسلمين ، وقد سيطروا فقط على أجزاء معينة من البحر ، إستطاعوا أن ينشطوا بالتجارة البحرية ، وأن يجعلوا منها تجارة رابحة لجميع الأطراف المعنية بالمتاجرة مع المسلمين . وكما يقول وليام كارول بارك (ص ١٣) : «لم تكن الأهمية فى الواقع فى وحدة البحر المتوسط ، وإنما كانت فى الحالة الإقتصادية للرجال الذين أرادوا الإستفادة منه ، لأن البحر مجرد طريق للتجارة وليس ضماناً للنجاح التجارى» . لقد جلب المسلمون معهم عنصراً هاماً فى التجارة الدولية هو عنصر الائتمان الذى كان يفتقده الإقتصاد الرومانى وتفتقده التجارة الرومانية البيزنطية فى عصر الأمبراطورية ، فالنشاط التجارى الإسلامى كان مدعماً باعتمادات مالية من الذهب ، وكان له لذلك أثر كبير على إنهاض الغرب على حياة تجارية جديدة ومختلفة . وبيرين نفسه قد لاحظ أن المصالح التجارية لمدن نابولى وجيتا [1] وأمالفى [2] فرضت على هذه المدن أن تمتنع عن تعاملها مع بيزنطة وأن تعقد صفقاتها التجارية مع المسلمين ، وإن كان بيرين يقرر فى نفس الوقت أن البندقية ظلت مع ذلك فى فلك التجارة البيزنطية ، وأن المسلمين كانوا يترصدون هذه العلاقة ويشكلون خطراً عظيماً عليها . وفى هذا الكلام الدليل على أن التفاوض بين التجار الغربيين والمسلمين كان دائماً أمراً وارداً فى العلاقات التجارية فى البحر المتوسط ، وأن صراع المصالح بين التجار الغربيين والبيزنطيين لم يكن أمراً مستحيلاً .

وعلى ذلك فإن غرب أوربا كانت لديه الحرية فى الحصول على دخول طيبة من تجارته مع المسلمين . صحيح أن المسلمين سيطروا تماماً على الجزء الغربى من البحر المتوسط ، وأظهروا فى بادىء الأمر عداءهم للغرب والتجارة الغربية ربما لأن

---

(١) Gaeta .

(٢) Amalfi .

التجارة — في قناعتنا — كانت قائمة في هـذه المناطق على أسس لم تـكن تتوافق مع مبادىء المعاملات الإسلامية القائمة على الحق والعدالة ، ولـكن بعد أن إستقرت هـذه المبادىء التجارية الجديدة وأخذ الغرب في تفهمها والإعتراف بها ، وبعد أن شاع الإئتمان الذى حققه المسلمون في المنطقة ، لم يتوان المسلمون عن الإتجـار مع الفرنجة والإيطاليين . وإذا كانت تجارة الفرنجة الكارولين كما يقول بارك (ص١٥ — ١٦) تتم على نطاق محدود ، فلم يكن ذلك بسبب تدخل المسلمين ، وإنما كان بسبب الحالة الإقتصادية المتدنية التي كانت تعانى منها الدولة الفرنجية لظروفها الداخلية ، وبسبب إخفاق الكارولين — شأنهم في ذلك شأن الفرنجة الميروفيين من قبلهم — في تحسين الأحـوال التجارية ، بالرغم من قيام علاقات سياسية ودية وسفارات متبادلة بين الفرنجة والعباسيين منذ عصر هارون الرشيد ، مما كان يمكن أن يهيء فرصة طيبة للتبادل التجارى بين الغرب والشرق لو كان الفرنجة أنفسهم على إستعداد لإحداث نهضة إقتصادية ، هذا فضلا عن أن البيزنطيين كانوا — لإعتبارات سياسية — يبذلون قصارى جهدهم لإعاقة النهوض بالتجارة والاقتصاد في بلاد الفرنجة . أما بالنسبة إلى البنادقة فقد كانوا دائماً على استعداد لإقامة علاقات ودية مع جميع الأطراف الراغبة في التجارة ما دام هناك كسب من وراء ذلك ، وكان من الطبيعى أن يتاجر البنادقة مع المسلمين والبيزنطيين على حد سواء حسب ما كانت تمليه عليهم النفعية والمصلحة .

ويطلعنا لوبيز في رأيه الذى أورده في مقالته المشهوره على نقاط جذابة يدحض بها في الصميم زعم بيرين . وقد رجع لوبيز في هذا الرأى إلى مقالة كتبها ايتيين ساب[1] عن « إستيراد المنسوجات الشرقية في أوربا الغربية في العصور الوسطى

---

(١) Etienne Sabbe .

الناهضة»(١). ادعى بيرين كما رأينا أن استمرار العلاقات الاقتصادية والتجارية بين غربى أوربا ودول البحر المتوسط أصبح بداهة مستحيلا بعد أن سيطرت قوة المسلمين البحرية على المنطقة الغربية ، وأشار إلى إنتقال مراكز الحضارة الأوربية إلى شمال فرنكيا ووادى الراين ، وتدهور الموانى الفرنكية على سواحل البحر المتوسط ، وميل فرنكيا المطرد إلى الاقتصاد الزراعى فى القرن الثامن ، وانتهى إلى أن هذا لابد أن يكون راجعاً إلى إنهيـــار التجارة بين الشرق والغرب واضطراب الاقتصاد الأوربى نتيجة للتقدم الإسلامى . وأمكن لبيرين أن يضمن رأيه شاهداً بعينه استقاه من عزوف الكنيسة الغربية عن استخدام النبيذ الشرقى الممتاز — والنبيذ الفلسطينى بصفة خاصة — فى طقس الأفخارستيا وهو طقس القربان ، وعن إصدار وثائقها على البرجمنت(٢) وهو الرق أو الجلد بدلا من ورق البردى المجلوب من مصر . وهذا الحكم الذى يبدو فى الظاهر جديراً بالتصديق يقضى بأن إستيراد النبيذ الفلسطينى وورق البردى المصرى لم يعد بسبب الفتوحات الإسلامية فى متناول الأوربيين ، أو على أقل تقدير منعت تكاليف جلب هاتين السلعتين عن إستيرادهما بسبب اضطراب التجارة فى البحر المتوسط نتيجة لتدخل المسلمين .

ويقول لوبيز ردا على ذلك أن بيرين ساق حجة تفتقر إلى البرهان فحواها « بعد هذا إذن فبسبب هذا »(٣) ، وهذا مغالطة منطقية سافرة هى مغالطة الخلط بين

---

(١) "L'importation des tissus orientaux en Europe occidentale au haut moyen âge» : Revue belge de philologie et d'histoire XIV 1935 p. 811 - 848.

(٢) pergamentum .

(٣) post hoc ergo propter hoc

السببية والتعاقب ، هذا بالإضافه إلى أن بيرين ، وهو العالم فى التاريخ الإقتصادى ، أغفل وجوها مهمة فى هذه القضية إغفالا تاماً ، فالتقلب فى إستهلاك البردى والأقمشة الشرقية النفيسة والطيوب كما يقول لوبيز كان بسبب التغيرات الداخلية التى حدثت فى العالم الغربى ، ونتيجة لمواءمة البيزنطيين والمسلمين لأسعار هذه السلع مع إستهلاك الأسواق الشرقية ، وبسبب إتفاقيات التبادل التجارى التى عقدها البيزنطيون مع المسلمين ، وكانت هذه الإتفاقيات توصى بالإقلال من حجم الصادرات المتجهة إلى أسواق أوربا . ونضيف إلى رأى لوبيز أن إتساع العالم الإسلامى وتوحد أقاليم كانت متباينة ومتصارعة من قبل أدى إلى نمو الحياة الإجتماعية وإرتفاع المستوى الاقتصادى لدى الطبقات العظمى من السكان ، مما كان من شأنه أن يزيد من الإستهلاك الداخلى ، الأمر الذى قلل كما قال لوبيز من حجم الصادرات من السلع الترفية الثمينة ، بالإضافة إلى أن هذه السلع التى كانت تنتج بصفة خاصة فى مصر وسوريا ، والتى كانت تصدر فيما مضى إلى غربى أوربا ، وجدت لها أسواقاً رائجة فى أقاليم العالم الإسلامى الشرقية والغربية على السواء .

ويسوق لوبيز رأياً طريفاً كان رستوفزيف قد تناوله تناولا عارضاً فى مقالة كتبها عن « التفسيرات الاقتصادية لانهيار العالم القديم »(١) . ويفترض هذا الرأى سائر التغيرات المحتملة فى الأذواق الخاصة لأفراد المجتمع الغربى فى القرن الثامن ، فمن الجائز أن هذا المجتمع لم يعد يقبل الآن على مظاهر الترف كما كان يفعل أجداده ، ولم يعد يقيم وزناً للأطعمة الشهية الغنية بشتى أنواع التوابل التى كان الرومان فيما مضى يتزاحمون على إستيرادها من الشرق . ونجد تعليقات طريفة من هذا القبيل

---

(١) "The decay of the ancient world and its economic explanations" : Economic History Review II 1920 — 197 — 199

فى كتاب فرديناند لوت عن « الضريبة العقارية وضريبة الرؤوس فى عصر الامبراطورية الأخير »(١) . ولا شك أن لوبيز كان فى خضم هذه الآراء الطريفة يشير إلى تخلف المجتمع الغربى والمجتمع الفرنجى بصفة خاصة نتيجة للظروف الاقتصادية التى كان يواجهها من جراء المشاكل الداخلية والخلافات السياسية التى دفعت إلى الصراع بين الحكومة الفرنجية ومراكز القوى الاقطاعية الجديدة . غير أن المسألة فى اعتقادنا لا يمكن أن تكون بهذه الطرافة التى ساقها رستوفزيف ولوبيز فحسب ، إذ أن قلة توفر السلع الكمالية الشرقية فى الغرب كان راجعاً إلى إنخفاض الطلب عليها نتيجة لإرتفاع أسعارها وارتفاع نفقات الاستيراد من بلدانها إرتفاعاً يفوق ما كانت عليه ، وذلك نظراً إلى ازدياد الطلب عليها فى السوق المحلى نتيجة للتقدم الذى وصلت إليه دول العالم الإسلامى ، وهو السوق الذى كان هو الآخر يستوعب السلع بأسعار مرتفعة نسبيا ، مما جعل هذه السلع فى متناول فئة قليلة لا تذكر من النبلاء الأوربيين الذين كانوا وحدهم القادرين على دفع أثمانها بالعملات الذهبية . وهذا التقلب فى إستهلاك هذه السلع كان بطبيعة الحال ، وكما يقول لوبيز نفسه ، بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة التى أخذت تعانى منها البلدان الغربية وخاصة بلاد الفرنجة فى القرنين السادس والسابع فى عهد الأسرة الميروفية ، والتى تركت بصماتها واضحة على المجتمع الغربى حتى القرن الثامن .

* * *

وعلى أية حال فهذا وحده لا يقوم دليلا على إنقطاع المعاملات التجارية فى البحر المتوسط ، وبسبب المسلمين كما يقول بيرين ، فالمسألة لا تتعلق بسلعة أو

---

(١) Nouvelles recherches sur l'impôt foncier et la capitation personelle sous le Bas-Empire. Paris 1955.

بأخرى من سلع الترف الشرقية بقدر ما تتعلق بالسلع الرئيسية التى كان يتبادلها فى الواقع تجار أوربا والعالم الإسلامى . وإذا كانت تجارة الشرق والغرب كما يقول كانتور قد أصابها بعض الركود قرابة قرن ونصف بسبب تدهور الحالة الاقتصادية فى أوربا ، إلا أن الحركة التجارية نشطت بين غربى أوربا والأقاليم الشمالية منه بصفة خاصة وبين الدول الإسلامية منذ منتصف القرن التاسع ، وراجت تجارة الفراء والمنتجات المعدنية والأخشاب ، وهى السلع الرئيسية التى كان الشمال الأوربى يصدرها إلى الدول الإسلامية ، كما كان تجار العالم الإسلامى يقابلون ذلك بعرض السلع الكمالية فى السوق الأوربية حيث بدأ الطلب عليها يزداد من جديد بين طبقات الأثرياء والنبلاء الأوربيين الذين أرادوا بتلك السلع رفاهية تخفف من خشونة الحياة . وعلى ذلك فيبدو غريباً أن بيرين ، وهو حجة فى تجارة العصور الوسطى ، تجاوز تماماً دلالة هذه التجارة النامية بين غربى أوربا ودول البحر المتوسط والدول الإسلامية بصفة خاصة .

وفى قناعتنا كذلك أن الكنيسة الغربية ، لاعتبارات إقتصادية ورغبة منها فى ضغط نفقاتها ، أخذت تعتمد فى طقس الأفخارستيا على المنتجات المحلية من النبيذ الذى كان ينتج الآن فى الأديار الغربية ، وخاصة فى أديار الرهبان البندكتيين بعد أن نقلت هذه الأديار تقليد هذه الصناعة من أديار الشرق ، هذا فضلا عن رغبة الكنيسة فى تقليل تعاملها مع العالم الإسلامى حتى لو كان منتجو النبيذ من غير المسلمين . أما بالنسبة إلى أوراق البردى التى كان الغرب يستوردها من مصر لأغراض النسخ والكتابة فمن المعروف أن الهيئات الأوربية أخذت منذ القرن السادس تفضل كتابة وثائقها وأخبارها على الصحائف الجلدية التى نهضت صناعتها فى برغامة (١) فى آسيا الصغرى ، برغم إرتفاع أثمانها ، لأن الأوراق البردية على

(١) Pergamum

خلاف الرق لم تكن بطبيعتها قادرة على مقاومة الأجواء الأوربية الرطبة لمدة طويلة ، بل كانت تتحلل بمضى الوقت فى مثل هذه الأجواء ، على عكس أجواء مصر الجافة الصافية التى تحفظها على مر القرون دون تلف .

فادعاء بيرين بأن توقف الغرب عن إستيراد النبيذ الفلسطينى وورق البردى المصرى كان بسبب سيطرة المسلمين على جانب كبير من بلدان البحر المتوسط وعملهم على منع تصدير هذه السلع إلى أوربا هو إدعاء لا يستند إلى أساس منطقى سليم . فالكنائس اللاتينية لابد أن تكون قد استغنت من تلقاء نفسها لاعتبارات عملية صرفة عن جلب النبيذ من الأديار الشرقية إكتفاء منها بما كانت تنتجه الأديار الغربية من النبيذ إنتاجاً محلياً ، كما أن أوربا لم تعد تعتمد على الأوراق البردية اعتماداً كلياً ، وإنما بدأت فى استيراد الرق من الدولة البيزنطية بالرغم من أن هذا كان يكلف الهيئات الأوربية كثيراً من النفقات نظراً إلى إرتفاع الأثمان الأساسية للرق وتكاليف شحنه الباهظة عبر الطرق البرية والبحرية ، ولذلك لم يكن هذا الرق فى بادى الأمر فى متناول الأفراد ، وإنما كانت تستخدمه الكنيسة الغربية ، والدواوين الملكية ، والمكاتب الأميرية ، كما كان يستخدمه القادرون فحسب من فئات المثقفين . وعلاوة على ذلك فمن الثابت كما يقول كلود كان فى كتابه «الإسلام» (ص ١٤٧ ، ٢٢٧) أن الأوراق البردية ظلت تباع فى إيطاليا بعد الفتوحات الإسلامية ، وعلى أقل تقدير الأوراق البردية التى كانت تصنع فى جزيرة صقلية بعد أن فتحها الأغالبة المسلمون فى القرن التاسع وأدخلوا فيها هذه الصناعة .

وفيما يخص الأحوال الاقتصادية فى الغرب رأينا ، وكما يقول بارك (ص٩)، أن اهتزاز الحركة التجارية بين فرنكيا والشرق لم يكن بصفة عامة مسألة عقبة

التدهور الاقتصادى الذى وصل إليه الفرنجة من ناحية ، وإلى تحفظ بيزنطة فى تسويق منتجاتها فى فرنكيا من ناحية أخرى لأسباب سياسية وإقتصادية معادية . لقد كان الفرنجة فى الأزمان الأولى للحكم الكارولى لا يستخدمون غير الملابس الكتانية والصوفية الرديئة لرخص أثمانها وتوفرها فى الأسواق الغربية المحلية ، وإذا كان شارلمان قد اختار القماش الفريزى ليكون هدية للخليفة هارون الرشيد ، فإن هذا لا يعنى فى رأى بارك أكثر من أن شارلمان أراد أن يقدم لهارون الرشيد شيئاً من إنتاج بلاده . وعلى ذلك فمن الممكن أن نسلم بأن الفرنجة الكارولنجيين لم يكن لديهم الكثير من السلع التى كان يحتاجها الشرق ، فى الوقت الذى أخذت فيه الطبقات الغنية فى الغرب تقبل من جديد على السلع الشرقية الثمينة التى لم يعد من الممكن استيرادها إلا من الدول الإسلامية . ولعل هذه الظروف هى التى أعطت لبلدان شمال أوربا الغنية بمواردها الطبيعية مركز الصدارة فى التجارة الأوربية الدولية التى أخذت بدورها تنشط فى البحر المتوسط نظراً إلى إزدياد الطلب على هذه الموارد من المجتمع الإسلامى المتقدم . وهذا الوضع هو ما تبينه لنا بوضوح أكثر مقالة دانييل دينيت عن كتاب بيرين[١] ، وتؤكده كذلك مقالتا موريس لومبار « القواعد النقدية فى السيطرة الاقتصادية »[٢] و « المشكلة الاقتصادية فى كتاب محمد وشارلمان »[٣] .

---

(١) "Pirenne and Muhammad" : Speculum XIII 1948 p. 165—190.

(٢) "Les bases monétaires d'une suprématie économique. L'or musulman du VIII e au XI e siècle" : Annales II 1947. p. 143—160.

وعلى أية حال فمن المحتمل أنه كانت هناك دائماً تغيرات فى كل من الغرب والشرق لم تـكن لها أية صلة بانفتاح البحر المتوسط على السفر والتجارة . وإعتقاد بيرين مثلا بأن توسع الإسلام المفاجىء فى غربى البحر المتوسط كان له أثر على الأحوال فى الأراضى المنخفضة فيه تشوية للحقيقة . ففى مقالته عن « مكانة الأراضى المنخفضة فى التاريخ الاقتصادى لأوربا العصور الوسطى » (١) يفترض بيرين ، وهو بصدد الحـديث عن سبب هجوم النورمان (الشماليين) على إنجلترا والقارة الأوربية فى القرن التاسع ، أن هذا لابد أن يكون قد حدث لبعض الاعتبارات الناتجة عن الفتوح الإسلامية (أنظر ص ٢٢ من المقالة) . وفى هذا القول بطبيعية الحال تطاول على التاريخ ، فهذا الغزو النورمانى كما يقول بارك (ص ١١٥ ملاحظة ٢) مستقل تماماً عن دور المسلمين ، تماماً كما هو مستقل عن فتوحات الجرمان السابقين وفتوحات السلاف والمغول ، وكان لا بد أن يحدث هذا الغزو الشمالى حتى لو لم يكن هناك مسلمون فى غرب البحر المتوسط .

والحقيقة أن القضية تتضح أكثر وأكثر فى ظل الدراسة الشاملة لأحوال الدولة الفرنجية عبر تاريخها منذ القرن السادس بل وقبل ذلك عندما كانت هذه البلاد ولاية تابعة للامبراطورية الرومانية هى ولاية غالة ، لأن هذه المنطقة على وجه التحديد — وكما قلنا فى السابق — لعبت دوراً هاماً للغاية فى التحول التاريخى الذى نقل أوربا إلى عصورها الوسطى . وبيرين نفسه يتناول على طريقته الخاصة تاريخ غالة من خلال طرحه للمشكلة السياسية والاقتصادية فى دولة الفرنجة الميروفيين والكارولنجيين ، فيقول أن التغيرات الاقتصاديه الأساسية فى غالة فى الفترة السابقة

---

(١) "The place of the Netherlands in the economic history of medieval Europe", Economic History Review II

على حكم الفرنجة الميروفيين كانت راجعة قبل كل شيء إلى التدهور فى تسويق المنتجات الطبيعية المنطقة . وقد يكون لبيرين العذر فى هذا القول نظراً إلى ندرة الكتب التى تناولت قبله مثل هذا الموضوع ، وحتى اعتماده على بعض فقرات من كتاب « تاريخ الفرنجة » الذى ألفه أغريغوريوس أسقف تور فى أواخر القرن السادس (أنظر الكتاب السابع ، فقرة ٤٥ ، ٤٦) لم يكن اعتماداً موفقاً ، لأن هذه الفقرات التى جاءت فى كتاب أغريغوريوس التورى لا تلقى ضوءاً على حقيقة الموقف فى هذه الفترة السابقة على الحكم الفرنجى ، وكتاب فرديناند لوت عن السكان ومساحات المدن فى الفترة الغالورومانية(١) يثبت بالتأكيد عكس ذلك كما سنرى .

وبالنسبة إلى الباحثين الذين يتناولون الفترة الميروفية فى بلاد الفرنجة من خلال التأمل فى التاريخ السابق للولايات الرومانية لا بد أن يبدو هذا التجاوز عن تقدير الظروف المتغيرة فى عصور الأمبراطورية الرومانية الأخيرة من أكثر الوجوه إزعاجاً فى تفسير بيرين لبداية العصور الوسطى . ولعل إغفال بيرين لحقيقة هذه الظروف هو الذى أدى إلى تبسيط الأمور ، وأحياناً إلى إتخاذ وجهة نظر خاطئة عن حالة من الحالات بسبب مروره العابر على الحالات السابقة عليها . والسؤال الجوهرى فى مضمون القضية الحالى ، وهى قضية نهاية العصور القديمة وبداية العصور الوسطى ، هو ما إذا كانت الحضارة الرومانية قد مرت بتغيرات بين القرن الثانى والقرن الخامس . ويبدو أن بيرين لم يكن على علم كاف بامكانية حدوث مثل هذه التغيرات . وغنى عن البيان أن فهم بداية العصور الوسطى يتوقفه

---

(١) Recherches sur la population et la superficie des cites

قبل كل شيء على كيفية النظر إلى التاريخ الروماني في عصوره الإمبراطورية الأخيرة. فليس في مقدورنا ، ونحن نحاول أن نتفهم واقع أوربا الوسيطة ، أن نغفل التطورات التي حدثت منذ العصر الامبراطوري الاخير ، ولعل هذا هو ما يدفع مؤرخي العصور الوسطى دائماً إلى تناول الظروف التي مرت بها الامبراطورية الرومانية منذ القرن الثالث ، وعلى التحديد منذ عهد الامبراطور دوقلديانوس . ونظراً إلى أن رستوفزيف كان على علم تام بطبيعة التغيرات العصيبة التي كانت تجرى في العصور الأخيرة للامبراطورية ، فقد حذر في مقالته عن « التفسيرات الاقتصادية لإنهيار العالم القديم » التي سبق الإشارة إليها . . . حذر من الكلام في هذا الموضوع بدون إكتراث ، وحذر من التجاوز عن رصد التغيرات الاقتصادية والإجتماعية التي لازمت تفكك الامبراطورية السياسي . لقد كان هناك حقاً تغير كبير حمل أنسب المعاني للعصور الرومانية الأخيرة ، وإغفال مثل هذا التغير كما يقول بارك (ص ١٢) سوف يكون صدعاً محتوماً في أية محاولة لتفسير المشكلة بوجه عام .

* * *

وإذا ما عقدنا الصلة بين مقولة بيرن بدوام الطوابع الرومانية حتى عصر شارلمان ومقولة هالر بوحدة هذا العصر مع عصور الامبراطورية الأخيرة والهجرات الجرمانية ، يتبين لنا المدى الزمني للفترة التي تحددها هاتان المقولتان لتحول العالم الأوربي القديم إلى عصوره الوسطى ، وهي فترة تمتد إلى خمسة قرون على وجه التقريب . وبصرف النظر عن أن الوحدة الحضارية بين هذه العصور يمكن أن تكون دائماً موضع النقاش ، فإن تحديد فترة الإنتقال على هـــذا النحو قد يستقيم من ناحية مع طبيعة التغيرات العامة التي فرضتها الظروف على مصير العالم

الرومانى ، ولكنه من ناحية أخرى لا يستقيم مع طبيعة الأمور إذا ما أردنا أن نشير إلى بداية واضحة للعصور الوسطى لا تختلط فيها الآراء ، وقد يدخلنا هذا التحديد فى الحلقة المفرغة من جديد . فلابد أن تكون هناك مرحلة ما فى هذا التحول حدثت فيها تغيرات جوهرية أخذت أوربا من خلالها تجنح نحو الحياة الوسيطة .

ولعل الأمر يبدو أكثر منطقية أن نتصور هذه الفترة المرحلية على مفترق القرنين السادس والسابع ، الأمر الذى يجعل القرنين الرابع والخامس من الوجهة التاريخية الصرفة ضمن تاريخ العصر الرومانى الأخير بصفة قاطعة ، أو على أقل تقدير فترة خاصة من هذا العصر . فقد شهد العالم منذ أواخر القرن السادس وحتى منتصف القرن السابع أحداثاً كان من شأنها أن تؤثر على طابعه تأثيراً جوهرياً أكثر من أية أحداث أخرى ، ونعنى بذلك تأسيس اللومبارديين لآخر مملكة جرمانية على أرض الامبراطورية الرومانية فى سنة ٥٦٨ ، وتولى البابا أغريغوريوس العظيم أسقفية روما من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٠٤ ، وبداية إصلاح الدولة البيزنطية فى عهد الامبراطور هرقل الأول[1] الذى حكم منذ سنة ٦١٠ حتى سنة ٦٤١ ، وظهور السلاف والآفار فى البلقان ، وأخيراً بداية التوسع الإسلامى منذ سنة ٦٣٢ . هذا بالإضافة إلى التغيرات الهامة التى مرت بها غالة فى هذه الأثناء تحت حكم الفرنجة الميروفيين والتى رجعت أصداء هذه الأحداث على نحو يظهر لنا حقيقة التحول الذى خطت به أوربا نحو عصورها الوسطى .

ولعل ماذهبت إليه لجنة الموسوعة اللغوية المشهورة والمعروفة بكنز اللغة

اللاتينية[١] من التقديرات الزمنية التى وضعتها أساساً لعملها فى تقييم التراث الرومانى فى عصوره الكلاسيكية وعصوره الأخيرة يتوافق مع هذا الاتجاه . فقد جمعت هذه اللجنة التراث الرومانى المنشور ونظمته فى مكتبتها حسب الترتيب الزمنى الذى يعطى الباحث صورة دقيقة عن التطور الفكرى واللغوى فى مختلف العصور الرومانية . ومن يسعده الحظ بزيارة هذه المكتبة الفريدة فى نوعها[٢] يلحظ أن التراث المحفوظ بها ينتهى بالكتاب الذين عاشوا فى العقود الأخيرة من القرن السادس والعقود الأولى من القرن السابع أمثال إيزيدور[٣] أسقف أشبيلية[٤] الشهير الذى ألف كتبا فى شتى المعارف[٥] (وتحمل مؤلفاته فى هذه المكتبة الرقم الرمزى ١٢٣) ، وبادونيفيا[٦] راهبة بواتييه التى كتبت سيرة الأميرة التورنجية القديسة راداجوندا[٧] حوالى سنة ٦٠٠ (وتحمل فى هذه المكتبة الرقم الرمزى ٢٢٥) . وهذا يعنى فى تقدير اللجنة أن تراث القرن السابع ، وعلى أقل تقدير النصف الثانى من القرن السابع ، يخرج بصفة قاطعة من مجال تراث العصر الرومانى الأخير، وبالتالى فإنه يندرج فى تراث العصور الوسطى .

---

(١) Thesaurus Linguae Latinae . لجنة هذه الموسوعة كان مقرها الآن فى أكاديمية العلوم البافارية Bayerische Akademie der Wissenschaften فى ميونيخ .

(٢) كنا نقوم بزيارة المكتبة فى أكثر الأوقات للبحث والإطلاع أثناء دراستنا للدكتوراة فى الستينيات فى جامعة ميونيخ .

(٣) Isidorus (حوالى ٥٧٠ — ٦٣٦) .

(٤) Hispala (Sevilla) .

(٥) أنظر الغمراوى ، « نظرات هيستوريوغرافيه » . . . ص ٢ ، ٢٣٤ .

(٦) Baudonivia .

(٧) vita Sanctae Radagundis . أنظر الغمراوى ، « المصادر الهجيوغرافية . . . » ص ٩ .

وقد كان من المتوقع بطبيعة الحال أن تبدأ لجنة قاموس تراث العصور الوسطى حتى القرن الثالث عشر[1] من حيث انتهت لجنة موسوعة اللغة اللاتينية ، بمعنى أنه كان من المتوقع أن تبدأ هذه اللجنة دراساتها من تراث القرن السابع ، وخاصة أن بين اللجنتين فيما نعلم أعمالا مشتركة ووجهات نظر متبادلة . ولكننا نجد أن أول تراث أدخلته لجنة العصور الوسطى ضمن أبحاثها يرجع إلى أوائل القرن السادس ويحتوى على مجموعة الرسائل اللومباردية[2] منذ حوالى سنة ٥٠٠ ، وقوانين القوط الغربيين[3] منذ سنة ٥٠٦ ، ومجالس العصر الميروفى[4] منذ سنة ٥١١ ، ومجموعة رسائل العصر الميروفى[5] منذ سنة ٥٢٤ ، ورسالة نيقيت[6] أسقف ترير إلى الملكة أشلودوسفينتا[7] ، ورسالته إلى الإمبراطور جوستينيان[8] ، ووثائق

---

(١) كان لنا شرف العمل مع اللجنة الكائن مقرها فى أكاديمية العلوم البافارية فى ميونيخ فترة من الوقت فى تحقيق مجموعة ألمانيا التاريخية Monumenta Germaniae Historica (التى يرمز لها بالرمز M G) قبل إدراج مفرداتها فى بطاقات قامـــوس تراث العصـــور الوسطى حتى القرن الثالث عشر Mittellateinisches Woerterbuch bis zum ausgehenden 13. Jahrhundert .

(٢) epistolae Langobardicae collectae .

(٣) leges Wisigothorum .

(٤) concilia aevi Merovingici .

(٥) epistolae aevi Merovingici collectae .

(٦) Nicetius .

(٧) epistola ad Chlodosuintam reginam .

لوكسمبورج[١] منذ سنة ٥٨٥ ، والرسائل القوطية الغربية[٢] منذ سنة ٥٨٦ ، وإتفاقيات أنجير[٣] فى أواخر القرن السادس ، ومقولة التكهن بالأمراض[٤] المترجمة إلى اللغة اللاتينية عن مقالة منسوبة إلى الطبيب اليونانى أبقراط[٥] ويحتمل أن تكون قد كتبت فى القرن السادس[٦] ، وكتاب الألحان فى العصر الميروفى[٧] من القرن السادس[٨] . بل إن اللجنة اعتمدت على مجموعتين من أواخر القرن الخامس هما مجموعة قوانين البورغونيين (البورجونديين) والرومان[٩] ، ومجموعة قوانين القوط الغربيين ومقننة أو يريش[١٠] وقد جمعت حوالى سنة ٤٧٥ .

ورجعت لجنة قاموس تراث العصور الوسطى تبعاً لذلك إلى أعمال معاصرة للأسقف ايزيدور الأشبيلى الذى وضعته لجنة كنز اللغة اللاتينية فى العصر الرومانى الأخير وهى القصيدة الغنائية[١١] التى كتبها حوالى سنة ٦١٢ ملك القوط الغربيين سيزيبوت[١٢] ، والسيرة التى كتبها الملك حوالى سنة ٦١٦ عن ديزيديريوس أسقف فيين[١٣] ، وتاريخ الفرنجة الذى كتبه فريديجار حوالى سنة ٦١٣[١٤] وعرف

(١) chartae Luxemburgenses .

(٢) epistolae wisigothicae .

(٣) formulae andecavenses (d'Angers) .

(٤) prognostica ,

(٥) Pseudo-Hippocrates .

(٦) يمتد إحتمال مقالة التكهن بالأمراض باللغة اللاتينية إلى القرن الثامن .

(٧) rhythmi aevi merovingici .

(٨) تحتوى المجموعة المنشورة كذلك ألحان العصر الكارولى فى القرن التاسع .

(٩) leges Burgundiorum, lex Romana .

(١٠) leges Wisigothorum, codex Euricianus .

(١١) carmen .

(١٢) Sisebutus .

(١٣) vita vel passio Desiderii episcopi Viennensis

(١٤) وفى بعض الروايات أن هذا التاريخ منسوب إلى فريديجار .

بالمؤرخات[١] ، واتفاقيات القوط الغربيين[٢] من سنة ٥١٦ إلى سنة ٦٢٠ .

وماحدث هو أمر طبيعى ، ويجب ألا نفهم ماذهبت إليه اللجنتان على أنه تحديد لعصر قديم وعصر وسيط بقدر ماهو عرض لفكر قائم وأشكال لغوية قائمة فى سبيلها إلى التطور ، لأن اهتمام اللجنتين هو بالدرجة الأولى اهتمام بدراسة تاريخ اللغة اللاتينية فى مراحلها المختلفة وفى حدود المناهج المعجمية الموضوعة ، ولأنه يصعب علينا من ناحية أخرى أن نحدد فروق المستويات الفكرية واللغوية فى القرنين السادس والسابع ، ولاسيما أن أوربا كانت فى ذينك القرنين تعانى من ظروف اضطراب واحدة ، ومن المحتمل أن ردود الفعل كانت كذلك واحدة ، وأن التعبير عن هذه الردود كان تعبيراً يتسلسل مع منطق هذه المستويات التى تداخلت فى تلك الفترات المضطربة فى الرؤية والبيان . غاية مافى الأمر أن لجنة قاموس تراث العصور الوسطى كان عليها أن تختار نقطة ما للبداية ، وكان طبيعياً أن تنطلق هذه البدايه من فترة كانت تختلط فيها الأمور حتى بالنسبة لأصحاب النظرة الثاقبة. ولعل هذا الأزدواج الزمنى الذى كشفنا عنه فى أبحاث اللجنتين يظهر إلى حد كبير أن مراحل التحول الحاسمة التى نقلت أوربا من عصورها القديمة إلى عصورها الوسطى قد انسابت على مدى القرنين السادس والسابع ، وأن الحياه فيهما بدأت تأخذ إيقاع الحياه الوسيطة ، وخاصة أنهما قد شهدا كما رأينا أحداثاً هائلة كانت كفيلة بأن تعطى أوربا ملامح مختلفة فضلا عن اتضاح بوادر الحياه الاقطاعية التى قام عليها النظام الاقطاعى فيما بعد وأصبح من السمات الأولى للحياه فى العصور الوسطى . وهذا الاتجاه فى وضع بداية تقريبية للعصور الوسطى على هذا النحو

---

(١) chronicae quae dicuntur Fredegarii scholastici .

(٢) formulae wisigothicae

يجد اليوم تأييداً كبيراً من علماء التاريخ القديم وعلماء الدراسات البيزنطية والأثريين أمثال كورنمان[١] ، وشتاين[٢] . وأوستروجورسكى[٣] ، ورودنفالت[٤] .

وليس غريباً كذلك أن يقع الخلاف بصفة خاصة على النصف الثانى من القرن السادس ، لأنه يمثل فى الواقع حلقة هامة من حلقات التحول نظراً إلى ماصادفه من مظاهر أسهمت إسهاماً كبيراً فى تغيير العالم الأوربى . فقد ظهر قبيل هذه الفتره بالذات دستور الرهبان البندكتين الذى قرره بندكت النورسى حوالى سنة ٥٤٠ على أسس من مفاهيم العمل الفرجيلية التى كان قد حث بها الشاعر فرجيل قبيل الميلاد على مواصلة العمل الجاد من أجل التغلب على صعاب الحياه[٥] ، ذلك الدستور الذى كان دافعاً على الفور إلى دور الرهبانية البندكتية فى الحياه الاجتماعية ، وإلى رفع شعار العباده والعمل[٦] فى الأديار الأوربية .

وأخذت البابوية مكانتها فى ظروف الاضطراب الذى حدث فى إيطاليا نتيجة لسقوط مملكة القوط الشرقيين فى سنة ٥٥٣ ، وضغوط الغزو اللومباردى الذى قاده الملك البوين فى سنة ٥٦٨ . وتولى البابا أغريغوريوس الأول — مؤسس البابوية الحقيق — مهام منصبه فى أسقفية روما فى سنة ٥٩٠ ، وكانت أسقفيته من غير شك — ومهما كانت نوعيتها — انطلاقة جديده إلى عالم جديد من المفاهيم الدينية والدنيوية . وقد لاتكون هناك مبالغة كبيره فيما قاله ددين فى كتابه عن أغريغوريوس العظيم

(١) E. Kornemann .

(٢) E Stein .

(٣) G. Ostrogorsky .

(٤) G. Rodenwaldt .

(٥) labor vincit omnia labor improbus .

(٦) orare et laborare ,

ومكانته فى التاريخ والفكر[١] من أن روما كانت عند وفاة أغريغوريوس «روما الكنيسة والبابوات والعصور الوسطى» ، لأنه إذا كان عصر أغريغوريوس لايقودنا حتما إلى العصور الوسطى فهو فى نفس الوقت لا يمكن أن يكون منتمياً انتماء قاطعاً إلى العصر الرومانى الأخير ، وإنما كان عصر هذا البابا صورة — إن صح التعبير — تألقت فيها كل الألوان .

ويجب ألا ننسى فتور الاهتمام بالبدائع الكلاسيكية والثقافة بصفة عامة بعد إغلاق أكاديمية أثينا فى سنة ٥٢٩ فى عهد الامبراطور البيزنطى جوستينيان الأول ، وما كان لذلك من أثر على مصير المدارس الرومانية المشهوره فى غالة فى القرن السادس وتدهور التعليم حتى وصل فى القرن السابع إلى أدنى مستواه ، وليس أدل على هذا من الأخطاء النحوية والإملائية التى حفلت بها المكتوبات والوثائق الميروفية ، والتدنى الثقافى لعالم من فحول العلماء الغالورومان هو أغريغوريوس أسقف تور الذى ينم كتابه السابق الذكر عن ملوك الفرنجة الميروفيين ، بما حوى من لغة دارجة ركيكة وعفوية خالصة فى سرد الروايات الساذجة ، عن حضيض الفكر لدى رجال الاكليروس والعلمانيين على حد سواء . ولم يعد هناك أدنى اهتمام بالفنون الأدبيه فيما عدا التواريخ الهجيوغرافية الشعبية وهى التواريخ التى تحكى سير القديسين ، الأمر الذى جعل فريدبجار فى أول القرن السابع يعلن أسفه الشديد على ماوصلت إليه الثقافة فى عصره من تراجع يدعو إلى الأسى. وكانت هذه الحالة هى التى دفعت الرهبان الايرلنديين إلى الحركة الإصلاحية الكبرى فى القارة الأوربية بزعامة كولومبان[٢] المبشر الذى جاء إلى غالة فى سنة ٥٨٥ من أجل تطوير الكنيسة والتعليم على أسس من النظره العالمية ، وحقق الايرلنديون

(١) Dudden (F.H.), Gregory the Great : his place in history and thought, London 1905.

(٢) Columbanus

بذلك أول ظاهرة فكرية من نوعها منذ أن أطاح الجرمان بالإمبراطورية الرومانية القديمة ، كما كان الايرلنديون رواداً لعلماء البندكتين الانجلوسكسون أمثال المبشرين فيليبرورد[١] وفينفريد (بوليفاس)[٢] وفيليبالد[٣] الذين واصلوا مهمة الإصلاح فى القارة الأوربية فى القرنين السابع والثامن[٤] ، وكان لكل هذه الجهود أثر فعال على بزوغ النهضة الكارولية فى القرن التاسع ، وبالتالى على نهضة الكنيسة .

من كل ماسبق نرى أن دراسات موسوعة اللغة اللاتينية وقاموس تراث العصور الوسطى لم تكن منطلقة من تتبع التطور التاريخى للغة اللاتينية فى عصورها القديمة وعصورها الوسطى فحسب ، وإنما كان لهـا فضلا عن ذلك منطق ومضمون ، لأن تاريخ اللغة — كما هو معروف — له أهمية خاصة فى الدراسات التاريخية ، كما أن الدراسات التاريخية ضرورية لتاريخ اللغة . فاللغة كائن حى كما يقول الفقهاء ، وهى فى نفس الوقت نظام من العلامات[٥] كما قال العالم السويسرى دى سوسير[٦] ، ولذلك فإن مفاهيم المجتمع — أى مجتمع — تنساق أبعادها باللغة ، كما أن اللغة — أية لغة — تتعايش مع مفاهيم المجتمع وتحمل فى دلالاتها علامات العصر وتعبر عن آمال المجتمع وآلامه وأحلامه . وإذا كنا قد وجدنا فى هذه الدراسات مايشير إلى أن العصور الوسطى قد بدأت فى أوربا فى أغلب الظن على مفترق القرنين السادس والسابع ، فاننا نجد أن

---

(١) Willibrord .

(٢) Wynfreth (Bonifatius) .

(٣) Willibald .

(٤) أنظر الغمراوى ، موضوعات فى الثقافة الأوربية ...ص ٣٥ يتبع .

(٥) la langue est un système des signes .

(٦) De Saussure .

أمهات الكتب فى تاريخ الأدب الأوربى فى العصور الوسطى تنحو كذلك — وبصفة ثابتة — هذا النحو وتعرض الفكر الأدبى منذ القرن السادس . فالحقيقة أن مؤلفات القرنين السادس والسابع لم تعد تحفل بالقضايا التى كانت تشغل بال المفكرين فى القرون المسيحية السابقة عندما كان وطيس الجدل والنقاش حول الآب والابن والروح القدس يعلو فوق كل صوت .

لقد انفصلت الكنيستان الشرقية والغربية بعد مجمع خلقيدونية (١) المسكونى الذى عقد فى منتصف القرن الخامس فى سنة ٤٥١ ، ذلك المجمع الذى عرف بالمجمع المشئوم ، وفى منتصف القرن السادس بعد أن قضى نحبه فى سنة ٥٢٤ بويس سليل النبالة وخاتم شهداء الكنيسة الرومانية انتهى عصر الآباء العظام . . . عصر الكلاسيكيين المسيحيين . . . لأنه لم يعد هناك بعد ذلك سبيل إلى النقاش ، ولم يعد والقرن السادس يغرب هناك فى أوربا رجال أمثال أمبروز أسقف ميلانو فاحم الأباطرة ، وجيروم (٢) الناسك ناقل الكتاب المقدس ، وأوغسطين أسقف بونة الفيلسوف . . . بل ولم يعد هنا فى الشرق رجال أمثال باسيلى القبادوقى أسقف قيصرية العظيم ، وذهبى الفم يوحنا بطريق القسطنطينية الفصيح ، وكيرلس

---

(١) Chalcedon (Calchedon) مدينة فى مقاطعة بيثينيا فى آسيا الصغرى تقع على بحر مرمرة عند مدخل البوسفور وهى مقابلة لمدينة بيزنطة القديمة (القسطنطينية) التى تقع على الشاطىء الأوربى .

(٢) هيرونيموس Eusebius Hieronymus (حوالى ٣٤٨-٤٢٠) المعروف فى اللغات الحديثة باسم جيروم Jerome . لعله أكثر آباء الكنيسة شهرة لدارسى التراث الرومانى الأخير . ولد فى ولاية دالماتيا Dalmatia فى البلقان ، وانتقل فى صباه إلى روما ، وتعلم على يد دوناتوس Aelius Donatus أشهر علماء النحو في القرن الرابع. وعقب=

=إنتهائه من دراسة النحو والبلاغة رحل إلى ترير Trier التي يعرفها الفرنسيون باسم تريف Trèves (فى منطقة اللورين)، وكرس جهوده للعلوم الدينية. ولما ذهب بعد ذلك إلى الشرق وأقام فى أنطاكية تفرغ لدراسة اللاهوت، وانتهز فرصة وجوده هناك وتعلم اللغة اليونانية. وقد جذبته روحانية الحياة النسكية فقضى ثلاث سنوات (من سنة ٣٧٥ إلى سنة ٣٧٨) فى صحراء خلقيس Chalcis السورية، وهناك تعلم اللغة العبرية وإن كان قد تعلمها بصعوبة. وعندما قرر جيروم العودة إلى روما رسمه أسقف أنطاكية قسيسا، وفى الطريق عرج على القسطنطينية وتعرف فيها على عالم اللاهوت الكبير أغريغوريوس النازيانزى وكان ذلك حوالى سنة ٣٨١. وفى روما طلب منه البابا داماس الأول Damasus I، الذى كان قد تولى الأسقفية الرومانية فى سنة ٣٦٦، أن يراجع النقول اللاتينية القديمة للأناجيل لكى يرفع من مستواها اللغوى، وأن يقارنها بالنسخ اليونانية (وهى النسخ المنطبقة على النسخة المدونة فى مخطوطة سيناء والمحفوظة الآن فى المتحف البريطانى). وبقوة شخصيته وسحر حديثه إستطاع جيروم أن يجمع حوله عدداً من سيدات المجتمع الرومانى الراقى اللاتى كن يجدن فيه شخصية ذات مواهب جذابة، وكن يطلبن منه المشورة فى أمور الدين. غير أن وفاة البابا داماس فى سنة ٣٨٤ جلبت لجيروم كثيراً من المتاعب، إذ وجهت إليه تهمة التآمر لإرتقاء الكرسى البابوى. وكان أن غادر جيروم روما فى صيف العام التالى، بعد أن إعتلى البابا سيريكيوس Siricius كرسى البابوية، وتوجه إلى مصر عن طريق أنطاكية وأورشليم. وتفقد جيروم فى صحراء مصر مرابع الزاهدين التى وجد فيها بغية روحية عميقة، فشد رحاله إلى فلسطين مع بعض رفاقه الذين إستهوتهم حياة الزهد، وأقام هناك فى بيت لحم (سنة ٣٨٥) ديرا قضى فيه بقية حياته فى الدرس والكتابة حتى قضى نحبه فى هذه العزلة التى إختارها لنفسه فى أخريات عام ٤٢٠. ولاشك فى أن جيروم كان أكثر آباء الكنيسة اللاتين قدرة على محاكاة الأساليب الكلاسيكية. لقد حفظ جيروم عن ظهر قلب مؤلفات شيشيرون وأشعار فرجيل وهوراس التى تردد صداها فى مؤلفاته العديدة، وذهبت محاولاته لتبسيط اللغة اللاتينية أدراج الرياح، فقد كانت لغته اللاتينية الدارجة - برغم شعبيتها - لغة رصينة نلمس مستواها في نقول الكتاب المقدس=

الأول[1] بطريق الإسكندرية وخاتم شهداء الكنيسة المصرية العلامة... لأن أحداثاً

= وكان شيشيرون دون جدال مثله الأعلى بين الكتاب الكلاسيكيين ، وفيما يتعلق بالكتاب المسيحيين كان أوريجانوس الإسكندري يتصدر قائمة الذين تعلق بهم جيروم . بل ان جيروم كان يعتبر أوريجانوس أستاذاً ليس له مثيل ، وقد ترجم له جيروم إلى اللغة اللاتينية مواعظه الدينية ومحاضراته في الأخلاق التي إستقاها من نشيد الأنشاد وأسفار حزقيال وأرمياء وأشعياء وانجيل لوقا interpretationes homiliarum Origenis in canticum, Ezechielem, Ieremiam, Isaiam, Lucam وخلاف هذه النقول كتب جيروم مؤلفات من أهمها الرسائل epistulae التي تفيض بالمتعة لدارسي الأخلاق والكتاب المقدس ، والمؤرخة التي إستقاها من مؤرخة أوسابيوس القيصري ، وهي المؤرخة التي كان قد دونها أوسابيوس لتوه في القرن الرابع وعرض فيها تاريخ العالم منذ زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام Chronicum Eusebii ab Hieronymo retractatum ad annum Abrahae ، والحقيقة أن مؤرخه جيروم تكاد أن تكون ترجمة (باللغة اللاتينية) لمـــؤرخة أوسابيوس اليونانية (أنظر صفحة ٦٨ من كتابنا) ، وأضاف إليها جيروم بعض المعلومات التي وردت في تاريخ المؤرخ الروماني أسويطون Suetonius ، ووصل فيها جيروم بأحداث العالم حتى سنة ٣٨٠/٣٨١ . ومن أهم مؤلفات جيروم كذلك كتاب المشاهير de viris illustribus الذي كتبه جيروم في سنة ٣٩٢ وقدم فيه معلومات على جانب من الأهمية لمائة وخمسة وثلاثين كاتباً من الكتاب المسيحيين ، وسيرة الأنبا بولا الناسك vita Pauli eremitae ، والترجمة اللاتينية لدستور الأنبا باخوم regulae Pachomii versio latina . هذا فضلا عن تفاسير الكتاب المقدس (أنظر الغمراوي ، « المؤلفات الدينية في أدب الفقهاء اللاتين ... » ص ١٣١ ، ١٣٣) . ولكن الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس كانت أشهر مؤلفات جيروم ، وهي الترجمة التي عرفت منذ القرن التاسع بالفولجاتا Vulgata أي النسخة الشعبية (أنظر الغمراوي ، موضوعات في الثقافة الأوربية ... ص ١٠) .

(١) Cyrillus بطريرك الإسكندرية الرابع والعشرون . تولى كيرلس البطريركية في سنة ٤١٢ بعد وفاة البطريرك ثاوفليس Theophilus الذي انتهج كيرلس=

سياسته فى قمع الوثنيين واليهود. هذا وان كان من المختلف عليه أن كيرلس كان وراء مقتل الفيلسوفة الوثنية هيباتيا التى كانت تقوم فى الإسكندرية بتدريس الأفلاطونية الحديثة . ومنذ سنة ٤٢٨ أخذ كيرلس يشن هجوماً عنيفاً على نسطور Nestorius بطريرك القسطنطينية الذى قال بأن السيدة مريم لم تلد المسيح إلهاً وإنما ولدته إنساناً صار إلهاً بعـــد مولده ، وبذلك تكون للمسيح — حسب رأيه — طبيعتان طبيعة إلهية وطبيعة بشرية لم تتحد إحداهما بالأخرى . وفى خطبة عيد الفصح التى ألقاها كيرلس فى العام التالى (سنة ٤٢٩) لعموم المطارنة فى مصر ، كما فى الرسالة التى بعث بها إلى انصاره الرهبان ، فند كيرلس حجج نسطور ورد عليه بأن المسيح أقنوم إلهى واحد اتحد بالناسوت إتحاداً كاملا ، وطلب من بابا الكنيسة الرومانية كولستين الأول Goelestinus I (٤٢٢ — ٤٣٢) أن يدلى برأيه فى هـذا الموضوع . وعلى هذا الأساس عقد البابا كولستين مجمعاً فى روما فى أواخر صيف عام ٤٣٠ ووافق على رأى كيرلس . وقد وقف يوحنا Johannes بطريرك أنطاكية فى جانب نسطور وإعترض على قرارات هذا المجمع ، الأمر الذى أدى إلى عقد مجمع مسكونى فى أفسس Ephesus ، وهو المجمع المشهور الذى إنعقد فى أوائل صيف عام ٤٣١ فى عيد العنصرة وهو عيد حلول الروح القدس . وقد أصدر مجمع أفسس قرارات بإدانة نسطور وقطعه من شركة الكنيسة ، ووقع جميع الأساقفة والمطارنة الحاضرون على هذه القرارات وأبلغوها للامبراطور ثيودوسيوس الثانى Theodosius II الذى وافق عليها وأمر بنفى نسطور إلى الوحات الخارجة فى مصر ، وهاجر اتباع نسطور بعد ذلك إلى بلاد فارس . وبعد أن عاد كيرلس إلى الإسكندرية تفرغ لخدمة الكنيسة ، وعكف على القراءة والإطلاع ، وكتب عدة مؤلفات عن التجسد ، والسيد المسيح ، والسيدة مريم العذراء ، والثالوث المقدس . ومن أهم مؤلفات كيرلس كتابه الذى بدأ فى تأليفه فى سنة ٤٣٥ ورد فيه على الإمبراطور جوليان المرتد Julianus Apostata الذى كان قد عرض فى القرن الرابع بالمسيح وهاجم الدين المسيحى أثناء حكمه (٣٦١ — ٣٦٣) ، وقد إستغرق تأليف هذا الكتاب ، الذي لم يصلنا منه غيره نصفه الأول ، خمس سنوات.

أخرى جساماً بدأت تثقل كاهل العالم المسيحي . لقد وهن سحر الثقافة الكلاسيكية ، وضاعت هنا وهناك حجج الجدال حول معارف الثالوث المقدس في زحام الأمم الفتية التي أخذت تلعب الآن دورها على مسرح التاريخ العالمي ... أمم اللومبارديين والفرنجة والسلاف والمسلمين . . وانطفأ البريق هناك في أوربا وتعثر العقل واللسان أمام الأحداث .

* * *

وإذا كانت بداية العصور الوسطى قد ارتبطت في مقولة بيرين بتوسع الإسلام الذي كان على حد زعمه — وتهجمه — سبباً في انهيار وحدة البحر المتوسط وتدهور التجارة وتخلف الغرب ، فقد أتضح مما سبق قوله فساد هذا المقولة . وإذا كان هناك ارتباط يذكر فإنما هـو ارتباط زمني فحسب ، لأن الغرب الأوربي بصفة خاصة أخذ طريقه إلى العصور الوسطى كما رأينا نتيجة لظروف داخلية بحتة ، ولأن العالم بصفة عامة كان يبدأ بظهور الإسلام في تلك الفترة على مسرح التاريخ عصراً جديداً تغير فيه دور الصراع الدولي للقوة البيزنطية ليصبح صراعاً مع القوى الدولية الناشئة التي مثلها على رأس القائمة عالم الفرنجة والعالم الإسلامي نستطيع أن نطلق عليه العصر الوسيط .

فما لا شك فيه أن آثار الغزوات الجرمانية الكبرى التي تعاقبت على أيطاليا وغالة وأسبانيا وشمال أفريقيا منذ منتصف القـرن الرابع حتى منتصف القرن الخامس — أي قرابة قرن من الزمان — تركت بصماتها في كل مـكان . لقد اضطربت التجارة في البحر المتوسط ، واجتاح الفقر والطاعون أغلب البلدان الأوربية ، واضطر الأهالي هناك إلى القنص واحتراف الزراعة فيما أصبح من الأراضي صالحاً للزراعة ، وانخفضت مستويات المعيشة ، وتدهورت بصفة عامة

أشكال الحياة ، وظهرت على مر الأجيال أجيال جديدة من الرومان والجرمان . . . أجيال خيم عليها رعب العصر الجديد . ومع ذلك — كما قال دوبش (١) — لم يكن سقوط روما السياسى كارثة بقدر ما كان خموداً وتصدعاً خافتاً انتقلت معه الحضارة الرومانية إلى الشعوب الجرمانية التى أقتسمت حكم النصف الغربى من الامبراطورية . وبالرغم من أن الفرنجة الميروفيين الذين حكموا غاله ظلوا على أعرافهم الجرمانية فترة طويلة من الزمن ، بقيت غالة كما هى بلد الحضارة الرومانية ولكن فى أثوابها الزاهية المحلية ، وأصبحت غالة فى هذه الأثواب بلد العبور لمختلف التيارات الحضارية والقوى الاجتماعية والسياسية التى كان من شأنها أن تخلق بعد ذلك الحضارة التى نسميها الحضارة الأوربية . فالنهاية السياسية للامبراطورية الرومانيه القديمة أصبحت هكذا بداية لعالم الدول الجرمانية الجديدة .

وإذا كانت البلدان الرومانية قد عاشت كما قلنا نفس الظروف القاسية التى جاءت بها الغزوات الجرمانية ، إلا أن غالة فى القرنين الرابع والخامس كانت بصفة نسبية أقل الولايات أضطراباً وأكثرها تقدماً من الناحية الاقتصادية والفكرية . فقد كانت لديها من أراضيها الزراعية الشاسعة محاصيل إن لم تكن وفيرة فهى على أقل تقدير كافية لسد الحاجات التموينية فى البلاد ، كما كانت لديها أساطيل تجارية كثيرة تمخر عباب الأنهار الغالية والبحار لتصدير المنتجات المحلية وخاصة الأوانى الفخارية التى أشتهرت بها غالة . وكانت هناك مدارس علياً فى ناربون (١) وآرل (٢)

Dopsch (A.), “Vom Altertum Zum Mittelalter : Das Kontinuitaetsproblem” : Archiv fuer Kulturgeschichte XVI . 1926 p. 159—182

(١) Narbonne .

(٢) Arles

وبوردو [١] وتولوز [٢] ومرسيليا وبواتييه وتريف (ترير)، وكان مركز الثقل الفكرى مازال فى الجنوب الذى حفل بالأدباء والشعراء والفلاسفة والمعلمين والخطباء البارزين من أبناء الطبقة الأرستقراطية الغالو رومانية القديمة أمثال أوزونيوس [٣] البوردونى وسالفيان المرسيلى وسيدونيوس [٤] أسقف كليرمون [٥] الذى توفى فى نفس السنة التى اعتلى فيها الملك أشلودفيج الأول عرش الفرنجة الميروفيين (سنة ٤٨١). هذا وإن كانت الفنون الأدبية قد أصبحت الآن فى قوالب جافة منمقة خلت من أصالة الآداب الكلاسيكية القديمة المبدعة.

وكانت هناك حقائق جعلت من غالة وحدها البلد القادر على حفظ تراث الحضارة الرومانية. فقد كان فى غالة فى القرنين الرابع والخامس أساقفة كبار أمثال مارتين [٦] أسقف تور وهيلار [٧] أسقف بواتيية وأفرون [٨] أسقف أوتون [٩] ورميج [١٠] أسقف رنس. كما كانت غالة عامرة فى شتى الأقاليم بالكنائس التى تدين بفضل تأسيسها إلى جهود الأسقف مارتين التورى الذى ولد فى سنة ٣١٦ فى بانونيا

---

(١) Bordeaux .
(٢) Toulouse .
(٣) Ausonius .
(٤) Sidonius .
(٥) Clermont .
(٦) Martinus .
(٧) Hilarius .
(٨) Euphronius .
(٩) Autun .
(١٠) Remigius

وعمل قسيساً فى ايطاليا وغالة حتى تولى أسقفية تور فى سنة ٣٧١ . ولكن ديرسان مارتن (مارتين) فى تور كان بداية لموجات أكثر أهمية فى تأسيس الأديار التى ظهرت فيها روح الحضارة الجديدة فيما بعد فى مملكة الفرنجة الميروفيين . ففى سنة ٤١٥ وضع يوحنا كاسيان [١] فى مرسيليا دستوراً للرهبان على نهج قواعد الأنبا باخوم المصرى التى كان قد أقرها باخوم فى القرن الرابع لديره فى طبانسين وأدياره الأخرى التى أنشأها فى صعيد مصر ، وأعطى كاسيان بذلك أول دستور رهبانى فى الغرب سبق به دستور بندكت النورسى فى إيطاليا .

وقبل وفاة كاسيان فى سنة ٤٣٥ كانت فى مقاطعة البروفانس [٢] وحدها أعداد غفيره من الرهبان تربو على الخمسة آلاف ، وأحدث هؤلاء الرهبان نهضة فكرية عظيمة كان مركزها دير ليرن [٣] . وبعد سقوط ترير فى سنة ٤٨١ فى أيـــدى الفرنجة الميروفيين وزوال نفوذ الحكم الرومانى فى شمال غالة لجأ جمهور من الطبقة الأرستقراطية الغالورومانية إلى دير ليرن حيث حملوا معهم تراث الحضارة الرومانية القديمة فى مستوياتها الكلاسيكية العميقة كما حملوا معهم وعى الفكر المعاصر فى أشكاله الإقليمية السلسة وعايشوا هناك الفكر الدينى الزاهد وأمل المستقبل الحضارى المرموق . وانسابت هذه النهضة الوجدية الصادقة بعد ذلك إلى القاره فى غالة

---

(١) Iohannes Cassianus .

(٢) Provence فى جنوب فرنسا .

(٣) Lérins ، ويقع هـذا الدير فى جزيرة صغيرة مقابلة للشاطىء الفرنسى الجنوبى على مقربة من مدينة نيس Nice .

وامتزجت مع فكر رهبان مارتين فى مقاطعة أقطانيا(١) وتقاليد الرهبانية الإيرلندية الجديده فى دير لوكسى (٢) الذى أسسه كولومبان فى مغيب القرن السادس فى مقاطعة بورغونيا (بورجونديا) (٣) ، كما امتزجت بأساليب الحياة لدى النبلاء الفرنجة الجرمان فى بلاط باريس وفى شتى الأسقفيات ومدن الولاية الرومانية القديمة . ونزع الرهبان مسوح الوحدة واندمجوا فى حياة مفعمة بالمشاعر والطموح ... حياة نشيطه (٤) عمت سائر القصور والأديار . لقد تفجرت هناك الآن فى غالة منابع جديدة ، وأصبح هناك الآن فى غالة مجتمع جديد يتراوح بين الفكر القديم والحياة البسيطة المتفائلة .

أما الصورة التى رسمها فى القرن السادس أغريغوريوس أسقف تور فى كتابه « تاريخ الفرنجة » عن الملك أشلودفيج الأول الذى حكم منذ سنة ٤٨١ حتى سنة ٥١١ فهى صورة قاتمة قد لا تنطبق تماماً على حالة البلاد فى عصره . لقد تم انتقال السلطة إليه دون إضطرابات أو قلاقل ، لأن الارستقراطيين الغالوورومان إضطروا فى بادىء الأمر تحت ضغط الظروف إلى الاعتراف به ملكا بالرغم من أنه كان وثنياً . وقبلت الكنيسة الغالية حكمه دون تردد نظراً إلى نفوذ الأرستقراطيين عليها من ناحية ، ولأنها كانت من ناحية أخرى تتوقع دخول الملك فى المسيحية على مذهبها الكاثوليكى الذى كانت تدين به زوجته البورغونية أشلوتيلدا (٥) ، وهذا هو ماحدث بعد ذلك بعد أن شجعته زوجته ورميج أسقف رنس

---

(١) Aquitaine .

(٢) Luxeuil .

(٣) Bourgogne (Burgundia) .

(٤) vita activa .

(٥) Chlotilde

على اتخاذ هذه الخطوة التى تعد أول سابقة لملك جرمانى يعتنق المسيحية على المذهب الكاثوليكى ، وارتبطت بهذه الخطوة مصالح الكنيسة والدولة فى وحدة رسمت مسار الأمور فى غالة .

وعلى أية حال وبرغم التقلص الذى أخذ ينتاب المدن الغالية سارت الحياة على ما كانت عليه إلى حد بعيد ، وظل الإزدهار واضحاً فى مدن الجنوب نيم (١) وناربون وآرل وفيين (٢) . ولم يتدهور اقتصاد البلاد إلى الحد الذى قد يفهم من كتاب أغريغوريوس التورى ، لأن التجارة النهرية ظلت قائمة فى حوض الرون ، واستمرت كذلك التجارة البحرية مع بلدان آسيا الصغرى . ولم يكن التعليم قد لحقه بعد ذلك الهبوط الذى نلحظه بعد ذلك . كل ما فى الأمر أن بعض أنماط الحياة الرومانية القديمة أخذ يعتريها على مر الوقت إهمال من المجتمع بعد أن أصبحت لاتناسب ظروف هذا العالم الجديد ، وإن ظل الشعور الرومانى يراود الأرستقراطيين الذين لم يبرح خيالهم مجد الماضى ، وأخذ الإلتزام بقواعد القانون الرومانى فى التحلل نتيجة للفروض القانونية الخاصة التى كانت تظهر بين وقت وآخر فى مجتمع اختلطت فيه أجناس كثيرة وأمور أكثر . وأصبح يسود المعاملات قوانين شعبية غلبت عليها روح القواعد الرومانية والأعراف الجرمانية فى وقت واحد . ومع ذلك بدأت غالة تنسج خيوط التغير الحقيقى فى أوربا . . . لقد أخذت تتضح الظاهرة الإقطاعية فى المجتمع الفرنجى . . . . إقطاع تداول فيه النبلاء والكنيسة . . .

وكما كان الحال فى بلاط القوط الشرقيين فى إيطاليا وفى بلاط القوط الغربيين

---

(١) Nimes .

(٢) Vienne .

فى أسبانيا ، حيث تولى المثقفون الرومان ورجال الدين مهام المناصب الإستشارية والإدارية ، أصبح المستشارون فى البلاط الملكى الميروفى وفى ضياع الأمراء الفرنجة من الأساقفة الأرستقراطيين الغالورومان الذين كانوا يمثلون الفئة المثقفة الحافظة لمعارف الحضارة الرومانية والقادرة على شغل مثل هذه المناصب الرفيعة التى تحتاج إلى العلم والدراية بشئون الحكم والمجتمع . وبعد أن كانت الكنيسة فى القرنين الرابع والخامس وريثا خفيا للإمبراطورية السالفة أصبحت الآن وريثا حقيقياً يمارس سلطته بكل ما تحمل هذه السلطة من أعباء ، وأصبحت تساند الحكم الفرنجى الجديد الذى كان حتى ذلك الوقت يفتقر إلى الخبرة والمعرفة بتقاليد المجتمع الرومانى العريق . ونستطيع أن نقول إن المجتمع الفرنجى الذى اختلطت فيه الأجناس والمشاعر كان برغم كل شىء يعيش فى سائر الأقاليم فى وحدة دينية تقوم على ارتباط الكنائس فى جميع المناطق المترامية . وكانت الكنائس تعتمد فى تحقيق هذه الوحدة على الهبات المالية والعقارية التى كانت تستثمرها لتوفير الخدمات العامة فى الأقاليم ، وفى تموين المدن وحماية الحصون والقلاع .

وعلى ذلك فلم يكن أمام الفرنجة الميروفيين غير الإتفاق مع الكنيسة التى فاق نفوذها كل حد وذلك من أجل احتفاظ الحكومة الفرنجية بحكم مستقر فى البلاد . وبرغم المخاطر التى كانت تلوح فى هذا الإتفاق رأت فيه الكنيسة فرصة مواتية للتمادى فى سياستها تحت شعار الكاثوليكية التى ربطت بينها وبين الأسرة الحاكمة منذ أن اعتنق أشلودفيج الأول الدين المسيحى على هذا المذهب . ولقد أعلنت الكنيسة أن أشلودفيج أرجع للكاثوليكية العالمية هيبتها فى الغرب بعد أن هزها طوفان الأريوسية التى وفدت فى ممالك الجرامنة وهزتها هزاً عنيفاً ولاسيما فى شمال إفريقية، وفرضت على الكنيسة الغربية أن تخوض معها صراعاً مريراً فقدت فيه كثيراً من الجهد والمال . ولذلك إصطلحت الكنيسة كما رأينا مع الأسرة الفرنجية الجديدة

تحت لواء الكاثوليكية ، ونتج عن هذه المصالحة إندماج الفرنجة والغالورمان فى مجتمع كاثوليكى واحد تفجرت منه الحضارة الأوربية القادمة . وأصبح أشلودفيج بذلك نجم المجتمع الجديد يضم بلاطه كل يوم صفوة المثقفين والعلماء .

ولكن روائع الحضارة الرومانية التى نبضت فى بلاط أشلودفيج لم تعد من شأنها أن تبسط مشاعره الحادة وتبعث فيه العقل والحذر . . . لم يكن فى مقدوره أن يجد طريقاً واحداً إلى المستقبل . كان فى ضميره ديناان وفى خياله صورتان للحياة ، سليل من الآلهة يجلب لشعبه النعمة والخلاص ، وملك تثيره فكرة الإمبراطورية الرومانية ، ولكن على طريقته الخاصة . وفى هذا الإله وذاك الملك كان مصير غالة . لقد خاض أشلودفيج معارك حافلة مع الألمان والبورجونديين ، وحرر غالة من القوط الغربيين ، وأصبح الآن ملكا جديراً بدولة تحمل اسم الفرنجة . . دولة فرنكيا الجديدة " . . . والآن أراد أشلودفيج أن يبسط سلطانه على أمراء الأقاليم الذين ناصبوه العداء والتحدى ، ولكن الظروف لم تكن مواتية آنذاك . وبدأ صراع جديد . . . فى السر والعلانية . . . أقطابه الدولة والأمراء والكنيسة . صراع الإقطاع على إقتطاع البلاد ، صراع مجتمع واحد يريد أن يصنع حضارة واحدة لا يعرف غير الله كيف تكون . حضارة لم تكن فى طوع إيطاليا . . . ولا فى طوع جرمانيا . . . ولا فى طوع أسبانيا . . .

* * *

وفى محيط مجتمع على هذا النحو مازالت فيه فئات تكن فى وجدانها معانى الحضارة الرومانية العالية ، وفى محيط دولة نامية تعقدت فيها الأمور على هذا النحو لتصبح دولة لها كل مقومات الدولة وكل ديناميكية الحياة اليومية وكل ديناميكية

بين الأعراف الجرمانية الجديدة والتقاليد الرومانية القديمة كان لابد للحكومة الفرنجية من إقرار القواعد والقوانين والأنظمة التى من شأنها أن تحكم الأوضاع الراهنة فى البلاد ، ولم تكن هناك بطبيعة الحال بدائل لمفاهيم التشريع الرومانى والإدارة الرومانية تستطيع الحكومة الفرنجية على أساسها أن تقنن هذه الأوضاع ، لأن الفرنجة الجرمان لم يكن لديهم إدراك مجرد لفكرة الدولة والكنيسة . وعلى أية حال فقد كان لا بد لهذا الخضم أن تنساب منه أشكال جديدة للحياة الإجتماعية . . . حياة جمعت بين الغالورمان والفرنجة فى آن واحد ، وتبلورت فيها سلطة الدولة والأمراء على البيوت والأراضى وأبدان الناس . . . تلك السلطة التى كانت حماية بحد السيف وأصبحت فيما بعد أساساً لمجتمع أوربا وحضارة أوربا حتى عصر الثوره الفرنسية فى القرن الثامن عشر . . . حضارة كان فيها الملك والأمراء والكنيسة أكبر الأسياد .

فمن نظام الإلتزام الرومانى القديم المعروف بنظام اللاتيفونديا ، وهو نظام الضياع الكبيره الذى سيطر فيه ملاك الأرض على عدد من الأفراد الذين ساقتهم الأقدار للعمل فى هذه الضياع ، بنى الفرنجة نظام الإقطاع الذى فرض سيطرته الكاملة على الحكم وعلى كل أفراد المجتمع . وكان المستفيد الحقيقى من هذا النظام أقارب الملك وأمراء المقاطعات ونبلاء الكنيسة الغالورمان الذين عملوا جاهدين على استغلال سلطتهم ومد نفوذهم أينما كانوا ، حتى أصبح هذا النفوذ يشكل خطراً على الحكومة ، كما أصبح مشكلة من كبريات المشاكل التى أخذت تواجه الملكية الميروفية وهى تحاول بسط سلطانها على كل بقاع فرنكيا . وأصبحت فرنكيا فى الظاهر دولة واحدة تحكمها الأسره الميروفية ، وهى فى حقيقة الأمر دولة منقسمة على نفسها يصول فيها الأمراء والنبلاء فى شتى الأقاليم دون رقيب ، وأصبح قمع هذا الخطر واحداً من مواضيع السياسة الميروفية ، والسياسة الكارولية بعد ذلك . هذا ماحدث بصفة خاصة فى شمال فرنكيا ، أما الجنوب فقد خلق فى مواجهة

وكان هناك مصير فكرى آخر ينتظر مجتمع الفرانجة الميروفيين فى القرن السادس . لقد شهد هذا القرن رومنة عميقة للجرمان فى اللغة وأساليب الحياة رفع لواءها بلاط الملك والنبلاء الذين أحسوا بشخصية جديده تضارع شخصية الأرستقراطية الغالورومانية . . . شخصية عبرت عن نفسها فى قصر الملك الفرنجى الذى تقرر بناؤه على نمط القصور الرومانية الإمبراطورية[١] ، وعبرت عن نفسها فى قصور الأمراء والنبلاء التى أخذت تشيد على هيئة القلاع الرومانية[٢] . وفى هذه القصور وتلك أخذ رجال الحاشية والنبلاء ورجال الجيش وكبار الموظفين يتداولون باللغة اللاتينية التى كانت لغة البلاد الرسمية . وعلى حدود القرنين السادس والسابع فقدت دوائر النبلاء الغالورومان فى الشمال مكانتها الاجتماعيه القديمة بعد أن أستقل بعض أمراء البلاط الملكى الفرنجيون بمنطقة أيل دى فرانس[٣] المحيطة بمدينه باريس والتى كانت تقع فى قلب الأراضى التابعة للملك وسيطروا على الطبقات الغالورومانيه الثريه التى أصبحت تعيش حياتها الآن فى صمت بعيدا عن أضواء المجتمع السابق . ومع ذلك عقد أمراء أيل دى فرانس — كما فعل أمراء أوسترازيا[٤] — صداقات وطيدة مع هذه الطبقات ، ونتج عن هذا الاندماج طبقة راقية جديدة فى المنطقه تتحدث اللغة اللاتينية واللغة الفرنجية الراينية (لهجة الراين) على حد سواء .

---

(١) أطلق الفرنجة على القصر الملكى اسم Pfalz «بفالتس» وهو اسم مجرمن لكلمة Palatium « بالاتيوم » اللاتينية ومعناها القصر .

(٢) أطلق الفرنجة على القصر الأميرى اسم Burg « بورج » ، وهى كلمة جرمانية بمعنى « القلعة » ، ودخلت هذه الكلمة فى اللغة اللاتينية وأصبحت burgus « بورجوس » .

(٣) Ile de France .

(٤) Austrasia .

أما الثقافة بمعناها المفهوم فقد كانت ومازالت كعهدها قاصرة على رجال الدين ، فى الوقت الذى كان فيه العلمانيون كعهدهم أميين لايعرفون القراءة والكتابة فيما عدا بعض الكتبة الذين اضطرتهم الظروف إلى العمل فى دواوين الحكومة والبلاط الملكى . وحتى هؤلاء الكتبة لم يكن مستواهم الثقافى البسيط يفى بحاجة العمل ، وكانوا يقعون فى أخطاء لغـــوية وإملائية كثيرة تفصح عنها الوثائق والمخطوطات التى وصلتنا من هذه الفترة من عهد الميروفيين ، مما دفع مدرسة القصر الملكى[١] ، التى كانت تعلم أولاد الملك والأمراء ، إلى تعليم جيل من الطبقة الوسطى فى مبادىء الإدارة والسكرتارية لكى يكونوا جيل الموظفين الإداريين الذين يستطيع القصر أن يعتمد عليهم فى الأعمال الحكومية فى المستقبل ، وقدر لهؤلاء الموظفين الصغار أنصاف المتعلمين — بل أنصاف الأميين — أن يحملوا فيما بعد أعباء الحركة الفكرية الجديدة التى كان لابد أن يشوبها الفقر والسطحية . وكان العالم الأوربى وقتذاك يعيش مفاهيم العصر الجريجورى . . . عصر البابا أغريغوريوس الأول الذى عكس الخرافة والوجد الدينى على ربوع الفكر هنا وهناك فى سائر المجتمعات الأوربية . . . عالم خيم عليه الرعب والفزع من المفاجأة والمجهول ، خرجت فيه المردة والشياطين من عقالها ، وانفرط فيه عقد السكينة ، وهرع الناس إلى الأديار طلباً للحياة الآمنة المستقرة ... حياة لم تكن تنشد الزهد والتقشف بقدر ما كانت تبغى الخلاص من الوجل والآلام . ومنذ القرن السابع إنعكست المثل الاجتماعية لهذه للفئات المقهورة فى سير القديسين ... تقصد الوجود والخلاص فى المعجزة والعجيبة وتضىء الجوانب المظلمة الخفية فى أحلام الناس ...

بهذه الأجواء الأوربية المفعمة بالخوف خطا القرن السابع فى التاريخ . ولكن

---

(١) schola palatina

كانت هناك مواقف مازالت فى جعبة المصير . لقد هبت منذ أواخر القرن السادس على مواطن الحكام الميروفيين والنبلاء نسمات فكر رفيقة من ايرلندا . لقد وفد إلى هذه المواطن كولومبان المبشر وشيد ديره المشهور فى لوكسى ليكون إنطلاقة لأديار جديدة تتعانق فيها روح الجماعة الفرنجية والإيرلندية فى مزيج واحد ، ويكون معقلا لحركة إصلاحية كبرى أضاف إليها علماء الإنجليز بعد ذلك دفعات من الحماسة كان من شأنها أن تغير مجرى الأحداث فى القارة الأوربية على مر القرنين السابع والثامن ، وأن تقف بفرنكيا على عتبات النهضة الكارولية (الشارلمانية) القادمة ... حركة إصلاحية تلاقى فيها النبلاء والأرستقراطيون والعامة داخل أديار لشدت تحرير العقول من عقدة الخوف ، وحفلت ببرامج العلم والسياسة ، وعقدت فكر الحضارة الكلاسيكية بفكر الإيرلنديين الواعى تجاه البعث الجديد .

وكان لا بد من أن تظهر آثار هذه الحركة على الكنيسة الفرنجية . لقد هجر كثير من الأرستقراطيين فى باريس خدمة البلاط والدواوين، وتولوا — كما تولى أقارب الملك والندماء — رئاسة الاسقفيات والأديار الجديدة ، وارتبطت الكنيسة بنفوذ البلاط الميروفى والنبلاء فى أقاليم الدولة ، وكان هذا الارتباط الوثيق أوضح مايكون بين الكنيسة والبلاط الأميرى فى أوستراژيا حيث أصبحت الكنيسة ألعوبة فى أيدى النبلاء الأوسترازيين الذين إستطاعوا بمساعدة أرنولف[1] أسقف متس[2] أن يكونوا فى هذه المنطقة مركز نفوذ خطير يهدد نفوذ الملوك الميروفيين ، وأن يقيموا من بينهم بعد ذلك أسرة حاكمة جديدة هى الأسرة الكارولية التى أخذت من الميروفيين مقاليد الحكم . وشاءت

---

(١) Arnulfus المتوفى سنة ٦٤٠ .

(٢) Metz .

الأقدار أن يظهر فى هذه الأسرة الحاكمة الجديدة كارل العظيم الذى سوف يكون شارلمان المرحلة التالية فى تاريخ أوربا .

وهكذا إذا كان عصر القرنين السادس والسابع ، ذلك العصر الذى يمثل منعطفاً هاماً على طريق التاريخ الأوربى ، عصر خوف وجهالة ، بل عصر ظلام حتى بالمعنى الذى دبجه يراع المؤرخين الانجلوسكسون وليس بالمعنى الذى أفصحت عنه مؤلفات المؤرخين الغالورومان ، إلا أن هذا العصر كان عصر انتفاض لكل ما حملته أوربا على أرضها من مشاعر ومبادىء وبشر ، وانتفض فيه التاريخ ليصحو على عصر جديد ...

وإذا كان هذا هكذا فليس معنى هذا أن تبدأ دراسة تاريخ العصور الوسطى من القرن السادس كما يفعل أغلب المهتمين بتاريخ اللغة والأدب ، لأن هناك كما رأينا ضرورة تفرض على المؤرخين أن يرجعوا إلى الوراء ... إلى وقائع الامبراطورية الرومانية الأخيرة ... إن لم يكن إلى عصر دوقلديانوس فى القرن الثالث فعلى أقل تقدير إلى عصر قسطنطين فى القرن الرابع . وهنا يظهر جانب الصحة فى مقولة هالو ، لأن العصور التى تمتد منذ حكم قسطنطين فى القرن الرابع حتى تولى الكارولنجيين السلطة فى مملكة الفرنجة فى منتصف القرن الثامن تربط بينها — رغم إختلاف الظروف — خاصية جوهرية وعلاقة وثيقة . فالامبراطورية الوثنية التى كان قد رفع لواءها أباطره عظام أمثال أغسطس ونيرون[١] ودوميتيان[٢] وتراجان ومارك أوريليوس وسبتيميوس ساويرس ودوقلديانوس أصبحت الآن إمبراطورية مسيحية — اعترف فيها بالدين المسيحى — يحكمها قسطنطين ... إمبراطور

---

(١) Nero Glaudius Caesar (٥٤ — ٦٨) .

(٢) Titus Flavius Demitianus

عظيم آخر ولكن من نوع جديد ... والساق فى هذه الإمبراطورية تاريخ جديد فى خضم الأحداث المقبلة الجسام لتتفجر من هذا السياق منابع جديدة لتاريخ أوربا.

* * *

والمتتبع لسير التاريخ يلاحظ كما ذكرنا أن أحداث الغزوات الجرمانية زادت من الضغوط الإقتصادية والاجتماعية التى تعرضت لها الإمبراطورية الرومانية الغربية منذ زمن ... منذ القرن الثالث ، وعلى التحديد منذ أواخر القرن الثانى ، أيام كان الغرب الأوربى جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الرومانية القديمة ... ويلاحظ أن هذه الغزوات أحدثت تطورات أخذت تطغى شيئاً فشيئاً على أنماط الحضارة الكلاسيكية دون أن تفلح فى القضاء عليها ، وأن مراكز الثقافة فى أقاليم الإمبراطورية القديمة المطلة على البحر المتوسط أخذت فى التدهور نتيجة لإنتقال النشاط الثقافى شمالا إلى أواسط القارة الأوربية التى لم تكن لها من قبل تقاليد حضارية عريقة . لقد بدأ المجتمع الرومانى يواجه من جراء ذلك ظروفاً جديدة ومشاكل آنية كان عليه أن يتخطاها ، وأن يجد لها الحلول الكفيلة بأن تنزع عنه المخاوف فى ظل هذه الأخطار والتغيرات المحيطة.

لقد حدد القدر مصير الإمبراطورية الغربية ، وفرض عليها أن تقع فريسة للجرمان لأن أحداثاً كانت تجرى من داخلها ومن حولها لم يكن فى طوع أحد — ولا الكنيسة — أن يدرأها عن نفسه . أحداثاً ساهمت فيها الشعوب الجرمانية الزاحفة ، وساهمت فيها بيزنطة بسياستها الداهية لكى تحول الجرمان عن أراضيها نحو الغرب . ولم تكن بيزنطة نفسها تدرك حجم الخطر الجرمانى الذى سوف يبتلع الغرب بكل أهواله ... وعندما سقط الغرب كان الوقت قد فات ووجدت

بيزنطة نفسها أسيرة الموقف تحاول استرداد الغرب دون جدوى . وأصبحت بيزنطة نفسها خطراً على الغرب والكنيسه ، لأن تحرير الغرب من الجرمان — وهو الهدف الذى كان يسعى إليه البيزنطيون بكل ما أوتوا من قوة — كان يعنى خضوع الكنيسه الغربيه لحكام بيزنطه الذين كانوا قد فرضوا نفوذهم على كنائس الشرق . وكان على المجتمع الرومانى إزاء هذه الظروف أن يواجه المصير بشجاعه ، وأن يحدد موقعه على رقعة التاريخ فى مواجهة بيزنطة والجرامنة على حد سواء . واستطاع المجتمع فى الحقيقة — ومن ورائه الكنيسة — أن يجد حلوله الذاتية المناسبة من خلال الصراع بين العقائد المسيحيه والنظم والأفكار الكلاسيكية والتقاليد الجرمانية ، وأن يبدع من كل هذا حضارة توفيقية — مهما كان حجمها — بقوة الدفع التاريخى التى سرت فى أوصاله عبر القرون ، وبقوة المفاهيم المسيحية التى شملت كل الأطراف المتنازعة على أرض الإمبراطورية الصريعة ، وخرجت فى القارة الأوربية من كل هذا الخضم وحدة إقليمية جديدة نطلق عليها حتى الآن اسم الغرب .

لحضارة العالم الرومانى لم تنته دفعة واحدة رغم تفكك هذا العالم فى شواش الهجرات الجرمانيه ، لأن قوى التأثير النابعة من عالمية الثقافة الكلاسيكية والقانون الرومانى وفكرة الدولة الرومانية أبقت على الوحدة العضويه التى كانت قد تحققت فى تاريخه القديم ، وإن كانت هذه القوى قد أبقت عليها فى إطار جديد من مفاهيم المسيحية . وقدر لهذه الوحدة أن تستمر — برغم كل شىء — حتى القرن الثامن فى إيقاع واحد وفى إتجاه واحد دون أن يؤثر عليها إنقسام الإمبراطورية وقيام الممالك الجرمانية فى أكثر من إقليم ، تماماً كما لم تؤثر عليها اختلافات اللغة والمذاهب والسياسات المتنافرة فى الغرب اللاتينى والشرق اليونانى . ولم يأخذ هذا الإيقاع فى التغيير إلا بعد أن أصبحت هناك على مسرح التاريخ وجودات سياسية كبرى

متجاورة هى الدولة البيزنطية ومملكة الفرنجة والخلافة الإسلامية والعالم السلافى الجديد ؛ دفعت علاقاتها وصراعاتها بالعالم منذ منتصف القرن الثامن إلى حياة العصور الوسطى الحقة .

وحتى ذلك الوقت كانت فكرة الدولة الرومانية هى الفكرة الوحيدة الحقيقية المعروفة . لقد أصبح الحكم الإمبراطورى منذ القرن الثالث — كما رأينا — حكماً مطلقاً وصل إلى مداه فى القرن الرابع فى عهد قسطنطين الذى ملك شئون الدولة والكنيسة . ونشأت عن تلك السياسة المطلقة فكرة القيصرية البابوية (١) التى تعنى أن الحاكم قيصر يدير شئون الدولة وبابا يهيمن على شئون الكنيسة ، وهذا يعنى بعبارة أخرى أن الامبراطور يملك بموجب هذه الفكرة حق السلطة الزمنية وحق السلطة الدينية فى آن واحد .. تلك الفكرة السياسية التى أصبحت فيما بعد نظرية لها وزن فى سياسة الشرق البيزنطى ، ونفذتها بيزنطة على أوسع نطاق تحت شعار الحماية الإمبراطورية وسلام الكنائس الشرقية التى استمدت من هذه الحماية — راغبة أو كارهة — وجودها العالمى . وكان لابد للكنيسة الغربية التى أرادت أن تفرض زعامتها على جميع الكنائس ووجدت فى حاضرها نفوذا سياسياً يمكن ان يوازن فى الغرب أحداث التفكك . . . كان لابد لهذه الكنيسة أن تعادى فكرة القيصرية البابوية أينما كانت وبكل ما أوتيت من قوة على التعبير . وأنسابت عقول المفكرين وزعماء الكنيسة الغربية فى جدل عنيف حول ضرورة استقلال الكنيسة عن سلطة الإمبراطور ، وتولى أمبروز وأغسطين هذا الجدل

---

(١) caesaro - papism .

(٢) Gelasius I (٤٩٢ - ٤٩٦)

القرن الخامس وصاغ هذا الجدل فى عبارات صريحة قاطعة وضعت رؤية الغرب والكنيسة موضع النظرية التى عرفت بالنظرية الجيلازية وتحدت نظرية القيصرية البابوية التى تمثلت فى اتجاه السياسة البيزنطية السافر . وعلى ذلك فإن ديناميكية العصر القسطنطينى فى القرن الرابع كانت تبدو فى حركات التفاعل بين حياة الإمبراطورية ونظام الحكم المطلق ونفوذ المسيحية الجديد ، هذا فضلا عن صراع المذاهب الدينية الذى أعطى لهذه الحيوية أبعاداً مثيرة . لقد تضافر كل هذا وذاك فى تغيير الحياة الإمبراطورية عما كانت عليه فى القرون الثلاثة الأولى ، وفى إظهار وحدة سياسية جديدة تحققت من خــلال عالمية الإمبراطورية بوصفها إمبراطورية رومانية وإمبراطورية مسيحية فى نفس الوقت .

أما الوحدة الدينية فقد كانت حسب أيديولوجية الإمبراطورية تتأسس فى هذه الوحدة السياسية ، لأن واجب الدولة المسيحية (١) هو حماية الشعب المسيحى (٢) والوصول به إلى أهدافه فى ظل الحياة الدنيا . ومن ثم فإن صاحب هذا الواجب ، وهو الإمبراطور الذى يمثل صفة الملك والكاهن (٣) كما الملوك فى العهد القديم ، يحاط بالهالات المقدسة ويجرى رسمه ومسحه بالزيت المقدس حسب الطقوس التى تقام لتكريس الأساقفة . ويحتل الامبراطور فضلا عن ذلك مكانة فريدة بين العلمانيين ورجال الدين ، لأنه حبر المسيح الأعظم فى البلاد (٤) ومخلص العالم (٥)

---

(١) regnum christianum .

(٢) populus christianus .

(٣) rex et sacerdos .

(٤) vicarius christi in terris .

(٥) salvator mnndi

يحمل فى اسمه طابع المسيح المخلص [١] ومجده هو حكم الإيمان [٢] وكل ما يلحقه من ضرر وإساءة هو فى إعتبار العرف الدينى تدنيس لكل ما هو مقدس [٣]. وهذا هو ماعبر عنه فى القرن الحادى عشر فيبو [٤] الذى كتب تاريخ امبراطور ألمانيا كونراد الثانى [٥] عندما قال إن الأمبراطور كاهن وعميد الإسم المسيحى [٦].

فالإمبراطورية الرومانية حسب هـــذه الأيديولوجية ليست ضمانا للوحدة السياسية فحسب، وإنما هى كذلك ضمان للوحدة الدينية التى يتحمل مسئولية الحفاظ عليها كل من الإمبراطور والكنيسة. وكل من الإمبراطورية [٧] والأكليروس [٨] كما قال العالم الإيطالى بطرس دميان [٩] كبير أساقفة أوستيا [١٠] فى كتاب المداولات [١١] يذوبان فى بعضهما خلال سر إلهى [١٢] لأن العالمية السياسية والعالمية الدينية تمثلان وحدة لا إنفصام بينهما، ولأن العالم المسيحى [١٣] مرادف

---

(١) typum christi salvatoris gerit in nomine .

(٢) fidem gubernare .

(٣) sacrilegium .

(٤) Wipo capellanus regius (المتوفى حوالى سنة ١٠٥٠) .

(٥) gesta Conradi II imperatoris (1024—1039) .

(٦) Rector Christiani nominis .

(٧) imperium .

(٨) sacerdotium .

(٩) Petrus Damiani (١٠٠٦/٧ — ١٠٧٢) .

(١٠) Ostia .

(١١) disceptatio synodalis .

(١٢) divino sunt conflata mysterio .

(١٣) orbis Christianus .

العالم الرومانى [١] ، ولأن شعب الله المبارك [٢] مرادف للشعب الرومانى [٣] .

ولم يجد المسيحيون صدفة فى أن يولد السيد المسيح فى عهد الإمبراطور أغسطس أول الأباطرة الرومان ، وأن تظهر المسيحية والإمبراطورية فى وقت واحد . . . لقد بدأت الامبراطورية والمسيحية معاً طريقا واحدا فى واقع التاريخ وفى ضمائر الناس ... ولابد أن تعيشا معا مصيراً واحداً فى أبعاد الزمن ... هكذا كان الاعتقاد خاصة بعد أن تعاطف الإمبراطور قسطنطين فى القرن الرابع مع الدين المسيحى ، فقد اجتاحت المسيحيين موجة من التفاؤل واليقين بأن الإمبراطورية الرومانية سوف تواجه مستقبلا دنيويا عن كثب، وأن هذا المستقبل انما هو مستقبل سوف تتوجه روحانية الدين المسيحى الذى عم الإمبراطورية فى لقاء تاريخى تشير إليه العناية الالهية . وكان أوسابيوس أسقف قيصرية فلسطين وشيخ مؤرخى الكنيسة كما كان كتاب آخرون أمثال يوحنا الفصيح ذهبى الفم وأمبروز وجيروم وكيرلس الاسكندرى وثيودوريت السورى [٤] ... كانوا ممن أشاروا إلى هذا المستقبل وهذه العلاقة بين رفاهية الإمبراطورية وانتصار المسيحية .

أما أوغسطين فقد رفض فى كتابه « مدينة الله » [٥] تقدم المدينة الأرضية المادى لكل العصور المستقبلة ، وقطع الرباط الذى ربط فى أذهان المسيحيين أقدار المسيحية بأقدار الدولة الرومانية ، لأن أحداث الغزوات الجرمانية التى أدت الى تداعى الإمبراطورية فى عصره كان من شأنها أن تقطع ذلك الرباط الواهى . فمدينة الله

---

(١) orbis Romanus .

(٢) populus sanctus Dei .

(٣) Populus Romanus .

(٤) Theodoretus (حوالى ٣٩٣ — ٤٦٦) .

كما جاءت فى فلسفة التاريخ التى حددها أوغسطين هى على الدوام مدينة مستقلة أقدارها عن أقدار الدولة العالمية . فليس هناك من رباط بين مدينة الله والمدينة الأرضية غير رباط العناية الالهية . ومع أننا لا نستطيع أن نقطع بأن أوغسطين قابل مدينة الله — كما فهمت الأجيال من بعده — بالكنيسة ، وأنه قابل المدينة الأرضية بالدولة ، إلا أننا نستطيع أن نستخلص — كما فعلت الأجيال من بعده — ذلك الدرس المستفاد الذى عاشه أوغسطين ، والذى يمكن أن يقضى بأن مصير المسيحية لم يكن أمرا يتعلق بصورة قاطعة بمصير الدولة... ذلك المصير المجهول .. لأن طريق المسيحية إنما هو طريق قد تتعثر فيه الخطى ولكنه طريق يفضى الى غاية محددة وهدف محدد يكشف عنهما الغيب فى كل لحظة وفى كل خطوة... أما الدولة فطريقها وعر ومحفوف بالمخاطر ، ومن ثم فهو طريق قد يتحقق فيه النجاح كما يتحقق فيه الإخفاق والفشل بصورة حادة ومؤلمة ... فمصير الدولة إنما يرتبط قبل كل شىء بالصروف والظروف . وها هى ذى الدولة الرومانية تتصدع الآن أركانها وتميد تحت أقدام الجحافل الجرمانية الغازية ... ولابد أن أوغسطين كان يرنو بفكره إلى صخب الفندال وهم يطرقون أبواب وطنه فى شمال أفريقيا وهو يجود بآخر ما وصل إليه عقله فى هذه الدنيا من إدراك للتجارب الحية الإليمة ... ومهما كان الأمر فالحقيقة التى يمكن أن تكون راسخة هى أن فكرة أوغسطين التى صورها واقع الأحداث لم تكن إلا تمهيداً لقبول التغيرات التى لابد أن تطرأ على السياسات المعروفة وسبيلا الى ضرورة التكيف مع الأوضاع الراهنة .

ومن جهة أخرى كانت هناك وحدة البناء الإجتماعى بتكوينه الطبقى الذى نبع من مفاهيم المجتمع الزراعى الأول فى إيطاليا، ذلك البناء الذى وجد تبريره فيما بعد فى الايديولوجية الاجتماعية المسيحية فكما أن سياسه العالم الرومانى كانت تتم عبر

الحكم الإمبراطورى المقدس ، فإن البناء الإجتماعى كان من وجهة النظر المسيحية بناء فرضته المشيئة الإلهية ، وبهذه المشيئة وحدها كان يتحدد موقع الفرد فى المجتمع . وهذا المفهوم الإجتماعى نجد صداه باسهاب فى الرؤيه الخامسة من كتاب الأطياف [1] الذى سجلته فى ألمانيا فى القرن الثانى عشر هيلدجارد راهبة بنجن ، والذى أعادت فيه هيلدجارد إلى الأذهان بروح كلاسيكية معنى الحياة الإجتماعية فى الفكر المسيحى . وعلى ذلك فقضية الفرد لم تكن قضية المساواة بقدر ما كانت قضية حرية الارادة فى المجتمع ، وإن شئنا قضية الجبر والاختيار فى أطارها الاجتماعى ، وهى القضية الجوهرية التى سادت فكر العصور الوسطى .

أما الشعوب الجرمانية التى جبلت على حياة القبيلة فى الغابات والأحراش والبرازخ فقد عاشت بعد الغزو تجربة الحضارة فى ربوع العالم الرومانى الذى تعمق واقعه الطبقى بالمفاهيم الفلسفية المسيحية ، وراقت لهذه الشعوب الجرمانية حياة المجتمعات الراقية التى عرفت فنون الثقافة وأساليب المعاملة الفطنة . وبالرغم من إنغماس الجرمان فى هذه الحياة الرخية الجديدة لم يكن فى مقدورهم أن ينسوا حياة الماضى فى أحضان الطبيعة وفى خيالهم صور البطولة أيام المعارك الضارية التى خاضوها فى الطريق إلى هذا العالم المفتون بمجده وحضارته . كان على الجرمان أن يواجهوا فى مواطنهم الجديدة حياة فيها كل التناقضات والتجارب المثيرة . وعلى مدى هذه المواجهة كان يتوقف مستقبل الأمة الرومانية ومصير الممالك الجرمانية التى قامت فى غفلة من التاريخ . ففى عصور الإمبراطورية الأخيرة وعلى التحديد منذ القرن الخامس تضافرت تقاليد الجرمان — ولا سيما فى غالة — مع التقاليد الرومانية ، وخلق هذا التضافر نوعا من الحياة الاجتماعية التى تطورت على من

الوقت — على دعائم من فكرة الملكيه القديمه وعلى أسس اقتصاديه جديدة — إلى نظام الحياة الإقطاعية التى عرفت بها أوربا بعد ذلك. ولذلك فليس من المبالغة فى شىء أن نقول بأن قوى النظام الاقطاعى الأوربى يمكن الإحساس بها إلى حد كبير كقوى مستترة منذ مدة طويلة ترجع إلى هذه العصور. وهكذا نجد أن البناء الإجتماعى الذى فرضته ظروف الأمبراطوريه المسيحية فى القرن الرابع، والذى قام على أسس من النظم التقليدية والأفكار المسيحية الجديدة، لم يطرأ عليه بعد تأسيس الممالك الجرمانيه فى الغرب فى القرن الخامس تغيير يذكر، رغم تعايش المجتمع الرومانى مع تقاليد الحياة الجرمانيه العرفيه فى شتى الممالك، وإنما بقى هذا البناء بكل ما ورث عن الامبراطورية الأخيرة حتى بداية القرن الثامن.

ولا ننسى هنا أن ننوه إلى الوحدة الثقافية فى فكر هذه العصور. لقد ثارت منذ القرن الثانى كما رأينا مناقشات حادة حول نفع الثقافة الكلاسيكية الوثنية للأجيال المسيحية. وتصدى لبحث المشكلة آباء الكنيسة الأوائل فى كل من الشرق والغرب، وكان ما يشغل بال الآباء هو تقرير برامج العلوم الكلاسيكية فى المدارس الدينية التى كانت تعتمد فى الدرجة الأولى على علوم الدين المسيحى. ولما كان التقليد قد جرى منذ البداية على فهم اللاهوت المسيحى وتفسير الكتاب المقدس على أسس من مفاهيم الفلسفة اليونانية، ثم الفلسفة الأفلاطونية الحديثة بصفة خاصة، لم يجد آباء الكنيسة بدأ من فرض برامج العلوم الإنسانية القديمة التى كانت تمثل العلوم الفلسفية والتى كانت سائدة فى أقطار البحر المتوسط، ولم يجدوا بدأ من تقرير بعض الكتب والمقالات الكلاسيكية التى لا تتعارض من حيث موضوعاتها مع مبادىء التربية المسيحية.

وتحددت مناهج الدراسة فى الغرب كما رأينا كذلك منذ القرن الخامس على ضوء المقالة التي كتبها مارتيانوس كابيلا، وهي المقالة التي عرفت بقران الفيلولوجيا

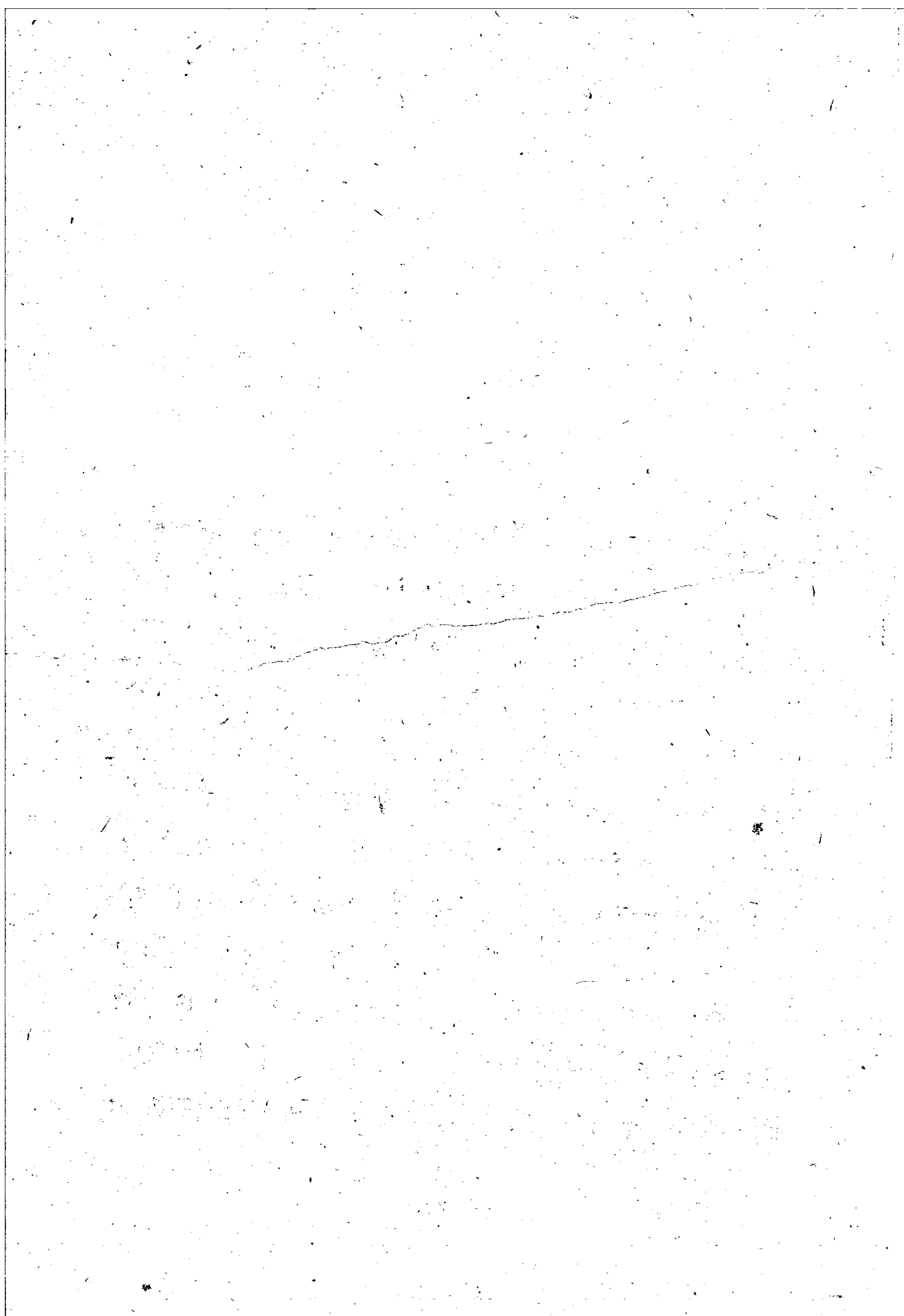
ومركوريوس ، ودعا فيها كابيلا إلى توحيد البرامج الدراسية فى مختلف المدارس وقصرها على دراسة العلوم الحرة السبعة التى يجب أن تضاف إلى علوم الكتاب المقدس وأقوال الآباء . وظلت هذه المناهج التربوية هى المناهج الثابتة فى برامج التعليم فى المدارس الدينية — سواء فى مدارس الأديرة أو فى مدارس الكنائس والكاتدرائيات — منذ ذلك التاريخ حتى أواخر القرن الحادى عشر ، أى حتى بداية التفكير فى إنشاء الجامعات التى قلبت بعد إنشائها برامج التعليم رأساً على عقب وذلك إعتماداً على الإتجاهات الفكرية الحرة التى تأسست على المنهج الأرسطو طاليسى . ومعنى هذا أن المناهج التربوية التى تبنتها كابيلا ووافقت عليها الكنيسة الغربية ظلت هى المناهج السائدة فى مختلف المدارس الدينية فى أوربا طوال العصور الوسطى الأولى .

وكما رأينا أدى قصر البرامج الدراسية على تلك العلوم الدنيوية السبعة ، التى حددها كابيلا بعلوم النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، إلى هبوط المستويات العلمية عما كانت عليه هذه المستويات فى العصور الكلاسيكية السابقة . وقد وصل هذا الهبوط إلى أدنى درجاته منذ النصف الثانى من القرن الخامس حتى منتصف القرن الثامن ، أى لمدة تصل إلى نحو ثلاثة قرون هى من غير شك مدة طويلة إذا قيست بمقاييس التخلف الفكرى فى أى مجتمع من المجتمعات المتحضرة ، وهى فى نفس الوقت مدة تندرج فى تلك الفترة التى إعتبرها أغلب المؤرخين والنقاد عصور أوربا المظلمة ، وإعتبرها البعض فترة إنتقال بين العصور القديمة والعصور الوسطى وهى فترة تقرب كما رأينا من خمسة قرون .

والحقيقة أن نهضة شارلمان فى القرن التاسع لم تفلح — برغم أهميتها وبرغم الدور الكبير الذى لعبه روادها فى رفع الثقافة إلى مستوى الثقافة العالمية القديمة — فى تدارك هذا الهبوط الذي كان قد مني به الفكر في تلك القرون الخمسة ، وذلك بسبب تفوق هذه

النهضة على واقع الظروف التى كان يمر بها المجتمع الفرنجى وعلى الإمكانيات المحدودة التى كانت طوع هذا المجتمع النامى ، وأستمر هذا الهبوط — وإن كان بصورة أقل — برغم الجهود التى بذلها رواد النهضة الشارلمانية فى القرن التاسع ورواد النهضة الأوتونية فى القرن العاشر . وعلى أية حال فإن هبوط الثقافة بصفة خاصة فى تلك القرون الخمسة — أى منذ القرن الرابع حتى منتصف القرن الثامن — إلى أدنى مستوياتها كان فى حد ذاته — ومهما كانت نوعيته — سمة من سمات الوحدة الفكرية التى إتصفت بها فترة الإنتقال ، وقد كان من جراء هذه الوحدة أن أصبح الفكر يدور طوال هذه الفترة فى أشكال ومضامين واحدة . وإذا كانت مشاعر الأجيال — ولا سيما فى القرنين السادس والسابع — قد تغيرت كما رأينا تجاه الأحداث المتلاحقة الجسام ، إلا أن طريقة التعبير عن هذه المشاعر كانت تتم فى قوالب لغوية واحدة بسيطة ... قد يتعثر اللسان وقد يفصح ... وقد تخبو المعانى ثم لا تلبث أن تضىء ... ولكن كان كل هذا يتم فى قوالب فرضها نوع الثقافة الواحدة عبر هذه القرون .

* * *



المراجـــــع

أنظر مقدمة الطبعة الأولى ص١٥ - ٢٠ ، ومقدمة الطبعة الثانية ص١٢

محتويات الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب بالقاهرة ٢٢٩٠ لسنة ١٩٧٨